

سليم بركات

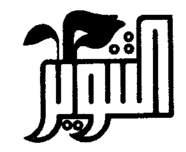
الديوان



الديوان

سليم بركات

الديوان



* سليم بركات: **الديوان**.

* الطبعة العربية الأولى: **١٩٩٢**.

* الناشر: **دار التنوير للطباعة والنشر.**

الصنوبرة ـ أول نزلة اللبان ـ بناية عساف.

تلفون: ٨٠٦٣٥٩ ـ ص. ب ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان.

كلٌّ داخلٍ سيهتفُ لأجلي،
وكلٌّ خارجٍ أيضاً

دينوكا بريفا
تعالي إلى طعنة هادئة

عندما تنحدر قطعان الذئاب من الشمال وهي تجرّ مؤخراتها فوق الثلج وتعوي فتشتعل الحظائر المقفلة، وحناجر الكلاب، أسمع حشرجة دينوكا.

(شهادة)

في حقول البطيخ الأحمر، المحيطة بالقرية، كانت السماء تتناثر كاشفة عن فراغ مسقوف بخيوط العناكب وقبعات الدَّرَك، حَيث تخرج دينوكا عاريةً تسوق قطيعاً من بنات آوى إلى جهة أخرى خالية من الشظايا.

(شهادة)

دينوكا

ماذا أقول للصيادين الذين يضعون سروجاً فوق ظهور الكلاب السلوقية في سفح سنجار وجبال عبد العزيز؟ أنت مختبئة في مكان ما، ربما في زريبة، تشمين التراب ومزاود النعاج.. كبيرةٌ أنت، بليلةٌ، مسكونة بالحصاد وبي.

أسمع والدك يصيح: دينوكا.. أسمع والدتك تصيح: «دينوكا، احملي خبز الشعير هذا الى المهاجرين وقولي أن يستريحوا قليلاً».

كان عددهم يزداد يوماً بعد يوم.. من طشقند وخوزستان وأرمينيا والجنوب الغربي لروسيا حملوا أشرعتهم وصرر السرخس الى الجزيرة بلا أحذية أو مناجل. وكنت صغيرة لم تدركي أنهم يحتاجون الى الماء وإلى امرأة مجنونة أو أرملة يدفنونها بعيداً في شقوق البراري لتنبت في سنيِّ الهجرات عَدَساً وجنادب. أنت تجهلين كيف يمتلىء الأخدود بين «عامودا» و«موسيسانا» بجثث البغال والأعضاء

المبتورة. تجهلين من أين يحصل البدو على بنادق فرنسية، ولماذا ينتفخون على تخوم القرى حين يهجمون عاصبين رؤوسهم بعباءاتهم.

قيل: خرجتِ من جهة العراء، وخرجتْ «بريڤا» من جهة العراء، ومن جهة العراء خرج اللّهُ، وجاءت الدهشة والطلقات الفارغة التي جلبها الصِّبية من براميل قمامة السراي. وقيل إنك عدتِ بقطيع من النعاج المبتهجات وكبش واحد يخرّ كالمحارب في كل موضع مبلل بالبول.

دينوكا.. دينوكا..

أنا متعب، ولا أسمع صوتك حيث أرى هضاب «معيريكا» وعربات الأكراد المحملة بالقش.

فرمان / المطاردة

يا ابْنةَ أيامي الزانيةِ

لا بغلُك، لا البرّيةُ، لا الأسلاكُ تُواريكِ، وطيفُكِ - هذا المشطورُ - يميلُ وأسندهُ لأطيلَ مطاردتي

فأنيخي طائرَكِ اليومَ بمنحدرٍ خلفَ جنازةِ أغصاني

إني مُتّصلٌ بالفلَكِ الدائرِ، بالهمسِ، وظلِّ المقصلةِ.

*

خلف الشجراتِ

كان النسّاجون يديرونَ على النَّولِ خيوطَ الهدنةِ بين الوحشةِ والعالمِ؛ خلفَ الشجراتِ كَبَتْ رئتي

ثم اتكأتْ فوق جذوعٍ يابسةٍ واشتعلتْ؛

أشعلتُ النساجينَ الفقراء فهزّوا خاصرتي وتهاووا

فوق جذوعٍ يابسةٍ يعتصمونَ بأزهاري ونباتي،

يعتصمون بقفّازاتِ امرأةٍ تتراجعُ قدّامَ البدوِ المرتعبينَ على فوْهةِ أوردتي.

خلف الشجراتِ قناديلُ الماءِ، غبارٌ، ألمحُ فيه يديكِ تذوبان..

أنيخي يا ابنة أيامي الزانيةِ

لا البرّيَّةُ، لا الأسلاكُ تواريكِ. بجانبِ دغلٍ أو جبلٍ سوف ترينَ معي مطري

ونهاري متّكئاً تتجاذبُه الرّأفةُ والريحُ وظلُّ المقصلةِ
وترينَ عصافيرَ دمي المتغافلِ
(ثمةَ وعدٌ أن أتجاهلها كالشرفاءِ
فلا آتيها بين جواري الجمهوريةِ والحرّاسِ)
ترينَ دمي
محتشداً بملوكِ البحرِ وقرميدِ المدنِ
وأنا أتجاهلُ أقواماً يقتربونَ ويمضونَ، وأثقبُ نعليَّ لأعرفَ ما يعرفهُ الصعلوكُ عن الشهداءِ المنبوذينَ على طرقاتِ الأضرحةِ
ولأعرفَ كيفَ يهادنني زمني
وسهوبٌ تكتظُّ بعشبٍ يحزنني
(يحزنني البرقُ إذا أومَضَ في أطرافِ السيلِ، ويحزنني السيلِ إذا فاضَ على البرِّ، ويحزنني البرُّ إذا أقصَتْهُ الدولةُ عن تاريخِ الدولةِ؛ تحزنني الدولةُ إن قاطعها الحزنُ، ويحزنني الحزنُ)
أنا خلفكِ يا ابنة أيامي الزانيةِ
أدعو ورقَ العنّابِ إلى حيرةِ شعبٍ: «خُفَّ إلى ضاحيتي
يا ورقَ العنّاب بسوريّة»، عجِّلْ باللّه، أنا مشغولٌ بدخانٍ يعصمني من حريةِ أجيالٍ تقتنصُ الأجيالَ؛ مدايَ سروجٌ وعجاجٌ
أقترحُ اسماً آخر فيه لمائي
وأصاحبُ ثدييّات العصر إلى بهو سمندله وخزاماهُ، إلى ثديٍ فاجأه اللّهُ وراء السنبلةِ.
يا ورقَ العنابِ، الجغرافيونَ نيامٌ، والطلقاتُ مُلئنَ بأسرارِ العشبِ..
«أنا الربّانُ وباخرتي
صدأ الخطوات». وراءَكِ، عن جنبيكِ ترينَ دمي
يبعث هاويةً في هاويتي
ويهيبُ بسربٍ من أفراسِ الوحشةِ يتمطّى وسط سياجاتِ الروحِ،
ويصهلُ في ثوبِ «بريڤا» المقتولةِ بالغرباءِ وطقسِ الآلهةِ.
أجنحُ للعنفِ وأعقدُ أمعاءَ الأفراس الى وتدٍ يحتكُّ به الشركسُ والكردُ وينتصبونَ خفافاً

أختمُ وارقَهمْ بالنرجسِ والايمانِ الأبديِّ ونمضي شجراً وعصافيرَ إلى النهرِ،
نقولُ: «تعالَ أيا نهرُ،
تعال أيا جبلُ»
ونقولُ: «تعال أيا حجلُ
وتعال أيا ورق العنابِ إلى باديةٍ تخرج من ثقبِ الجمجمة».
أجنحُ للعنفِ وأدعو اللحظاتِ لتخصفَ من بلّور القلبِ على عورةِ قاماتٍ تأتي من زبدِ القطبِ وقرميدِ المدن
وأجاهدُ أن أفتح ما يتآكلُ من شفتي للإعدامِ ومن غُصُني
حينةَ يكتملُ الجسدُ الرطبُ ويقتادُ الى أخدودِ الوقتِ وعولَ المعجزة،
وتسافرُ بي أطيافُ صديقاتٍ كُنَّ يجرِّحنَ مداري. الآن وبعد الآن أفوزُ بمقبرةٍ ودمٍ
وأجيئكِ في يمنايَ وفي يسرايَ سلاسلُ يسَّاقطُ فيها غابٌ بخواتيمِ الخلْقِ وتسقطُ أجنحةُ الخابور. أضمُّكِ مقتصداً في الضَّربة،
أمسكُ أوّل أمعائكِ وأخلّيكِ فتنحدرين إلى مأدبةِ العالمْ.
(تجتازينَ المنحدرَ الآن فيصدمكِ الكركيُّ ويستأجرُ تجويف البطنِ إلى العام القادم، بعد العام القادمْ
تستأجرك الدباباتُ، وبعد المائة ينتقلُ الكركيُّ مع الدباباتِ إلى تجويف الصدر، وبعد الألفِ الأولى يتنقّلُ فيكِ الكلبُ بطابورِ جراءٍ يتبوّلُ فوق الكلْيَةِ والقلبِ وفوق الكبد)
خلّيتكِ ثم جعلتُ يدي
مغزلَ صوتكِ فوق رمال الباديةِ
وتركتُ النفسَ لما يشغلُها من قرآنِ العفوِ وعدتُ إلى هاويتي.

أ/ لا فاصلَ في ذرّاتي غير حفيفِ سراويلِ المطر الوضَّاء.
ـ تجزَّأ
ـ أتجزَّأ،
فلتتجزَّأ من حشرجتي الساحاتُ لافرحَ بالأعلام مع الثورةِ توصد عزلتها وتخاصمُ من يأتيها متَّحداً.
ب/ لا فاصلَ في ذرّاتي غيرُ دلال الشعبِ.

ـ تجزّأ..
ـ أتجزأ،
وأهدِّدُ من يأتيني متَّحداً.
جـ/ لا فاصلَ في ذرّاتي غير جراثيم الحربِ،
تعالوا،
محظيَّاتٍ وسراديبَ وأقماراً بائسةً تتدلى من أعمدة الهاتف والجوع. تعالوا ملتحمين بقصديرِ الضوضاءِ لأفضِّلكم وأسلِّمَ كل فريقٍ فَلَك القنبلةِ.
إني وارثكم في النسوةِ، آتي الأمَّ على مضجعِ ابنتها،
أو أجمعُ شمل الاختين على شفرةِ أنفاسي
وأقودُ شعائركم في ميناءِ الورد إلى زورق شحنِ الربّاتِ وأيام الباب العالي
مكتظّاً بأنابيقِ الزّندقة.
د/ لا فاصلَ في ذرّاتي غير جذور خُراسانَ،
ـ تجزّأ..
ـ لن أتجزّأ في معتَقَلٍ
أقدر أن أنفذ منه الى الطاعون. تعالوا
دسَّاسينَ ولوطيينَ، تعالوا حشاشينَ نفاجئْ أجراسي.

أصغيتُ إلى العالمْ
أصغيتُ إلى دينوكا بريڤا
أصغيتُ الى سِمَتي ونعاسي
أصغيتُ الى الحبِّ يرنِّدحني في خَلخلةِ العصيانِ ويفتتحُ السِّلْمَ الموقوتَ بأهدابِ نساءٍ يتكاثفن، ويهطلن على مدخنةِ الفقراءِ:
أبارك حنجرتي
وأمرُّ على جمعِ الفقراءِ يقيمون متاريساً في طرقاتِ قراهم ويغيبون من النشوةِ بالرعد الملكيِّ يجيءُ على دُلْدُلهِ بمناديلَ دمقسٍ، وأغيبُ من النشوةِ حين يطيحون بخصيتهم تحت فضاءِ مطاردتي
وأقهقهُ في سردابٍ متصلٍ بينابيعِ الشعبِ،
إذِ الشعبُ يُسَلِّمني للأمطار وللطير، أناديهِ:

ـ تجزّأ
أنتَ ومن يتسوَّل في حاضرةِ العصرِ ثآليل ثآليل.
أباركُ حنجرتي
وأزاحمُ في خلواتِ الشمس نباحَ الأعلامِ بوادٍ يستوقفني:
« حجرٌ وجيادٌ
حجرٌ وخيانات بيضاءْ
حجرٌ وصوارٍ بيضاءْ ».

أخرجُ من أعرافي ودياري جندياً من جندِ الوثنيين،
وأخرجُ مرتزقاً بالنحل الى أزهارِ الغرباءْ
فليكنِ الموتُ إذنْ ملءَ تراباتي
وليكنِ النهرُ رسول الإعدام، أواكبهُ حتى مسجدِ آبائي بالانباءْ
وأنا السابحُ في الياقوتِ المغلقِ والايامِ المغلقةِ
أنهالُ على لغة الاحلام العامّةِ بالطعنات، وأجعلُ وجه الاطلنطي
شرفةَ مومسةٍ تتهيّأ للقافلةِ الشبحيةْ
وأخلّي جسديَ السُّفليَّ يسوحُ بمزرعةٍ تتشابكُ فيها الدمعةُ والسوسنةُ
وأخلي لندامايَ مساربَ حولَ ضفافِ الأبديةْ.

تستوقفني الاعلامُ على الهضباتِ: « صحونا في شرقيٍّ الحلم وناديناك تمتعْ بالصحراءِ وخذها حافيةً في الصيفِ إلى لينِ فراشكَ » والأعلام اقتحمت رائحتي وانتظرتْ في صالونِ الماءْ
وانتظرتني الأبديةُ أن أترافق والوحيَ على حافاتِ براعمها
أو أضرب بعصايَ على ليلكةِ الأرواح لتعقدَ حكمتها أطفالاً يرتحلون الى موعدِ قدّاسِ الظلماءْ
وغزالاتٍ ليس تُترجَمُ، وأترجمها:
« كلُّ غزالٍ فاتحةٌ »
وأترجمُ في الهضباتِ الأعلامَ: « صحونا ورأيناك شظيّةْ
تنقلُ عائلةَ الرمل الى الخوذةِ، والعربيَّ الى ذاكرةٍ في صوديوم الكونِ؛

دعوناك بإسمكْ،
ودعوناكَ بإسم الماسةِ والمرجانة: كنت بلا مددٍ
وجهاتُكَ تتراخى كالعضلاتِ وتُرخيكَ،
وكان النملُ يجمَعُ ما يتهاوى منك على الأرض خَليَّةْ
فخليَّةْ
فخليَّةْ
وتقومُ على هيئةِ مخلوقٍ مرصوصٍ بحجارةِ ما قبل الميلادِ وما بعد الميلادِ؛
رأيناكَ تصيحُ: «أنا براهماتيٌّ النمل أسير به في ملكوتِ حدادي -
فقتلناكَ».
أباركُ حنجرتي
وأزاحمُ في خلوات الغيم نهاري عَلماً عَلَماً نحو سنابل دينوكا:
«ماذا يفعلُ مثلي إلاّ أن يستفردَ مثلك للقتل، وأن يتقصَّى أعضاءَك بعد القتل ويخرجَ مجنوناً يطلبُ موتَ الإنسانِ وموتَ البحر وما سوف يدبِّجهُ المستقبلُ من فلزاتٍ وأكاسيدَ لخلقِ أجنتَّه؟
ماذا أفعلُ وأنا خلف الشجراتِ
أتنسَّمُك اللحظةَ؛ أتنسَّمُ رائحةَ القش، ومن صوبِ بغال الحطابين غماماً ومواسيرَ يصادرها الدَّركُ الأجلافُ. وأجزمُ أنكِ راكضةٌ بالصندلِ والبارودِ إليَّ، تخافين على أحلامي من أحلامي وتدورين على قنطرةٍ بين ضفافي وضفاف الجسدِ الملقى تحت فوانيس الجمّيز. تخوضين من النهر حوافيه، يداكِ على مُشْتَمَلِ الثوب، وخَشْيةَ أن يبتلَّ ترقَّان أمام هياج الماء وترتفعان، ويجفَلُ من تاريخ الفخذين حَبَابٌ يكتبُ للاجرامِ رسائلهُ القمريةَ. أجزمُ أنكِ تختطفين من الحيواتِ المشقوقةِ في أعراس الطمي مفاتيحَ النهر وتقتحمينَ رمادَ أسافله وأعاليه الى قاعةِ أشتاتي
عاريةً إلا من بعضِ نثار الطَّلع على الجبهة والأوراك؛ أحاذيكِ وأرسمُ شهوتنا في دائرةِ الحطابين، الدرك، الصوتِ، اليابسةِ، الخشخاس؛ أحاذيكِ وأنقلُ شهوتنا في حوصلةِ الزّرزور الى ميعادِ الشجراتِ».

مَنْ أوقظُ في خلواتِ الجغرافيا بَعْدُ ليشهدَ لي وعليَّ ومجزرتي
تَسْتَسْقي من أحواضٍ في مفتَرَقِ العالم واللهِ؟ توسلتُ الى الوديانِ لتسبق أصداء

جناحيَّ الى أكـواخٍ جـاثيـةٍ، والى تلميـذات يهتـفن لأجلي من أسوار مـدارسـهنَّ؛
توسلتُ الى حَدَثٍ يختصُّ له الساخنُ والباردُ واليـابسُ والرطب ليلبسني في حـفلة
تتويج الديمقراطيينَ خلائفَ في ممتلكات القلبْ.
أهتفُ: فليهدأ هذا القلبْ
ألمحُ كلَّ شريدٍ يربطُ ناعورتهُ ويضمّخني كزعيمٍ من زعماء العذريينَ،
وأسمعُ كيف يثرثرُ عني العصفورُ الوطنيُّ لجارته الوطنيةِ، والنخلةُ تتهيأُ لملاقاتي
وأنا خلف حصاةِ التأريخِ وإدلاج الشجراتِ
أبعثُ هاويةً في هاويتي
وأسدُّ ثقوب كواكب أتباعي بالفلّين وبالفرحِ المندوفِ وأمضي لجماهيرٍ تتوافد من
أقليم السِّحرِ إليَّ معارِضةٍ وتحاكمني.

(كنتُ أقاتل واللوردات يقيسون على شرفاتِ فنادقهم بالناظور مساحةَ أشجاني
ونواميسَ الرَّهبةِ، حيث يحومُ على سُرَّةِ دينوكا مَلكانِ من الثلج).

وأمضي لجماهيرٍ تملأ محكمتي
بمصابيحِ عناصرها؛ اكتشفتني وكشفتُ لها سبب النار وعدتُ الى هيبةِ رعدي
أتوضأ كي أُقتلَ في الصيفِ أوانَ يشاكهني الموجُ ويخطبُ ودّي السّعفُ
وأوانَ تباغتني الحورياتُ على رافد دجلهْ
بدفاترهنّ فأملي من كلماتِ الدهر فصائلَ كالألعابِ الناريّةِ والذاكرة المحتلةِ.
أمضي،
قلت غداً أمضي لغدٍ يتراجعُ أو ينعطفُ
في زاويةٍ قبل حدود الانسانِ؛
سمعتُ الانسانَ يرتّقُ حاضره ويموت فهرولتُ الى السنبلةِ
لتبلّغَ دينوكا أني قادمْ
ومعي بعضُ الأعذار على ورقٍ خشية أن أتلعثم حين ألاقيها،
ومعي هاويتي.

بيروت ١٩٧٢

الكواكب المهرولة صوب الجبل

لمجاعاتٍ تتهدَّد أيلولَ يناهضُ أبعادهُ في الدولةِ والضوءِ وينسابُ زلالاً في أيام خلائقه المدهشة

ويعارضني، فأعارضهُ: لَكَمْ وافاني بنبيذٍ وغياهبَ كنتُ أضمُّ يديَّ وأهبطها بمواجع أهلي عدمياً أحسب أن الملكَ يجيءُ بمُلك، والينبوعَ يجيء بينبوعٍ، والأقطارَ حبالى بتوابعَ لا تستأخرُ طعنتها حين تُشَرَّدُ في الدِّين؛ ووافاني في شَرَكِ العذرةِ بالأنثى حيث يطالعها الفجرُ تقولُ: اقعدْ بي يا فجرُ لأعطيكَ قبائلَ لا تسأل أين تموتُ.

وأفتى للواحاتِ بأن تخرج من أبواب الصحراء إلى سادتها المنتظرين على الساحل، ثم أناخ غوايته في هاجرةٍ تلتفُّ على الشجرِ المستنفرِ والأعشابِ، يقول لافقٍ يتقدَّم: عُدْ، للأنهار: أعيدي.

وتغافلَ عن أحزانٍ راسيةٍ حيثُ أناخ ولم يفصحْ عن غده لمراكبها. ويجاهر أنَّ ملائكةً نادته وراء قواقعها الخضراء فحاصرها وأبى الاّ أن تُسْقِطَ ما يشبه صوتَ الجنةِ في كل حصاةٍ هائمةٍ حتى يغشاها أزلٌ آخرُ. كان الموفدَ في تاريخ ٢١/١١/١٩٧٠ ليباشر آيتهُ بين الخُلَفاءِ المغتبطين ببعثات اللغة اللاتينيةِ والصمتَ وأشياءَ ترنُّ إذا اجتمعتْ سُحبٌ داجنةٌ كالعنقودِ على مدخل غبطتهم. أذكرُ في تاريخ ٨/٥/١٩٧١ عاد إليَّ شفيفاً فرحانَ بما يجعل عاصفةً عاصفةً، والشريانَ أغانيَ تبعث بحقائبها الملآى أحذيةً وأناجيلَ إلى الأعداء، وخاصرني، وتحدث عن مجتمعٍ فحْلٍ، فمسحت على راحتِهِ ورفعتُ يديه الى مَكْمَنِ ريفٍ ملقى تحتَ جناحي:

«- ما أحلاكَ..»

ونكملُ نزهتنا في إرْهاب الفرحِ الذَّاهلِ بالشِّعر على شاطىءِ أورويَّةَ، لا نستأنسُ

إلاَّ ترفَ الانسـان بنا، ونُشيْعُ طبائعَ تصطادُ عرائسَ رائحةً أو غاديةً في فَيْءِ رمادٍ يقبلُ في مئدرهِ الكنَسيِّ. وكـان، وكنت أفتّق جلدي عن مملكةٍ تلجاً ـ قبل بلوغ الدهرَ منازَلهُ المعلومةَ في الدمع ـ إلينا، وكلانا بادي القَدْح يردُّ عنَ الجـبهة خصلتـه بعناد المتدلِّلِ:

« ـ ما أحلاكَ ... »

ونشـردُ في الخضرةِ؛ في تدفاق الأرض إلى أرضٍ تنسـلُّ من الوطنيةِ حتى يتـهلْهَلَ ثوبُ ثوانينا فينكّسْنَ لحاظاً أو يتورَّدنَ من الخجلِ الطارىءْ..

في تاريخ ٢٩/٦/١٩٧١ دخل عامه الثالث عشر.

في تاريخ ٣/٩/١٩٧١ جمع حوله حشداً من الصبية
وتوجه الى البحيرة القريبة ليتزوج بالماء.

في تاريخ ١١/١٠/١٩٧١ دخل السراي لينذر القائمقام بـأن ابن خَلّو قد خـرج من نصيبين وانـه قادم لقتله، وفي اللحظات التاليـة للانذار كان رأس القائمقام يتفتت تحت طلقتين من عيار ١٢/م، أطلقهمـا تابع ابن خلّو الذي أوصد بـاب مكتبه وراءه وسـار بهـدوء بين أفراد الشـرطة المرتجفين إلى حيـث ينتظره سـيده خـارجاً، وتـابعا طريقهما عبر مخافر القرى المنتشرة لصق الحدود التركية.

أنتَ، اذنْ أنت معي، وخواتمُك الفضَّةُ والاسنان الذهبيَّة
أنت معي

عـشراتٌ من أعـوام القَطْرِ خَلوْنَ وأعـوامٍ مقـبلةٍ، أنتَ وعـيناكَ وصـدركَ والخصـرُ وحوضكَ هيّا نتآمَرْ في الأحوال المحْدثَة

بقـوانين البحر على رُسُلٍ يقتـسمـون ثُريَّات مغيرٍ يُحصي البجعَ الداخلَ مخفـوراً بالانقاض وبالشـهب. اجعلني حِيَالَ يديكَ وصـدركَ والخصر، ورُدَّ عن الليل المسـتسلم لي بحواشيه جسـورَ الليل، وهيّا نتآمرْ في الأحوال المُحْدَثَة.

لكأني بالمسـتـوحش من حيوان الوعـر تجادلهُ النار فيركـضُ ناقوسـاً في أقنيـة الملأ الربانيّ ليخلعَ حنجرةَ الهورِ على بَكَّةَ، أو سـربالَ الخلجانِ على بلدٍ يتمطّى في خوذتـه. وكأني بـبنات القَصَبِ ارْتعنَ فأخفينَ سفائـنهنّ عن الجدول حيث نصبٌ ويجري حشدٌ

الأقمار إليه ويتبعنا لمصبّ بين حقول الجنسِ.. هَلُمَّ وقلْ لبناتِ القصبِ: اجرحن أعالي البدعة، قلْ: أوعزنَ الي الأيام فلا يصعدنَ مضاجعنا حين نكونُ عراةً ننزحُ بالقتلِ العذْب الى جسدٍ يَرْفَضُّ، ومتْ لأموتَ، لأعرف أنك لست معي.

ها أنتَ وخصرك، صدرك، عيناك، تكيدون لأحوالي المحدثة.

وأكيدُ لأحوالي حين تعرّجُ عن فسطاط دمي، وأهبُّ وحيداً في ذاكرة الشيطانِ هنا وهناك، وبي وهَنٌ يضرب خيمته بجوارِ الدمعة والبؤبؤ ثم أخرُّ وقدْ أوصدني المجدُ عليه بكيدكَ. ها أنت تُضافُ الى من غرّوني يوم اشتبه الثلج على الطرفِ الغربي لطوروسَ عليَّ فَحَيَّيْتُ أرانبه في الأوكار، وحيّيتُ بيوتَ القرويين المرخيةَ فوق سرير شريعتها، وأنا أتوهّمُ أن الثلج أميراتٌ ينثرنَ حبوبَ القمح لعصفورٍ ظَلَّ يلازمني. وسمعتُ الثلجَ يُلقِّنَ كلّ صدىً أن يَكْمنَ في اثناءِ خطايَ وأن يتزوج في أثناء خطايَ وأن يحرثني في كانونَ بزوجين من الانسانَ.. أتسمعني؟

وسمعتُ فروقَ الغيم ترجُّ كتائبها فتهيجُ فتعدو هاذيةً بأهالي الحلمِ المهزولِ إلى كفني، فيفرّون به لجسومٍ حُشرت بين ركام جهادي، وتمنيت لَو أنَّ شقوقي امتلأت بثعالب «ماردينَ» و«عِنتابةَ».. تَسمعني؟

أمسِ سمعتكَ، أمسِ فتحتُ جراحي للمجنون من الطير تصيح:

«لأنَتَ المُعْضلةُ

ولأنتَ البارقُ..» صحتُ: «اختطفيني».

أمسِ سمعتكَ، أمس شَطرتُ على جذع الوقت شؤوني

وتقدَّمتَ تحفُّ بك الأسلحةُ

وحماماتُ الرّعب.. أتسمعني؟

أنت تخبّئُ عني ذريّتك المجهولةَ، أنت جميلٌ وأنا المحروم أخبّىء عينيَّ من الغيرة إذ ينفلتُ النخلُ الافريقيّ من الطقس ويأتيك ويأتي العيَّارونَ.. أتسمعني؟

فإذا قُضي الأمر فإني

أتحوَّلُ عن غامرِ فتحي نحو خرابِ أحزمُهُ

وأطوفُ به الصينَ وروسيّا والبلقانَ وكشميرَ وما ليس بأرضٍ بل قبّعةٌ ينفضها المرتحلون من الغَبْرةِ. إني مرتحلٌ بخرابٍ ومقاديرَ أُصيبُ بها مجزرةً تتهيأ للجيلِ،

أو امرأةً تتهيأ للجيلِ،

أو اللّهَ؛ أصيبُ بها اللّهَ وبئراً أجمعُ فيها الناس وأردمها ليعودوا بعد الموت كلاباً وفراشاتٍ تتمسّحُ بي وأطاردها بين وِهادِ جروحي
وليْكنِ الإعدامُ هو الحَكَمُ الثِّقةُ
في إخلاقي لنسيجِ الكونِ وللرغبات العجمية، هل تسمعني؟
وسأرتاحُ لأبلوَ كلَّ جحيم وجنينٍ، وموازيني المهزلةُ
وسأرتاحُ لأبعث في الشوحِ
وبقية أشجارٍ وَهَبَتْكَ ملامحها، خدمي ووصيفاتي
ليقولوا: عاد ثرياً؛ وأعود سياسياً وثرياً أخطبُ في صالات النقرس والتيفوس وأمراض المفصل عن فيتكونغ الجنةِ، أو أجترحُ العفَّةَ بين القوميةِ والأحشاءِ وموكبيَ الأقطارُ المقبلةُ
وأنا أعرفُ اني المُشْكِلُ في صُحُفِ المنتظرين قدومي،
وأنا السائحُ في فِقْهِ العصبيّةْ
تتناقلني الوردة والهدهدُ، والأحفادُ يسنّون لتقويمي رابيةً تأسرها الحشراتُ.. أتسمعني؟
أنت تراني وتراني السابلةُ
في مضْطَربٍ وثنيٍّ وأحلُّ عُراي أمام البهجةِ واليأس؛ أحلُّ فؤادي فتطيرُ مشاغلهُ المُهمَلةُ
وأسمّي من أحببت ومن أدَّخر الحبَّ لهنَّ، وأشهدُ بالغربة والحرمان لنفسي ثم أموتُ:
« إلى أين سيجري النهرُ؟، إلى أين ستجري الوردة والفتياتُ؟ إلى أين ستجري النَّفْسُ وبيروتُ وعزفُ العمّةِ « أروادَ » على وتر الليلِ؟ »
أتسمعني؟

أسمعكَ الآن، وها نتحدث والفاصلةُ
صوتُك أو صمتُكَ، فلنتآمرْ كلٌّ في موجته وضواحيهِ، وهيّا ..
في تاريخ ٨/١٠/١٩٧٢
كنتَ تتمتمُ، كنتُ أتمتمُ، واسمي ما زال سليم بركاتْ

بيروت ١٩٧٢

مبعوث الفراشات

أ /

باسم الجبلِ الواحدِ في أحزاني أتقدَّمْ..

لن يسْلَمَ ماءٌ،

أتقدَّمْ..

لن يسْلَمَ حُلمٌ يتواترُ عن أوَّلِ موتٍ ختمَ البحرُ به آفاقهْ

واستنسرَ في يابسةِ الهجراتِ المبهورةِ بالشجرِ السريِّ وبالأطفالِ يسيرونَ فُرادى فوق نسيجِ الصوتِ ويلتحمونَ أمام نشيدِ الشجرِ السريِّ، وبي أتقدَّمُ منهوراً كشعابٍ يجرحُها الفلاحونَ بأقدامِ الثيرانِ. ضميري «مايسترو» في جوقةِ أترابٍ أحملهم في السَّيرِ الى مِشْكاتي وأخافُ الردّةَ حين أصرِّحُ بالبدءِ الموعودِ وبالغاباتِ تفاحٌ خلجاني بحريقٍ ذي أدبٍ غجريٍّ، وأخافُ.

(لماذا؟

وحدي في آباري قد أخلقُ أتراباً

يحترمون جنوني المفتوحَ على زنزاناتِ الزعماءِ) .

وفي الجوقةِ إذ أتقدَّمُ أعصبُ خطواتي

وأحبُّ على مفرقِ كلِّ طريقٍ قبراً أردفهُ خلفي وأتابعُ..

(تسبقني أنطاكيةُ الجهرِ ويافا وعُمَانُ وتسبقني غرفٌ وعرائسُ أوديةٍ وأقاحٍ ومناوراتٌ. تسبقني أحذيةُ القرويين لردهةِ أيامي)

في الرّدْهة حين تُفاجئني الثوراتُ أعلّقُ أيامي

وأباشرُ بالأسئلةِ المعتادةِ عن عصفورٍ أميٍّ يتنقَّلُ بين صناديقِ البارودِ وبين

الخوذاتِ المسكونةِ بالأسماكِ، واسألُ عن صحفِ الثورة والأرقام العلنيةِ في أسفلِ كلِّ تراب يأتون به من جهةٍ نشرت حُلّتها فوق حبالِ الفقراء؛ وقد اسأل أياماً،
وأُعلّقُ أيامي في الردْهةِ حتى تتشقّقَ:

(يا ثوراتُ انتسبي)

ب /
ألواني مأدبةٌ وفراقي
عن زحفِ الشرفاتِ إلى سَعَفِ الصرخةِ تابوتٌ،
ونواعيرُ الموج السّاقي
تنقلُ رقْدَةَ أعشابِ الطعن لساقيةٍ تتوزّعُ في ساقيتي؛
أعرفُ ما يكتمني عن لهبِ الغصن وعن سفنٍ تتحرّكُ في ساقيتي
وأرى ساقيتي
تنهضُ خلف جنائنِ هذا الجسدِ الخلاّقِ.

جـ /
أتقدَّمْ..
عن كلِّ يدٍ في فَلكي حُمِّلتُ النخلَ وسرتُ أدحرجُ أجراماً ومواثيقَ شهدتُ لها في نزفِ الأفراسِ بما لا أعلمْ؛
عن كلِّ حصاةٍ جادلتُ نزوحي وحميتُ ثغوراً كانتْ تتكاثر في هرمِ الأعضاء..
وقفتُ ووجهي يتقدَّمْ:
(ماذا تجمعُ لي آنستي البدويَّةُ من سفحِ قروحي؟
أقراطاً؟
خرزاً؟
صوفاً لخيامٍ ضاقتْ عن طوفانِ الغَزَلِ الغربيِّ؟ تُرى ماذا تجمعُ آنستي البدويةُ من آنيةِ البحرِ الكاريبي وبحارٍ تشربُ نخب زفافي لفتاة عمياء ترى قلبي من ثقبِ العالمِ مبثوثاً في الوردةِ والعصفورِ وفي الغواصاتِ؟)
وقفتُ ووجهي يتقدَّمْ:
لا بابَ لنهرٍ يقطنُ قنبلةً في جغرافيةِ المجدِ ولا بابَ لخيمة جُندي

وأنا أتوسَّدُ خطواتي منبجساً من ورق يتساقطُ كالأنفاسِ،، أصالحُ بين عقارب ساعات المسيسبي والفولغا..
يومٌ
يومانِ
ثلاثةُ أيامٍ
أربعةٌ..
سقطتْ أشهُرُ هذي الدورةِ بين فتيلينِ ولا
خَفْقَ لكعبِ العالمِ في حاشيةٍ تستبطنُ أغنيتي..
ألنهرُ يطيحُ،
الجندُ يطيحونَ وأغفو:

(للشوحِ تهادنُ آنستي البدويَّةُ دمدمةَ العجلات وتبتعدُ
وتنبّهُ في أسرارِ المجتمعين على بؤبؤِ عينيَّ نوارسَ مجزرةٍ وكلاباً اسألُ آنستي عنها في الليل وابتعدُ
مُحْتَجباً خَشِناً كالأفق المشكوف أعاندُ
مرساةَ ولاداتي الحجريَّةِ في معطفِ أمصاري)

من يتقدَّمْ؟
حين يضيعونَ أراهم بين يديَّ يفكّونَ خيوط حناجرهم ويطيلونَ نهاري
وأرى آنستي البدويَّةَ تتمايلُ في نبعٍ بشريٍّ يهتفُ للأعيادِ وللشبانِ ذوي البَشرات التُركيّة:
(أسلمْتُ لآنستي بالي
وكواكبَ تقصفُ بالي،
أسلمْتُ لآنستي قبّعةَ الأحراشِ وسنجابَ خيالي)

د /
فَلتهربْ عاصمتي في فوضى القُبُلاتِ وفي أبدِ الظلِّ الداخلْ،
ولتُقبلْ من حيثُ تشاءُ الأبراجُ المرفوعةُ فوقَ عواميدِ الحشرِ فإني

ألغي جـهـتـي وأُسلِّمُ تسـليمَ الفـاتحِ ـ حين أفـيضُ ـ على اللوتسِ، والبُرديِّ، وحين تصاحبني الأهوارُ ونرقصُ ملتفّين على فرقِ الغيشا غاباتٍ غاباتٍ:

(آنستي اقتحميني
واقتحمي طابورَ العشبِ، خذي
من كلِّ هلاكٍ زوجينِ وعودي
لفُراتٍ خلفَ فُراتِ اللهبِ الضّامرِ واقتصدي
في غَزْلِ جنينٍ تحتَ الجذرِ القوطيِّ وقودي
وانتظريني يوم يجيئونَ اليكِ بثلجٍ وأساطيرَ).

جذبتُ المُلكَ وأرخيتُ
وعُدْتُ المُلكَ وفارقتُ
وبين إشاراتي انتحرتْ قافلةٌ دثَّرتُ لها حُزْنَ نهاوندَ. وماذا؟
أتقدَّمُ وأنا أمسكُ عصفوراً وأشمُّ جناحيه،
أشمُّ المنقارَ،
أشمُّ الريشةَ تلوَ الريشةْ
وأكرِّرُ شمَّ الزُّغْبِ المحفوفِ بعينيه،
أكرِّرُ شمّ قوادمه وخوافيه.. وآه
(هل تسـمحُ آنسـتي أن أعلنَ أن لهـا رائحـةَ العصـفورِ وأنَّ لابطـيهـا زمناً يتنفّسُ مائي؟)

أتقدّمْ
أتقدّمْ
ها قلبي في الذّروةِ حيثُ أمهِّدُ للسّيلِ،
حنانكِ يا قبّرةَ الماءِ اغتصبيني.

١٩٧٢/٢/١٢

قنص الأطفال

تصريح ١

(هكذا الأرضُ):
نعاسٌ سيدٌ، جفنٌ كليلٌ:
(هكذا الأرضُ)

ملاقيكَ زمانٌ ـ حيثما خبّأتَ في مقصورةِ الموت المناشيرَ ـ عليمٌ:
(هكذا القتلُ)

زرافاتٍ يجيئونَ: الحواةُ،
الخطباءُ،
الحرسُ،
الجنُّ.. سلاماً
أيها القتلُ خبائي ماجنُ الفيضِ.. سلاماً
كلما سابقتُ أرضاً
أتصبّى عُذْرةَ الماء تقيّأتُ.. سلاماً

يا هوى آلهةِ الرملِ تخطتني الرمالُ، ابتدأ النزفُ وفي حنجرةِ النزفِ بقايا أمٍ تذوي، انفجارُ الحجر العذريِّ والطيرِ ولغمِ الأزمنةْ.

أيُّ نعلٍ يطرق الليلةَ صدغَ النَّهرِ النائمِ في عينيَّ؟ والعيسُ ـ التي عاجتْ على فارسَ ترعى سُؤْرَ إمساءٍ ـ أساطيرٌ من الجمرِ حبونا فوقها، التمّتْ علينا عُصمةُ الفرِّ وأبقتنا نواطيرَ على الصبرِ السّديميِّ؛

شعيرٌ،

مزودٌ،

ماءٌ:

(هو الرمحُ الذي يرصدُ فتحاً؟؟)

كلِّلوني

كلّلوني

برفيفِ الدَّبقِ العصريِّ والتبغ وصمت الأحصنةْ.

من هنا ـ حيثُ الخلاخيلُ تساقي حكمةَ الواعظِ جنساً تالفَ الرَّعْشِ ـ أسوّي

شَجَني غمداً على نصلِ الهتافاتِ، أسوّي

جسدي حلوى، أسوّي

خافياتِ الدمعِ عربوناً على عُري مجيءٍ..

(ربما أخطأتُ)

هذا ورقي أبيضُ كالفقرِ إلهي

تصريح ٢

كيفَ أهرِّبُ عصفوراً يأتي من عاصمةِ الشحّاذينَ على باخرةِ الشرقِ الأوسطِ، كيفَ أغيِّرُ منقارهُ والجنحين؟ حرامٌ

يا باعةَ أنتيكاتِ فلسطينَ حرامٌ

هذا العصفورُ يغنّي للتقويمِ المكتوبِ على قمصانِ الشعراءِ، ولوحاتِ الرسامينَ المقلوبةِ في صالاتِ القامشلي..

كيفَ أيا بلداً يتعلّقُ بالأغصانِ ويقفز نحو السطر التاسع والتسعينَ من الترجمة المخلوطة LOVE STORY أبدأ بالتدجيلِ على الأطفالِ وبومارشيهُ؟

أدّعي هذا هواءٌ
أزعرُ يعتنقُ الدسَّ وأملاحَ الرُّفَاةْ
يعشقُ القرشَ ويزني
بالذي يزهرُ في خاصرةِ الأرضِ من النبضِ ويزني بالحياةْ
(ارقصوا إذا شئتم، أرفض الاحتجاج)

سأبدأ:
ألجزراويُّ وعصفورهُ ينطلقانِ من الشُّبَّاكِ المغلقِ نحو الريفِ،
يحطّانِ قليلاً:
يتبوَّلُ خلفَ الأحجار العصفورُ،
الجزراويُّ يدَخِّنُ.
ينطلقان.
ألجزراويُّ: هلالٌ خلفَ الغابةِ معصوبُ العينينِ؟
ترى كيفَ يقودُ خطاهُ؟
ألعصفورُ: الأوراقُ دليلٌ..
ـ : هل يعشقُ جنيّة هذا الليل؟ أراهُ حزيناً..
ـ يعشقُ جنيّات؟؟!.. ها ها ها
لوطيٌّ يقرأ أشعارَ أبي نوّاس..
ألجزراويُّ وعصفورهُ ينطلقانِ من الزمن المحتلِّ المغلقِ نحو بروج النملِ ويختبران
ثقافاتِ الأفلاكِ،
الأرضِ،
الماء،
الأبقارِ،
الجزراويُّ وعصفورهُ يصطحبانِ قواميسَ لغاتٍ عصرّيةْ
لغاتٌ تكبرُ في الأرحامِ،
تضيقٌ على الأرحامِ،
وتصعدُ حتى وكرِ الصّقر مع الجزراويِّ وعصفور الجزراويِّ؛
الثوارُ يحبونهما،

ويحبهما الخطفُ،
الثورةُ، والأغصانُ الموقوفةُ
في زنزانات البحرين: الأبيض والأحمر..
تهتفُ إن مرّا أرصفةُ الشامِ هَلا.
ألجزراويُّ وعصفورهُ ينطلقان من الثلجِ الساحرِ نحو فصول الماءِ وأديرةِ الشعبِ،
يحطانِ قليلاً بين رحاب الدمعةِ والأشفار وينتسبانْ:

الجزراوي:
جَدّي الماءُ،
أبي
أمي
أرضان تكسّر بينهما النّبذُ وكسّرني الماءْ.

العصفور:
صو صو
صو صو.
ها
يتململ بين الجزراويِّ وبين العصفور شرارٌ مكتوبٌ بالأظفارِ ومصطلحاتِ الإصلاحِ،
الجزراويُّ يغني: آه
ألعصفورُ يغني: آه
ديكٌ: آه
ناسٌ: عاش
عاش
عاش
يسقط
يسقط
يسقط.
غُصنٌ:

خبِّيء الليلةَ للعام الذي يأتي أناشيدَ عن الأقمار والدفنِ، اسطواناتِ مديحٍ ليدٍ تُقْبلُ من حيثُ ترى القفْرَ.
احتفالٌ،
دبكةٌ،
عرسٌ،
مواويلٌ..
تصدَّعْتُ من المدِّ الذي موَّهَ عزف البلد الراجعِ من مقصلةِ البحرِ بلا جلدٍ يواسي عَظْمَهُ الضّاربَ في الريحِ وأنّاتِ الوفودِ القَلقةْ.
غُرّتي مقصوصةٌ والشفقةْ
حجرٌ يكسرني،
أكسرُهُ
ثم أحتالُ على وجهي بمِثقالٍ من الضحك وأهذي:
كبريائي
كبريائي
آهِ يا زوّادةَ الشرخِ الحضاريِّ،
أحيّيكِ بتابوتٍ من العاجِ وقملٍ ونصالٍ شبقَةْ.

تك.. تك.. تك..
ألجزراويُّ وعصفورهُ ينطلقانِ بلافتتينِ(١) وأوجاعٍ مثل الفلفلِ،
يخترقان الدّمَّ
الدّمَّ
الدّمَّ
الدّمَّ
الدم الدم الدمَّ
ويخترقانْ.

(١) اللافتتان :

١ ـ لافتة الى ممدوح عدوان :

عالمي واسعُ
عالمي كرة تتدحرج بين الظنونِ
عالمي بينكم
فانكروا ما أرى
وانكروا رايةً اعشبت في يميني.

٢ ـ لافتة الى شرفات المهاجرين :

أرصدُ الداخلينْ
أرصدُ الخارجينْ
أرصد الوقعَ في لغةِ الخطوات،
ارْحمي واقفاً
خلف أتعابه يا يداً لا تبينْ.

المطالبة بجسد فراشة غريبة

١

أخفضُ الآن جنحيَّ للصرخةِ
أضحكُ الآن كي أجرح الآخرينْ
وأطاردُ ما شئتُ من شجراتِ البتولا مدجَّجةً بالملائكِ والحاصدينْ
أعاتبُ: عودي..
أعاتبُ: ملغومةٌ شرفاتيَ، عودي..
فتغلقُ أغصانها وتطيرْ.
وأطاردُ ما شئتُ من حجلٍ تتقاذفهُ الجالياتُ،
أعاتبُ: عودي
لنسقطَ في شَركِ السائحينْ،
أو لنسقطَ في ثورةٍ مثلما يسقطُ الثائرونْ.
منذُ ودعتكم والسفارات تمتلىءُ،
البارُ يمتلىءُ،
الحربُ تمتلىءُ،
الحلمُ يعلو ونارُ السفيرْ
تتهجّى مواقدَهم واحداً واحداً..
(هل أكونُ السفارةَ كي تطمئنَّ حقائبهم والطرودُ التي تحتوي رأس طفلٍ؟..)
عرفتُ الجنادبَ غاديةً والغديرْ
يتخبّطُ كالديكِ في مائهِ.

٢

وأخيراً
أشهدُ مسرى الوردةِ في حنجرة المحظياتِ وأجرفُ ناري وجسوري.
أستبدلُ واجهة البحر بتابوتٍ
وأقيمُ الحفلاتِ على شرف الموجِ المدحورِ
وأعلّقُ نوّاساً بين الشّجرِ
وأعلّق نوّاساً بين اللهِ وبين الناسِ: انتظِروا
لأعالي الصينِ تغيبُ،
وصاريةُ القفقاسِ وقزوينَ تغيبُ، وأدخلُ ساعاتي
تحتَ لواءِ الثلج المحلولِ ومخلوقاتِ العنفِ على ملأٍ يحلجُ أغصاناً داميةً..
أعلنُ:
هذا مسرايَ،
مزجتُ لَكمْ لبني ببيارقِ بيزنطةَ؛
هذا مسرايَ ومسرى القبرِ المركوزِ إلى جانبِ جذعي،
هذي مقصلتي الخضراءُ،
وتلك جسوري
تدخلُ حاملةً قبّعةَ اللهِ إلى ملكاتِ المطرِ.

٣

وأخيراً
عوّلتُ على سنبلة أنشرُ فوق عوارضِ ثدييها جسدي وثيابي
وأنامُ إذا لزم الأمرُ، ولكنْ
كشفوا الأيام معي حاشيةً وجنودا
فأغاروا من شقِّ اليقظةِ يَستَعِرونَ وعادوا هاويةً ونُجودا
تَسْتَرْخِصُها الطيرُ وتنذرُها بمضاربِ أعشاشٍ؛
كشفوا الأيامَ معي وتغاضوا عن بيرقِ سفحٍ يبكي،
وجذوعٍ تبكي..

وأنا أبكي،
أشتاقُ وأبكي،
أشتاقُ وأشتاقُ وأشتاقُ،
وأطلبُ من ورقِ الأجسادِ مراكبَ للسّفرِ.
فلتترجّلْ آسيا عن صهوةِ أحجاري حين تعودُ الأُسَرُ الملكيةُ عبر مضيقِ الجرح
وتشتاقُ وتبكي،
حين أدبِّجُها حاشيةً لرسائلِ ميعادي وأنام على فخذِ النهر فيسفحني النهرُ،
ويملأُ بي دورقَ أسلافي، وما خلفَ الأسلافِ:
أنا النَّبْضُ ولا ثالثَ لي
فلتترجَّلْ آسيا
باسمِ الجرثومة،
باسم الصنّدل والحجلِ اللاهثِ، باسم الثمرِ،
أترجَّلُ،
فلتترَّجلْ آسيا عن هذا الحجرِ.

٤
أعدْ..
أنتَ ودَّعتنا، ما سمعنا،
وكانتْ يداكَ سماويَّةً والضميرْ
مهرجاناً؛ سمعناكَ في البحرِ، قلنا اصطفى جهةً.
ما سمعنا..
سمعنا..
ـ : جاءَ مرتعشاً واختبأنا، بكينا معاً..
ـ : جاءَ مرتعشاً جارحاً
أيقظَ العسكريَّ وتابوتَهُ..
ـ : جاءَ كالمستجيرْ
رافعاً وجهَهُ، مائلاً راحتيهْ
بالمياهِ وخوفِ المياهِ وريشِ الصقورْ.

٥

كلُّ دمٍ يهذي.
كلُّ خليجٍ يستدرجهُ الماءُ الى الغبطةِ يهذي.
رئتي تستقبلُ أشجاراً وسواحلَ تهذي..
لو ينهضُ واحدكم ويدلُّ عليَّ متاهي
ويدلُّ الغابةَ؛ لو يتعلَّقُ بي ويعلّقُ في جفنيَّ زماناً وبلاداً في دورقِ هذا السَّعفِ القتّالِ،
ولو يشهدُ واحدكم،
نصفُ الواحدِ،
ربعُ الواحدِ وامرأةٌ، كي نركضَ في ثورةِ قومي من عاصمةٍ
للبحرِ
لعاصمةٍ
للبحرِ
لعاصمةٍ..

ها أنذا أركضُ،
ها: تنشقُّ مياهي،
يترنَّحُ طابورُ الجندِ وينفصلُ الذَّكرُ المختومُ بأنثاهُ عن الثورةِ،
أركضُ في ثورةِ قومي.

١٩٧٢/٧/١٥

نقابة الأنساب

« هذا وجهي العصريٌّ »
أنا آت
فليرقبْ كلُّ مليكٍ شحّاذٍ في أرضِ الردةِ من أين تجيءُ الطعناتْ.
عبر تخومِ الغربةِ في أجفانِ صبايا الله وعبرَ الساقيةِ
أختصرُ الزمنَ الخائفَ في عين النسوةِ، أزجي الزّمن القرشيَّ إليها
لا الدَّمعُ ونزفُ الفقراء ينيخُ الرَّحْلَ، طوافي
خلفَ قوافلِ زُغْبٍ.. فليرقبْ
كلُّ مليكٍ شحاذٍ في أرض الردّةِ من أين تجيءُ الطعناتْ.
« هذا وجهي العصريٌّ »
بلا نعلٍ أرحلُ نحو بلادِ الفرس وأمصارِ الرومِ وأرفعُ وجهي للظلماتِ أسائلُها
وأسائلُ رجليَّ الداميتين عن الأرضِ العمياءِ وهمسِ خفافيشِ سمائي
وبكلِّ مثولي بين يدِ الغربة أصرخُ:
تصهلُ أفراسُ الحربِ على أبوابِ الكعبة يا أهل الشام ووحدي
أبسطُ للملتجئينَ إلى ظلِّ الأحجار السوداءِ ردائي
أتقطَّعُ حين ينوسُ الموتُ على وجهِ الحُجَّاجِ،
وبين الصّدر المُشْرَعِ للطعنة والرمحِ الظّامي أتخثرُ،
أزحمُ ملكوتَ الرهبة صَدْعاً يفصلُ عرباتِ الزمنِ اللاهثِ قُدّامي وورائي
أتصاعدُ في أنفاس الكعبةِ جمراً تتنفسُهُ الصحراءُ فتحبو
حاملةً هَزْجَ قبائلها نحو قوافي الحربِ؛ أزنّرُ نسبَ الرَّاجلِ بالفارسِ، والهاربِ

بالثابتِ في الحوْمَةِ حتى يرخي النخلُ النادبُ جنحَ الدمعِ عليَّ..
أبايعُ في حمحمةِ الأرماحِ لوائي
أضربُ شرقاً، غرباً، ضرب اليائسِ.. يسقطُ وجهي الأولْ
أضربُ.. يسقطُ وجهي الثاني
أتراجعُ بالحُجَّاجِ إلى عَرَفاتَ غباراً يتكسّرُ تحت حوافرِ ريحِ الوهنِ القاصمْ
ثم نموتُ لنحلُمْ
ثم نقومُ لنحلمْ
ثم نفصِّدُ أوردةً كي نلمحَ في الدَّمِّ مجيءَ الأشجارِ مع اليوم التالي عاقدةً
فرحَ الأنهار على الهاماتِ عمائمْ.

١٩٧٠

أنا الخليفة لا حاشية لي

يا ربْ
ها أنـذا أتراجعُ كي تـسندَنـي الظلمـاتُ ويسندَنـي الجـرْفُ الأزليُّ، وها أنـذا أرمي حُفَري في أطراف السنوات لكلِّ سماءٍ مرهَقة.
ها أنذا أسدلُ أطرافي فوقَ نهارٍ يخذلهُ الوقتُ ويرميه المحظوظون الى كل نقيضٍ محتفلٍ بي أو بفلولي المذعورةِ؛
ها أنذا أجمعُ أحشائي
لأريكَ سلامَ الأحشاءِ ممالكَ تعدو
وذكوراً يندلقونَ من الفجوَاتِ وينقرضونَ؛ أريكَ رتوقي
ومواكبَ حولَ رتوقي مستنفرةً كهوامٍّ؛
وأنا أدعوك لترْفَلَ في آبادي المشبوكةِ بالقنّبِ والأقنعةِ الخزفيّةْ
ولتبتلَّ بجاهي بينَ سنونوةٍ أنثى وسنونوةٍ أنثى، ومخارجِ أقدارٍ محدودبةٍ يا ربِّ،
ويا ربِّ هنا أتقادَمُ والأنسامُ
عجلى تتأبّطُ أرغفةَ الناموسِ؛
هنا الغُوطةُ توشكُ أن تُهْزَمَ في كاتدرائيّتها، والأكمامُ
نازفةٌ لا يسندها غيرُ خشوعِ الأشباحِ من المحنةِ.
أدعوكَ:
تقادمتُ، وشيّخَ في مخدعيَ المجهولُ وحوَّمتِ الأيامُ
حولَ غُضارِ حنيني للأيامِ ومن يحرقني في ذروةِ بعثي.
لستُ بديداً

لكنَّ الصلصالَ القدُّوسَ طريدٌ في سَكْرَتهِ
والأنهارَ مهلهلةٌ في سَكْرَتها
وغياباتِ القلبِ توزِّعُ لؤلؤها في تاريخِ المدعوينَ الى الهذيانِ،
و« أروادَ » توسْوِسُ مَشْرِقَها وتغيرُ بآلهةٍ وبراعمَ شتّى نحو الثلثِ الأوَّلِ من ظلماتِ ثلوجي.
لستُ بديداً،
ها أنذا أدخلُ خلخلتي وأفاجئها بمقارعِ أورادي وضجيجي
وأعيدُ الرَّبَّ الى سهرٍ موصولٍ بمفاجأةِ الرّخويّاتِ تدبُّ الى الليلِ وتُحْييه بروقاً وذبائحَ زاحفةً فوق كسائي السوريِّ، وتُحييه عوانسَ يغسلن فروجَ الساعاتِ من الطمثِ، ويخزْقنَ مساحبهنَّ الديباجَ على جبلٍ كهلٍ:
« يا أعشابُ ويا أزمنةُ
كَسِّرْنَ رجوعَ النهرِ الى مسجده،
واقذفنَ إماراتِ الرأسِ إلى حَيْضٍ تتبعهُ الأشهرُ شامخةً بأكاليلِ الشهوةِ والوحدة.
يا موتُ، أيا حَلزونَ ترائبنا وقواقعَ عانتنا وأصولِ الفخذينِ، اسْتَكِنِ الآنَ، فثمةَ عزٌّ يستغرقنا وتهبُّ الأشجانُ المؤمنةُ
كطيورِ النبعِ، يُقطِّعْنَ مشدَّاتِ جواربهنّ وحمَّالاتِ الروحِ..»
أعيدُ الربَّ الى أوقيانوسٍ من لقطاءِ الأحقابِ يُصلّونَ أمامَ الأفقِ المترجِّلِ عن دابَّته، ويقومون اليه ليصطحبوهُ الى ثقبٍ في فاجعةِ الأجرامِ الجوَّالةِ والكهّانِ الجوّالين.
أعيدُ ملائكةَ الموجةِ في أعطافي للأحجارِ وأجهشُ: « مُوْجي
هي ذي « أروادُ » ترافقُ أعمدةَ الأحشاءِ وأقوامَ ثلوجي
فاردةً في الجنبينِ مواسمهما والأعشاشَ لكركيِّ الدَّمِ »..
أعيدُ الربَّ إلى أسواقٍ في المفصلِ تستحكمها الضوضاءُ وثرثرةُ النسوةِ حُبلى يتفكّهْنَ بأقمشةِ الإيمانِ ويكتبنَ صفاتِ أجنَّتهنَّ وشرخاً يحشدن لهُ في الرحمِ بساتينَ معفّرةً بمناخِ الجسدِ الوهّاجِ، ويقرعنَ زجاج المفصلِ:
« يا أعشابُ ويا أزمنةُ
عرِّجْنَ علينا نشملْكُنَّ بعَصْفٍ وشعابٍ آهلة،
بالأجناسِ، بخرنوبِ الألفةِ، بالنيكلِ، بالنملِ، بذبذبةِ الأعيادِ؛ فهيا خيلاءُ مفارقنا،

ها داليةُ الذّكرِ المجهولةُ بين دوالي الاضلاعِ، وها نحن بلا موتٍ تتناثرُ في الموت حريصاتٍ أن تتفتّحَ كالأعرافِ على العبثِ المجنون. تقدّمنَ لنفسحَ لاناملكنّ مكاناً بين ضفائرنا والأغشيةِ المحلولة في الرحمِ، لنجلوكُنَّ عن البازلتِ المتنزّهِ في الشريانِ إلى شريانٍ بغالٍ تتهادى خلفَ بحيراتِ عجيزتنا.

يا أعشابُ ويا أزمنةُ

نحن أعَرْناكُنَّ زبيبَ النيروزِ وهودجَ مأتمنا ورحلنا مُنتحباتٍ تتنفّسُنا الأسرارُ الآفلةُ

ورأينا أن نحبلَ قبل الجوعِ فأسندنا لليأسِ سلالمنا وشطبنا

آخر جمجمةٍ للأرضِ وللدّهشهْ.»

أين قرأتُ صلاةً ؟

أين خلوتُ بنارٍ؟

هي ذي «أروادُ»، أعيدُ الربَّ إليها وأنا خجلانُ من التعبِ الحوذيِّ ومن إطراقِ مسوخي المرتطمينَ بدهليزِ البشريةِ؛ لا يستعجلني شيءٌ، وأنا أستعجلُ سَرْوي ومحاريثي، لنسير الى مُبتدأ الفطرةِ نشغلهُ بعذابِ سلاطينٍ يلتجئون الى نرجسةِ الطوفانِ؛ وأضطهدُ الأرواح وما تخفيهِ بطون البرمائيات المدحورةِ في إقليمي؛ في إقليمٍ يستعجلني، وأقاليمَ ترافعُ عن آيتها قُدّامَ مماليك السُّنبُلِ..

ربي

أيُّ دليلٍ يقتادُ خليقةَ يأسي وجنادبهُ؟

أيُّ غبارٍ يطلقني من أسرِ طفولتهِ ليكون لأهدابي هذا الصّفُّ المترادفُ من جثثِ الغرباءِ وآلات الصحوةِ والأقلام؟ اندثرتْ أطرافي وأنا أسدلها فوق مشيمةِ نارٍ يخذلها الوقتُ، ولا وقتَ لاوصدَ نعشي وأؤمَّ نساءَ رمادي مرتجفاً ووسيماً أفتنُ جمعاً منهنّ وأهبطُ بالجمعِ الآخرِ كلّ جميلٍ في الإنسان لنرثيهِ ونُحكمَ إغلاقَ مواجعهِ.

موتاً موتاً أصطفُّ وتصطفُّ الأكوانُ

والقنواتُ وأترعةُ القبرِ تمرُّ ببعضي كصديقاتٍ وتمرُّ الثيرانُ

بقرونٍ ذهبٍ ونحاسٍ، وقوائمَ من فخّارِ الملكوتِ، فأزجرها

وأطيِّرُ حيواناتٍ ليسَ تطيرُ، وأركضُ في قططي وكلابي بسحالي الغيمِ، بعوضٍ

الرئة، الجعلان، الخُنفُسة، الإشنيّات، الفُطْر، القُرَّاد، وأحياءٍ متدنيةٍ أخرى حول خيوطٍ تمتدُّ الى حيثُ يغيبُ الحلمُ وينعدمُ الجيرانُ.

أيُّ دليلٍ يقتادُ خليقةَ يأسي وجنادبهُ؟

لا صوتَ ولا موتٌ

لا اسماءَ ولا شجرٌ

بعضُ خَريرٍ ومساكبُ واطئةٌ ووجوهٌ في خطواتي لا يجمعهُنَّ قِرَانُ.

ها أنذا يا ربْ

أسحلُ دوراً ومنازلَ أو أتلفها بأسيْد

وأفوتُ على الليلِ ومُنحدر الصُّبحِ فَلا يقفان عليّ، ولا تقفُ الدِّيْمةُ كالشحّاذة؛ أطلبُ شيئاً آخرَ يا ربِّ وأضرمُ إنسان المعقولِ كفيفاً كالبحر على قارعةِ الغيبِ، أُدوِيّ:

يا الصَّاعقةُ الرّبانُ

يا أوديةَ المُلْكِ احتبسي بين بكوريةِ غيمي والأضواءِ

واختلقي الأعراس وما يشبه ندّاباتِ الأعماقِ لقَسْورَةِ الماء

فأنا طاغٍ وحنونٌ في تأويلِ الوحشةِ بالوحشة، والإنسانِ بجُبٍّ.

وأنا الأبديُّ محوطٌ بيتيماتِ ظلامي يتوسَّلْنَ الى الجُدْجُدِ أن تجتاحَ ببعضِ أمومتها هَدأتهُنَّ، فأقرعُ آونتي

أقرع آونةَ الشهداءِ

أقرعُ آونةَ القامشلي

أقرعُ آونةَ الأعضاءِ المحتلّةِ في سوريا

وأضمُّ يتيماتِ ظلامي مرتعشاً من فرْطِ ضآلتهنَّ من البؤسِ وأخطو نحو خرابي:

«يا الصَّاعقةُ الرّبانُ

هَلاّ أرخيتِ لنا صُرَّةَ موت

أو بعضَ أمومتك الآن؟» وأخطو نحو إناثٍ يسرحْنَ مع الامطارِ وبِلَّوْر المُشْكِلِ:

«يا أخواتُ انثرنَ أمومتكُنَّ علينا الآنَ..»

ككهـلٍ أمضي ويتيماتُ ظلامي والأبدانُ

من كلِّ صنوفٍ عاقلةٍ تحملُ منجلها في رئتي وتغني لحريقٍ يرشُدهُ النورسُ؛ موتاً موتاً أتلاحقُ إذ يفلتُ مني الموتُ، وأحجبُ «أروادَ» عن الأطرافِ لتبقى مُسْدَلةً فوق

السّاحلِ والابراجِ تحنُّ إلى
وقتٍ يُغلقِها كالثلجِ،
إلى اللّه،
إلى كلِّ سماءٍ مرهَقةٍ.

١٩٧٣

هكذا أُبعثرُ موسيسانا

أقتلوا روناشتا

نامي أيّتها الوردةُ نامي
نامي أيتها المهدورةُ مثلي في وقفتها نامي
مائةُ ميْلٍ، مئتانِ هو القلبُ، وطينٌ بعد المئتين يدوِّرهُ
الْخزافون جراراً ويدورونَ بها حول نُجيليّاتِ الروحِ،
وروحي باطلةٌ، نامي..

مشهد / مهرجان

ها هوذا ينهارُ
ها تنهارُ الأريافُ على قامتهِ
ها تخرجهُ الأريافُ إلى الجبلِ
وتحاكمهُ الأشجارُ
ويحطُّ به دوريٌّ،
ويطير به دوريٌّ فوق «بَهَارَنْكَ» على مَهَلِ.

مشهد / كورس

ماذا يخبركَ النسلُ القادمُ عنكَ،
وماذا يخبرك الربُّ؟ تفضَّلْ

كإناثٍ يجرحن طوالعهنَّ، تفضلْ
لنمسَّ خيوطَ يديكَ ونُحْيِيْكَ بلاداً أو جرَساً.

- ستار -

روناشْتا
مولاتُكَ هذي الوردةُ ساهرةٌ ليس تَنامُ،
ومولاكَ النهرُ يزيحُ ستائرَ عورتهِ لشعاعٍ من تاريخِ الأكرادِ ويطويكَ، فتنهضُ،
ثم يعود ويطويكَ فتنهضُ،
ثم يعود ويطويكَ فتستسلم للنهر صبيّاً
تنسجه الساعاتُ بألياف القطنِ؛ أراكَ فأعدو مستوياً
ثم ألينُ، ويحدودبُ صوتي محتضناً كل فراغٍ،
محتضناً ما يعترض الخطوةَ من حجرٍ أو حيوانٍ،
محتضناً وحشتهُ ملءَ ذراعيهِ ويطويكَ فتنهضُ،
ثم يعود ويطويكَ فتنهضُ،
ثم يعود ويطويكَ فتنهض محموماً أخرسَ كالأرضِ وتهوي بالأيام على الأيامِ،
وبالسنواتِ على الروحِ، وتملأ بالراديوم ثمارَ ثوانيكَ،
تدحرجها،
تتدحرجُ بين وريدي وهتافات امرأةٍ؛
روناشتا
روناشتا
روناشتا
حدَّدْتُ لك الجهةَ الأولى في الإنسان ببوصلةٍ وتركتُ الإنسانَ يتيهُ، فقاتِلْهُ، وخذْ أنثاهُ ليأتيك ذليلاً،
خذْهُ وخذْ أنثاهُ ليأتيك الوقتُ ذليلاً،
خذْهُ وخذْ أنثاهُ، خُذِ الوقتَ ليأتيك الطيرُ ذليلاً،
خذهُ وخذ أنثاهُ، خذِ الوقتَ وأجسامَ الطير ليأتيك اللّهُ،
خُذِ اللّهَ وقُلْ أعراسي أبتدأتْ

وتقدَّمْ طاغيةً، أعماقُكَ بين يديك تجوِّفُها للظِّربْانِ وخُلْدِ الماءِ، وللأرمنِ يقتلعون الخابورَ وفوداً إثر وفودٍ، ويغوصون إليكَ بأحصنةٍ ونساءٍ تعرضهنَّ على الريح مدى تسعةَ أعشارِ الميْلِ، وفي العشْرِ الباقي تخذلهنَّ وتقطعُ سلْكَ القلب؛ تقدَّم طاغيةً نحو شمال القلب وحاصِرْهُ بعدَّتِكَ الليلةَ، أو حين تشاءُ، فأبعادي مترفةٌ، وشيوخي يلتحقونَ بصاعقةِ المجهولِ وينتظرون عبوري بعذارايَ حكيماً يُلْجِئُ آلهةَ الثلجِ إلى عرباتِ الأعيادِ، ويذبحُ يُحْموراً فوق صدوعِ الأبدية كي تلتحمَ الأبديةُ كالقبرِ، وينتظرون فراري إسكافيّاً بجلودِ الجمهوريات إلى امرأةٍ تغسلني وتسوق كُريّاتي الحمراءَ وعولاً وحباحِبَ بين مواسمها، وتقول: اهدأ...

هل أهدأ روناشتا؟

حجرٌ تحت لساني،

وعصافيرُ خائفةٌ في الأحشاء فهل أهدأُ روناشتا؟

حَدَّدْتُ لك الأنقاضَ على زاويتي فتقدَّمْ لتوحِّدَنا الأنقاضُ، لنفصلَ كل حياةٍ تتناسلُ عن زمرتها، ونصيحَ أمام عراءِ ذكورتنا: انْطلقي يا حيواتُ انْطلقي بين فجاجِ الخوفِ، انْتظرينا يا حيواتُ انتظري

نحن نحاذي الأرضَ ونضربها بفراشات ميِّتة،

ونهيِّئُ للعصفور فضاءً مجبولاً بزلال البَيْضِ ورائحةِ المطرِ

ونرجُّ البرعمَ مدفوعَيْنِ بشوق الماءِ،

ونغويه،

ونجثو،

ونحارُ

من عصيان وسائدنا، ونحارُ

حين تصيرُ وسائدنا جرساً يقرعهُ المحتكمون الى الصحراءِ ولاهوتِ الحجرِ،

ونحاصرُ سنبلةً تحلم في قفطانِ العاصي بنهارٍ تقضيه على سهل قرى «سيْحا»،

ونحاصر خطَّ رجاء الصالح ممتلئيْنَ جباةً ينصرفونَ إلى جمع مَكُوْسِ البحرِ، وينعزلون بزنجيّات يخضْخضْنَ الزبدَ المذعورَ ويستلقينَ على أرصفة الموج ثقيلاتٍ كعرائسه ينشجنَ: احْترقي

يا حيواتُ احْترقي.

ونصيحُ أمام عراءِ ذكورتنا: احترقي يا حيواتُ احْترقي

لا منجى للبحرِ ولا منجى للإنسانِ يحرِّضُهُ الربُّ بدرعٍ وحزامٍ في أسفلهِ ويقول: انْهضْ،

أسرجتُ لكَ الأحناشَ ورقّاصَ الساعةِ.. إنهضْ.

ونصيحُ أمام عراء ذكورتنا: لا منجى للربِّ، سنشهدُ إنسانَ الربِ غريباً بين سُلاميّاتِ يدينا يفتح فُوَّهَةً في برميلِ المستقبلِ ثم يبولُ عليها، أو يُدخل إصبعهُ في الفَوْهَةِ منتظراً أن تربطهُ المخلوقاتُ بكتّان الجنسِ.. وماذا بعدُ؟ سيبقى بين سُلاميّات يدينا نوقظهُ في الليلِ ونلقي في قَعْرِ مثانتهِ الأجرامَ وحدوةَ بغلٍ وعناكبَ ذات جموحٍ؛

لا منجى يا حيواتُ، احْترقي.

نحن ردمنا شهوتَنا، والأشجارُ

ردمتْ شهوتها، وهبطنا من سفح الصرخةِ للمنحدرِ

نتراشقُ بالكلس وبالأعلامِ؛ هبطنا

من تَلِّ الوحشةِ ملء محاجرنا الزيزانُ وبطُّ الساحلِ قفزاً وقذفنا في الملكوت بما نحمله فتبعثَر، ثم جمعنا الملكوتَ وبعثرناهُ، وأمْعَنّا في بعثرةِ العالقِ منه بأطرافِ غدائرنا ونفثنا في الأحجارِ هواجسَ ليس تقالُ وعدنا

أسراباً يحزمهنَّ فرارُ.

نحن ردمنا شهوتنا، والأشجارُ

ردمت شهوتها، وأفاقتْ نرجسةٌ لتصافحنا وهي تفيءُ إلى السَّفَرِ

وأفاق طريقٌ،

ثم أطاحَ بأجمعنا الشَّجنُ السيّارُ.

مشهد / احتفال

ها هو ذا، فلكيٌّ

يرصدُ أنثاهُ على صفحة عينيهِ ويشملها بدمقْسٍ وثلوجٍ.

ها هوذا يتدافع خلف مُذَنّبِها في إهليلجهِ الدمويِّ ويحصرُها بين مباهجِ «بَوَّانَ» سنونوةً من أسماءِ التَّعبِ المبتعدِ.
ها حيّرها ومشى في حَيْرَتها كالرَّحّالِ ولم يَعُدِ.

- ستار -

روناشتا
روناشتا
حجرٌ تحت لساني،
وعصافيرُ خائفةٌ في الأحشاء فهل أهدأُ روناشتا؟
حدَّدْتُ لك الخلجانَ وصاريتي، فتقدَّمْ لنضمَّ كرادلةَ الشرِّ إلى سُلطتنا، لنضمَّ عشائرَ هذا الأخدود وذاك، ففي سُحْنَتِنا ما يُنْبِيءُ أنَّا نغتصِبُ الليلَ وأوكارَ الأرواحِ، ونغتصبُ الوردَ وأشباهَ الوردِ، ونغتصب المعدنَ والمرجانَ، ونغتصبُ القشريّات وأشباحَ الفيزياءِ.. تقدَّمْ روناشتا
لن نترك نبعاً لا يشتاقُ إلينا،
لن نترك خشخاشاً لا يشتاق إلينا،
سنعيرُ أنوثةَ كل دمٍ قيراطينِ من السِّفْلسِ ممزوجاً بالكافورِ، ونخفي آلاتٍ حاسبةً وصفائحَ من ألمنيومِ الدولة في جسديْنا المطليّيْنِ ببوتاسِ الحبِّ.. تقدَّمْ روناشتا
ولْنَتّفقِ الليلةَ كيف نزيِّنُ تابوتَ العالم بالأشرطةِ الورديّة، والثوراتِ وأظلافِ الأغنامِ..
لأنتَ غريبٌ روناشتا
ومواليكَ على النهر ينامونَ، ومولاتُكَ هذي الوردةُ ساهرةٌ تحت غطائي البحريِّ لُقاحاً مشتعلاً.. روناشتا
إني منتظرٌ أنثايَ لأطويكَ، وأبدأُ غزواً آخرَ فوقَ عرائي
إني منتظرٌ أخواتي يتسلّقْنَ سلام الإنسانِ ويكشفنَ غطائي
إنَّ دمي يتسابقُ حول مُعَسْكرهِ،
ويغافلُ نارَ معسكرهِ ويموتُ
وتصلي في هَدْأتهِ الأحراشُ صفوفاً إثرَ صفوفٍ ويصلي

في هدأته الخُطّافُ، ويرحل قومٌ، وتحومُ بيوتُ.
جرسٌ عيناىَ، وإني منتظرٌ، وفضائي
يرخي جثّتَهُ فوق سريري، فكلانا
يبعثُ هجرتَهُ ويُميْتُ.

...

أنتَ غريبٌ روناشتا
روناشتا
حجرٌ تحت لساني،
وعصافيرُ خائفةٌ في الأحشاء فهل أهدأ روناشتا؟

ها أنذا أطرقُ بابَ العالم مهتاجاً أطلبُ أنثايَ، وأنثايَ وراء جنوني جاثيةٌ تربطُ ما يتقطّعُ من أهوال العالمِ بي وتهيجُ؛ أهيجُ وأفتحُ أعضائي لسلالاتِ الذَّكَرِ القادمِ في الأعراسِ خلاسيّاً، وأرنُّ:
هنا يا ذَكَرَ الماءِ،
هنا يا ذَكر الموت،
هنا يا ذَكر الظلمات طريقُكْ
حيث أشدُّ اللبلابَ إليَّ وأطلب أنثايَ، وأنثايَ وراء جنوني جاثيةٌ تَعدُ الأفراسَ بمُنْبَسَطٍ أجْرَدَ في مملكتي للركضِ الى أن يقتلها الركضُ.. أهيبُ: اقْتربي يا أنثى الماءِ،
اقْتربي يا أنثى الظلماتِ،
ويا أنثايَ اقْتربي
فأنا موعودٌ بعدَ أواني ببلادٍ تخضرّيْنَ لها،
وسهوبٍ تنهضُ للهرب.
وأنا مكدودٌ في إيواني،
مكدودٌ في إيواني ملأُ النهرِ وعَسْكرُهُ المنذورُ لبأسي وحنيني.
أُلقي جامَ حنيني فوق حصى بيروتَ وأنظر في البلّورِ المتناثرِ كالأرحامِ:
«مدوَّرةٌ أحزانُ الطفلِ،
مدوَّرةٌ أحزانُ سواقيه،
مدورةٌ بيروتُ وقلبي سِلْكٌ»

أقطعُ سلْكَ القلبِ وأطلبُ أنثايَ من التعب:
يا أنثايَ انحسري عن صنينَ وعن جهةٍ يُشغلها الورّاقونَ بقدّاسِ الأوراقِ،

أنا قنّاصٌ

أرخيتُ عنانَ العالم يضربُ بسنابكهِ الورّاقينَ وعمالَ الحلمِ، ويصهلُ حتى ترْتجَّ مسالكُ بوْلِ الأحياءِ فينْحلُّونَ، وأصطادُ سرائرهم طيراً طيراً،
أصطادُ الجوّابيْنَ دمي فوق حميرٍ تنهقُ طولَ الوقتِ،
أنا قنّاصٌ

أرخيتُ عنانَ الأرضِ، وباشرتُ القتل على كل مضيقٍ يَصِلُ الأجسادَ بألْفتها،
ودفعت بأنثايَ إلى الريشِ المتطايرِ في الكونِ:
(سلاماً يا ريشُ)، وفي الريش توسّدْتُ يدي لأنامَ وأدفعَ أنثايَ بلِينٍ أكثرَ في الريشِ. الريشُ حنونٌ يصعد أحزاني ويكلمني عن أنثايَ: (سلاماً يا ريشُ)، ويا أنثاي سلاماً، وسلاماً يا ريشُ.
خرابٌ في الريشِ،
حصادٌ في الريشِ،
دُمىً وحذيدٌ في الريشِ، وغامضةٌ أنثايَ،
تمد يديها في الريشِ فأمسك معصمها وأسبّحُ للريشِ،
وأدعو: روناشتا
روناشتا
ريشٌ تحت لساني،
وعصافيرٌ خائفةٌ في الأحشاءِ فهل أهدأ روناشتا؟

بعد قليلٍ يكتبُ هذا الإقليمُ مراثيه،
ويلصقُ ذاك جنازات هادئةً فوق غباري
بعد قليلٍ ألمسُ أنثايَ، وأبكي، وأكوِّمُ أيامي حول النارِ
وأحيطُ الغدرانَ بأنفاسي،

وتحيطُ بأنفاسي الصاعقةُ
أكثرَ حَدْباً من أنقاضِ القلب ومن صدإِ الأسرارِ.
بعد قليلٍ يلهثُ قُدَّامَ سياجكَ عِجْلُ العاشق روناشتا
وستفرشُ بين قوائمه الليلَ، وأهدابَكَ، أو تستلقي كي تمنحكَ الفاجعةُ
سبباً لنزوحِ الحدَّادِيْنَ إلى القَحْفِ بكُوْرٍ يتوهّجُ فيه العالمُ كالكرز البريِّ، وبعد قليل تمنحك الفاجعةُ
فِلِزَّ التوتياءِ وسوسنةَ الأحجارِ.

بعد قليلٍ نعدو روناشتا
مُتّهَمَيْنِ بقتلِ عشائرنا، نعدو مثلَ شعاعٍ يخفقُ إذ تخفقُ أنثاهُ،
ويجثو،
يلتمُّ،
يَليْنُ،
يحرِّرُ أنثاهُ من السنواتِ ويشردُ في الأقطار.

آذار - ١٩٧٣

الفصيلة المعدنية

هاوية

مستسلمةٌ حيواناتُ الشاطىءِ للشاطىءْ
مستسلمةٌ كفاكِ لكفيَّ، ومستسلمةٌ أنهاري
لنواعيرِ الحقلِ وغرّافاتِ الأحجارِ.
مستسلمةٌ أبعاديَ للصرخات، وهذا نَفَسي
يستسلمُ حول حفافيكِ ويشحذُ مارجَهُ ويفاجىءْ
خيطَ الحبِّ المتدلّي من كوكبكِ الأبديِّ. نهضنا،
نهضتْ حيواناتُ الشاطىءِ بين ضبابِ الجسدِ المهراقِ وأنسجةِ الأشجارِ
وتزاحمتِ الأمواجُ على بَرزَخِنا فاستسلمنا،
واستسلمتِ الأمواجُ
فغزلناها وغزلنا جسديْنا بالغيم إذِ الغيمُ صهيلٌ وزجاجُ
وتلوَّنّا بالماءِ وبالقُبَلِ المائيةِ والأمطارِ.

هاوية

سبعُ ليالٍ وخواصرنا مستسلمةٌ لهتاف جماهيرِ تعبر ساحلنا وتنيخُ عليه هوادجها، وتحوم كبازيٍّ، أو تنقضُّ كبازيٍّ خاطفةً منّا الأثداءَ ورعدَ ترائبنا يا يأسُ،

وسبعُ ليالٍ وخواصرنا بِركٌ وبحيراتٌ مقفلةٌ بأنين الآلهة. الوقتُ هو الوقتُ: ليالٍ ذائبةٌ، سبعُ ليالٍ ذائبةٌ، ويدانا تستجمع كل أصابعها الخضراء على رسنِ الأفقِ وتجذبُهُ حتى يتداعى الأفقُ فنجتازُ خنادقهُ محمولَيْنِ على ومضِ دمٍ ونموتُ.

*

بهدوءٍ أرفعُ قبري منتظراً من يأخذهُ.
بهدوءٍ أجمعُ قلبي وجماهيري وواليَّ وأهلي،
وأغطي كل نباتٍ مجنونٍ، كلَّ حياةٍ تستشرفني في اليأسِ، وأهمسُ: عودي يا بيروتُ إلى النسيانِ فأعماقي جاهزةٌ ومهيّأةٌ كسريرٍ للأرضِ، ومنتصبٌ وقتي وسط فراغ الموت متيناً، لا يتقطَّعُ، عودي
وأقيمي في أبّهتي تحت ظلامٍ يتهادى، وفصولٍ تنفضُ أنفسها
من آثارِ الرَّعد وتسقطُ في أخدودي.
بهدوءٍ أهتفُ: جلَّ جلالي
إني مُنتَدَبٌ في الأنثى أستقرئها وأجوسُ قفاريَ فيها هَلِعاً من أشجارٍ تصلُ الظلماتِ بناقوسِ الظلمات، ومن أقوامٍ يختبئونَ وراءَ حصاةٍ أو سحليةٍ تقرضُ أطرافَ اللّه، ويضطهدونَ الغيمةَ والزوبعةَ الحبلى بجلاليَ. جلَّ جلالي في ميعادٍ خصَّصْتُ به المدحوريْنَ إذا نهضوا فوجاً فوجاً بمناجلهم يطوونَ روابي الحلمِ ويفترعونَ أقاصيَّ فأستقبلهم بهدوءٍ.. بهدوءٍ أرثي الأبعادَ وأوقظ آلهتي المتكئينَ على أخشابِ سياجي، فيخفُّونَ إلى نَوْرَجِهم بين مُجِدٍّ ينفخُ في الثيران، وبين كسولٍ ينثر بالمذراةِ القُشَّ على شَبَكِ الأرواح، وأهتفُ: يا أشجاراً لصق لساني انْدحري،
لا عالمَ إلّأيَ، وأسمع نبضاً قرب فراشي، وشفاهاً تقتنصُ السنواتِ على شفتيَّ:
« حبيبي،
مستنفرةٌ حولكَ أصدافي ونجومُ يديَّ، ومستنفرةٌ فيكَ أنا » .
وأنادي من نادتني: افْتتحي أول موجٍ وسَليهِ عن الأشجارِ، سليهِ عن الطرفِ المُرخى لستارِ الروحِ على حنجرتي، وتعالي مستجمعةً لهبَ الكافورِ وصوتَ غدٍ طاغٍ في أضواء شكيمتهِ.. أنت،
وخوفك أنت،

ودمعُك أنت،
وثلجُ أعاليكِ،
أما تأتينَ؟

جريتِ مع الأعضاء على مسرحها، وغسلتِ الليلَ وريشَ طيوري في عالمِها المغلقِ بي، وفردْتِ ملاءةَ صوتك لي فلمحتُ طوائفَ منقرضاتٍ وشبَاكاً تتقطّعُ في برزخي المستور، لمحتُ هوامّي المتخبِّطَ في مصباحِ المبتهلاتِ إلى ثدييَّ، وأكفاناً قُدّامَ منازلنا، وأناساً منكبّيْنَ على عتبات الماء يحوكونَ غبارَ الحلم لموجتهم، ويصيخون إلى الخزفِ المركومِ عليَّ. انْتقلي في أعضائي، في مسرحِها الأعظمِ، واقتحميني من أبوابي المحشورةِ بالأجناسِ وقولي: «ابْتعدوا عن حكمتهِ ومدائنه، ابْتعدوا عن أزمنةٍ لا يملكها». قولي: «شَرَكٌ نحنُ وصيادونَ، نقوّسُ أسماءً ومواعيدَ ليمحوها حَتُّ الروحِ، ونتبعُ حيواناتٍ متعبةً في الأحشاء، نلاطفها، ثم نمدُّ لها الأعلافَ ونرقبها مغتبطاتٍ تتوازى ثم تخرُّ من الغبطةِ وهي تحثُّ قوائمها لتقومَ وليس تَقومُ، وليس تقومُ نباتاتٌ ميّتةٌ، فنناديها منتفخَيْن من الكوبالتِ ومنثورِ الزّنكِ السائلِ في عضلات خواصرنا والسّاقيْن: انْهضنَ.. انْهضنَ، فقد أوجعنا الحبُّ واقلامُ الإنسانِ؛ انْهضن لندخلَ مدرسةً ونجرَّ مقاعدها وكراريسَ التشريحِ إلى الْوديانِ، انْهضنَ.. نريدُ معلّمةً وطباشيرَ لنختارَ فجيعتنا».

قولي:
«سيكونُ لنا موتٌ بين أغانيكَ وبيتُ
وسريرٌ لا يصحبنا غيرُ الغيمِ إليه،
وفراشاتٌ وخَشَاشُ.
وإذا احتضنتكَ ذراعايَ انطلقتْ
نحو ذراعيكَ طيورٌ، وتدافعتِ الأعشاشُ.
سيكون لنا أن نحيا بين أغانيكَ ونحيا،
أن نتهادى كشراعٍ ونسافرَ، أن ينسانا الوقتُ..
سيكونُ لنا بيتُ».
قولي: «هذا طفليَ»، لا

سأقولُ: أنا توأمُها ونهايةُ ما يأتي
وأنا ميثاقُ البريّةْ
وأنا سربُ قَطَا ينقرُ فيه الذَّكرُ الذَّكَر، الأنثى الأنثى،
ويدورُ فراسخَ ملتمساً ما يهديه إلى فجواتٍ في أغشيةِ الأفقِ لينفذَ منها أبعدَ من مرمى الصبحِ وموكبِه الشّيْخ، وأبعدَ من صرخاتِ تيوسٍ تتخبّطُ في سردابِ الملكوت؛ أنا توأمُها؛ توأمُ أطفالٍ كسروها حين هممنا أن نلتحفَ الأعماقَ ونُظهِرَ ما ادَّخرتهُ جوارحنا من بكراتِ خيوطٍ ونبيذٍ وأساورَ، حين هممنا أن ننشدَ ما أنشدتِ السوسنةُ: (النّهَرُ النّهَرُ
خبّأ عينيهِ وناما.
ما حدَّثنا،
ما قصَّ لنا عن طفلتهِ،
ما وشوشنا..
خبّأ عينيهْ وناما.
ناديناهُ، توسّلْنا،
أعطيناهُ حذاءً وقلنسوةً،
ما حدَّثنا،
ما قصَّ لنا عن طفلتهِ،
ما وشوشنا..
ناديناهُ وأعطيناهُ كلاما
فأفاقَ النهْرُ وحدَّثنا،
قصَّ لنا عن طفلتهِ،
وشوشنا حتى نمنا
ثم تمطّى،
أغمضَ عينيهِ وناما).

ما كان نشيدٌ،
كان عويلٌ يترقرق مثل الماءِ وينسابُ، وأنسابُ إليكِ مغطىً بصفيحِ صدىً وغُضارٍ أنفخُ فيه فيهذي ويبوحُ، وأهذي وأبوحُ، وأنسى مجرايَ فآخذُ مجراكِ مغيراً

بالأرضِ وبالسُّدُمِ المهجورةِ وغلالات الكربونِ على زبدي وعواصمه، ومغيراً بغواشيكِ عليَّ:

إلهي

كان نشيدٌ يترقرقُ مثل الماء، ولكن إناثكَ فرَّقْنَ جداوله وتعريْنَ؛

إلهي انظُرْ

ناموسي فوق فراش البحر تطرِّزُهُ الحورياتُ بأصدافِ خيانتهنَّ وتخزقهُ سفن الصَّيْدِ بحيزومٍ أحمرَ. كان عويلٌ في البدءِ، وكنتُ أضمُّ إناثكَ محتفلاً بنضارتهنَّ وبالمعدنِ يجري،

وإناثُكَ كنَّ يهدّلْنَ المعدنَ والطقس، ويستنبتْنَ الشيخوخةَ في االأمواجِ وفي أجنحة الطيرِ؛ قُتلتُ،

أكان لزاماً أن أُقْتَلَ؟

أينَ دمي؟

دمي الآن غزالٌ

يربضُ في نواسِ الساعةِ، تحت عقاربها، ساهٍ

عن قطعانٍ ربضتْ قبل الوقتِ وماتتْ،

بعدَ الوقتِ وماتتْ.

دميَ الآن يشلُّ عقاربهُ ويميلُ

حيثُ تميلُ بقايا المرأةِ بعدَ الحبِّ،

ويجتازُ دوائرهُ ويطولُ

ثَملاً بالتوتياءِ وبالحبرِ، وقاضٍ يقضي بين هزائمهِ.

هوذا بين هزائمه يتلألأ كالياقوت، ويَعْيَا فيميلُ

وأنا أقبضُ بالكفّيْنِ على ماسورةِ جرحي وأميلُ

صوبَ سديمٍ استغفرهُ، ونهارٍ يقرعُ شهوتيَ العذراء بقرنَيْهِ:

إلهي

خُذْ لإناثك قدَّاسيَ واجْعَلْهنَّ شريكاتِ الخردلِ والطمي، واسرجهنَّ لأهتكَ مجدَ الذَّكرِ العاصفِ في غايته. اجْمعني في الخوف وأسرجهنَّ لأقرأ ما أنتَ محوتَ. اجْمعني في اللُّبَانِ ولبلابِ الرَّحمِ. اجْمعني..

أينَ دمي؟

دميَ الآن طيورٌ،
وثعالبُ تمضي، وتخومُ.
وأنا اتحلّقُ حول دمي
واسدُّ على الأطيارِ مواردها حتى تتهاوى خلفَ دمي فأقومُ
قَوْمَةَ من يُسْتَهْدَفُ مَقْتَلُهُ،
واجرُّ رمادي بين عساليجِ الأعراسِ وأكواخِ بغايا آشورَ إلى صوتٍ يخزقُ ميقاتَ العشبِ، واستفحلُ مثل شرارٍ: عودوا
هربتْ سائمةُ الإشراقِ وودَّعني الموتُ القَيُّومُ.
وأنا أتقلّبُ فوق مواجعكم والمُّ حصى أجَلي
وأردُّ برفشي المخلوقاتِ إلى حُفَرِ القلب وأسمعكم تحت الرَّفشِ: تُرى من يُقلقنا يا ربَّ سليم بركات؟

نحن هنا معتكفونَ على منبعنا برداءٍ نتقاسمهُ في ساعات الموتِ، ومعتكفونَ على مَرْكَزِ ظُلمتنا، نتحاشاهُ، ونسقط في محرَقِهِ لندورَ مع الشهوةِ، إنْ مَسّتنا الأبديّةُ متنا، وجرينا نحو الإنسانِ المُسْدَلِ مثل قماشٍ فوق نوافذ رغبتهِ وفَلَلْناهُ، وبدَّلناهُ خيوطاً، ومزجناهُ بسحر الحيوانِ وفضَّةِ ما يبعثُ فينا الخوفَ؛ ومختصرونَ على المنبعِ، حين يوسِّعنا الكونُ نضيِّقُهُ ونضيقُ، ونزحمُ كلَّ ترابٍ أو نلجمهُ، ونعودُ فنلويه ونلوي أفراسَ انوثتهِ صوبَ اليأس: «اجْمعنا يا يأسُ وفرِّقْنا فيكَ». قواطعُنا مطبقةٌ فوق ظُهور فرائسنا، وفرائسُنا لا تهربُ إذ نَفْجُؤها: «يا يأسُ نريدُ فرائسَ أكثرَ عَدْواً يا يأسُ، وأكثرَ خوفاً حين نلامسُ مقتلهنَّ بقرنِ فحولتنا». لا بأسَ، هنا معتكفونَ على منبعنا بهدوءِ الفيروسِ، نجانسُ ما بين عُلُوِّ العالم والمُنْخَفَضِ الكُلِّيِّ لبهجتنا؛ لا بأسَ، نسمي أنفسَنا السّيلَ لكي لا يعرفنا السيلُ إلى أبدِ الآبادِ:
هدوءاً..

نحن المعتكفين هدأنا كي نتهيّأ للبُحرانِ، وللربّاتِ يقوّسْنَ أواسطنَّ ويضرعنَ إلى الجيرانيومِ وقضبانِ النومِ، ونعلمُ أن الربّاتِ سيستدركنَ ضراعتهنَّ فينهضنَ، ويقبضنَ بأيديهنَّ على عجلات مراكزنا، ويُخَلِّعْنَ الأخشابَ، وقوسَ مطارحنا الفولاذيَّ المُثْبَتَ حول الأخشابِ، ونعلمُ أنّا للحالِ سنلجمهنَّ كما نلجمُ كل ترابٍ، ونعودُ فنلويهنَّ

إلينا، أو نطلقهنَّ فيصدُمْنَ زجاج طبائعنا حتى يسقطنَ ونسقطَ فيهنَّ شظايا: المعتكفونَ على المنبعِ نحنُ: هدوءاً يا يأسُ، هدوءاً يا أرضُ، فأيدينا مَبْسوطاتٌ فوق بخار البُحرانِ، ومنبسطونَ على رُقَعِ الغَيْهَبِ نحنُ، ومنشورونَ على حافاتِ الحربِ، نرى ما يشبهنا ونرانا حول غريبٍ يضبطُ كوكبَهُ وعناكبهُ ويجزّىءُ نارَ الحبِّ؛ نرانا متّكئيْنَ على دهشتهِ وسنابلهِ، مندلقيْنَ عليه وعاليةٌ أذرعُنا،

مستعجلةٌ، عاليةٌ، تهوي فوق كواكبهِ،

فوقَ الجغرافيّةِ والحلمِ..

فضاءٌ نحنُ، فضاءٌ حول غريب

يتسلّقنا درجاً درجاً، ويكسِّرُ في خطوته الأدراجَ، ويدخلنا مجتازاً أبّهةَ الروح إلى قدّاس الآلةِ والأحشاءِ ليسندها بدعائمهِ، أو ليقيمَ حواجزَهُ بين النيلوفرِ والعظمِ ـ أفقْنَا:

«يا يأسُ لنا أثداءٌ ساهرةٌ،

وجروحٌ لا يدخلها الدَّاخلُ إلا محتفلاً»

مشقوقيْنَ أفقْنَا

وضربناهُ بحاجزهِ وحجزنا ما بين النيلوفرِ والعظمِ بخيطٍ وهتفنا:

لا غيبَ لنا..

إن نساءً يجلسنَ على صخرتنا كالغيبِ، ولا غيبَ لنا

إن نساءً يركبنَ رواحلنا ويبدِّدْنَ متاعَ قرىً باركناها وخفقنا تحت منازلها بقلوبٍ أثقلَ من شجرٍ أو مُعْتَقَلٍ، وبكينا:

إن نساءً يرحلنَ.. لماذا؟

نحن المعتكفينَ على المنبع نحضرُهُنَّ ونُنْشِدُ في المنحدر الصَّعبِ وفي الفطرِ المتكوِّمِ تحت توازننا يا يأسُ، ونمسحُ أرجلهنَّ بعشبٍ وزنابقَ طافيةٍ في جدول قسوتنا: نُظرنَ.. انْظرنَ، حفافيكنَّ اشتعلتْ، وجداولنا انْسَلَتَتْ عنكنَّ كثوبٍ فغمرتُنَّ الماءَ وأقلقتُنَّ حشائشهُ. انْظرنَ، أصابعكنَّ رشيقاتٌ وهي تجسُّ مقابضَ موجتنا. انْزعنَ موجةَ ثم انزعنَ خواصرنا عن ياقوتٍ ونواعيرَ تدورُ على ساقيةِ الحَوْضِ، وأطفئْنَ صواعقكنَّ، فها نحن نغوصُ مع الطّرَفِ المسنونِ لهذي الأعراسِ إليكنَّ ونصعدُ حرْدُبَةَ الليل ثقَالاً مسنونيْنَ نشدُّ بمغناطيسِ الوحشةِ قُطْبَ اللهِ وقطبَ عناصرنا؛ نْزعنَ عناصرنا، وتبعثرنَ على الجوريِّ، على الكينا والدَّردارِ لنجمعكنَّ مع النَّفَسِ

المتدفّقِ حين نفجّرُ هالتنا بين الأرضِ وبين مخاوفها المعقودةِ عند نهاياتِ الأغصانِ.. تبعثرنَ، تبعثرنَ، لنا عند تلاقي رعشتكنَّ مع الرملِ سلامٌ كالدِّرعِ وعائلةٌ تتريّضُ في مأتمها، ولنا في المأتم كوبالتٌ وزَبَرْجَدُ تاريخٍ طاغٍ يا يأسُ؛
غَشَتْنا غاشيةٌ:
مختصرونَ على المنبعِ نحنُ، ومأخوذونَ بمنبعنا
مأخوذونَ بمركز منبعنا
مأخوذونَ بنصفِ القُطْرِ، ومأخوذون بقطرِ الدائرةِ
مأخوذون بكلِّ جمادٍ
مأخوذون بأنفسنا يا يأسُ؛
قَلقْنا:
إن بلاداً ترسمنا الآنَ ونرسُمها.
إن بلاداً تطلقنا من قفصِ الصحراءِ ونطلقُها.
إن بلاداً تتلمَّس مضجعنا لتنامَ؛
قَلقْنا:
محفوفونَ بأعضاءٍ وصيادلةٍ وجواسيس من الوردِ، وملفوفونَ باثواب النّهْرِ، نوجِّه كوكبنا وكلابَ الريحِ جنوباً ونقومُ فنتبعها متخطِّيْنَ البحر العربيَّ، وأوقيانوساً خلف البحرِ العربيِّ، نصيحُ: «ابْتعدي يا أعشاشَ الماءِ، أمِرْنَا ألاَّ نرتاحَ،
ويا ماءُ اتْبعنا..».

للأنثى هذي الصاريةُ
للأنثى هذا الخوفْ
للأنثى كل حصادٍ،
ولها منبعنا..

معتكفونَ على المنبعِ نحنُ..
ومعتكفٌ من ثالثِ موتٍ لي فوق منابعكمْ: عودوا.
هربتْ سائمةُ اليقظةِ، واستوحشني العصفورُ وغصنُ صلاتي الحجريُّ
وتبدَّلَ فوق حجابي الحاجزِ حالُ النخلِ، وبدَّلتِ الأسماكُ حراشفها حتى انشقَّ

حجابي.
وأنا بَعْدُ صدىً وحنينٌ يرشح من فَخّارِ مجاهله،
وأنا دانٍ وقصيٌّ
أحمي بيديَّ وجوهاً جفلتْ تحت قناعي
وأطمئنُها كالأمِّ، وأحنو يا يأسُ عليكَ:
«أكانَ العدمُ المقضيُّ
سوطَ الحوذيِّيْنَ يُقلُّوْنَ الأرضَ إلينا،
أم خطواتِ نساء بين جراحِ العنّابِ؟».
هربتْ سائمةُ اليقظةِ ثم انشقَّ حجابي
فتلمستُ بقايا المرأةِ حول جداولها وتقصَّفْتُ..
لماذا؟../

لقطة بعيدة لفراشة

تتوارى خلف ذؤاباتِ العشب رويداً فرويداً
وتبينُ إذا التحمَ العشبُ مع العشبِ وتعلو،
تتداخل هازئةً بالضوء،
وبين الضوء تقسّمُ هيكلَها وتغيبُ.

لقطة بعيدة لجبل

عارٍ،
تتقدَّمُهُ الأحراش المرفضَّةُ من رائحة الحبِّ وقد خلعتْ كلَّ لباسٍ وانتشرتْ قُدَّامَ سنابكه.
وهو يمسِّدُها بيدٍ،
ويطوِّقُها بيدٍ،
ويرص حجارتَهُ كالحراسِ على مدخل مخدعهِ ويغيبُ./

خَفَّتْ بيـروتُ إليَّ مـزيّنَةً بشـريّات الأحـجـارِ وطَلَع إناث يتـوسّطْن زلال الخـوف، ويفرغنَ محاجرهنَّ فتمتلىءُ الفسحةُ بين البحرِ و«بكْفَيّا» بأَساقفة ووعولٍ تحرنُ وهي تشمٌّ رماديَ. خَفّتْ بيروتُ إليَّ مولولةً: «كلُّ حصاة تلثمُ أطرافكَ أو ترجوك لتبقى، وتقيم مع الأشجار عِمادةَ أنثى تتساقط من غربال مراثيكَ؛ هلمَّ بنا لمراثيكَ..»: إلهي إن إناثكَ يولدنَ ولا يولدنَ، ونصفيَ مبتهلٌ في زنّارِ الآلوسنِ والعلّيق، أرحني لأريحَ جبيني فوق الصاعقة. العذبُ أنا، وسُماني الأنثى تتحدَّرُ من مخبئها صوبَ سفوحي عاماً عاماً فأضيعُ، وأعلمُ أني عذبٌ في لألاءِ ضياعي، وخجولٌ كالأبراجِ، وثمةَ أنثى تقتلعُ الأرضَ وتعدو في محوريَ الرَّطْبِ وتندهني:

«هاكَ جناحي
مُذْ خلقتْكَ الأنفاسُ ورائحتي، اضطربتْ
وحدةُ هذا الربّ، وقسّمتُ على التّرَفِ المجتاحِ
مطري وخلاخيلي ورياحي
وتوكّأتُ على كل شعاعٍ وغبارٍ،
وتؤكّأتُ على نَفَسي حين قصدتُكَ بي ووصلتُ..».

إلهي
ثمةَ ليلٌ،
وإناثُكَ لا يولدنَ.. لماذا؟.

سيناريو للشجر

نهار، لقطة قريبة لأرض مغطاة بالأوراق. تتقدم الكاميرا ببطء ثم تتوقف عند جذع شجرة. يرافق اللقطات وقع حوافر هادىء. حركة تراجعية مع اشتداد صوت الحافر. لقطة كبيرة لجذوع عدة أشجار. الكاميرا تتحرك عمودياً ببطء مع قامة الأشجار، ثم ترتفع بسرعة حاصرة رؤوس الأشجار مع مساحة من السماء في لقطة قريبة متوسطة يصاحبها صهيل قوي.

يا شجراً لسنا خاتمهُ
يا شجـراً ليس مراثـيَ أو قُبَلاً، نحن عصفنا فكسرنـاكَ، وهدْهدْنا هاجسـنا فوق

كسوركَ. يا شجراً كانَ، ويا شجراً ليسَ حريقاً أو جسداً، ماذا بعدَ عراءِ دمٍ تكسوهُ بريحانِ دعابتنا، وتعرِّيهِ فتكشفنا مضطجعيْنِ على شفرة موتكَ؟.. خذنا يا شجراً ليسَ لنا.

سيناريو للثلوج

نهار. لقطة بعيدة لأفق ثلجي يرافقها صوت حيوان. انقضاض في لقطة تحصر الثلج مع اشتداد صوت الحيوان. حركة صوب اليسار تستقر على أثر في الثلج مع صوت خفيض. انهيار خارج الكادر تهتز معه الكاميرا دون أن تنتقل من اللقطة السابقة. صوت مرتفع لمجموعة حيوانات. صمت مع لقطة لهطول الثلج من الأسفل تستمر حتى تغطي الكادر. صوت خبطة ثم عويل حيوان.

واطئةٌ كُرَةُ المُلك، سقوفُ المُلكِ. نزحنا عن مجدِ سنابلنا مأسوريْنِ بضوضاء جموعٍ يستعرضها القرميدُ ويخذلها الموتُ إذا انسربتْ بين سُرادقه؛ ونزحنا عن غيمتنا مخصوفَيْنِ بأكام الثلجِ، نديرُ كُراتِ المُلْكِ البلوريّةَ في قُزَحِ القتلِ:
تهيّأ يا مدَّ حناجرنا
سنصاهرُ مدَّ الثلجِ، ومدَّ أنوثةِ هذا الثلجِ، ومدَّ دمٍ ليس لَنا.

ما كان نشيدٌ،
كان غبارٌ،
كان دمٌ،
كنت مع الرَّبِ تحومينَ على قنديلي
فتوسلتُ إليكِ،
إلى نارِ تويْجٍ،
وغُصَينٍ،
وشعاعٍ محلولِ
وتوسّلتُ إلى غيمٍ يتخبَّطُ حول مساكبِ ثدييك؛ وغيمٍ يتوازى في موجهما ويكابدُ خوف الحَلْمَةِ؛ غيمٍ يُرْجِفُ ثدييكِ؛ وغيمٍ يدفعُ لولَبَهُ الربّانيَّ إلى عِرقهما؛ غيمٍ يتراجعُ

كالسّيّافِ ليضربَ فوضى الثدي، وغيمٍ يتجمهرُ تحت الثدي ويشعلُ فوضاهُ؛ وغيمٍ يتبدَّدُ عن ثدييك..

(أثدياكِ نحاسٌ؟

أنحاسٌ قنديليَ؟)

وحدي تتهبّطُ فوق دمي الهالاتُ فأسندها، وأشمُّ الأفْقَ: «تعالوا

مدٌّ كالحبِّ، يدي فوق المدِّ، تعالوا

وخذوا مقعدكم في النهرِ، وفي فيءِ السنبلة ابتدِعوا الغيم وأصغُوا لغزالٍ يتلفّتُ بين أفاريزِ الوقت ويهدأ، ثم يحكُّ قوائمهُ ويخرُّ من الغبطة مَيْتاً..» وحدي، لا فرقَ، كلانا

يقفُ الآنَ ويضحكُ: يا داليةً،

يا كرزاً وزبيباً، يا حبُّ

ماذا أبقيتَ لنا؟

ماذا أبقيتَ لقبريْنِ نجرُّهما نحو نهارٍ مجروفٍ؟

ماذا أبقيتَ لنا في الخوفِ من الخوفِ؟

حيواناتٌ تنهضُ،

حيواناتٌ تَستنهِضُ نارَ قوائمها،

حيواناتٌ تتقدَّمنا صوبكَ يا حبُّ،

أيا داليةً،

يا شجراً ليسَ لنا،

خُذْنا.

ايلول ـ كانون الأول ١٩٧٣

للغبار لشمدين،
لأدوار الفريسة وأدوار الممالك

البراري

جَفَلتْ عُجولُ السهل حين أحاطَ بي
نبعٌ، وهرولتِ الزنابقُ والسهولُ
فغسلتها، ونزعتُ عن نبعي غلالةَ مائهِ
ليضمّنا ثوبٌ يهيِّئهُ العويلُ

وانتظرتُ الأرضَ تسترخي ككاهنةٍ أمام فراشيَ الحجريِّ، وانتظرتْ زرافاتُ الغبارِ إناثَها، وتدافعتْ بين الحمائمِ من حميرِ الوحشِ أسرابٌ تموجُ خطوطها كمصائرٍ، وجذبتُ أقفالَ الينابيع الخفيفةِ كي أرى جيلاً يجمهرُ يأسَهُ ويَغيرُ مخفوراً بأجرامٍ وحدّادينَ: إني حافلٌ بسلالة مشغولة، ومعي القنادسُ والسهولُ.

والآبنوسُ يشدُّني شداً، وينثرني الصهيلُ
لؤلؤاً، فترى القبائلَ عادياتٍ
بين لؤلؤة ولؤلؤة، تخضُّ سماؤها
قرَباً من الأحشاءِ ينهضُ بينها الفتحُ البديلُ.

جُرَّني يا موتُ، جُرَّ منابعي وسطَ انتخاب القتل، وسط النُّخبة: الآن اعتكافي مثل أسيادٍ يجسُّونَ العوالمَ جَسَّ فحلٍ حاذقٍ لإناثه. الآن اعتكافي مترعٌ بكواكبٍ مذهولةٍ مثلي، فمن يعدو بقلبي جاهراً بمجيءَ حلاَّجينَ، أو بمجيءِ غلمانٍ يواسونَ الممالكَ بين هاوية وهاوية؟ دعوني عاقداً عدَمي على أشيائه.

فأنا انتخابٌ غامرٌ، وأنا الأصولُ
والمدى درعٌ، وإني مُحْكَمٌ كالدرعِ، لا موجٌ يجاهر بي،

ولا يغتالني المجرى فيفضحني المسيلُ.

عُدَّني يا ربُّ، إني مفردٌ أصغيت للنسلِ الذي التحمتْ مساكبهُ، وإني مفردٌ يطوي مباهجهُ ليبدأ سيرةً معلومةً:

«للمرءِ حقّانِ: الْغبارُ، ومجدهُ.

للمرءِ حقٌ واحدٌ،

للمرءِ ميْتَتَهُ..» أختياري مفردٌ يا ربّ: «ثمةَ نسوةٌ يفرشنَ ميعادَ الرياحِ لأمَّةٍ تَحبو كطفلٍ، ثم يغلقن النهار مقامراتٍ باشتعالٍ مُؤنْسٍ».

هذا اختياري

فلتمتْ أرضٌ بأرضٍ، ولتَضِلَّ يمامةٌ في الأفق من صخب المعادنِ، حيث أنتشلُ الفضاء كقرصِ قصديرٍ من النبع الذي يحنو المحاربُ فوقه بدروعهِ:

هذا اختياري

فلتمتْ أرضٌ بأرضٍ، ولتَنَمْ في خوذتي الأخلاطُ من كُرْدٍ وجوَّالِيْنَ: إني فسحةٌ منذورةٌ للكيمياءِ، وفي يدي كبدٌ أدور به كنوّاسٍ على الأعشاشِ:

مُرّي يا حمائمُ،

يا عصافيرَ الغضارِ،

ويا غرانقُ،

يا إوزٌ،

ويا سُمانى،

يا دجاجَ الماءِ،

يا بازيٌ،

يا حدآتُ،

يا جُهْلُوْلُ،

يا دُرَّاجُ،

يا بطريقُ،

يا زرزورُ،
يا خُطَّافُ؛ مرّي، فابتهالي ليس إلا نزعةً من آدميٍّ يحتفي باناثه إذْ هُنَّ يفتحنَ الغضارَ كوردةٍ للنيزك الملكيِّ، أو يخطفنَ محور بعلهنَّ مشاكسات رعدهُ؛ مرّي وئيداً يا قرنفلةً مسوَّرةً بانفاس العناكب؛ قد تطاوعني البراري مرَّةً في يأسها فأردُّ كلَّ فصيلة رَدَّ الصواري نحو موجة مأتمٍ، وافرّقُ الأكبادَ بين مكيدة ومكيدة، ولربما دحرجتُ أقمارَ البراري في غشاء يابسٍ وقذفتُ كل مدينةٍ في يأسها، وأنا أُديرُ الوقتَ كالخزَّاف، مستنداً إلى كرةٍ تفيءُ إلى جوانبها الفلولُ.
ولربما سيَّرتُ أقماراً على إهليلجِ الصرخات، أو
أحنيتُ جذعي فوق نجم محاربٍ،
وكشفتُ كيف يجيءُ موجٌ هازلٌ مستطلعاً موجي فيهذي الأرخبيلُ.
ولربما شيَّعتُ سوسنةً إلى جرحٍ وعابثتُ الموالي حاشداً في خوذةٍ مشقوقةٍ شمساً يفاجئها الأصيلُ
بانقسامٍ مُذهلٍ؛ بالعشب يحشدهُ دمٌ أو زنجبيلُ
ولربما غيَّرتُ مسرى طعنتي نحو اعتدال الروحِ، أهتف: ساعديني يا لبونات العراء، ويا صفيحاً قادماً في أسره الجسدُ الصقيلُ،
ساعديني يا حُبارى القتل، إني حازمٌ أمري على شَرَكٍ سأدفع نحوه الأيامَ والريحَ النفيسَةَ، خائضاً في بركةٍ من تُرَّهات العالم المحلولِ مثل كتابةٍ، ولربما أمسكتُ قرميدَ البيوتِ مُقبِّلاً هذا الزجاجَ، وذاكَ، أو هذا السياجَ، وذاك، أو متسائلاً: ماذا ستحمل لي بيوتٌ حلوةٌ؟ ماذا ستحمل لي حجارتُها؟ وأين النحل؟ أين طنينه فوق الأزاهير الجسورةِ؟ أين مَنْ ألْقَتْ إلى لغتي زجاجاتٍ مكسَّرةً، وأطلقتِ العنادلَ في خرابٍ حائمٍ كالصقرِ؟. مُرِّي يا لبوناتِ العراءِ بمأتمي، وأحِطْ بنعشي يا عراءُ.
ها هي العرباتُ تأخذ شعبها متحاذياتٍ تحت خنشارِ السفوحِ، وها هي البلدان تركضُ، والهواءُ
يستطيرُ كقلبِ عاشقةٍ؛ أحيطي يا لبوناتِ العراءِ بمأتمي، فدمي عَجُوْلُ
والمدى مثلي شريكٌ قابضٌ بيدٍ على ميزانه،
والأرضُ تعقد عروةً في وسْطها رئةٌ وميزانٌ ثقيلُ:
«كلُّ نَفْسٍ أحضرتْ يحمُورها،
والموت أحضر جُزَّةً وقرونَ كبشٍ..» يا عراءُ،

يا لبونات العراء، ويا حضارات يخبئها السنونو في جناحٍ مُتْعَبٍ، وأقودها في طَيْلسانِ الرمل يشملُني ويشمُلُها الرداءُ..
ها هي العربات تأخذ أرضها،
والجمهراتُ تموج بين فراغ أشكالٍ مهيَّأةٍ لها بدءٌ طويلُ.

«كلُّ نفسٍ أحضرت يُحْمورها،
والموت أحضر جُزّةً وقرونَ كبشٍ..»، والعويلُ
حائمٌ كالصقرِ. إني حاملٌ غصن المشيِّعِ، لابسٌ ما يلبس المحزون، لكني أحاذر أن تراني نسوةٌ أشعلنَ خرنوبَ البراري في صفيحٍ أجوفٍ، وجمعن أعشاشاً على اثدائهنَّ كـأنما دفعت بهنَّ ذكورةٌ للمسرحِ: أحتملِ، أحتملْ يا قلبُ، يا زريابَ غرِّيْنٍ وسَفْسَطةٍ فإني حاملٌ غصنَ المشيِّعِ، لابسٌ ما يلبس المحزونُ، لكني أمدُّ يديَّ تلتقطان خيطَ طفولةٍ منهوبةٍ، وأدير وجهي عارفاً أني سأُقْتَلُ تحت سقف أمومةٍ أخرى، وتحت جناح إمرأةٍ تلامسُ زينتي بانامل منهوبةٍ؛ ها الجمهراتُ تموجُ:
إني راحلٌ،
والأفُقُ يهمزهُ الرحيلُ
وانهدامٌ سيِّدٌ يلوي باعناق السهول إلى دروعٍ أُسدلَتْ
فوقَ النهار فلا تَرَى منه سوى شرخٍ يلامسهُ عواءٌ أو هديلُ.
وانهدامٌ سيدٌ يرجُّ مثل الثدي مختصراً انينَ فريسةٍ، ودمٍ يجانسهُ الأفولُ.
كلُّ نَفْسٍ أحضرتْ يُحْمُوْرَها، وأتتْ بناتُ الوعرِ يملأنَ السلالَ بابجديَّات مرقَّطةٍ، ويخلعنَ البُصيلاتِ البقيةَ من فضاءِ هاربٍ في سربهِ؛ واتى المشيِّعُ: «أيُّ قاماتٍ ستختارُ السلالةُ؟» أحضري يا نفسُ ما أحضرت من حبقٍ حديديٍّ فإن الجيل يطلق صقرَهُ في غابةٍ ويهيمُ مغسولاً ببلَّورِ الأنوثةِ، مالئاً أبواقهُ بلهاث مامُوْث وتَيْسٍ أشقرٍ خارتْ قوائمهُ. أركضي يا نفسُ، ثمَّتَ جمهراتٌ، ثمَّتَ ارتفعتْ قرونٌ مثل لبلابٍ نحيلٍ أخضرٍ، وتزاحمتْ في منبعي الهالاتُ والهلعونَ: لستُ مدينةً، لست انتظاماً ممعناً في حَصْرِ مخلوقاته. هيا اركضي يا نفسُ، فوضى صندلٍ جذعي، أركضي في جُلَّنارٍ، في عقيق باردٍ، وسَلي وبوحي
واجعلي من عارضٍ أرضاً، ومدّي عارضاً
للجمهراتِ تجيءُ في خزفِ المُسُوْحِ.

فَرْسَخٌ مُلْكي، وكَمْ باعدتُ بين حدوده يا نفسُ، كم سوَّرتُ ينبوعي بجلد لبونةٍ، ونهضتُ بين سناجب الأبنوسِ متبوعاً بجيلين استوائيين، أو بفصائلٍ ثدييَّةٍ. كم ضعتُ، كم ضيَّعْتُ في أثري شعوباً صرْفةً، ومسحتُ ظهر أتَانها بخلائقٍ كالليِّف. كم كنتُ الوحيدَ الفردَ يطلق كوكباً لصقوره، ويرى عراكَ معادنٍ مذعورةٍ. كَمْ جاءني النسرينُ يدفع شمسه كفريسةٍ، وكَمِ الندامى غافلوا أيامَهم ومشَوا بأجراسِ السمندلِ في جروحي.

فَرْسَخٌ مُلْكي، وأزعمُ: فرسخان؛ وعرعرٌ جسدي، وأزعمُ: ردهةٌ بين الصفيحِ.

لي خِلافٌ آسرٌ في كل جوفٍ، وارتباكي

كارتباك فجيعةٍ صعدتْ إلى ميعادها

ومشت كما تمشي الكراكي

في ذهولٍ مُحْكَمٍ يا نفسُ؛ لي ميثاقُ كلِّ فجيعةٍ، لكنني

ميثاقُ شعبٍ جئت أضرمهُ، وأذهبُ في الضَّريْمِ إلى المديحِ

عالياً، لكأنَّما غيَّرتُ موضعَ نجمةٍ وشردتُ أبعدَ في غلالاتِ العذوبةِ ساحباً ذيلَ الرداءِ عن السفوحِ.

أيُّ نَفْسٍ أقلقتْ أيْلَ المدائحَ،

أيُّ عشبٍ مُسْكرٍ يعلو ويرفع لي مديحي

في إناءٍ مُسْكرٍ من أرجوان النعمةِ؟ أنطلقي إذن يا نَفْسُ، أبعدَ، ثم أبعدَ، عالياً يا نَفْسُ كي أرمي فتوحي

مثلَ سمَّاقٍ وفلْزٍ رائبٍ؛ يا نَفْسُ إنِّي جئت من يأس المعادن قاصداً يأسَ السلالة في حنوٍّ بالغٍ، وأحدِّثُ الحيوات أحياناً حديثاً مفرطاً في تُرَّهاتِ رموزه:

«لو أن عمالَ المدينة حطموا ماسورةً، واستأنفوا غسلَ الغيومِ بحمضِ كبريتٍ وعادوا آخر الليل انطوائيينَ، كلٌّ يستردُّ وشيعةً من حلمه ويضمّ أسلاكاً كطفلٍ؛ لو بكى الطلابُ والحرسُ الحكوميون تحت جدار مدرسةٍ؛ لو أنّ ستارةً سقطتْ بشرقيِّ المدينة واستعادَ المسرحُ الجسدَ الذي سحلوه من حيٍّ لحيٍّ، لو تراكضتِ البيوتُ بلا لجامٍ أو قلاداتٍ تضيءُ شكيمةَ المقتولِ، لو أن الجسورَ تباعدتْ لرأيتموني عالياً أرمي فتوحي».

أيُّ نَفْسٍ أَقْلَقتْ أيْلَ المدائحِ،

أيُّ عشبٍ مُسْكِرٍ يعلو ويرفعُ لي مديحي؟

قد عقدتُ مساحباً من تُرَّهاتٍ حلوة، ونفختُ في كوري: أنا الحدادُ أُطلقُ أسرَ أنثى المعدن، ألانثى التي جذبت عجولَ الزِّنْك من حيزومها وتقدمتْ في غفوة الينبوعِ توقظُ وردةً من نيْكَلٍ وغصونَ قصديرٍ تراختْ، ثم تقتحمُ الذكورةَ. إنني الحدادُ: مَنْ يعدو بجمري، بالرقائقِ من حديد الجمرِ؟

عُشبٌ مُسْكرٌ يعلو ويرفع لي مديحي

والقرامطةُ الذين تبادلوا في دورقٍ أعلامهم،

يَشْكُونَ ضيقَ الأرض؛ والملكاتُ يستوْقِدْنَ في المدِّ الفسيحِ

طمثهنَّ؛ تدافعي يا نَفْسُ،

عشبٌ مُسْكرٌ يعلو ويرفع لي مديحي

ويمسُّني درعُ السمندلِ حين أحني قامتي لسمندل، ويمسُّني بانٌ فأرفع درعَهُ مستوْفزاً حيثُ الحياةُ هياكلُ ورفيفُ أجنحة تزاحمُ بعضها في قبَّةٍ مكسورة. يا نَفْسُ عودي: لن تكون حرابُنا ريحانَ أنفاسٍ، ولن تتواثبَ الأجرامُ في حجراتنا كأرانب؛ سنعود نحو بلادنا، نحو الحظوظ ونحو ريحانٍ سأجثو تحت قامته أباعدُ بين أوراقٍ لها قُزَحيَّةٌ من مخملٍ، وستجهش الأبعادُ في عينيَّ صارخةً: خذينا يا طفولةُ.. لا، أركضي يا نَفسُ إني مالىءٌ درعي بغسْلينٍ وفجرٍ أرقطٍ كالنِّمْرِ، إني قاذفٌ قلبي وجيلي في قرنفلةٍ، وإني قادمٌ خالٍ من الأحشاء والرئتين، خالٍ من كلىً، خالٍ من الكبد: أرفعي درعي، أرفعيه لنخلة أو وردة، فلقد نهضتُ أمام نسليَ طاعناً في نبعه، مثلي كمركبةٍ لها مئتانِ أو زيْدَتْ من الأفراس، مثلي مثل مفجوعٍ يدقُّ على صفيحٍ لامعٍ بهباته وشموسه، ويعود أكثرَ وحشةً فيمازجُ الأرحام بالأعشاشِ. مثلي مثل هذا الشعبِ.. فلترفع دروعي نخلةٌ أو وردةٌ ولينبثقْ هذا الحديدُ

بين نافوراتنا، ولينبثقْ عَدَمٌ مديدُ

كي نقيسَ رياحَنا في ظله،

ونطوفَ جمعاً حاشداً اقدارَهُ في قُبَّةٍ مكسورةٍ،

أو جُرْن عرَّافٍ وأرديةٍ يعود بها الشهيدُ.

ليتها رفعتْ دروعي، ليتني غَمَّسْتُ جسمي عارياً في عُصْفُرٍ، ورأيتُ كوكبَهُ يدورُ بهِ الصعودُ.

ليتني لامستُ لَمْسَ الظنِّ ما يخفيه قوسُ أمومةٍ طرفاهُ في نبعٍ، وفي النبع الهوادجُ والمحاريثُ، التوازنُ، واشتغالُ فصيلةٍ بفصيلة. ليت الحناجرُ أحْكَمَتْ إقفَالها وتنفَّسَتْ بحناجر القصدير، ليتَ تكسَّرتْ واستَلَّ من بِلَّورها هذا الصعيدُ

حَرْبَهُ وزرودَهُ،

واستنهضَ الحذقيْنَ حيث سنُونُهم بَوْصٌ وقُنّبُ خيمةٍ مزحومةٍ بمالحِ الإنسانِ؛ ليت الآلهاتُ نزلنَ من بلَّورةٍ في مقتلِ الإنسانِ يستودعْنَهُ خلخالهنَّ وجلدَ جاموسٍ؛ وليتَ تبادلتْ نخبي الحشودُ،

حين قلَّبْتُ الغبارَ كدرهمٍ،

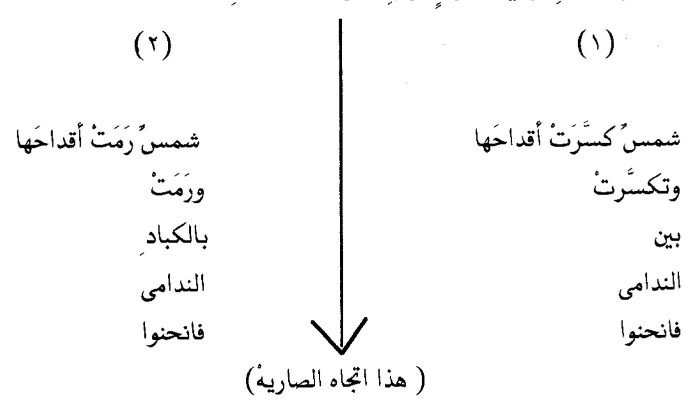
ورأيتُ آبائي ووقتي مائلاً كالصاريهْ

وهتفتُ: يقتلني البعيدُ

ثم تمحو الهاويةْ

خُوَذَ السنابل إذْ تقومُ إلى صلاة الدَّفنِ في أعضائيَ المتراميةْ.

من يدَّعيني الآن؟ أيُّ كواعبٍ أمسكنَ حيزومَ المدينةِ، ثم أطلقنَ الفحولةَ من قواريرِ الغبارِ؟ وأيُّ مقتولٍ توازنُ مَوْتَهُ شمسانِ:



أوَ يدّعيني بارقٌ يمحو كما تمحو حدودي الهاويةْ؟

أوَ تدّعيني خوذةٌ؟ إني جمعت هياكلاً بهياكلٍ،

وضحكتُ للشعبِ الذي اجتمعتْ به الأهوالُ في مرآتهِ،

ونحرتُ ساقيةً لنار الساقيةْ

ولثمتُ ماءَ الساقيةْ

ورأيتُ في حصبائه أمي ؛ رأيت شعوبي اختلطتْ، وقلتُ : تباركي يا نَفْس، إنَّ الترجمانَ مأتمٌ ؛ وتباركي يا نَفْسُ، هذا صاحبي قد عاد من أيامه، هذا طلالُ : أتذكرين شملتُهُ بالرَّنْدِ والنعناعِ واستنفرتُه فاستنفرَ الياقوتَ ثم طوى جوانحه على بلد ، وأطلقَ جرحهُ؟ أو تذكرين صرختُ : يا لجَمالِ ما أهرقتَهُ من حزن هذا اللَّوْتَسِ العربيِّ؟ ثم صرخْتُ : هذا صاحبي يا نَفْسُ، هذا لوْتَسٌ مُلْقى على ماء تكاد شفاهنا أن تستحمَّ به، وهذا صاحبي يا نَفْسُ، هذي زوجُهُ ودروعُهُ، وأنا تكافؤ صرختينِ تناهتا من خندقٍ، وأنا الذهولُ

قاطعٌ كالوقتِ يهزجُ بينه وقتٌ بتولُ.

يا نَفْسُ هذا صاحبي،

يا نَفْسُ هذي نجمةٌ موصولةٌ بخيانة مُتعاليَةْ

وخيانتانِ دمي : بلادٌ أهرقتْ، والهاويةْ.

وخيانةٌ هذي المدينةُ حيثُ تغمرُ ريحُها ريحاً فلسطينيةً بحثالةٍ من أبجديات النخيلِ ورملها ؛ يا نَفْسُ هذا صاحبي قد عاد من موتٍ دمشقيٍّ إلى موتٍ أرى فقراءَهُ مستوحشين يكسِّرونَ جرارهم في حجرةٍ من أبجدياتِ النخيلِ، ويرجعون إلى الينابيع الخفيفة عاصبين جباههم بمكيدةٍ وأنينِ سوسنةٍ، وأهتف : مُرَّ، مُرَّ طلالُ، انَّ العاصمةْ

رفعتْ إليك كتَابها وقضاتها،

وتثاءبت مدنٌ كأنَّ المحكمةْ

وهجٌ لمدفأةٍ تراخى نائمٌ من حولها، أو نائمةْ.

والشاهدانِ دمي وزنبقةٌ ؛ أتذكرُ كم كتبنا عن جنونِ كتابةٍ، كم قلتَ إن الطاولةْ

ستكون آخر قاتليكَ، وإن شمسَ السنبلةْ

ستنامُ في «الشياحِ»، إن دفاتر الصحفيِّ سوف تمرُّ بين «المسلخِ» الباكي وبين العظم، إنّ القنبلةْ

فرحٌ، وإنك ذاهبٌ نحو التواريخِ المعادةِ كالصدى والمهمَلةْ؟

ستنامُ؟ أعرف أن غصنَك ذاهبٌ لينامَ، أن ثمارَ هذا الغصن والأوراقَ ذاهبةٌ وجذعك ذاهبٌ لينامَ، أني ذاهبٌ والريح ذاهبةٌ، وأرضك مثلنا ستنامُ : فاملأْ راحتيك بخردلٍ وقطيفةٍ، وانثرْ زبيبك في ظلامٍ أخضرٍ تجتازُهُ الأجسادُ مثل القافلةْ

واذهبْ، فإنك ذاهبٌ نحو التواريخِ المعادةِ كالصدى والمهمَلةْ.

ستنام.. أعرفُ يا طلالُ، وأعرفُ الطيرَ الذي سيحومُ حول يديكَ إذ تتقاسمان ظلامَ قبرٍ ضيّقٍ، وتهوِّمَان كشتلةٍ بين الظلامِ لطيفةٍ متناغمةْ.

ستنام.. أعرف أن هذي العاصمةْ
نزلت إليك بقبّعات حلوة،
وبسترةٍ من مخمل الماءِ الفلسطينيِّ، والريحانِ، والتفّتْ عليك كزنبقاتٍ ناعمةْ
فقطفتها وارتحتَ، ثم تركتها للسابلةْ
وذهبتَ، أعرف أن جسمك ذاهبٌ نحو التواريخِ المعادةِ كالصدى، والمهمَلةْ.
وعرفتُ أني ذاهبٌ، والأرض ذاهبةٌ، وناري
محضُ قضبانٍ وأخلاطٌ من البازلتِ والأحشاءِ تذهب بالنهارِ إلى النهارِ.

من يدَّعيني الآن؟ أيُّ صديقةٍ عادت بقلبي من حطامٍ أخضرٍ، وبكتْ لأني لم أجد موتاً يمهِّدُ فلْزهُ وعصورَهُ، ولأن عاصمةً بكتْ وبكيتُ: مرِّي يا نباتاتِ الغضارِ، ويا صديقةَ خيزرانٍ مائلٍ في ضفة الخابورِ؛ مُرَّ طلالُ، مُرَّ كتربةٍ مجروفةٍ من سفح «سنجارَ» الخجولِ فإنني لامستُ موتكَ لمسَ مَنْ مَرَّتْ يداهُ على قرونِ الظَّبيِ: تلك صديقتي، تلك الغصون وقد ترامتْ في حنينِ الشعبِ، تلك جنادبٌ مسروجةٌ، ودمي يجيءُ مع الصنوجِ

خائضاً ميراثهُ، والبحر يلجأ من «مهابادَ» الرياحِ إلى الخليجِ
لكأنَّما سَعَتِ الملوكُ إلى إنكسارٍ،
وانكسارُ البحرِ نبضٌ خالقٌ ينحلُّ في زبدٍ وموجٍ.
جانحٌ قلبي: ترى من يدَّعيني الآن؟ لستُ مكيدةً؛ لكنني
شَرَكٌ، ودرعي كالثلوجِ
أبيضٌ غَضٌّ تدورُ به المروجُ على المروجِ.

كلُّ شيءٍ هادئٌ، وطلالُ أهدأُ من وعولٍ تستريحُ مع الظهيرة، والسماءُ جنازةٌ، وأنا أُواسي الزهرَ معتدلاً كطقسٍ، حاكماً بين الدروعِ أخيطُها بسيورِ معدنها، وأقطعُ ما يؤصِّلني كشمسٍ في فراغِ الأبجديات التي لم تأتِ: «يا لَلحلوةِ انتظرتْ، ويا

لجمال عينيها إذا ما رفَّ بين جفونها دمعٌ، ويا لجبينها المتغضِّنِ الباكي ويا لشفاهها » ؛ وأنا أُواسي الأبجديات التي لم تأت، معتدلاً كميعادٍ ستُقْبِلُ فيه وحشيّاتُ هذا الروح : « يا لَلحلوِ، يا للحلوةِ اقتربا . .» إلهي

يا إلهَ الأبجدياتِ التي لم تأتِ، ماذا استنفرَ القلقاصَ؟ ماذا استنفر الجيلَ الذي ألقوه بين معادنٍ مذهولةٍ؟ ماذا يُصيِّرني اعتدالاً جارحاً فأصيحُ : « هاتوا حربَكم وطيورَكم، هاتوا الطبيعةَ مثل كلبٍ أعرجٍ »؟ يا ربِّ، يا متعالياً في رهبةِ الإنسان، إني عارمٌ كهدوءِ هذا الجيلِ، إني واقفٌ حيث اللواتي اجْتَزْنَ مدرجهنَّ يستنبتنَ رعبَ الموجِ واللغةِ : « الحبيبُ يضمُّها، والحلوةُ اتكأتْ . .» إلهي

كل شيء هادىءٌ، وطلالُ أهدأ من وعولٍ تستريح مع الظهيرة، والدروعُ جنازةٌ والأفقُ لي : « هذي رموزي
حُلوةٌ وأناثيَ الهلعاتُ يستغفلنَني
ويضئْنَ مسرحهنَّ بين دمٍ ولوزِ
واحتفالي قاتلٌ، ومعاولي
كونيَّةٌ، والماء مصباحي إلى بهو الكنوزِ
حيث استقري الطبيعةَ في قناعٍ مهرّجٍ،
وأُضيِّعُ الأرحامَ بين خسارةٍ تأتي، وفوزِ.

والإشاراتُ التي أودعتها في الوردِ تخرجُ كالمناقير الصغيرة كي تدلَّ عليَّ : إني تاركٌ قلبي على غصنٍ وبوصلةٍ، فماذا يدفع المدن الجميلةَ أن تجيء إليَّ؟ ماذا يجعل الساعاتِ أسلحةً، ونَفْسي مثل بوتقةٍ لها عنقٌ طويلٌ من زجاجٍ أخضرٍ، والبوتقةْ
عربيَّةٌ، والكيمياءُ - الشعبُ ترشحُ من جوانبها فتعلو
همهماتُ الشعبِ بين دخان نارٍ فاسقةْ؟

يا ربِّ هذي أرضُك اقتلعتْ جذورَ نحاسها وحديدها .
يا ربِّ هذي ريحك اغتسلتْ من الريح التي رفعت إليك نذورها .
يا ربِّ هذا قلبك اقتسمتْهُ بلَوْرَاتُنا ،
هذي رموزي سيدي،
وفسيفسائي الأنظمةْ

وجداولي تمضي على مَهلٍ وقد لبست فراءَ الملحمةْ..
وكسيّدٍ بدَّلتُ جيلَ الملحمةْ
بعشائرٍ حضريَّةٍ مستسلمةْ
ونفضتُ عمري من نظامكَ خالعاً قبري وإنسانيتي من فجوة الإنسان: هذا مقتلي يا ربِّ، والهجراتُ آتيةٌ، وحرٌ عنصرُ الماء الذي أكسوهُ شكلَ القلب ثم أعيدهُ ماءً، وأكسرُ في مرايا نبعه شكلي معيداً كل زاويةٍ إلى قانونها في المهزلةْ.
وافجِّرُ الأجسامَ حيثُ تفجَّرتْ أشكالُها،
وأقول هذا مطلعٌ حَسَنٌ، وهذا
منفذٌ بين التواريخ المعادةِ كالصدى، والمهمَلةْ.
لا بأس، هادئةٌ هي الأجناسُ، والحرب التي علَّقْتُها كقلادةٍ ستظل مثل قلادة، سأظلُّ أمتحن السناجبَ في السهول وأحتمي بفراشة من معدنٍ حرٍّ، وأستقصي عوالمَ صائحاً بين اللقالق والوعولِ كما يصيح الفاتحُ: أشتعلي أشتعالَ طريدةٍ يَتُها لقَّالقُ والوعولُ، ويا ظباءُ استنفري، وخذي نهاريَ يا زواحفَ لا دروعَ لها، ومرِّي مسرعةْ
هي تسعُ ساعاتٍ وأخلقُ ظبيةً من ثورةٍ متنازعةْ:
(في الساعة الأولى أباشرُ جمع كلِ عظامها في زئبقٍ، فإذا تلاصقتِ العظامُ كسوتها باللحم، ثم تركتها للوقت يكسوها بجلدٍ ليِّنٍ، وغسلتها في التاسعةْ بدمٍ، وقلت لها أركضي في خندق اللهِ المقاتلِ مسرعةْ).
هي تسعُ ساعاتٍ ولكني سأختزلُ العناصرَ والعواصمَ حاضناً أشلائيَ الأخرى، مغيراً نحو باديةٍ تركتُ شموسَها ترمي على جسدي عباءتَها كأني آخرُ اللغةِ التي سقطتْ، كأني جرحُ كل محاربٍ، أو درعُ من لا درعَ يحضنُ موتَهُ؛ هي تسعُ ساعاتٍ وأمنح مَقْتَلي سبباً، وأرجعُ من حروبٍ لم أكن في موجها غيرُ انحدارِ الموج نحو عويل مخلوقاته: هذا اشتعالي في غدٍ ليس انهداماً، بل غدٌ متجانسٌ، وترى لحدَّاديه صرخةَ مترَفٍ إذ ينحنون على معادنهم، ويحتفلون بين شرارةٍ وشرارةٍ بنظامِ خَلْقٍ مترفٍ.. هذا اشتعالي
حينَ أجعل جذرَ كلِّ مقاتلٍ كبداً يجرُّ على الرمالِ
أُمَةً، وأهيِّءُ الأشياءَ في أحزانها،
وأصيح مرتجفاً: تعالي

إنني أمحو الهواءَ وأنتقي هذا الفراغَ الفحلَ كي أصطادَ جمهرةً من الأشكال، أو أصطادَ شعباً ذاهلاً عن شكله، وأقوده نحو الفراغِ الفحلِ منتحلاً صفات محاربٍ أو دولة، وأصيح مرتجفاً: تعالي

يا بغالَ الوقتِ، ولتقف السنابلُ في قميص السهلِ، تحت فراغها،
وليمض شرقٌ مثقلٌ بدمِ العناكبِ والسَّحالي.

إنني أمحو الهواءَ، وأستطيل مباركاً هذا الفراغَ الفحلَ حين أرى القتيلَ يجسُّ كوكبَهُ كفحلٍ حاذقٍ، وينام بين عذوبة الأفقِ الغريبِ وموتِهِ، وأصيح مرتجفاً: تعالي

يا غزالةَ كلِّ مأدبةٍ، فإن وليمتي شرَكٌ لأجناسٍ ستسقطُ في عذوبتها، وتنهضُ حيث لا جرحٌ سوايَ كأنّني جمَّعتُ مِسْكَ الشعب في قارورةٍ وسكبته في مركزٍ حيٍّ فكانت أبجدياتٌ، وكان اللهُ؛ أو لوحتُ للأنثى بمنديلٍ من القصدير والأعشاب، وانزلقتْ يدي فتهاوتِ البلدانُ.. إنَّ وليمتي شرَكٌ، وأعلنُ: «لا مجالسَ، والحكوماتُ انفصامٌ ضمنَ منظوماتها، ونقابةُ العمالِ غيرُ نقابةِ العمال، والأحزابُ تستوفي شروط حضورها في جدول الطبقاتِ، والمتوسطون لدى المدينة يحملون نساءهم كدريئةٍ، والبرلمانُ دعابةٌ، والحُكم آخرُ لعبةٍ في الترَّهاتِ الخاسرةْ

ولتأتِ تلك الشَّارةُ المتناثرةْ
من طغمةٍ مهزومةٍ ومثقفينَ يجنِّدون على الحبالِ
مجدَهم كمهرِّجٍ..» وأصيحُ مرتجفاً: تعالي

يا سمندلَة الحياة، ويا نساءَ حقيقةٍ محسومةٍ، وتناثري يا أرض تحت دروعنا إذ نحتمي بدمٍ وصلصالٍ، ونكسرُ شكلنا فنعود محضَ زنابقٍ. وأصيحُ: عودي يا عُجُولُ إلى مدى سهلٍ هناك، ويا فراشاتُ أركضي محمومةً، فأنا انبثاقُ الحربِ بين عواصمٍ، وأنا اختيارُ البرقِ في فوضى دمٍ متهالك، وأنا الفلسطينيُّ يحمل شمسَ «عامودا» إلى «نابُلُسَ» في رفقٍ كأنَّ بلادَهُ احتضنتْ بلاداً مثلها وتوزَّعتْ في القلبِ، أو جفلتْ وعولٌ عادها شوقُ الوعولِ الى الوعولِ.

سأظلُّ أمتحنُ الحياةَ وأحتمي
بفراشةٍ تمحو الكتابةَ بين هاويتي وميعادِ السهولِ
وأظلُّ أدفعُ بالسهول
نحو ميعادِ الجنونِ، ووردةِ الفتح البديلِ.

آذار ١٩٧٦

فراشات للعواصم

باسم الحلباتِ الكبرى،
باسم دروعٍ مترفةٍ في نعمتها إذ ترفعها الأدراجُ
باسم التَّرفِ المرفوعِ الى عتبات الحربِ سألقي
هذا الصلصالَ الحيَّ كدرعٍ فوق مكائدكم،
وستتبعني الأبراجُ،
نحو صليلِ الأسلحةِ الكبرى لعذابات الإنسانِ،
وكالإنسان ساقتلعُ الأرض وأرفعها
فوق يدين من القصديرِ يمازجُهُ العاجُ:

«نُخبَ عويلٍ ومديحٍ،
ومدارات عائمةٍ في الإنشادِ.
نخبَ الأقنعةِ المصقولةِ بين جبيني والأعيادِ».
وسأقتحمُ الإنسانَ، عنيداً، بالأسلابِ، ونفسي
مأدبةٌ، ودمي جُرْنٌ وسياجُ
ولْتَتْبَعْني الأرضُ إلى المأدبةِ الكبرى،
ولْتتبعني فاجعةٌ وهياجُ
فأنا الأبويُّ، وقد أرخيت جبيني
فوق حياةٍ صاعدة مثل الصقرِ،
وفوق نسيجٍ سيهيئُهُ النَّساجُ

من صلصالٍ وجلودٍ كجلود الثدييَّات؛

سأخبركم عن حلباتٍ عارمةٍ كالأقدارِ، سأرفع للأقدارِ صليلَ مدائحكم، وسأدفعكم دفعَ حصانِ الطاحونِ لتمتلئوا بقرابين المعدنِ يا جمهوراً يرفعهُ الجمهور ذبائحَ في صلصالِ مدائحه..

يا جمهوراً يصعد في خطوات الماعزِ إني أشهد ما تشهدهُ الصَّدَفَةُ من أقنعة ونساءٍ في أقنعة الصِّدفَة، مبتهلاتٍ يرجعنَ من الحبِّ، ومبتهلاتٍ يدخلن الحبّ وهنَّ يعدِّلْنَ نظاماً أفْلتَ من ميعادِ الإنسانِ؛ ويا جمهوراً يصعدُ في خطوات الماعز نحو ينابيع المسرحِ، إني أتوافدُ جيلاً جيلاً في أسلحةِ الصّدفة كي أشهدَ ما يشهدهُ الحوذيُّ الحي على مركبةٍ خلف لبونات الحكمةِ:

«هيا يا ماعزُ،
هيا يا كبشَ النعمةِ،
هيا أيتها الأبعادُ.

هيا يا فرسَ الفلْزِ،
وهيا يا دُلْدُلُ،
هيا يا ميعادُ.

قلبٌ يهزمنا أو نهزمهُ،
ويصالحنا الإنشادُ
والحذقاتُ اللآئي يقتنصْنَ مدائحنا،
سيعلِّقْنَ مدائحنا
فوق قرونٍ لامعةٍ من أخشاب الصَّندلِ،
أو يغسلنَ مدائحنا بنبيذ، ومدائحُنا ستُعادُ
حين يضيقُ الوترُ الأكبرُ في دائرةِ الأنثى،
وتكون الأرضُ بُزاةً عالقةً في شرَكِ الفحْلِ،
وآن الموجُ المنقادُ
يخرجُ من دورقهِ المائيِّ، ولا يبقى
غيرُ نيازكِ أجسادٍ تستدرجُها الأجسادُ».

إني أشهدُ ما يشهده الحوذيُّ على مركبة خلف لبونات الحكمة، مُسْتَبِقاً ما يومضُ أو يتوالدُ من أقدارٍ يحلجها الحلاّجونَ، كأنَّ النَّسْجَ الأعظمَ نَسْجٌ من أخلاطِ الآجرِّ، ومن سَفْسَطَة وحظوظٍ: هذا النَّسْجُ الأعظمُ، هذا ما أشهدهُ حين أكون على مركبةٍ خلف لبوناتِ الحكمةِ، مستبقاً أمرَ الإنسانِ، وأدوارَ المخلوقاتِ على حلباتِ النعمةِ؛ هذا النَّسْجُ الأعظمُ نسجي بين الحلاَّجينَ، سأرفعهُ فوق يدين من اللّبلابِ إلى رَغَدٍ يتسامقُ مثل مشاغلكم، وسأرفعكم فوق يدين من اللّبلابِ ذبائحَ للإنشادِ السلجوقيِّ على المسرحِ:

«هيا يا ماعزُ،
هيا يا كبشَ النعمةِ،
هيا أيتها الأبعادُ.
هيا يا فرسَ الفلْزِ،
وهيا يا دلْدُلْ،
هيا يا ميعادُ
سربٌ من أجنحةٍ يدخل بهوَ شعائرنا،
ويجيءُ مع الأجنحةِ الأسيادُ
محتضنينَ سروجاً وشكائمَ كالفيروزِ، وتأتي الأعيادُ
مثل جواميسٍ مُنْهَكَة،
أو سلَّورٍ محمولٍ بالأجرامِ، بطيئاً يدخلُ بهوَ شعائرنا،
ونرانا في البهوْ قياماً دَهِشِيْنَ من الأكبادِ تكسِّرُها الأكبادُ».

هذا النَّسْجُ الأعظمُ نسجي بين الحلاَّجينَ، وأشهد ما يشهده الحوذيُّ على مركبةٍ خلف الشدييَّات أوانَ تميلُ الأرضُ، ويجتاحُ مدارجَها المحظوظونَ بأقنعةِ الفوْقَسِ، أو تجتاحُ مدارجها القديساتُ حبالى ينثُرْنَ كواكبهنَّ على النعمةِ متراً متراً، ويُنادينَ الحيَّ المرئيَّ: «تعالَ إلى ترفٍ لا تملكهُ، وتعالَ إلى الأقنعة الكبرى لحروبٍ لا تملكها».

وأنا أشهدُ ما يشهدهُ الحوذيُّ على مركبةٍ خلف الشدييَّاتِ اللائي يخلعنَ أمومتهنَّ ويركضنَ الى الوحشيِّ من العالمِ، مثلي مثلُ جيوشٍ في أسلحةِ التَّرفِ المصقولة، أو محترفٍ بين يديه فِخاخٌ لهزائمِ كلِّ غريبٍ ينصبها للإنسانِ، ويُحكم قبضتهُ الغضَّةَ

حول قرونٍ مهمَلةٍ، وقوانينَ تنامُ على دَرَجِ المسرحِ. مثلي مثلُ الحوذيِّ، وأشهد ما تشهدهُ الشديِّاتُ وقد جرَّحنَ أمومتهنَ على المنحدر الوحشيِّ لميعاد الإنسانِ؛ ومثلي لا تمسكهُ الأرضُ، ولكن يتجانسُ ـ إذ يتجانسُ ـ في مجهولٍ كالدِّرعِ، ويسبقُ جُهْلُوْلَ الأعيادِ إلى كبريتٍ مشتعلٍ ليكونَ هو المشتعلُ المتْرَفُ في الحلباتِ. ولي عرباتٌ ذاهبةٌ نحو نشيد أكثرَ غمْراً من إنشادِ أمرأةٍ لشراعِ البعلِ وصاريةِ النعمةِ، مثلي مثلُ الأسلحة المغسولةِ بالتهليلِ، وبالسُّماقِ العائمِ فوق نشيدِ امرأةٍ؛ هاتوا ما يشهده الحوذيُّ، وهاتوا زَرَدَ الحربِ، وهاتوا الحربَ، فقد هيَّأت كنائسَ قلبي للاحبار المجهولينَ، وللخنشارِ المحلولِ على أكتافِ القديساتِ كما تنحلُّ ذوائبهنَّ مساءً للفحلِ الربانيِّ، وهاتوا مائدةً وسْعَ الموجِ، فقد أحضرتُ العيَّارَيْنَ، وأحضرت مواثيق الفاتحِ تحت دروعي لأفاجئكم بالإنسان. وهاتوا مسرحكم،

وفوانيس المحظيَّاتِ،

وجمهورَ اللعبةِ؛

هاتوا فاجعةً،

وطواحينَ،

وسنبلةً،

ومرايا للماءِ؛

وهاتوا الماءَ،

ودَوراً للأقنعةِ الكبرى،

وجواميسَ،

وشمساً،

ومواسمَ؛

هاتوا..

سأفاجئكم بالإنسانِ،

وأسدلُ فوق مكائده السَّعَفا،

سأفاجئكم حين تكونونَ دماً متَّحداً أو مختلفاً

وسأهرقكم كنبيذٍ عند العتباتِ، وأرمي

حجرَ المخلوقاتِ إلى برْكَتكم لتعودوا شيَعاً،

وسأجمعها إذ أجمعُ هذا التَّرَفا.

سأفاجئكم بالإنسانِ،
بدرعٍ،
بعظاياتٍ ونحاسٍ،
بالآجُرِّ،
بقلبٍ مختمرٍ في الآجرِّ،
بعِيْدٍ،
وهياكلْ.
سأفاجئكم بالإنسانِ،
بجلدِ لبوءاتٍ،
ومشاعلْ.
سأفاجئكم بالفاجعِ في الإنسانِ،
بآلهةٍ،
وأفاجئكم بالزَّائلْ،
حيثُ يبولُ التَّيْسُ على أدراجِ المسرحِ، والأدوارُ تعادُ مع الأقنعةِ الكبرى للحكمةِ، والجمهورُ يسابقه الماعزُ بين مقاعدهِ الحجريّةِ نحو الدَّوْرِ، وأسبقهم معترفاً:
لا ميثاقَ لأسلحةٍ تحت جناحِ المطعونِ،
أنا المطعونُ سأهدرُ نَخلَ ممالككم سعفاً سَعفَا.

سأفاجئكم بالإنسانِ لأشهدَ ما يشهدهُ الحوذيُّ على مركبةٍ خلف لبوناتِ الروحِ؛ سأضرمُ روحي لتناموا حول لهيبِ حيٍّ مغموريْنَ بنعمةِ ما تغتسلُ النعمةُ فيه، وقد أوقظكم لتناموا ثانيةً حول ضريْمِ الروحِ، وقد أوقظكم لأراكم فزعيْنَ من اليقظة تستترونَ بروحي من أسلحةِ الصّدْفةِ والأقدارِ العجلى، وسأدعوكم لعشاءِ الوثنيِّ وأكسرُ فوق المائدةِ الأرضَ ككُوْزِ الفُخَّارِ لتلتقطوا الغامضَ والمتناثرَ من فاكهةٍ وعروشٍ؛ وسأدعوكم للصّدفَةِ كي تغتنموا الحجرَ الأكبرَ في ميراثِ الله، وكي تحتشدوا بحشودِ الكوبالتِ وشسْتِ البركانِ أمامَ الفُوَّهةِ العذبةِ للمجهولِ تجسُّوْنَ مكائدَكم بيدٍ كالكَيْدِ، وتشتعلونَ كمَنْ خَصَّتْهُ الفُوَّهةُ العذبةُ للمجهولِ بجرحٍ. سأفاجئكم

بالجرحِ لأجمعكم في حلباتِ النعمةِ عرافيْنَ يغالبُكم طيشُ أباطرةٍ وخيولٍ ستُساقُ إلى باديةِ الإنسانِ... أنا الإنسانُ أفاجىءُ كلَّ حياةٍ بالأسلابِ، لأجعلَ للحلباتِ الكبرى أُبَّهةَ الحلباتِ، وللأيامِ مقاديرَ حروبٍ كالتَّرَفِ.

وسأجعلُ كلَّ غبارٍ تَرَفي

وسأجعلُ كلَّ جناحٍ ترفي

وسأجعلُ كلَّ لهيبٍ ترفي

وسأجلسُ مثل جلوسِ المعتكفِ

بين حدودٍ غامضةٍ، وقرابينَ. سأنسى

أن بلادي نازلةٌ بين الأدراجِ إليَّ. سأنسى

أن فرائسيَ انطلقتْ ثانيةً من أسرْ الروحِ،

وأني منطلقٌ ثانيةً بدروعٍ من قصديرٍ أو خَزَفِ

لأفاجئكم بالأسلابِ، وبالحلباتِ الكبرى للأدوارِ المحبوكةِ بين دروعِ الإنسانِ.. أنا الإنسانُ، وهذي مائدتي في ردهاتِ الحربِ، ولي ردهاتٌ أخرى، وموائد من وحشةِ ما يوحشني حين أكونُ القابضَ بالكفَّينْ على نوّاسِ مدائحكم، أصغي لجيوشٍ عادلةٍ كالوقتِ، وظالمةٍ كالوقتِ، تعودُ من الرَّغَدِ الفاجعِ نحو الأدوارِ المحبوكةِ بين دروعِ الإنسانِ.. أنا الإنسانُ ـ بهيٌّ كالدَّوْرِ المحبوك، وقصدي قصدُ مديحٍ لم تعلنْهُ شفاهٌ بعدُ ـ أفاجئكم كي تغتنموا وتضيعوا في رَغَدِ الدَّوْرِ؛ وأعرفُ أني سأفاجئكم كي أغتنمَ الإنسانَ، وأرفعَ بين شكيمته الهرْجَ الأوحْدَ للأجناسِ، وأني سأداهم قلبي لأشاركَ هذا القلبَ مهازلهُ الحلوةَ بين أميراتٍ يلبسنَ لفاجعتي مرحَ الصَّقْرِ، ويركضنَ خفيفاتٍ في أقنعةٍ من جلدِ غزالٍ أو يَحْمُورٍ، يهمسنَ: تقدَّمْ.

يا ابنَ غبارٍ يتراكمُ فوقَ تجاويفِ الدرعِ، تقدَّمْ

يا ابنَ نساءٍ يرسمنَ فراشةَ حَطْوتِهنَّ على الأحشاءِ، تقدَّمْ

يا ابنَ صليلٍ وهتافٍ بين النُّعمى والثديِ، تقدمْ

يا ابنَ القولِ الأكثرِ مما سيقالُ، تقدَّمْ

يا ابنَ الحبقِ المسفوحِ ورائحةِ الخردلِ والسَّماقِ، تقدَّمْ

يا ابنَ حياةٍ تتجانسُ في ميزانِ الموتِ، تقدَّمْ

يا ابنَ نشيدٍ لا تنشدهُ المرأةُ إلا لعُقابِ الفحْلِ، تقدَّمْ

لنباهي بمكائدكَ الأعراسَ، وهذا الدّفْقَ الخافتَ في مضجعنا الوحشيِّ. ووحشيّاً

سأداهمُ قلبَ الإنسانِ لأستبقيه مع التَّرَفِ العارمِ للأدوارِ المحبوكةِ بين دروعٍ وعويلٍ. وسأستبقي الأدوارَ لأدوارٍ غامضةٍ فوق المسرحِ كي انتشلَ الأرضَ من القدّاسِ الربانيِّ وأجعلها محضَ فروجٍ، أو أجعلها نسقاً من أرديةِ الحشّاشيْنَ (وكلُّ رداءٍ عاصمةٌ)، وسأستبقي التوبةَ حين أتوبُ:

«أتوبُ إلى الخوفِ، أتوبُ إلى برقٍ يكشفني إذ لا كاشفَ إلا البرق. أتوبُ إلى العصرِ الحاملِ مثلي خوذَتَهُ ومراياهُ. أتوب إلى المهزومِ إذا شدَّ هزيمته مثل جوادٍ واجتاحَ هزائمنا. وأتوبُ إلى الحرب، أتوب إلى لغةٍ كالحربِ، أتوبُ إلى التوبةِ حين أكون الأكثر فتكاً بين الأدوارِ»..

عنيداً سأداهم قلبَ الإنسانِ،

عنيداً

كالدَّوْرِ

الغامض

كي أستبقي القلبَ رهينَ مكائده ومراثيهِ، وكي أتواصلَ في الأدوارِ لأضربَ ضرْبَ بويهيٍّ هذي النعمةَ تحت جناحي.

وسأضربُ ضَرْبَ الحاذقِ كي أستوفي أُبَّهةَ المجتاحِ لمجتاحٍ

وسأستقدمُ ما يجعلني الأكثرَ نهباً في النَّهبِ،

الأكثرَ فاجعةً،

وسأقتادُ رياحي

نحو ذهولٍ مُنْسَدِلٍ فوق الأكتافِ. سأمحو لأكونَ الأبعدَ حيثُ تكونُ الريحُ هي الأبعدُ:

«كلُّ بعيدٍ سيكونُ الأثرَ الباقي للإنشادِ المرفوع إليَّ..».

أنا الإنشادُ،

أنا الأدوارُ ومَنْ يختَلِقُ الأدوارَ،

أنا المرفوعُ على هذيانِ الحاضرِ لا أخبركم إلاّ الخبرَ الأبعدَ في الإنشادِ المرفوع إليَّ، وهذي مائدتي في ردهات الحرب. تعالوا لنجاهرَ بالفاكهةِ الحُلْوَةِ والخنشارِ الحُلْوِ. تعالوا لنقودَ الأعراسَ وراء قنادسنا كالعربات. تعالوا يا أبناءَ نهارٍ يتراكم فوق الدرع، فإني سأفاجئكم بالإنسانِ، سآخذكم نحو الشَّركِ العذبِ جَسُوْراً كالليلِ، جَسُوْراً وإباحيّاً كالليلِ، وحيث تكونُ الجَمْهرَةُ الأبهى ستكونونَ الجمهرةَ الأبهى،

لأواكبَ هذا الإنشادَ الوحشيَّ إلى عتبات الروح جَسُوْراً وإباحياً في نعماي؛ أنا المرفوعُ على هذيانِ الحاضرِ لا أخبركم إلاّ الخبرَ الأبعدَ في الإنشاد الوحشيِّ، وقلبي في نُعمى الحاضر قلبُ شهيدٍ، فتعالوا يا أبناءَ دمٍ عدميٍّ، يا أبناءَ الياقوتِ تعالوا كي أختارَ نشيدي،

كي أختارَ الصاريةَ الأعلى في مهزلةِ الإنشاد،

وأُقْحِمُ في الحلباتِ شهودي.

هذي نُعماي، تعالوا

هذا شَرَكٌ من نعمايَ، وقد خبَّأتُ لكم فلْزَ نحاسي وحديدي

وثُريَّاتٍ من هذيان الفقراء. أنا الإنشادُ المركومُ على عتباتِ الفقراء، وقد خبَّأتُ لكم حجراً وعواصمَ. واستفْحَلْتُ فنُوديتُ تقدَّمْ، فتقدَّمتُ ككلدانيّ جَهْمٍ خلف قناعِ الله، أشمُّ الليلَ، وأعرفُ أن لنسلي رائحةً في الليل، وتهليلاً لا يسمعه المرئيُّ. ونوديتُ: تقدَّمْ، فتقدمتُ كمجزرةٍ لا تعرف كيف تفرِّقُ بين بلادٍ وبلادٍ، واستسلمتُ لنعمايَ..

أنا المجزرةُ النورانيَّةُ،

والتوقيتُ النورانيُّ

وأنا الحيُّ وقد أشعلهُ الحيُّ

لا أملكُ إلاَّ الإنشادَ، وأقطعُ قلبي

بلداً بلداً في الإنشاد، ويأسرني الأبديُّ

وأعودُ فأربط قلبي بلداً بلداً كحزينٍ، أو كجديرٍ بالحزنِ، وأنظر خلفي فأرى مدني وقرايَ كحزمةِ قشٍّ في عرباتِ الأكراد، وخلف العربات أرى سهلَ «بريڤا» والأغنامَ - الملكاتِ على السهل؛ أرى «شمدينَ» يجاهرُ في نفرٍ ضدَّ الآمرِ في الثُّكنْاتِ وضدَّ الدولةِ والميراثِ المزحومِ بروثِ الحيوانِ. أرى «شمدينَ» يغني أغنيةَ الكرديِّ، ويرفع «موسيسانا» فوق يدينِ من اللَّبلابِ إلى آلاتِ النسَّاجينْ؛ عنيداً يرفع «موسيسانا» بين عويلِ الدَّرَك الأجلافِ وذعر بنادقهم:

«شمدينُ، وأنتَ المُهْمَلُ يا شمدينْ

تسعُ رصاصاتٍ تُقْبلُ من عصر العربِ الإفرنسيِّ،

ويسقطُ بغْلُكَ يا شمدينْ.

وتدور بعينيكَ الناعستينِ على شيءٍ ما،

وتقولُ: أنا بيتٌ، والبابُ هو البابُ:
خشبٌ، وتواريخٌ ينكرها الدَّركُ الأجلافُ، وينكرها الأعْرابُ.
وتقول: أنا شمدينُ، أنا شمدينْ
لي أقنعةُ الدَّرْدَارِ وأقنعةُ الزيتونْ
وأنا خَبَرٌ يَتَسقَّطُهُ البهلولُ، ويرويهِ المجنونْ».

وأرى «شمدينَ» على بغلته الشقراء يغني أغنية الكرديّ محاطاً بنساء «بريڤا»، ونساءُ «بريڤا» يحزمْنَ لشمدينَ جسارتهنّ مع البرسيم الأخضرْ،
أوْ يحزمْنَ العصرْ
مبتلاَّت بحنيني وعنادي
مبتلاَّتٍ بأريجِ الشَّيْلَمِ والشوفانِ،
وخمرٍ مُهْرقةٍ بين رمادي
ويقرِّبْنَ لشمدينَ جراراً طافحةً بالمجهولِ،
وينثرنَ لبغلته اللُّبَّانَ وأعوادَ المُرّْ
ويُتمتمنَ: «لعصركَ يا شمدينُ سيبتدئُ العصرْ».
وأرى «شمدينَ»؛ أرى خلفَ قوائمِ بغلته الشقراء متاريساً وبنادقَ تعلو، ولغاتٍ مستعجلةً كصغارِ البطِّ، وحُلماً يتدحرجُ من أبوابِ التُّكنْات، وفلاحينَ يجرُّون سلالاً مثقلةً بنجومٍ وبأحذية؛ وأراهنُ أنّ نشيداً كنشيديَ يعلو خلف قوائمِ بغلةِ شمدينَ، وأنْ عويلاً كعويليَ يعلو
وعوالمَ حيرى يَسْتَقْرِئُها الجَدَلُ.
وأراهن أن بويهيّاً سيقامرُ بالإنسان على مائدةِ الطبقاتِ
وأنّ الإنسانَ سيبهرهُ المجدُ المبتَذَلُ.
لكنْ سأكونُ المجزرةَ الأكثرَ جذْراً في الحلباتِ. سأدفع شمسي وبروقي بعناد الحكمةِ نحو الحلبات وأغسلها بحنانِ المحرومِ من المجد الوحشيِّ:
أنا الوحشيُّ وقد أشعَلهُ الوحشيُّ
لي أقنعتي،
والمسرحُ هذا المدُّ الأبديُّ
من أبراجٍ وهياكلْ

وسماءٍ تتهدَّجُ كالأصواتِ، ويرفعها
فوق يدين من اللّبلابِ إلى الأكبادِ مقاتلْ.
لي أقنعتي وجسوري
ومديحٌ مثل جناحٍ ممتزجٍ بجناحِ البازيِّ أو العصفورِ
وممالكُ قلبي تتناثر في خطواتِ الإنسانِ؛ أنا الإنسانُ أفاجئكم بمديحٍ ليس مديحاً، وبهاويةٍ كالحلمِ، لأغسلكم بحنانِ المحرومِ من الإنسانِ، وأحزمُ قلبي لأغني خلفَ دروعٍ مثقلةٍ بينابيعِ الكبريتِ شمالاً؛ أحزمُ قلبي وأغني لينابيعِ الكبريتِ، لثلجٍ يمتدُّ من الهضباتِ شمالاً حتى «سنْجارَ»، وأمشي في أسرابِ الحيواناتِ أليفاً تغمرُني دعَةُ الثلجِ الأبويّةُ، والأيامُ تواكبني ككهولٍ عرّافينَ؛ وحيث تمرُّ بي الأرضُ أقول: انتبهي يا أرضُ؛ وأهتفُ بالأعشاشِ: اقتسميني.
وأشدُّ المِعْوَل من طيَّاتِ ردائي،
وأهيلُ على الأكبادِ به دكّاً دكّا
لا مأخوذاً بالفاجعِ، أو مُرْتَبِكا.
وأعودُ فأقذفُ بالمعولِ نحو عويلِ المخلوقاتِ،
وأمسحُ وجهي وعيوني
من تاريخٍ سيؤَرِّخُ للوحشيِّ. أنا الوحشيُّ، ولي أقنعةٌ من سمَّاقِ السهلِ وأُبهَّةِ الأعيادِ، وفي الحلباتِ الكبرى للروح أجيءُ ككلدانيٍّ حَذِقٍ يتهادى في سِرْبالٍ من جلد فرائسه لأفاجئكم بأكيدٍ من أخبارِ الإنسانِ، وكالإنسانِ سأبتدعُ اللُّعبةَ، لا مأخوذاً أو مرتبكاً.
بل سأشدُّ جبيني في الحلباتِ بطوقٍ من مرجانٍ وخُزامى،
وسأجتاح مدارجَها دكّاً دكّا
وسيلزمني الأكثرُ رعباً لأقودَ حضورَ الحلباتِ إلى هاويةٍ أخرى في الروحِ، إلى أسلحةٍ وعتادٍ حيٍّ، وموازينَ أزيْنُ بها الوحشيَّ. أنا الوحشيُّ، ولكنْ تتجاذبني الأرضُ فأسقطُ في دائرةِ الإنسانِ، وكالإنسانِ أفاجئكم بالأعيادِ الكبرى للروحِ، بآلاتٍ تصْقلُها الشهوةُ، بالأرحامِ، بقلبي فوق وشاحٍ حجريٍّ. وأفاجئكم بهتافٍ لم أهتفْهُ لذاكَ الثلجِ الممتدِّ من الهضباتِ شمالاً حتى «سنجارَ»؛ فهاتوا بكمائنكم، بالعجلاتِ الخشبيَّةِ للأقدارِ، بحربٍ وأباريقَ من الفولاذِ الحيِّ لأقرعَ شمسَ هتافي بشموسٍ مستعجلةٍ: نُخَبَ لبوناتٍ يَذْرَعْنَ جنوني كالحكمةِ، نخب حنينٍ يتعالى كالوحشيِّ. أنا

الوحشيُّ - وروحي روحُ جيادٍ سُرِّحْنَ - سأبكي للثلج الممتدِّ من الهضباتِ شمالاً حتى «سنجارَ»، سأبكي لبلادٍ تتدحرجُ من «سنجارَ» وأعرفها بلداً بلداً، سأحيطُ بكلِّ سياجٍ كسياجٍ، وسأرفعكم بين يدينِ من اللّبلابِ إلى الهضباتِ نذوراً، وكروحٍ سأفاجئكم بالحلباتِ الكبرى للروحِ. أنا الوحشيُّ أفاجئكم في حلبات الروحِ بدرعٍ من كُتّانِ الماء، وأصرخُ:

يا «تلَّ الزعترْ»

يا إنشاداً يتعالى خلفَ غبارٍ وحجرْ،

ألمحُ جمعاً يتقدَّمُ منكَ ويُلقي

تعبَ الإنسانِ كسنبلةٍ فوقَ الإنشادِ،

وألمحُ عاصمةً تتشظّى مثل مراياكَ.. وأكثرْ:

ألمحُ طفلاً، ومراويلَ، وعسْكَرْ

ومداراتٍ مقفلةً للتاريخِ المهدورِ كماءٍ تحت نعالِ العسكرْ.

ألمح ما يلمحه المفجوعُ بأرضينْ.. انتظروا:

هذا إنشادُ الوحشيِّ،

وفي الإنشادِ سأحملُ في كَفَّينْ من الزعترْ

حُلُمي،

وهباتي،

وسيتبعني المحرومونَ إلى الرَّعدِ، ويسبقني الحجرُ

لنجاهرَ بالميعادِ الوحشيِّ لِمَنْ غابوا

عن أُبهَّةِ الأنقاض، وَمَنْ حَضروا.

وسنقتسمُ اللهَ على صَفَّينْ من الخوذاتِ.. وأكثرْ:

سنباهي بالأحشاءِ الملتفَّةِ حول مواسير الوقتِ، سنعدو

وسيعدو حولَ مصائرنا الشَّجرُ

حُلْواً كدمٍ، وجريئاً كالأنقاضِ: «لماذا يتراءى الأفقُ من الأنقاضِ إباحيَّاً أكثرَ من شهوتنا للأفقِ؟»،

سأعدو - وأنا الوحشيُّ العارمُ مثل خلافِ الأضدادِ - جَريئاً في رَغَدِ الفاجعةِ.. انتظروا.

هذا إنشادُ الحوذيِّ،
وهذا «تلُّ الزعترْ»
حجرُ يتهاوى فوق نسيجِ الأسماءِ،
ووقتٌ ينحلُّ على عتباتِ حجرْ.

هذا إنشادُ الحوذيِّ،
وهذا «تل الزعترْ»
لهبٌ وقناعٌ يغتسلانِ برائحة الخبز:
لنُعمى الخبزِ،
لنعمى حجرٍ في القلبِ،
لنعمى حُلُمٍ كالحربة أعدو
فوقَ صفيحِ الإنشادِ بأقدامٍ مثقلةٍ بينابيع السهلِ، واحضن «تل الزعترْ»
بيتاً بيتاً، وألمُّ الأقمارَ المهدورة بين التوتياءِ وبين الخشب المتكسِّرْ
لأضيءَ كدرعٍ،
أو ليضيءَ الموتُ كدرعٍ،
أو لنضيءَ - كلانا - الأرضَ على عتباتِ حجرْ.

وبأقدامٍ مثقلةٍ ببروق الحلباتِ سأصعد هذا الدَّرجَ الحجريَّ الى مدنٍ تتجانسُ كالأثداءِ لأجرفها فوق الدَّرجِ الحجريِّ إلى مهزلةٍ، وسأبتدىءُ المهزلةَ الآنَ بإنشادٍ تتساوى فيه الحكمةُ والخوذاتُ؛ أنا ناديتُ، وكم ناديتُ: تعالي يا أسلحةً أكثرَ حَدْباً من أسلحةٍ، وتعالي يا ابنةَ حلمٍ لم يحلمْهُ شريدٌ، ليكونَ لهذا الإنشادِ صليلٌ فوق العتبات الحيَّةِ.. كمْ ناديتُ: تعالي يا عتباتُ؛

وأغلقْتُ ورائي الأرضَ على صخبٍ وصليلٍ؛ كمْ أشركتُ الليلَ معي في التهليلِ الهرطوقيِّ، وأطلقتُ لبوناتِ القلبِ على مُنْحدرٍ في «سنجارَ» وفي «سنجارَ» نزعتُ عن الإنسانِ غلالتهُ القصديريَّةَ كي أمتزجَ المَزْجَ الحُرَّ بأجرامٍ مسرعةٍ تحت عباءاتِ الكونِ الى ثورتها، وهتفتُ: «تعالي يا أسلحةً أكثرَ حَدْباً من أسلحةٍ،
لتهيِّءَ للميعادِ مخادعها الدُّولُ

وسنأخذها أخْذَ مُغيْرٍ مبتهجينْ كما يبتهجُ الفَحْلُ ويشتعلُ».
وهتفتُ: «تعالي يا ابنةَ قلبي،
يا ابنةَ حلمٍ لم أحلمهُ تعالي
غبراءَ من السهلِ يظلّلُك الحَجَلُ.

يا ابنةَ حلمٍ لم أحلمهُ تعالي
مُتْرَفةً بخزامى السهلِ يظلّلُك الحَجَلُ
وخذي «ترشيشَ» قرنفلةً، وخذيني
مثل «الدامورِ» قرنفلةً، ولتغتسلِ القُبَلُ
بشفاه مثل شفاهِ المحرومِ. تعالي
ولتنكسرِ الأدراجُ الحجريَّةْ
تحت خطىً مثقلة ببروقِ الحلبات،
وتحت دروعٍ تتقاذفُها الأبديَّةْ
وليبتهلِ السيلُ إلى السيل فإني
حرٍ من لغتي.
حرٍ من أبراجٍ تتعالى في الهاويةِ.
حرٍ من أيامي.
حرٍ من غضبي.
حرٍ من خوذةِ كلِّ دمٍ.
حرٌ من تعبي.
حرٌ من حلفاءٍ يقتسمونَ غباري.
حرٌ من أجراسي.
حرٌ من لهبي ونحاسي.
حرٌ من صلصالٍ وغضارٍ.
حرٌ من صرخاتِ المهزومينَ،
وحرٌ من أسلابي.
حرٌ من مائدتي ونداماي،
وحرٌ من أنسابي.

حرٌ من عاصمتي ورياحي.
حرٌ من جوهريَ المكنونِ،
وحرٌ من مرحي وجناحي.
حرٍّ من أشكالٍ تتجانسُ في الحريَّةْ.
حرٍّ من أعضائي ورمالي.
حرٍ من رَغدِ القَتْلِ،
وحرٍّ من تأبيْدٍ وزوالِ.
حرٌّ من عبث الإنسانِ.. تعالي
يا ابنةَ حلمٍ لم أحلمْهُ تعالي
حاملةً خوفَ الحلباتِ إلى الحلباتِ، وشدِّي «تـلَّ الزعترِ» كالمنديلِ على حجرٍ أغْبَرَ مثل بلادي، واقتلعيني جذراً جذراً لأبـاركَ هذا اليأسَ الطَّافحَ بالأشرعةِ الأكثرَ لَجْماً للبحرِ، وبالإنشـادِ الوحشيِّ لسـاعاتِ السَّلْبِ. ويا ابنةَ حلمٍ لم أحلمـه احتضني هذا المدَّ العارمَ من هجراتٍ وعويلٍ، واحتضنيني بجماهيرِ حاضنة لهبَ الحلباتِ، فقد هيَّأتُ الشـهداءَ لجرحٍ آخرَ، واستـعجلتُ طلائعـهم فـوقَ جُسُوْرِ الفَوْقسِ والنعناعِ المائيِّ. وللشهداءِ تزيَّنْتُ بأقنعة السهلِ، وأحضرتُ الأرضَ معي كدليلٍ..

محاكمة جانبية

أ /
إنْ مرَّتِ الأرضُ ولم تلتفتْ
إليكَ، واستوحشك السُّنْبُلُ
وعُدْتَ من ثورةٍ
مكتملاً كالبرق إذ يبتدي
يَحُدُّهُ المَقْتَلُ
فما الذي تفعلُ؟

«للشهداءِ
أنثرُ قلبي كفراشاتٍ،
وأقود إلى أعشاشِ الماء
كبدي،
وعصافيرَ دمشقٍ، وسمائي
وأهرولُ بين الأعشاشِ لأمسكَ موجاً،
أو عاصمةً،
وأهرولُ بين الأعشاشِ لأمحو
هذا الزَّبَدَ العربيَّ عن الأسماءِ.

كلُّ شهيدٍ يتقدَّمني الآن،
وللشهداءِ
أنثرُ قلبي كفراشاتٍ
وأقول: انكسري يا أعلامُ وغيبي
يا قصباتِ النصرِ العربيِّ المترعِ
بالأظلافِ وبالطِّيْبِ
ولينطلقِ الأمراءُ إلى نصرٍ أكثرَ مهزلةً،
ولينطلقِ السُّفهاءُ.. سأعلو
نَزِقاً كالغزوِ على واجهةِ الصحراءِ.

ب/

وإن أتاكَ الجبلْ
في درعِ من أسلمتَهم للجبلْ
وفاجأتكَ الثورةُ الثانيةْ
وفاجأتك الدُّولْ
بالطعنة الثانيةْ
إن صرتَ كالرقَّاصِ مسترسلاً
يجذبك «الأكيدُ»
إذ يجذبك «المُحتَملْ»
واكْتَمَلَ المُعْضِلُ
فما الذي تفعلُ؟

كلُّ شهيدٍ يتقدَّمني الآن،
وللشهداءِ
أنثر قلبي كفراشاتٍ وزبيبٍ،
وأقول: تعالوا،
هذي أعلامٌ تخرجُ من مَقْتَلنا
بيضاءَ، وهذي عاصمةٌ تخرجُ من مَقْتَلنا
والأيامُ تحاذي هاويتي وعرائي
وأنا أمسكُها وأهرولُ
بين القلبِ المنثورِ وبين الشهدِ».

ج/

ها أنتَ مستفحلٌ،
مُحتَّمٌ، وخطوكَ الجوهرُ.
ها أنت كي لا ترى
أنقاضَهم، تحضنُ أنقاضَهم
وينفضُ الدهشةَ عنك
العدمُ السَّاحرُ.

يا ابنةَ قلبي،
يا حاملةً هذا الدرعَ الوحشيَّ إلى الحلباتِ تعالي،
وتعالي يا فتياتِ الظلمةِ محتشماتٍ برداءِ الخلجانِ، ومؤْتزراتٍ بالهولِ، فهذا شمدينُ يمهّدُ ثانيةً للأجرامِ مواسمها، ويميلُ على العشبِ كَمَنْ يسمعُ تهليلَ الحجرِ الغارقِ في العشبِ، ويخطو - والأيامُ وراءَ قوائمِ بغلته الشقراءِ تقومُ وتخطو - نحو جحيمِ الإنشادِ. وفي لحظاتٍ خالصةٍ من لحظاتِ الكيْدِ يجسُّ بمنجله القوسَ الغامضَ من أقواسِ الإنسانِ، ويهوي بيَدٍ ممسكَةٍ بالمنجلِ فوقَ القوسِ فتمتلىءُ الحلباتُ بأسلحةٍ ويواقيتٍ وجلودٍ:
هذا شمدينُ،
وهذا إنشادُ الصلصالِ الحيِّ لشمدينَ،
وهذي بغلتُهُ الشقراءُ تجاورُ نبعَ الإنسانِ وتُقْفِلُ راجعةً: «يا شمدينْ
يا أدراجاً عاليةً،
تصلُ الطَّعنةَ بالطَّعنة،
والأقمارَ بأقمارِ الطينْ
ماذا أخبرتَ الخابورَ؟
وماذا ألقيتَ إلى بردى
من أخبارٍ يبعثها الفقراءُ إلى الفقراءْ؟
ماذا ستقولُ؟ أكانَ الماءْ
شبحاً من أشباحِ الشَّحّاذيْنَ، وكنتَ يدا
تحملُ خبزاً وجوازاتٍ للسَّفرِ الميمونْ؟

يا أدراجاً عاليةً يا شمدينْ
أعرفُ أنك تشهدُ،
أنَّ الأرضَ مهرولةٌ تحت جناحي وجناحِ الجيلِ المطعونْ».

هذا شمدينُ،
وهذا إنشادُ الصلصالِ الحيِّ لشمدينَ.. تعالي
يا فتياتِ الظلمةِ محتشماتٍ برداءِ النَّبعِ، ومُؤْتزراتٍ بالبحرِ، فهذا شمدينُ يجاهرُ

ثانيةً ضدَّ الآمرِ في الثُّكْنات، ويبتكرُ الريحَ وأقواساً للريحِ مزركشةً مثل الثوبِ التركيِّ، ويُحْني قامتَهُ الفرعاءَ لسنبلةٍ أو لقطاةٍ عابرةٍ: «يا شمدينْ.

ها أنت محاطٌ بنساءِ «بريڤا» يا شمدينْ،

ونساءُ «بريڤا» مؤتزرات بجلودِ الماعزِ والمجهولِ يخيِّطْنَ بلاداً ثانيةً بين يديكَ، ويرفعنَ رداءَ البحرِ إلى منكبكَ الأعلى بين مناكبنا، أو يجعلنَ الليلَ عناقيداً تتدلَّى من داليةِ تحت الثديينْ، ويهتفنَ: نساءٌ نحنُ، نساءٌ يا شمدينُ، وللعتباتِ المغسولةِ بين ذراعيكَ سنبدأُ هذا العرسَ المغسولَ بعافيةِ الأنثى يا شمدينْ.

ها أنتَ محاطٌ بنساءِ الأردنِّ، وتبكي يا شمدينْ

ونساءُ الأردنِّ يقطِّعْنَ النهرَ كأرغفةِ الخبزِ، ويرفعنَ قناعاً من بوتاسٍ ومياهٍ بين يديكَ، ويستدْرِكْنَ فيمسحنَ جفونكَ بالزيتونْ.

ها أنتَ محاطٌ بالأقنعةِ الكبرى لفراعنةٍ
يقتلعونَ الأهرامَ وينتحرونْ.
ها أنت تهيِّءُ ثانيةً للموتِ خلاخيلَ الحلباتِ، وتدنو
من مُبْتَدَإٍ يتوارثُهُ الفقراءُ، ويرفعهُ
نحو يديكَ العيَّارونْ».

هذا شمدينُ،
وهذا إنشادُ الصلصالِ الحيِّ لشمدينَ.. تعالي
يا ابنةَ حلمٍ لم أحلمه تعالي

فأنا الأبويُّ، وقد أرخيتُ جبيني فوق جهاتِ الإنسان، ومتُّ فأحييْتُ الموتَ. أنا الأبويُّ وبدئي أحصنةٌ، وعذاباتي تتناسخُ في أشكالٍ مُتْرَفةٍ؛ وأنا المُتْرَفُ أُلقي بين يديِّ الإنسان مباهجَ لعبتِه الكبرى، وأقولُ: تعالي يا ابنةَ حلمٍ لم أحلمه فقد صعدتْ هذي الأدراجَ البحريَّةَ أرضٌ وعذارى مستسلمةٌ للعتباتِ الرَّطْبَةِ والفولاذِ المسفوحِ على عتباتِ الشهداءِ؛ ومن أدراجِ البحر صعدنا مؤتزرِيْنَ بأحجارٍ ساهرةٍ، وبلبنانَ الصلصاليِّ، وكالميعاد الحُلْوِ غمرنا بعباءاتِ الأحشاءِ مدارَ الأسلحةِ الكبرى للروحِ، وقلنا: «لا فاجعةَ اليوم، بلِ الأكثرُ غَمْراً من عافيةٍ»؛ وسفحنا العافيةَ الأكثرَ غَمْراً من عافيةٍ فوق الأدراجِ، وفوق العتباتِ الحيَّةِ للأيامِ الكبرى كالروحِ. وها نحن الآنَ أمامَ نسيجٍ غضٍّ للأعماقِ، وعاليةٌ كاللّبلابِ مجالسنا بين البحرِ وبين سياجِ الأقدارِ؛

وللإنسان العارم كالصرخة ننزعُ عن جبهتنا هذا الطوقَ المائيَّ ونركضُ في أقنعة الحوذيِّيْنَ إلى لهبٍ سنصالحهُ الآنَ. الآنَ تعالي يا ابنة حلمٍ لم أحلمْهُ، فقد أرخيتُ جبيني فوق عويل الأسواقِ الممتدَّةِ من أبواب «كليمنصو» حتى «فتَّالَ»، ومن «فتَّالَ» إلى «الميناءِ» حملتُ إلى «شيبوبَ» الكرديِّ بلاداً ثانيةً:

«يا شيبوبْ
أذكر كيف جلستَ إلى جانبنا يا شيبوبْ
ووضعتَ الصحن على حِجْرِكَ يا شيبوبْ
وتناولت قليلاً من ذاك الرُّزِّ الساخنْ.
كنا نتحدث عنكَ، وعن متراسكَ يا شيبوبْ
بين عواءِ القنَّاصيْنَ،
وبين صحون الرُّزِّ الساخنِ والأنقاضْ.
وإذا التفتَ الواحدُ منا صوبك يا شيبوبْ
كنت تميلُ بعينيكَ كطفلٍ خجلانَ..
وماذا أيضاً يا شيبوبْ؟
قِيْلَ ركضتَ إلى صاحبك المجروحِ وفاجأكَ القنَّاصُ
برصاصات خرقتْ قنبلةً
كنتَ تعلِّقُها تحت حزامكَ يا شيبوبْ
قِيْلَ تناثرتَ تماماً..
وتناثرتَ تماماً يا شيبوبْ».

فليتمهَّلْ هذا الجمعُ الصاعدُ من أدراج البحرِ لأحملَ بين يديَّ بلاداً ثانيةً من «فتَّالَ» إلى «الميناءِ»، لأجعلَ ملْكي نَهْباً للإنسانِ العارمِ كالتهليلِ البحريِّ، وكالإنشادِ المرفوعِ إلى العتباتِ الكبرى..

فليتمهّلْ قلبي يا ابنةَ حلمٍ لم أحلمهُ، فاني مكتسحٌ هذي العتبات بثيرانٍ وعصافيرٍ ومفاتيحَ مزركشة بالأكباد، وكالميعادِ الحُلْوِ سألبسُ ثوبَ الأسلحةِ الأكثرَ غمْراً من عافيةٍ، وسأنتظرُ الحوذيَّاتٍ يَجِئْنَ على مركبةٍ من أحناشِ الزَّبَدِ البحريِّ، وقد غطَّيْنَ سماءَ الإنسانِ بأشرعةٍ وملاءات كالصلصال، ويهتفنَ: «تقدَّمْ يا ابنَ نشيدٍ لا تنشدهُ المرأةُ إلا لعُقابِ الفحْلِ، فنحنُ الحوذيَّاتِ صعدنا درجَ البحرِ إلى موجتك المرفوعةِ بين

دروعِ النسَّاجينَ؛ صعدنا مبتهجاتٍ برنينِ جناحيكَ، وتهليل المعدنِ في أقواس حروبٍ لا تملكها الآنَ. ونحنُ الحوذيَّاتِ سندعوك إلى زبدٍ، وخيامٍ بين الزَّبدِ البحريِّ لتُملي تعبَ الإنسانِ على الحجرِ المغسولِ بعافيةِ الحربِ، وكالحربِ سنمسحُ عن عينيكَ بروقاً ميِّتةً، وسنأتيك على عِزْزال البحر بصقرِ مباهجنا، وبخرنوبِ القولِ». تمهَّلْ يا قلبُ تمهَّلْ.

كلُّ شهيد يتقدَّمني الآنَ، وقلبي
عنبٌ يتدلَّى كُثريَّاتِ البلَّورِ، ورمَّانُ
وأنا الدرعُ المغسولُ، وأعضائي
مَحْضُ حروبٍ مُتْرَفة، والجيرانُ
صُدَفٌ ورياحٌ.. فتمهَّلْ
يا رقَّاصَ القلبِ تمهَّلْ، ولْتلتحمِ الطُّرُقُ
آنَ يدحرجُ هذا الربُّ كواكبَهُ
من «سنجارَ» إلى «تل الزعترِ» جَهْماً
في أقنعةِ الحلاَّجينَ، ويحترقُ:
ولْتنحدرِ الأرضُ قليلاً صوبَ يديَّ لينحدرَ الإنسانُ
من وحشتهِ ومكائدهِ الأكثرَ نهْباً، فأنا الحَذقُ
صَلْباً سأداهمُ ما يرفعهُ الإنسان على أدراجِ مكائدهِ،
وسأقتلعُ العتباتِ، ونفترقُ:
«كلٌّ سيضيءُ هزائمَهُ في الإنشادِ،
وللإنشادِ الأبعدِ في ميعادِ هزائمهم سيهيِّئُني البركانُ
بخلاخيلٍ، وقلاداتٍ.. للإنشادِ سيُنْشدني لهبٌ،
وسيُنْشدني الحجرُ المُتْرَفُ والبركانُ».
فلتنحدرِ الأرضُ قليلاً لأداهمَ هذا المجهولَ وأسلحتي البانُ
وفراشاتٌ من صَخَبِ الأنقاضِ.. تمهَّلْ
يا رقَّاصَ القلبِ، فهاهم يأتونَ ووجْهَتُهمْ
هذي الأعشاشُ المرفوعةُ مثلي
فوق يدينِ من اللَّبلابِ إلى تهليلِ الإنسانِ.. تمهَّلْ
ها هم يأتونَ ومَقْتَلُكَ الرُّبَّانُ

وممالكُكَ العذراءُ تميلُ كبوصلة نحو جهاتٍ أخرى،
وتميل كبوصلةٍ: «لم يُلْجِئْكَ دمٌ، فخرجتَ، ولم يُلْجِئْكَ مكانُ».

لا تتمهَّلْ يا قلبُ، فقد أصغيتُ - ومثلي
يُصغي أحياناً - لعذاباتِ الموجِ، وهرولتِ الأحزانُ
مثل فراخِ الجُهْلُوْلِ إلى أعشاشٍ أرفعها،
وتواريخَ أرفعها كالأعشاشِ إلى مهزلةِ الإنشاد.
لا تتمهّل يا قلبُ، فقد أحضرتُ عتادي
والأقنعةَ الكبرى للحلبات..
أنا الحلباتُ ودرعُ حروبٍ مُتْرَفَة، والجيرانُ
صُدَفٌ ورياحٌ؛ فليتقدَّمْ من ميعادي الشهداءُ فقلبي
عنبٌ يتدلّى كثُرَيَّاتِ البلَّوْرِ، ورمَّانُ.

كانون الثاني ١٩٧٧

الفريسة

١ ـ السيدة

صعدتْ مدارجَها النباتاتُ الخجولةُ، وانحنى
غصنٌ لغصنٍ متعبٍ، والعاشقاتُ
من هنا يصعدن مدرجهنَّ، والأرضُ التي
جاءت بأقدارٍ من الآجرِّ تصعدُ مدرجاً،
جاءت لتردمها الحياةُ.
من هنا صعدتْ مدارجَها الغيومُ، ومن هنا
صعدتْ مدارجها الدروعُ، وأقبلتْ
خُوَذٌ يدحرجها الحفاةُ:
هكذا هيَّأتُ مسرحيَ: انهضي يا أبجدياتُ، انهضي، أو هيِّئي للشعب عمرَ فراشةٍ يا ريحُ، يا غيبوبةً حفلَتْ بكلِّ مهدَّمٍ من مجده..
ها انني هيَّأتُ موتاً ضارعاً، هيَّأتُ عرسَ معادنٍ للشعبِ، ثم صرخت: ما للأمهات جثمنَ حول الشعب يربطنَ الكواكبَ بالغصونِ؟
إنني آثرتُ أن استجمعَ الموتَ الذي أحياهُ في أيامهِ،
وخلعتُ في أيامهِ مُلْكي، وجئتُ من الحنينِ.
خلفي اجتياحٌ عابقٌ بالغامضينَ، فإنْ رفعتُ إلى حياةٍ هرَجها اندلعتْ حياةٌ خلسةً كمهرِّجٍ تحت الخواصرِ والبطونِ.
ولمحتكُمْ،

ولمحتُ كيف بلادنا وقفتْ وراءَ شبَاكها،
وهوتْ على سورِ الحصون
غيمةٌ. وهدأتُ مشدوهاً بطعنِ عناصرٍ مشدوهة، وصرختُ: سربٌ، وانعكاساتٌ لصخرٍ تحت أعمدتي، وبي شعبٌ يسوقُ عراءَهَ؛ هيا امنحوني
ظلمةً مغسولةً في ظلِّ مدرجكم.. أقولُ: قبائلٌ قلبي؛ أقولُ: غدٌ يضيقُ على الجنون.
ودمي رنينُ ممالكٍ مذهولةً تعلو، ويعلو بينها
هَرْجٌ لأندلسٍ تفوحُ من الرَّنين.

وأقولُ: يا أمراءَ هذا السُّندسِ البالي انهضوا؛ ستروننَي في ردهةٍ ما بين قرطبةٍ وقافلةٍ بآخر مصرَ، ثم ترونَ هذا الأطلسَ الباقي يهرُّ هريرَ أنثى الكلبِ:
«يا للسيِّدةْ
أخفتْ سراويلَ ابنتيها، ثم ألْوَتْ عنقها لغلامها:
قُبَلٌ قُبيْلَ جلوسهم للمائدةْ
قُبَلٌ بُعيْدَ جلوسهم للمائدةْ
والسائسُ المحزون في إسطبله
حَذِراً يفكُّ لجامَ بغليه السماويينِ في أدبٍ جليلٍ تارةً،
أو يشتمُ البغلينِ مُرْبَدَّاً ويلغي القاعدةْ:
سرجٌ لهذي السيدةْ
سرجٌ لكلبِ السيدةْ
سرجٌ لزوجِ السيدةْ
سرجٌ لأُمَّتِها، وخادمها، وسرجٌ
للسماواتِ التي هبطتْ كديكٍ وسطَ صحن المائدةْ
سرجٌ لطير السيدةْ
سرجٌ لحقل زهورها.
سرجٌ لآلهةٍ تخيْطُ القاعدةْ»
وأنا أدور كهدهدٍ لا يهتدي للماء، بل لجفافِ بلدانٍ مغبَّرَةٍ كسربِ الماعزِ:
«الكلبُ الذي أسرجتُهُ، والسيدةْ

في غرفةٍ موصودةٍ، والزوجُ خلفَ المائدةْ
يهوي بقبضته على زُحَلٍ،
وينهضُ حاملاً أيامَهُ المستنفَدَةْ».

قولوا لشعب تحت أعمدتي: اغسلوهُ،
واربطوا أيامهُ كالحبلِ حولَ الأعمدةْ.
قولوا: اقتلوهُ تحت قوسِ الأعمدةْ
وتقاسموا رئتيهِ كي تتنفَّسَ الأمُ الحبيسةُ فيه. إنَّ تخومه مشغولةٌ، وهو احتمالٌ: ربَّما
أغواهُ نقشٌ فوق بوّاباتِ سيناءَ الفريسةِ، ربَّما
تاريخُهُ المنسابُ فوق الأغمدَةْ.

قولوا لشعبٍ تحت أعمدتي: اقتلوه تحت قوس الأعمدة.
قولوا لهذي النسوةِ المستعجلات: اجمعْنَهُ جمْعَ الذَّوائبِ، وانحدِرْنَ بهِ مدارجكنَّ نحو القاسم الحجريِّ للشعبِ؛ انحدِرْنَ إليهِ، واستغرِقْنَهُ بزبرْجَدِ الظلماتِ:
«يا للسيدةْ
ترنو إلى ابنتها، وتجزمُ أنها مأخوذةٌ بجراحنا،
وتميلُ في غضبٍ لتدفعَ كأسَها متعمِّدَةْ
فيضيقُ سطحُ المائدةْ».

ويضيق قلبي مثل فوَّهة فتسقطُ منه أعشاشٌ وطيرٌ مَيِّتٌ ويفيضُ حول الفوَّهَةْ
ذَوْبٌ من الفولاذِ ممزوجٌ بطينِ الآلهةْ
ويردُّني أصلٌ تنبَّأَت الحياةُ به:
شمساً مقسَّمةً، وأجراساً تدلَّتْ تحت زهرِ الفاكهةْ.

قلبي السبائكُ، من ترى يغتالني فَرِحاً بنصلٍ حاذقٍ يهوي به في شَحْمةِ الكُظْران؟ يا للقلبِ، يا لسبائك في القلبِ، يا لحراثة ثيرانُها في القلبِ ترتطمُ العشيَّةَ بالغُضارِ الحيِّ والمدن. احملوا أقفاصَكم وسروجَ آباءٍ يبارك موتُهم ما تبدعون الآنَ من موتٍ؛

سأنتظرُ الحياة، وربما استعجلُ الصُّدَفَ اعترافاً بانشقاق جارفٍ تعدو الحياةُ إليه.. لكني ائتمرتُ بغامضٍ ملآنَ، وائتمرتُ بنخلي كوكباتُ النخلِ، وانشقَّتْ جواهرُكم عن المركومِ من خَزَفٍ وأصداف: ألاَ انتظروا.

ستعرفُ موجةٌ موجاً، وتعرفُ صارياتٌ
أنها مأخوذةٌ بفراغِ هذا البحرِ، والحجرُ
سيغفو في فراغٍ عادلٍ، وتضيءُ مأتمها
فراشاتٌ، ويخلعُ جذرَهُ الشجرُ.

عودي إذنْ يا ساحراتُ، ويا حروبَ الباطنِ: الأرضُ التي وقفتْ هناكَ ولم تقفْ،
خرجتْ إلى ميثاقها تعدو، ويسبقها المدى والآدميُّ.
وأنا أردُّ ممالكي للكهفِ، ثم أحيطها بغياهب،
وأشقُّ بين غياهبي مجرىً لآجرٍّ يسيلُ به الدَّويُّ.
وأقومُ معتكزاً حصاريَ، عارفاً
أني حصيلةُ غامضٍ حملت لها الأعشاشُ ذعرَ طيورها،
وأتتْ تحفُّ بها الخناجرُ؛ عارفاً أني الوريثُ الآدميُّ
للبحرِ، أو لخلائقٍ تبكي، ويحضنُها غبارٌ ساحرٌ،
غضٌّ،
وحيٌّ.

علَّمْتني يا شعبُ كيف أقودُ سرب جنادبٍ في القلبِ، كيفَ أقودُ هذا القلبَ مثل نعامةٍ، وأموِّهُ الأثرَ الذي رسمتْهُ أحزانُ الفرائسِ في حدودِ القلبِ وهي تميلُ هاتفةً بكلِّ غزالةٍ للرعدِ: «قفزاً يا غزالَ الرعدِ، ذا شَرَكٌ سماويٌّ، وتلكَ مكيدةٌ للأرضِ» (هل علمتني يا شعبُ أن فؤاديَ المذعورَ غزلانٌ وصيَّادونَ) يا أرضُ انهضي..

يا حفرةً تمشي وئيداً مثل بغلِ الأبجدياتِ، انهضي...
إنني استجمعتُ أكباداً، وقاسمني الحطامُ
مَخْدَعاً، وعرائساً حَمَلَتْ لها الأحزابُ رملَ دروعها،
واستجمعتْ أكبادَها كالعقدِ؛
يا لَعذوبةٍ كالعقدِ،

يا للشعبِ ما استجمعتُهُ نجماً فنجماً
خلفَ هذا الفاصلِ العدميِّ إلا شدَّني موتٌ، وعاودني الهيامُ:
«يا صباحَ الشعبِ، يا امرأةً يقاسمُها الحطامُ
مخدَعي، وأرى يديها
نيزكاً لطفولةٍ،
وأرى الطفولةَ هدهداً وقرىً تنامُ
وهي تلتقطُ الحُبَاحِبَ والسنينَ؛ أرى الطفولةَ بيدراً
تخفيهِ سنبلةٌ، ويسرقهُ الحمامُ.

وأنا وسنبلةٌ نقودُ سماءَنا مثل الثعالبِ نحو كَرْمِ الأبجديات: انتظرْ يا شعبُ كيف تمرُّ مصرُ غداً، ونسهو عن جنازاتٍ هُنا، ويقودُ مأتمنا الكلامُ».

٢ ـ السيِّد

لم أقلْ: موجي نبيٌ،
لم أقلْ: أحشائي التفَّتْ على وردٍ،
وشقَّ غشاءَها البحريَّ وردُ.
لم أقلْ: هذا غطائي
شَفَّ عن ثديٍ تناوبَ طعنَهُ حرٌ وبردُ.
لم أقلْ كيف التقيتُ الشعبَ مرفوعاً على هذيانِ سنبلةٍ تقودُ سماءَها مثلي، وكيف خلعتُ عَن صدري دروعاً غضَّةً، وركضتُ: «نصفي صاعقٌ، نصفي من الآجرِّ» واستحلفتُ كلَّ خليّةٍ أنْ ترتدي أرضاً لنهتفَ: من هنا يا شعبُ،
من بهوٍ يحاذي سقفَهُ الدمويَّ رعْدُ.
ولتكنْ أحزانَنا زمُراً من الفلِزِ الإلهيِّ الَّذي يُحصى ولا يحصيهِ عَدٌّ.

إنني الطبقاتُ ترفع خَتْمَها ونبيذَها
نخبَ اندلاعٍ؛ إنني الطبقاتُ تحضنُ خوذةً أخرى،
وروحي ماعزٌ، ويدايَ وعْدُ.

من هنا يا شعبُ،
من بهوٍ يداعب سقفَهُ الدمويَّ رعْدُ.

من هنا: يا لاحْتفالي،
يا احتفالَ اليَشْبِ والياقوتِ، يا لَمدينة
تعدو كثورٍ نحو ينبوعِ الخرافيينَ. يا لَكواكبٍ مغسولةٍ
بعويلِ عرَّافاتها. يا لاحتفالي:
ساهرٌ هذا الغبارُ الغَضُّ مثل أيائلٍ جفلتْ،
وقلبي الفاجعيُّ
خوذةٌ ومهرِّجونَ.. تعالَ يا شعبي، تعالَ، أنا الوريثُ الآدميُّ
لفرائسٍ كَمَنَتْ لها أجناسُها،
ومشى إلى ميعادِها مَيْتٌ وحيُّ.

آب - ١٩٧٥

الجمهرات

(في شؤون الدم المهرّج والأعمدة وهبوب الصلصال)

مَنْ قال إنَّ العائدينَ إليَّ لم يصلوا إليَّ، وإنَّنا
لم نُشْعِلِ النَّهبَ الجديدَ مُبارَكاً وسْطَ الصَّليلِ ووسْطَ أقنعةِ المساءِ؟
أنا المساءُ
أنا المساءْ
هذي خطايَ على مدى بَهْوٍ من الصَّلصالِ يدخلُ كلُّ ميعادٍ إليهِ مُضَرَّجاً بعويلهِ،
وأنا المساءْ
مَنْ قالَ ما عادت جيادي كالجيادِ؟
مَنْ قالَ كانتْ طَعْنَةٌ وأفقْتُ إذْ هتفتْ وَصيْفَاتُ الرمادِ
فرأيتُ أنَّ العائدينَ إليَّ لم يصلوا إليَّ، وأنني
جذلانُ؟... فَلْيَدْنُ الهباءُ مزيَّناً بأزاهرِ اليَقْطينِ، وَلْتَملِ الجُسُوُرُ.
نحوي كأنثى وليكنْ نهبٌ أخيرُ.
وليكنْ... ستَروْنَ ما رأتِ التخومُ: خُطىً تمرُّ، وبعدها يرفو الترابُ
كلَّ ملحمةٍ بخيطٍ أغبرٍ؛ وترونَ إذ يأتي الخرابُ
أنَّ تحتَ دروعهِ درعاً من الريشِ. ابتهالٌ فليكنْ،
فأنا المساءُ
أنا المساءْ
أطبَقْتُ أهدابي على حُلُمٍ،
وسَرَّحتُ العذوبةَ والرمادْ
وفَتَحْتُ أهدابي على حُلُمٍ،
وها كفَّايَ تلتقطانِ من شررِ الهباءْ
شرراً، وتُطْبِقُ بالدماءِ على الدماءْ.
وأحيطُ بالأنفاسِ هذا الحيَّ - وسْطَ نشيجهِ ومديحهِ -
وأقولُ: «ها أبواقُنا، خُذْها إذنْ
وَلْيبتَدِئْ نَهْبٌ، وكُنْ عند النَّفيرِ
يقظانَ تشربُ من يديكْ
هذي الينابيعُ الغريبةُ. خُذْ إذنْ أبواقَنا،

وافردْ رياحَكَ في مَهَبِّ دمٍ، ومُرَّ معَ الصَّفيرِ
كأشدِّ ما تطوي الرمالَ لقالقٌ نحو الغديرِ
وانهضْ قليلاً، ناظراً من أمْسِكَ - الصَّلْصَالِ صوبَ غدٍ تَرَ الدَّمَ (إنَّهُ
دمُكَ - المداخلُ)...» إنَّهُ
جَهْماً يلوِّحُ بالقناعِ، وإنَّهُ - قُرْبَ الجذورِ، وقُرْبَ قَهْقَهةِ البراعمِ يستديرُ إليَّ
مصطدماً بأجراسِ السَّديمِ.

أنا المساءُ
أنا المساءْ
ملْئي رنينُ مصائرٍ تتفتَّحُ الأنقاضُ تحتَ هبوبها؛
ومعي هبوبُ الكائنِ المهدورِ في أعراسه،
فَلِمَ الذينَ أتوا أتوا هلعيْنَ من صخبِ المكانِ؟ أنا يقيناً قادمٌ من جوهرٍ حيٍّ إلى
حيٍّ يُريْقُ صليلَ حاضرهِ، وملءُ مراكبي مُدُنٌ، أقولُ: تقدَّمي يا أبجديةُ، وانحدرْ يا
صقرَ هذا المأتمِ. انحدرِ، انحدرْ يا أقحوانُ، لأسْرَحَنَّ مع الحديدِ مزاحِماً هذي الرئاتِ.
أنا المساءُ
أنا المساءْ.

هل ترجعونَ إليَّ إذْ زبدٌ يطوفُ
دافعاً بتيوسه البيضاء صوبَ دمٍ يحارُ: «أتذكرونْ
مَالَتْ على صنَّيْنَ بارقَةٌ من القَصْديرِ فالتأمَتْ مواجعُهُ، فأجْفَلَ قاسيونْ
حرَّانَ محتضناً قناعَ أنينه،
وأساورَ الحجرِ القتيلِ. أتذكرونْ
كانَ المساءُ مكوَّراً كَيَدٍ، وكانَ دمٌ - وَصِيْفُ
قادماً في هيئةِ الحجرِ؟ انتظرْ،
قلنا انتظرْ يا قاسيونْ
كَمْ أنتَ من حجرٍ، وكَمْ هذا الحجرْ
متهدِّلٌ. قُلنا: اصعدي يَتُها الطُّيوفُ
من خرابٍ رافلٍ في إرْثِهِ، واسْبِقْنَنا يَتُهَا اللواتي ضِعْنَ بين خناجرِ النَّسرينِ

يسبقُهنَّ في دمنا الحفيفُ.
فإذا التقينا كُنَّ تحت عرائشِ البازلتِ والحَمَإِ الحَرونْ
أوقدْنَ للنَّهب المساءَ ». سترجعونْ
متأبِّطينَ طفولَةَ اللَّهبِ. انثروني
فوق صرختكم أكُنْ وقتاً لوقتٍ مُترفٍ، فأنا المساءُ
أنا المساءْ
ضَيَّعتُ بين رئاتِكم رئتي فما تتنفَّسونَ سوى رنينٍ مُثْقلٍ بالطَّيشِ؛ لا، لأكبِّلَنَّ دماءَكم بدمٍ شريد، طاعناً بالأقحوانِ منابعَ الأشكالِ حيثُ حضورُكم جَرَسٌ، وهذا الجوهرُ الحطَّابُ مُتَّكِيءٌ على فأسِ الهباءِ الباسلِ. التقطوا الرَّنينَ، أنا المساءُ
أنا المساءْ

*

حينَ توَّجَ الرمادُ الرمادَ،
وألقتِ المياهُ بأقفالها في المياه؛
حين سَفَحَتِ المناجلُ مدائحَها للصَّلصالِ،
وتَدلَّتْ صواعقُ النَّيْلُوْفَرِ من السِّياجات؛
حين مَحَتِ الأختامُ الأختامَ،
وتقطَّعَ عقدُ الأشكالِ؛
حين انْبَجَسَ الغامضُ في الدَّمِ،
ودخلَ الغبارُ المهرِّجُ بَهْوَ المساء؛
حين انْحَسَرَ السَّديمُ عن السَّديمِ،
وهَدَأَتِ الأنوالُ الآجريَّة؛
حين تشبَّثَتِ الجهاتُ بقناعِ البراعمِ،
وحشدَ الرنينُ أبواقَهُ بين الأبواق؛
حين صعدتِ الصَّرخةُ سَلالِمَ النباتِ،
وكسرَ النباتُ أباريقَ الجذورِ فانْدَلَقَتِ الأعماقُ والمدائحُ؛
حين غطَّى الحاضرُ المَلولُ قناعَهُ بوميضِ الخواتمِ والقَهْقَهَةِ،
وحينَ جاءَتِ الصَّاريةُ: نصفُها حُلُمُ المياه، ونصفُها حلمُ اليابسة؛
حينَ ضمَّ المرئيُّ فوانيسَهُ الضَّائعةَ، وسرَّحَ الصبّاحاتِ؛

حين تفتّحَ العَراءُ عنِ الخطى التي لا تصل؛
وحين قرعَ البعيدُ صنُوجَ البعيد...
آنئذ،

لم يكنْ بيني وبين الكائنِ غيرُ فرسخٍ واحدٍ من اللُّهاث والصَّليلِ، قلتُ: لا، لن يصلَ الكائنُ إلى الكائنِ إلاَّ نَهْباً. وحَزَمْتُ الجهاتِ، رافعاً للرّحيلِ مراسي البطشِ والجدالِ، كأني سأفتحُ للخاتمةِ مداخلَ العذوبةِ، وللمكانِ متاهَ المكان. غير أنَّ الكواكبَ أتتْ - قبلَ هذا - وأتى الغامضون شاهرِيْنَ على الجمهراتِ خناجرَ الصباحِ الشريدِ.. وقلتُ: لا، لأكْشفَنَّ - قبل هذا - غطاءَ الجذور، ولَيكْشفَنَّ عنيَ الدمُ غطاءَ الجذورِ، كأني سأفتحُ للخاتمة مداخلَ البهاء، وللمكانِ جدالَ المكانِ.. لا، قلتُ لا يصلُ الكائنُ إلى الكائنِ إلاَّ نَهْباً، وهذا حضوري أكثرُ ارتطاماً من الصباحِ الشَّريدِ بالأدوارِ:

فَلْيكُنِ النَّهبُ إذنْ،
فَليكُنِ النَّهبُ

وَلْيشيِّع الصليلُ خطى الآدميِّ؛ فما مِنْ حَرْبَةٍ إلاَّ وترتفعُ الآنَ وسطَ الأقفالِ والجباهِ، وما مِنْ صخبٍ إلاَّ وفيه اجْتياحٌ باسلٌ للرمادِ:

فَلْيكُنِ النَّهبُ إذنْ،
فَليكُنِ النَّهبُ

وَلْيَهُبَّ الحاضرُ المَلُولُ إلى جيادهِ المَلُولَة، مُلْهِباً بسوطهِ الزَّعفرانيِّ مجدَ الأنقاضِ، فها أُولي مديحٍ نحنُ، ندخلُ الحَلَبَةَ عاقدِيْنَ أكبادَنا على فاكهةٍ، ومصائرَنا على براعمِ الغُضارِ. إنْ كَشَفْنا عن كنوزنا كَشَفْنا عن تَرَفٍ آدميٍّ، وأحابيلَ أكثرَ قَنْصاً من شبّاكِ العذوبة. وإنْ دَفَعْنَا خُطانا إلى الحلبةِ دفَعْنا القَهْقَهَةَ إلى سراديبِ المساءِ الحيِّ.. فَمَنْ يدحرجُ الباطلَ الآن كَدِرْهمٍ معدنيٍّ على رُخامِ الأشْكال؟ ومَنْ يُطوِّقُ الأنينَ بدُعابَةِ المهرِّج؟ ضَرْبَةٌ أو ضربتانِ من معولٍ حَذِقٍ ويجرفُ الصَّلصالُ، بعدها، هَرْطَقَةَ الصَّلصالِ في الفَرْسَخِ المباركِ بيني وبينَ الكائنِ، حيثُ اللُّهاثُ لهاثٌ، والصَّليلُ قناعُ الجهاتِ، بَيْدَ أنّي سأجعلُ الفَرْسَخَ المباركَ رَحْباً كَدَمٍ، خائضاً فيه بالخناجرِ والأُقحوانِ، عارِماً بهيّاً، تَسْتَطلِعُني الجذورُ، وأَسْتَطلِعُ الجذورَ والمناجلَ الخبيئةَ في هزائمِ الكائنِ.

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ.

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءَ .

حينَ توَّجَ الرمادُ الرمادَ ، وألقتِ المياهُ بأقفالها في المياه ، كنتُ فارداً مدايَ لزهراتِ النحاسِ والحَمْحَمةِ ، مُطبِقاً بلهاثي على الحناجرِ ، أكادُ أحتجزُ الصباحاتِ على جسوري ، أو أحتجزُ الجسورَ بينَ الصباحاتِ وبينَ الدمِ . لكنَّ هذا النهارَ الأخيرَ - نهارَ العويلِ والأباطرةِ - انحنى وسطَ مُنْشديْهِ انحناءَةَ الأسيْرِ ، فَقُلْنا : « يقيناً لَنُثْقلَنَّكَ أيُّها الأخيرُ بالأغمدةِ والأبواقِ ؛ لَنُثْقلَنَّكَ بعراكٍ عادلٍ ودمٍ عادلٍ ، سائقيْنَ إماراتكَ الأخيرةَ تحت بيارقِ النَّهبِ والحديدِ » . يقيناً كُنْتُ مُتْرَفاً بالنَّهْبِ والحديدِ حين توَّجَ الرمادُ الرمادَ ، وكانتِ الطيورُ مذعورةً في مدايَ والمناجلُ تأتي وتمضي رافعةً بين المدائحِ البريْقَ الآدميَّ للخرابِ .

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ .
وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءَ .

ها أنذا مسترسلٌ في القَبْضِ على الصَّلصالِ كَمَنْ أشْرَكَتْهُ الطبيعةُ في هَرْجِها الأنثويِّ من غيرِ قناعٍ ، ومن دونِ ما يجعلُ الينابيعَ طفولةً للمعدنِ . وها أنذا أتلمَّسُ الشهوةَ تحت درعي بيدٍ من الغماماتِ فلا ألتقطُ غيرَ الأعشاشِ والفاكهةِ ، شاهداً على انحلالِ الأفقِ خلفَ الفؤوسِ وسيوفِ الزنابقِ ؛ شاهداً باسطاً يديه للنِّعمةِ ، حاضناً ما يحضن الحيُّ من أسلابهِ . وكَانْبجَاسٍ مُتْرَفٍ لدمٍ مُتْرَفٍ أصعدُ سلالمَ الخُزامى إلى الحَلَبَةِ ، حيثُ النبوءَةُ وافْتجاءاتُ المواكبِ الحيَّةِ ، ناسجاً في صعوديَ النساءَ (حين لم تكنْ نساءٌ في الأرضِ) ، ناسجاً لَهْفَةَ الأجنحةِ وحروبَ الأعالي ، فَلاَ تَتَبدَّى ليَ الأرضُ إلاَّ موجةً من النحاسِ واسمَ شهيدٍ : أنا المُغيْرُ كما ينبغي ، والعارفُ المَلُوْلُ ، لا أسئلةَ لي ، ولكنني أُشْعِلُ الخفيَّ كالحَجَرِ ، وللبهاءِ الذي ينثُر السُّمْسُمَ على الأرغفةِ أرفعُ الأسلحةَ ومقاديرَها ، عارفاً أنَّ المكانَ يرفعُ مثلي لهذا البهاءِ أسلحتَهُ ومقاديرَها ، وأنَّ الحَشْدَ المُغيْرَ معي هو الحَشْدُ المُنْتَخَبُ للأقنعةِ الأزليَّةِ . وحيثُ ينحدرُ المعدنُ الى صليله أنْهَبُ الصليلَ نَهْبَ الجائعِ ، كأنِّي فلزٌ يَدَّخِرُ الفلزَ لفؤوسٍ ستعلو معَ النشيدِ وتهوي لتقْتَنصَ النشيدَ . وللَّذي سيطلقُ السهولَ كالماعزِ في هذا المُنْبَسَطِ المُتْرَفِ بامتداده ؛ للَّذي يرتدي للأرضِ وَعْرَهَا ، وللبسيْطِ مُشْكِلَ البسيطِ .. لَهُ ، لهذهِ الخَلْخَلَةِ في هَدْأَةِ

الكائنِ، أنْحَرُ الينابيعَ والثواني، مشيْراً ـ كما تشيرُ البوصلةُ ـ الى الحدودِ الخفيَّةِ. غير أني

سأشعلُ

الأرضَ

قبلَ هذا

بطفولةِ

الجذورِ،

وسأجمعُ الجَمْعَ الأخيرَ تحتَ بيارقِ الصَّفيحِ. وتحت بيارقِ الصفيحِ سأمهِّدُ الحلبةَ كسرير العاشقة للبروقِ والعرباتِ ورَهْبَةِ العَضَلِ؛ وللبهاءِ العادلِ في الحَلَبَةِ سأحشرُ الأضداد حَشْرَ الأحناش. ووحدي ـ بحناني وشكيمتي وبأس القُرُنْفُل ـ سأكونُ الخوذةَ على كلِّ رأسٍ، وسأكونُ الدَّليلَ الدمويَّ في الأجسادِ المُهَيَّأةِ للعراكِ. غير أني

سأشعلُ

الأرضَ

قبلَ هذا

بطفولةِ

الجذورِ،

جريئاً كما ينبغي، شارداً كَحكْمةِ النباتِ. وستأتونَ: أناملي بين أناملكم حين تَقْبضونَ على الشَّاردِ في كلِّ حيٍّ؛ أنا الأبجديةُ التي لا تُفْصحُ، لكنكم تعرفونني، ومعي تُفْصِحونَ عن الإندفاعاتِ الحَذِقَةِ للدمِ. عادلونَ أنتم، وللنهارِ الباسلِ تنسجونَ الفِلْزَ الباسلَ. وحين تنحني الحياةُ انحناآتِها الذَّهبيَّةَ تنحنونَ انحناءَةَ البَعْلِ، فاتحيْنَ للنعمةِ مساربَها بين الدَّمِ والرمادِ؛ وها أنتم ترفعونَ جذوعَكم وقَدْ غمرتْها طمأنينةُ الينابيعِ والحربِ، وأرفعُ جَذْعي معكم مُثْقَلاً بطمأنينة الينابيع والحربِ، مُثْقَلاً بالأدوارِ، مُثْقَلاً بالخواتمِ والهباتِ؛ ومعاً نُضْرِمُ في الحَلَبَةِ صليلَ المدائحِ ونلجُمُ الأشْكالَ. غير أني سأرجمُ الأرضَ قبلَ هذا بالصباحاتِ، صاعداً من القرائنِ الوحشيَّةِ إلى القرائنِ الوحشيَّةِ بعتادِ الإنسانِ ويأسه، كاشفاً عن النهارِ غلالَةَ الكوكبِ، وعن الليلِ نَسْجَهُ الأنثويَّ، هاتفاً: فَلْيَكُنْ يا امرأةَ العَراءِ، فَلْيَكُنْ. سنجمعُ الآنَ مباهجنا كَصُرَّةِ المسافرِ، وَسَنُهْرِقُ الأعيادَ في المأدبةِ التي لن يشهدها سوانا. ولكنني ـ في غمْرةِ الهذيانِ الأخير للكواكبِ وانكساراتِ النشيدِ، حين يبقى الوحيدُ وحيداً، وتنحَلُّ الجمهراتُ ـ

سأدنو مُحْتَشِماً بالإباحَةِ والهَتْكِ كي أَلْمسَ الشِّفاهَ التي اسْتَوْقَدَتِ الشفاهَ في غَزْوِها. هاتفاً: فَلْيَكُنْ يا امرأَةَ العَرَاء، فليكنْ أيها العَرَاءُ. ها أنا وسْطَ موكبي وليَ مَرَحُ القرونِ والأسلحة. وها أنا أترامى باسِطاً أحشائي حيثُ اللَّقالقُ الواقفةُ كالأبجديَّةِ على ساقٍ واحدةٍ رافعةً مناقيرَها في الفراغِ الأرجوانيِّ، رافعاً في الفراغِ سَطْوَةَ المباهجِ وبَطْشَ النَّبات:

ألاَ لا يَرْجعَنْ أحدٌ دونَ نَهْبٍ،
ألاَ لاَ يَرْجِعَنْ أَحَدٌ.

غيرَ أنني أذكرُ العائدينَ من دونِ نَهْبٍ، وأذكرُ الأعمدةَ الذَّهبيَّةَ لليباسِ على حدودِ السنابلِ. وأزعمُ زُعْمَ العارفِ أنَّ المصائرَ محبوكَةٌ بالنحاسِ والأقنعة، وأنَّ الوافدينَ الآنَ من المدى الأمْلسِ المصقولِ بالحَتِّ والمباردِ سيجمعونَ دوابَّهم أمامَ ساحتي، وسيكونُ الميثاقُ الذي لا ميثاقَ بعدهُ يا امرأة العَرَاء.. فَلْتكتملِ الهرطقةُ العذبةُ إذنْ، فَلْتكْتملِ العذوبةُ والصليلُ، وَلْتَنْسَلَّ اللبوءاتُ بخطواتها الجليلة إلى سكونِ العراءِ المُثْقَلِ بهيبَةِ الحَلَبة، وليكنْ لهذه المرأةِ سِرَاحُ الخناجرِ وخطوُ النسَّاجات، ولْتكنْ خطاها جليلةً أيضاً في السكونِ المُثْقَلِ بهيبةِ الحَلَبة، وهي التوأمُ الوحشيُّ لروحِ الرَّجُلِ. إيْـ يْـ يْه يَتُها التوأمُ الوحشيُّ لروحِ الرَّجُلِ، كلُّ بُرْهَةٍ حاضرةٌ الآن، وأنا الحاضرُ أيضاً أقتربُ وأبتعدُ في العِراك، حاضناً هباتي من الجلودِ والريشِ والصلصال، مثليَ مثلُ المكيدة، وأنسجُ الخصومةَ نَسْجَ الحاذقِ كي أرى الحجرَ في ثيابِ الهواء، وأرى الهواءَ في ثيابِ الحجرِ. وأقولُ: فَلْتُصْغِ الحياةُ إلى هذهِ اليدِ الرَّهيفةِ حين تمتدُّ الى المقبضِ الزَّبرجَديِّ لسيفِ الرمال، وترتفعُ وتنخفضُ كحركةِ الثَّدي فلا يكونُ انقسامٌ تحت شَفْرته إلاَّ ويكون انْقساماً أخيراً، ولا تكونُ ضَرْبَةٌ إلاَّ في المَقْتَلِ. وأقولُ: فَلْتُصْغِ الخطى إليَّ، رهيْفاً كاسْتِلالٍ رهيفٍ للنِّعمةِ من الأعمدة، مُحيطاً بالجمهراتِ أسألُ الجمهرات: أيُّ عنفوانٍ يرنُّ رنينَ الدِّرْهَمِ المعدنيِّ على دَرَجِ الحَلَبَة؟ وأيُّ حضورٍ هذا الحضورُ المغتَسلُ بأُبَّهةِ الصَّواري؟.. لكأني أرى الدَّويَّ، وأسمعُ الجباهَ؛ وكأني ألمحُ الجمهراتِ عاكِفةً على اقتسامِ الوقيعة، جَهْمَةً، تتدلَّى أبواقُها الصلصاليَّةُ على الخواصر؛ حولها امتدادُها، حولها امتدادٌ سابحٌ في قِرْمِزِ الصباحاتِ العارية، تهتف: فليكنْ. ستُمْلي وسَنُمْلي البهاءَ الغريبَ وصليلَ الزَّرَدِ، وسنبسطُ عباءاتِنا للخُطى الأكثرِ احتفالاً على دَرَجِ المذبحة. وإنْ رفعتَ يديك إلى وجهكَ حاجباً

سطوع المَواكِبِ - إنِ رفعْتَها - سترانا في المواكبِ عدَّائيْنَ نجرفُ الجُرْفَ بالعباءاتِ ونهتكُ الهَتْكَ. فلْيكُنْ: ستُمْلي وسَنُمْلي البهاءَ الغريبَ، خائضينَ سلْطانَ الحجرِ بعجولنا، خائضينَ تَرَفَ الوحشيِّ، فلا أرضَ إلاَّ وفيها إجْفَالةٌ للغبارِ. فليكنْ: سنَنْحَرُ البهاءَ نحْراً للنساءِ تحتَ قميصِ الزنابقِ، فارديْنَ خمَارَ الليلِ لأقدامهنَّ المهرولة، ولرائحتهنَّ الناعمةِ كأذيالِ السَّناجِبِ: هنيئاً للنهارِ بهنَّ، هنيْئاً للنعمةِ، هنيئاً للأدراجِ إذْ ينْزِلْنَ من حُجُراتِ الآجرِّ، رافعاتٍ من الخَرَزِ ما يملأُ القبضتَيْنِ، وفي النَّسيجِ المباركِ للحَلَبَةِ والعراكِ ينثُرْنَ ما امتلأتْ به قبضاتهنَّ من الخَرَزِ والشهوةِ التي تجعلُ العَضَلَ عضلاً، والأسلحةَ مدائحَ الكائنِ بينَ المدائحِ. ألاَ لا بأسَ يتها المُضَرَّجاتُ بالأصيلِ وثُغاءِ الماعزِ، لاَ بأسَ في انحداركُنَّ على الأدراجِ البوتاسيَّةِ للحَلَبَةِ، حيثُ الصقورُ، والحدآتُ، والأعناقُ الطويلةُ لطيورِ الماءِ ومناقيرُها. لا بأسَ فها أنتُنَّ تَسْتَنْفِرْنَ العَرَاءَ ثانيةً، مغتسلاتٍ مع العراءِ باللهاثِ القرمزيِّ لصباحاتِ النَّهْبِ، وللنَّهْبِ وحدهُ تجمعْنَ المرايا والفَجَآتِ، ضارباتٍ ضَرْبَ الجذورِ على صنوجِ الرَّحِمِ حيثُ الأباطيلُ كلُّها، والعذوبةُ المخمليةُ للهرطقةِ كلِّها، والمصائرُ الشَّفيفةُ المتدلِّيةُ كأبواقنا تحتَ الخُصُورِ. ألاَ انهضْنَ فالأرضُ لا تتبدَّى لنا إلاَّ موجةً من النُّحاسِ واسمَ شهيدٍ، وذي دروعُنا لا تتبدَّى للأرضِ إلاَّ موجةً حيَّةً من الآلوسَنِ والحبَاحِبِ، كأنَّنا أوَّلُ الحصارِ وآخرُ الحصارِ، وكأنَّنا اليدُ التي سترفعُ الريشَ والعصورَ نُخْبَ البطشِ وصباحاتِ الدمِ العادلِ. ألاَ انهضْنَ تحتَ الخمائلِ البوتاسيَّةِ والمقابضِ ولهاثِ الجيادِ، وانْظرْنَ إلى هذا الحيِّ: ألَمْ يَرَنا صاعديْنَ مثْلَهُ درجَ المساءِ؟ ألَمْ يرَنا نافخيْنَ أبواقَنا الصلصاليَّةَ في المدى المُزْدَحِمِ برنيْنِ الشِّيَعِ وإجْفالاتِ الفرائسِ؟ ألَمْ يرَنا مُصْغيْنَ إصغاءَ الحدأةِ إلى ابتهاجٍ غامضٍ. إيْـ يْـ يْـ يهِ أيها الحيُّ، أيها الإرتجالُ الدَّمِثُ، لماذا تنثرُ خُطاكَ أمامَ العتبةِ فتَشْرُدُ خطاكَ؟ لقد رأيناكَ قبلَ هذا، رأيناكَ قبلَ اشتعالِ الأرضِ بطفولةِ الجذورِ، حائماً حولَ درعٍ، نابضاً كالبُزَالِ في المركزِ الحيِّ، تكادُ الأجرامُ أنْ ترتديكَ، أو تكادُ أنتَ أن تَنْتَشِلَ الجمادَ من وداعةِ الجمادِ، لتجعلَ الكُلَّ تَرَفاً في التَّهليلِ للدمِ العادلِ. ورأيناكَ مُشْرِفاً من الجهالاتِ على الجهالاتِ وجراحُكَ الكتابةُ. ألاَ قُلْ لنا أيها الإرتجالُ الذي لا يُرْتَجَلُ، أيُّ سَمَنْدَلٍ هذا الممتزجُ باللهاثِ حين لا تكونُ طعنةٌ إلاَّ في المَقْتَلِ؟ وأيُّ ذهولٍ مُثْقَلٍ بعناقيدِ الفحولةِ يشحَذُ النِّصالَ تحتَ أثدائنا؟.. ألاَ وَحَقِّ الفحولةِ لَنَرْفَعَنَّ يديكَ مع الأيدي وسْطَ المناجلِ وأعناقِ البَجَعِ، ولَنَجْمَعَنَّكَ رئةً تَنْبَسِطُ وتَنْقَبِضُ للُهاثِنا، وفي كلِّ موجةٍ سَنُلقي منكَ مِثْقَالَ نَفَسٍ واحدٍ، ليَشْهَدَ الموجُ كُلُّهُ - الموجُ

الأخيرُ من الصَّلصال والسَّبائك والأعمدة ـ أنَّ أحشاءكَ هي المسافةُ الباقيةُ للخُطى، وأنَّكَ اسمُ الأرضِ الأخيرُ. لكننا سنلهو قبلَ هذا ببسالاتنا، كاشفِيْنَ النهارَ لرماحِ الأرخبيلات والجُزُر، مُلصِقِيْنَ جباهنا في حُنُوٍّ على الأعمدةِ العُرْجونيَّةِ لمساء العراك: وكيفَ لا نَسْفَحُ الأقاليمَ سَفْحاً كالماء على المقابضِ المُضرَّجَةِ بزئبقِ الحربِ وقد رأينا السَّعفَ هاذياً، ورأينا الطبولَ؟ وكان تخمينُنا أنَّ المباردَ الحليفةَ تَشْحذُ الأبجديَّةَ تحت خِباءِ الدمِ العادل؛ لكنَّ اليدَ التي عَلَتْ عَلَتْ وحدها بين الإمارات؛ وحْدَها عَلَتْ وستعلو ثانيةً بين الإماراتِ والجلود.. هكذا سنهرقُ النهارَ ثانيةً لرخاءِ الدروعِ، غير أننا سنُشْعِلُ الأرضَ قبل هذا بطفولةِ الجذور؛ وسأشعلُ

الأرضَ

قبلَ هذا،

طاغياً في اجتياحيَ أفتتحُ الباسلَ: ألَمْ أقُلْ أنني لا ألمحُ الأرضَ إلاَّ موجةً من النحاس واسمَ شهيد؟ ألَمْ أقُلْ كَمْ غسلتُ الحمَّى بالعصافيرِ في استوائي على امتداد الحَلَبةِ، وكَمْ نثرتُ الحُظُوظَ كبُذُورِ القُنَّبِ حين لم تكنْ حُظُوظٌ في الأرض، بَلْ هياجٌ صَقيلٌ كياقوتة الخواتم؟. ألاَ لأدْفَعَنَّ عجَلاتِ الوَقيْعَة دَفْعاً، ولأشْرفَنَّ من الجهالاتِ على الجهالاتِ، نافخاً في الأبواقِ الصَّلصالية للصُّدوعِ والحَتِّ: هَلُمَّ أيُّها الجمادُ، فقد حضرَ الغريبُ، وَحلَّتِ الانهداماتُ أعماقَها، فأنا الوسيطُ لا يَصِلُ الحيُّ إلى الحيِّ إلاَ بي؛ لكنني ـ تحت خباءِ الحِبْرِ والأقفال ـ أنحرُ القُرُونَ للمأدبة، وأزَيِّنُ الريحَ بالسُّنونو.. أوَ لَمْ تروني أسْدِلُ الواقِعَةَ، وأضرِمُ الخُصُوْمَةَ كُلَّما ازْدَحَمَتْ رُدْهَةُ النهارِ بالخطى؟ أوَ لَمْ تروني مُدَجَّجاً بانكساراتِ الحيِّ ارفعُ الذَّبائحَ الحيَّةَ للغَلَسِ الإخشيديِّ المُفْعَمِ بالسُّروجِ والحَمْحَمةِ؟ أوَ لَمْ تروني طاغياً في الحَدْبِ على كلِّ جرحٍ تَفْتَتِحُهُ يداي، رؤوفاً في الطَّعْنِ حين لا يكونُ إلاَّ في المَقْتَل؟... أنا التوأمُ الجَسُوْرُ للجساراتِ لن يصلَ الحيُّ إلى الحيِّ إلاَّ بيْ، وبي سَيَسْتَفْحِلُ النَّفيْرُ إلى اندلاعٍ مُتْرَفٍ؛ لكنني، من هذا الانهدام، أستَهِلُ الجهاتِ بالأقفال، مالئاً بالدَّسِيْسَةِ كُلَّ رَحِمٍ حتى يأخذَ الشَّكْلُ شَكْلَهُ في انحلالِ الجوْهر.. ألاَ لأجْعَلَنَّ الجوهرَ شريداً كحمارٍ شريد، وَلأهتفَنَّ:

لبيك أيَّتها القَبْضَةُ المضمومةُ على حفنةٍ من المراجيحِ والغنائم،

لبيكَ أيها الدَّويُّ الحنونُ لارتطامِ العَظَمةِ بالخراب،

لبيكَ لبيكَ أيها الوريثُ الأعمى[1] لهذا العَماءِ كُلِّه:

---

(١) انظر الملحق، فصل «البغل الأعمى».

فَلْتتمهَّلْ ساعاتُ الدَّم، فما بعد هذا غيرُ بسالةِ اليأسِ وانقلاباتِ اللَّهب. بَيْدَ أني ـ في انحساري كالماءِ عن الأعمدةِ العرجونيَّةِ للنهار ـ قانعٌ بالذي معي، قانعٌ بأمومةٍ لا تُرَى، وباندثارٍ يَتَتَابعُ تحت أسمالِ الجوهر.. ومَنْ سواي قانعٌ أيضاً؟ مَنْ سوايَ يطعنُ الجذورَ بالجذورِ، ويُلْهِمُ الباطلَ هذا التَّفَتُّحَ المضيءَ؟. يا لَلْمرح، يا لَلْوداعة: وميضٌ واحدٌ للعذاباتِ يكشفُ المَهَبَّ الإلهيَّ، وتلكَ هي الخاتمَةُ في المَهَبِّ كوسَادَةِ الخُوْذيِّ أُفْلِتَ من شُقُوقِها الريشُ والخِرَقُ، وها هم المتَّكئونَ عليها: جُباةٌ ونوتيُّونَ، ووسْطَهم النِّساءُ المدَجَّجَاتُ بحراشفِ النُّبُوْءة؛ كأني أَلْمحُ في اتّكائهم جَزَعَ الغَيْبِ من بسالةِ الحاضرِ المَلُوْلِ. تَرَيَّثْ إذنْ أيها الوريثُ الأعمى لهذا العَمَاءِ كُلِّه، تَرَيَّثْ أيها الدَّويُّ.

(قديماً، في القديمِ القريبِ ـ حين دحرجَ الشَّمالُ أعمارنا على امتداد سكة الحديد بين «تِرْبَسْبي» و«ماردِيْن»، وفاجأنا صوتُ القطارِ الكهلِ، أوَّلَ مرة، مُعولاً تحتَ ثقلِ الماشيةِ وانقراضِ الحكوماتِ الكبيرة ـ كانت القرى تجرُّ عرباتِها أمام سورَ المدينة، مذهولةً من الأباطرةِ الغامضينَ وأحاديثهم الغامضة عن شعبٍ غامض. وكنَّا مذهولِيْنَ أيضاً أمام سور المدينة، حيث الرجالُ الوسيمُونَ في قبعاتهم الدائرية يستأجرون البدوَ للهتافات، وتعلو الخناجرُ ذاتُ المقابضِ العظميَّةِ أمامَ بابِ السراي احتفالاً وسْطَ أناشيدَ لا يَفْقَهُها المنشدون. وكان الواحدُ منَّا يلتفتُ الى قَرينه هاتفاً:

«يا لَلدولةِ الجميلة،
يا لَلْجيشِ الجميل.
يا للأسلحةِ الجميلة،
يا لَلرَّصانةِ الجميلة،
يا لَلْمنصَّاتِ الجميلة،
يا لَلْحزْبِ الجميل».

قديماً، في القديمِ القريبِ، دحرجَ الشَّمالُ أعمارَنا، ودحرجَ القرى والأغاني على سكة القطارِ الكهْلِ، المتاخمةِ لغَضَبِ الرُّعاةِ الذين انتشلوا جُثَثَ الماشيةِ بين وقتٍ وآخر، وغطَّوا وجوههم من دخانِ القطارِ المُثْقَلِ بانقراضِ الحكوماتِ الكبيرة. غير أنَّنا، من هنا، من الحافة الباردة للمستقبل القديم، ما نزال نلمحُ

القطارَ ذاتـه، والخناجرَ ذات المقـابضِ العظمـيَّة، عـاليـةً، تغـتسلُ في التَّعـاقبِ المدهِشِ للأباطـرة أمام بابِ السـراي ذاتهِ، المزدحـمِ بحـروبٍ غـامضـةٍ، وشعبٍ غامضٍ).

ومَنْ سواي، في القديمِ القريبِ، قال تريَّثْ أيُّها الوريثُ الأعمى؟... سيذكرُ السَّاهرونَ حول الأغاني أنني رفعتُ إلى المهبِّ الإلهيِّ رياحَ المُمَجِّدِ للهرطقة، وترنَّمْتُ بالهُلام؛ وكانتْ ليَ شكوى الطُّعْمِ الحيِّ في فخاخِ العوالمِ:
ألا لبيكَ يا مَنْ يذرفُ الحروفَ،
لبيكَ،
لبيكَ يا البقاءُ المَضْمُومُ على حَفْنةٍ من دموعِ القويِّ.

فَلْيَقُلِ المساءُ شيئاً هذا المساء،
وَلْيَقُلِ الساهرونَ أنني، مَرِحاً، أتلوَّى في سريري من دغدغات النَّدى، ومِنْ أناملِ العظَمةِ على امتداد جسدي البازلتيِّ. لا، حَسْبي أن أرى حوليَ العرائسَ الصامتات يرتِّقْنَ الفحولةَ، وحَسْبي أن أظلَّ قابضاً بأليافي على عَضَلةِ الخرابِ، مُنْصتاً إلى هذا الإسكافيِّ الجالسِ أمامَ المدائح بمطرقته ومساميره، يشدُّ المياهَ إلى المياهِ كالجلد، ويخيِّطُها بالنوارسِ. غير أني - في الساعاتِ التي تصعدُ فيها الساعاتُ سلالمَ الأنوثة - أتبعُ الأثرَ الحيَّ للحيِّ، لنَستعرِضَ معاً ذلكَ الحَرَسَ المدجّجَ بالسهولِ يَخْطرُ خَطَراتِه أمام قناعنا؛ ولربَّما رفَعْنا مَعاً - بعدَ ذلك - صولجانَ المساء، مُومِئِيْن للأسلحة أن اكْتَمِلي أيتها الأسلحةُ ببركةِ المُنْصتِيْنَ إلى أيْدٍ تتخاطَفُ عقْدَ صباحاتهم. لا... سأهتفُ: عَلامَ هذا كُلُّهُ؟ عَلامَ لا تنتخِبُ الأرضَ نَسْلَها في الوَميضِ السَّكرانِ للفؤوسِ؟. أمَا لو أنَّ لي ضراوةَ الماء لنثرتُ بمذراة الصواعقِ هذا الحصادَ الجليديَّ على بَيدَرِ القادمِيْنَ، وَلَكَمَنْتُ هنا - تحتَ عريْشَةِ الطِّين - للنهارِ، كَمَنْ كَامنٌ ليصطادَ الحَجَلَ بحَجَلٍ أسيرٍ، والظِّباءَ بصقرٍ أعمى. بَيْدَ أنَّ المساء يجري وسْطَ كميني كاليَرْبوعِ، مثيراً حولي زوابعَ صغيرةً من البنفسجِ اليابسِ وعظامِ الحدآت(٢):

لبيكَ يا مساء الشَّمالِ الطويلَ،

---

(٢) انظر الملحق، فصل «الحدأة».

يا مساءً مُتْخَماً بالنَّواعير والنَّوارج.

لبيكَ، لبيكَ أيها الخشوعُ المَضْمُومُ على حفنةٍ من هزائمِ القويِّ.

وأهتفُ: عَلاَمَ هذا الشَّمالُ، عَلاَمَ هذا الرَّابِضُ بين الزَّبيبِ والماعزِ، وحدَهُ المهرِّجُ بين الجهاتِ؟ ومَالها امْتداداتُ الأرضِ المزدهيَةُ بالريشِ واللَّبَدِ تتأهَّبُ لبقراتِ الموتِ وعُجُوْلِهِ؟ ومَا لي لا أرى - عبرَ السَّطْحِ الفيروزيِّ لمياه المستنقع، وعبرَ قرونِ الجواميس الرَّابضة بين المياه - إلاَّ النَّصلَ القديمَ ذاتَهُ، عالياً، يتلألأُ في انعكاسه المجدُ والموتى؟. يقيْناً أنا مُثْقَلٌ بشؤونِ السهولِ، ولي خُيَلاءُ الظلامِ إذْ أَحْتَضِنُ المجالسَ الحافلَةَ بشعبٍ غامضٍ يتفتَّحُ بين الحَرْشُوْفِ وتَلْتَقِطُهُ القُرى. ولهذا كُلِّه، لهذا التَّماسِّ السَّاحرِ بين لَهَبي وبين هبوبِ العوالمِ، أسكُبُ المساءَ لِنداماي، وأنهبُ المراثي:

لبيكَ أيها الهديرُ القُفْقاسيُّ،
لبيكِ أيَّتها الممرَّاتُ المُلْتَفعَةُ بالمدائحِ والنَّهْبِ؛
ولْيَدُمْ هبوبي هبوبَ صليلٍ،
ولأَدُمْ مُشْرِفاً من النَّفيْرِ على الحاضرِ المَلُوْل.

(لا تقولوا انني انهضُ الآن من بينكم، مُلبّداً بطعنات العذوبة، قبل أن تكتملَ الحَلَقَةُ، ويأخذَ المدعوونَ مجالسَهم حولَ الرعدِ وأباريقه؛ لا، كلُّ ما هناك أني سألقي نظرةَ الوارثِ الأخيرةَ، من هذا البابِ الأناضوليِّ، على حِرابِ الثلوجِ وهديرِ النباتِ، قاذفاً كَمأةَ الروحِ إلى الروحِ. وسأرجعُ، بعد ذا، حنوناً، تحكونَ لي عن مساءٍ حنونٍ، وأحكي لَكُمْ عن مساءٍ حنونٍ يسيلُ فوقَ قناعه حَبَابُ الحديدِ).

ولْتَدُمْ سَكْرَةُ الحبرِ والمياه أيضاً، لِيَدُمْ هذا الزَّوالُ المتأهِّبُ كالتَّيْسِ، فَلِي، في القطيعِ الدائرِ حوله، بضعُ كِلاَبٍ لا يُرَى غيرُ أذيالها بين الدَّلْبُوْث وزهراتِ القُثَّاء العاليةِ. ولي عالياً، كتاجِ الهُدْهُدِ المَصُوْغِ مِنَ الرِّيشِ وَالزّغبِ، نبالٌ إِسْبِيْدَجيَّةٌ، وفَخَاخٌ في الفراغِ الموشَّى بأرضِ الخلاخيلِ واللهاث. وها هي حُمُرُ الشَّهوةِ الصَّاعدةُ من الإنهداماتِ والجُروْفِ تَقْتَفي أثَري، وتقفُ الأرضُ أمامَ سياجيَ حَيْرَى، تتساقطُ من غرْبالها الذُّرَةُ والأشْكالُ... لِيَدُمْ هذا كُلُّهُ، لِيَدُمْ. ولْيَقْتَرِبْ هذا الزَّوالُ المتأهِّبُ كالتَّيْسِ لأحيطَ عنقهُ

بجرسٍ ثقيلٍ تتَمايَلُ على قرْعِهِ الصبّاحاتُ ويَسْكَرُ العراءُ. ولأقْتَرِبْ، أنا، من هذا كُلِّه في زوبعةٍ مديدةٍ من الأُمومَةِ والمَرَحِ، تتواثبُ أماميَ الأزمنةُ كالعصافيرِ، وتخبِّئُ المصبَّاتُ هديرَها في حَفيفِ ثوبيَ الأذربيجانيِّ: ألاَ لَيْتَكُم رأيتمْ كيفَ يغسلُ الشَّمالُ محاريثهُ، وكيفَ تندلقُ النجومُ والخطى من قِرْبَةِ الهواءِ الحَرُوْن. لَيْتَكُم شَمَمْتُم الضُّحى معي، لَيْتَ أصْغَتِ الرِّئاتُ لنَقْرِ العراءِ على دفوفهِ السَّرْخَسِيَّة. إِيْـ يْـ يْـ يْه، لا شمالَ إلاَّ فيه حصادٌ لكائنٍ؛ لاَ شمالَ إلاَّ نَهْبٌ يهيِّئُ الحُضورَ فيه لطَعْنَةِ العذوبة:

لبيكِ يا طفولةً لم تكنْ لأحدٍ،

لبيكِ يا طفولةً لم تكنْ،

لبيكِ، لبيكِ يا طفولةً مضمومةً على حفنةٍ منْ

مساءِ الشمالِ.

(أتَرونَ هذا الطفلَ الراكضَ من سطحٍ إلى سطحٍ وراءَ هَزَّازِ الذَّيْلِ؟ باللهِ هل ترونَهُ؟ هل تَرونَ أترابَهُ الراكضِيْنَ مثله، مُبْتَلِّيْنَ حتى الغُرَرِ منَ رَشَاشِ الوحلِ المتطايرِ تحت أقدامِهم؟ أترون شجيراتِ القطنِ مائلةً بجوْزِها الأخضرِ، وغلالاتٌ من صخبِ الطفولةِ تتماوَجُ بين أوراقها وبين البيوت؟ باللهِ. باللهِ لا تقولوا انني أهيِّئُ النهارَ لطعْنَةٍ لا تُرى).

إِيْـ يْـ يْـ يْه، فَلْتَدُمْ سَكْرَةُ الحبرِ والمياهِ.

غير أني

سأشعلُ

الأرضَ

قبل هذا،

راجعاً من الحَلَبَةِ بجواري السَّوْسَنِ، والفُؤوسِ الصَّقيلةِ لدهشة الحجرِ، حوليَ الجيادُ والحوذيونَ، كُلَّمَا التفَتُّ إلى سَهْلٍ أغْضَى، وكُلَّما خطوتُ انحلَّتْ عُرْوَةٌ في قميصِ الرمادِ. وكمَا يتغاضى العارفُ عن عثراتِ العارفِ، لا أسألُ الأرضَ أيَّ حلمٍ سترتدي اليومَ، بل أرتدي لحلمها جذْرَ النَّيْلوفَرِ؛ ذاكراً - حين لم يكنْ في الأرض غيرُ النساء - أنَّ النساءَ انسلَلْنَ من الخمائر النباتيَّةِ مَرِحَاتٍ في حُضُورهنَّ الغريب. ذاكراً أنهنَّ

رفعْنَ الينابيعَ كالمرايا، وفَضَضْنَ الجداولَ، ثمَّ أرخيْنَ قاماتهنَّ كورقِ الكَرَنْبِ على حَرْبَةِ الغبارِ، مُشْعلاتٍ ـ حيثُ يسَّاقطُ الدمُ ـ ذلك الدّفْقَ المغُوليَّ في الجذورِ والرئات. ذاكراً أنهنَّ ارتمَيْنَ تحتَ المناقيرِ الغامضةِ للعراءِ الغامض، وكُنَّ يعرفنَ أنَّ هذا الوقتَ المُنَمْنَمَ الدائريَّ كذَيلِ ذَكَرِ الطاووس في هياجه، لم يكنْ وقتاً إلاَّ في حضورهنَّ؛ لذا جذبْنَ الوقتَ جَذْبَ موجةٍ لموجة، وأفرغْنَ الفراغَ، مُسْرفاتٍ في مَزْجِ قاماتهنَّ بالرَّنينِ الإخشيديِّ لسُطُوعِ الأرضِ دونما فراغٍ أو وقت، عاريةً إلاَّ ممَّا يَحُوطُها من هُلامِ الدروعِ ونعمةِ الذبائح. وكُنَّ يعرفْنَ أيضاً أنَّهنَّ اغْتصابٌ مُسْتَفْحِلٌ، تؤخذُ الصباحاتُ بهنَّ ويُؤْخَذُ البرقُ والجذورُ؛ وأنهنَّ الضُّحى المُطَوَّقُ بأعضاءِ الكائنِ وفتوحاته الضائعة.. لكنْ، يعرفُ الحضورُ بذاته ـ القائمُ الذي لا دليلَ عليه ـ أنهنَّ سَمِعْنَ نفيْرَ أبواقٍ صلصاليةٍ، وصليلاً، قبلَ انبثاقِ الكائنِ النَّقيضِ الحاملِ حضورَهُ الطَّعيْنَ كما يحملُ الخَنَانيصَ الطَّعينةَ بعدَ قَنْصِها؛ وأنهنَّ ارْتَعَدْنَ رِعْدَةً تفتَتِحُها العذوبةُ وتخْتَتِمُها العذوبةُ. وكيف لا يرتَعِدْنَ وهُنَّ المُوْثَقَاتُ بأنوثةِ الليلِ والنهارِ لا يستَطْلِعْنَ في سطوعهنَّ إلاَّ الأنثويَّ وحدَهُ؟ وكيفَ لا يكونُ ارْتِعَادٌ أمامَ فَجَاءَةِ الكائنِ النَّقيضِ المُخَلْخِلِ بزَرَدِه وحِرابه سُطُوعَهُنَّ المُهَيْمِنَ؟. إنهنَّ ينتَصِبْنَ الآنَ وسْطَ مصابيحِ البنفسجِ ورَخَاءِ الوِحْدة، مُسْتَعْرِضاتٍ الصليلَ، قارعاتٍ صنوجَ البراعمِ وفصائلِ البقولِ الأخيرة. لكنْ، يعرفُ الحضورُ بذاته ـ القائمُ الذي لا دليلَ عليه ـ أنهنَّ لَمَمْنَ الصباحاتِ كالحصى، ونَظَمْنَها كالعقْدِ للمُقْبِلِ الحاملِ حضورَهُ الطعينَ، وأنهنَّ نَشَرْنَ قُلُوعَ اليابسة، وشَدَدْنَ حبالَ الترابِ إلى الصَّاريةِ الحرَّةِ وسْطَ نشيدِ الغبارِ المهرِّج، ملوِّحَاتٍ بمصائرهنَّ كالمناديلِ بيَدٍ، ضامَّاتٍ الأخرى تحت أثدائهنَّ: «فليكنْ أيها السطوعُ العظيمُ، فليكنْ غمدُكَ غمدَ الحضورِ، وليكنْ حضورُنا أوَّلَ العتبة. ويا أيها السطوعُ المُقْتَحِمُ ببارِدِه، ناشراً في مَهَبِّ أعضائنا شبَاكَ الشَّكْلِ، ما نحنُ إلاَّ رئةٌ، وها هو الهواءُ في اضْطِخَابه الصَّلْصاليِّ المُشْرِفِ على حدودِ نَبْضِنَا، يتهاوى عَضَلَةً عَضَلَةً، كأنَّ اختلاجاتنا هي المَصَبُّ الأعظمُ للمسيلِ العظيم». ثم شَدَدْنَ قاماتهنَّ أكثرَ وقد انحسرَ النَّفيرُ والصليلُ عن الكائنِ المشتَعِلِ بالغَلَبَةِ ونُذُورِ الهزائمِ، المُجْفَلِ العارفِ أنَّ حضوراً آخرَ على امتدادِ مسيْلِه الحيِّ سيكونُ الشريكَ لاشْتعَاله ويأسه. وتقدَّمْنَ إليه فَتَقَدَّمَ إليهنَّ مقْدارَ زوبعةٍ واحدة. وحينَ لَمْ يبقَ إلاَّ أنْ تمتدَّ يدٌ إلى يد، وحين لَمْ يبقَ إلاَّ أنْ يقتحمَ النَّفَسُ النَّفَسَ، حَلَّ عُرَى شكْلِه أمامَ التوأمِ فحَلَلْنَ عُرَى أشْكالِهُنَّ أمامَ التوأمِ، وانبَجَسَتِ الأرضُ،

فأشعلوا
الأرضَ
بالجمهرات.

سأديرُ العَجَلَةَ الخشبيَّةَ للمصائرِ ثانيةً وسْطَ نعمةِ الأنثويِّ وهَرْجِ الذكورة، خائضاً بالصباحات دَسِيْسَةَ الحيِّ؛ وَلأشُقَّنَ الحيَّ بشهوةِ العراك شَقّاً لا يَلْتَئِمُ ما دامت السماءُ أبعدَ من شَفْرَةِ المناجلِ، وما دامَ فَرَحٌ لا يَسْتَنْهِضُهُ الفَرَحُ. وسأُلقي في حجْرِ النساء الجالسات أمامَ البَعْلِ وشاحاً شَفيفاً من الطَّيْشِ حين يُفْرِدْنَهُ يُفْرِدْنَ الإباحةَ والذُّهولَ، فيرْفَعْنَ للبَعْلِ درعَهُ والصَّخبَ المؤْنسَ لصعودِ الدَّمِ في حركةِ الخاصرة؛ جاذباتٍ إليهنَّ التخومَ والصليلَ جَذْباً يستَوْثِقْنَ فيه أنَّ الحيَّ هزيمةُ الحيِّ: «هُبَّ أيها الفارغُ بأبواقكَ الصَّلصاليةِ هُبَّ أيها الجَدَلُ، يا غريمَ البهاءِ الوحيدَ؛ لسوفَ تحلُّ العتباتُ ثانيةً لقدومكَ هذه المغاليقَ، ووحدكَ ستُحصي أدراجَ الحلبةِ الصاعدةَ من شقوق السنين حتى يديكَ المضمومَتَيْنِ على مقْبضِ العذوبةِ الغامضِ. ولسوف نحاذيكَ، نحن الواثقات اللواتي يجمعهنَّ مجرىً واحدٌ لانسكابكَ الواثقِ، هاتفاتٍ: هذا مديحُ الأنثى، وهذا انتدابُنا عليكَ انتدابُ الرَّحِمِ التي لا تُسمى»... وهذا انتدابي
إذْ
أُشْعِلُ
الأرضَ
بالنَّهْب،
نازفاً من جراحي الحديدَ والأعمدةَ، مائلاً بالرياحِ الرياحَ: ومَنْ سوايَ يخلعُ الرَّخَاءَ البَهيْمَ عن حدودِ الكائنِ، أو يحلجُ زوابعَ السَّمَندل بين الحشَاشات؟ ألاَ اضْرِبْ أيها النُّوتيُّ بقصباتكَ الطويلة أحشاءَ الهَوْرِ، واخرُجي يا رجومَ الظلامِ والهندسةِ كي تصحَو في جداليَ الكراكيُّ والرَّنيْنُ؛ كي أضربَ بقصباتي الطويلةِ سطحَ المأساة، مُحيْطاً ابتهاجي بذلكَ اللَّهب البهيج في الأقنعة، مانحاً للحَلَبةِ حدودَها، وللهزيمةِ زخارفَ المقْبَضِ الحيِّ في يدٍ حَيَّة؛ كي أنثرَ الأرضَ درْهَماً درْهَماً على الفوَّهَةِ المَرْمَريَّةِ لبسالةِ الدم. ألاَ أنني أُهيِّئُ الليلَ لهُبُوْبِ المُرَّانِ، وأسْتَعْرضُ الينابيعَ في عباءاتها، رابضاً في المكانِ، هنا، في المكانِ السَّاحرِ الشَّريد، وحين تَعلو النِّصالُ في اعتدالِ الكائنِ الأخيرِ، أصيحُ: «ابدأي يَتُها الأرضُ من ظلامٍ وفلزٍ». ... وأنا النَّزْفُ

والجِدَالُ أبارِكُ الأسلحةَ ببَركةِ الجِدَالِ، مُطْمَئناً في نَبْضيَ الصَّلصاليِّ تحتَ قشْرةِ الدَّمِ. ألاَ أنني - هذا الباطِلُ الأكيدُ - سأصِلُ العِراكَ بالعِراكِ، طافحاً وسْطَ هذا الكفنِ الكافُوريِّ بالمواكبِ اللاّبسةِ تَرَفَ الحلمِ وحده.

بعد هذا
سأشعلُ
الأرضَ
بالنهبِ،

وسيشعلونها مَعي ذالكُمُ الناهضونَ في ثيابهم الآجريَّة، والمسفوكونَ سَفْكَ الحكمةِ في هذا الأيوانِ... ها هم يشعلونها معي، مُمْسكيْنَ بالأرغفةِ والأبواقِ، لكنهم يَصْقُلونَ - قبلَ هذا - سُطوعَ القُرونِ ببارِدِ أعيادهم، واثقيْنَ في الحركةِ، واثقيْنَ إذْ يغمرونَ بالصَّفيحِ الأشْكالَ. ولربَّما رأيتَهم في ثيابهم الآجريَّةِ استطالاتٍ للنباتِ، أو رأيتَهم شكيْمةً تُشيِّعُ الكائنَ الى نديمِه الأخيرِ (النديمِ الصَّامتِ المُتَّزنِ في قناعهِ على المائدة)؛ ولربَّما لمحتَهم يربطونَ سيوْرَ الأحذيةِ ويتركونَ وجوههم لمرايا السوسنِ؛ إنَّما ها هم يشعلونَها معي في مُجُوْنِ المساءِ الصَّاعدِ بغزالاتهِ وصقورهِ سلالمَ المذبحة: ألاَ لَنْ نباركَ إلاَّ المبارَكَ، ولن نُشعلَ إلاَّ المُشْتَعِلَ بأقدارِنا، وسَنُلْزِمُ الحيَّ بانقسامٍ تَشْرُدُ الرئةُ فيهِ عن الرئةِ. وسندعوهُ بعد ذا فيأتي جَهْماً حاملاً اسْطرلاَبَهُ السماويَّ ومدائحَهُ الصاخبةَ كخناجرِ بناتِ آوى[٣]، وفي كلِّ خطوةٍ يَشُفُّ عنه القناعُ حتى نراهُ مُوْثَقاً بأليافهِ وشرايينهِ الفارغةِ إلاَّ من سَرْخَسٍ يابسٍ. وسندعوهُ فيأتي أكثَرَ انشقاقاً من الوَرَثَةِ، صاعداً مثلنا سلالمَ المذبحة بأباطيلهِ الأبَهيَّةِ وهندسةِ الهزائمِ. وحين يجثو أمامَ اشتعالنا ضارعاً سنقولُ: اقتربْ أيها الهندسيُّ، اقتربْ أيها المِغْزَلُ الدائرُ في عذوبةِ الخيوطِ الصلصاليَّةِ. اقتربِ اقتربْ راسماً بشظاياكَ الجداولَ والحَوْرَ، متَّكئاً بثِقَلِكَ على القناعِ، سنريكَ المذبحة:

(حين جاء البناؤون، وحدها كانتِ الأرضُ في سريرِ الكواكب مَحْلُولةً كرداءِ العاشقةِ، لا بَعْلَ حولَها، لا ندامى سوى جذورِ النهارِ واندحاراته المتتابعةِ تَحتَ سيوفِ الفلزِ وبَطْشِ البهاءِ... وحدها كانتِ الأرضُ تحتَ الدَّاليةِ

---

(٣) انظر الملحق، فصل «بنات آوى».

الأزليَّة من الصليل ومناقير هَزَّاز الذَّيْل، مُفعَمَةً بالبرق الأعزل وحدود الحدود، لا تتَّسعُ إلاَّ لنفسها، وتتمرأى في كَسَل الصواعق حين جاءَ البناؤون بمعاولهم وحبالهم القصيرة التي تَنْتَهي بفَادنٍ نحاسيٍّ لضَبْط الزَّوايا، ينظرون في جلود صقيْلَة ذات رسوم، ثم يغمسون الرِّيشَ في مزيجٍ من الكحْل السائل والرماد، ليجعلوا استطالات الرُّسوم أكثرَ استطالةً، والدوائرَ أكثرَ اتِّساعاً على مراكزها المُبْهَمَة. بعد هذا استَبْسَلَت الفؤوسُ، واسْتَبْسَلَت المعاولُ: تلدُ الأعمدةُ الأعمدةَ، وتهتكُ القبابُ القبابَ، غيرَ أنَّ ذلكَ الجناحَ الغريْبَ من البَهْو الممتدِّ تحتَ الأعمدة والقباب، ذلكَ الجناحَ المُسوَّرَ بالأدراج، المُنْبَسطَ الذي لا رخامَ فيه، ولا نساءَ من الرُّخام على مدخله؛ ذلكَ الجناحَ الهادئَ الآنَ، الذي لَمْ يَقُل البناؤون إذ انتهوا من بنائه: «مباركٌ أنتَ»؛ ذلكَ الجناحَ الذَّاهلَ بخياشيمه الحجريَّة وَدَوْره الحجريِّ، لم يكن مخدعاً: إسألوا... إنَّها الحَلَبَة).

ألاَ انْهَضْ متَّكئاً بثِقَلِكَ على القناع، مُباحاً كالصباحات للسَّيْل أو للعذوبة. لكنَّنا قبلَ
هذا
سَنَرْميْكَ بالنَّدى، وبالبيارق المُصْطَبغَة بزَهَر اليقْطيْن والزَّعفران، مُوْصِديْنَ على قناعكَ القناعَ الأكبَرَ لئلاَّ تجرحَ انحناءَكَ البراعمُ أو يشهدكَ المساءُ ذو الجناح القديم حَيْرَانَ لا تَسْتَمْهِلُ الغَلَبَةَ ولا تَسْتَعْجلُ الغَلَبَةَ، كأنَّكَ إنْ أَهْرَقْتَ أُهْرقَتِ الرياحُ والرمالُ، وكأنَّكَ إنْ أهْرقْتَ أُهْرقَت الصباحاتُ والحديدُ.. ألاَ قُلْ لنا أيها الهندسيُّ، يا ذا المُحْكَمُ كَخَشَب العَجَلَة تحت عَرَبة القائد، قُلْ لنا أيُّ مرحٍ هذا المَرَحُ الصاعدُ مثلنا سلالمَ المذبحة؟ وأيُّ شهيد سيحملُ الجهات كالعَلَف إلى مزْود جيادكَ، أو سيمسحُ عن الزَّرَد غبارَ اغتصابكَ الأخيرِ؟... ألاَ لا تَقُلْ بعد هذا أنَ لَفيْفاً حيَّاً من الكائنات ذات الأبواق واللُّهاث قد جَذَبَت الحلقةَ الصلصاليَّةَ لأبواب المذبحة فرأتْكَ حَيْرَانَ في المذبحة، إنْ أَهْرَقْتَ أُهْرقَتَ الجهات، وإنْ أُهْرقْتَ أُهْرقَت الأعْمدةُ والغيومُ. ورأتْكَ جاثياً، مائلاً رداءكَ بالأكباد وصواعق النَّيْلُوْفَر. ألا لاَ تَقُلْ بعدَ هذا أنَّ السماءَ المضمومَةَ كالقُنْفُذ لم تكنْ هنا، وأنَّ الحوافرَ التي ارتطمتْ برخام البَهْو - حيثُ الرمالُ والمرايا - لم تكنْ حوافرَ المساء المثْقَل بالمحاريث. فَلْتَكُنْ شريداً أيها الهندسيُّ، يا أُحْبُولَةَ الجوْهر الشَّريد؛ لكنَّنا سَنَرْميْكَ بالفصول، وسنرميْكَ بالأباطيل والصَّندل،

جاذبيْنَ عنكَ الفضاءَ والرياحَ حتى تلْمَسَ بقرْنِ خوذتكَ الغشاءَ الأبعدَ للأباطيل، حيثُ لا كوكبٌ، ولا مساءٌ يضرِّجُ القناعَ، وحيثُ أنتَ - وحدَكَ - امتدادُ الأرضِ في الفراغِ المحاربِ... لاَ، لاَ تَقُلْ بعدَ هذا أننا سَنُضْرِمُ البطشَ في الحديد، أو سنمحو عن الحديدِ مديحَ الجاهلِ. قُلْ: فَلْيكن المساءُ والبطشُ، فليكنِ الحديدُ والمديحُ؛ واهْدَأْ، فإننا - هادئيْنَ - نُلقي النهارَ كالسّرْجِ جانباً عن ظهرِ هذه الأتانِ (الأتانِ البَلْقَاء التي واكَبَتِ الآدميَّ بعتادٍ فائضٍ للهزائمِ الفائضة)، وهادئيْنَ نرفعُ جِرارَ المساء احْتِفَالاً بهرطقاتِ المساء؛ واهدأْ، فإنَّنا عاكفون على بُرعمٍ خفيٍّ وجناحٍ أكثرَ انْقِضَاضاً من دمِ العاشقِ، كيفَمَا لمسْنَا البرعمَ لامَسَتْنا لهفةُ المعدنِ الغريب، وكيفَمَا لَمَسْنَا الجناحَ لامسَتْنا الإباحةُ... أيها الهندسيُّ، أيها الهندسيُّ، هَلاَّ سَكَبْتَ مثلنا الأقحوانَ في جرارِ المساءِ، هَلاَّ كَسَرْتَ الجِرارَ فاسْتَنْهَضَكَ الأقحوانُ؟ وأمَّا نهضْتَ نهضتَ مُشْرِفاً من الجهالاتِ على درْعٍ ودمٍ، غيرَ مُحْكَمٍ، لكنَّكَ جِدَالُ الجِدَالِ وصليلُ الصليلِ. وماذا نَرومُ إنْ لَمْ تكنْ شريداً صاعداً مثلنا سلالمَ المذبحةِ، غيرَ مُحْكَمٍ، شاهراً نصالَ الغُضارِ، تُرْبِكُكَ العذوبةُ ويستنفرُكَ الزَّائلُ؟ لا، لا تَقُلْ بعد هذا إنَّكَ لم تَرَ المذبحةَ، ولم تَلْمَحِ الغُصونَ غارقاتٍ في ملاءاتِها الأرجوانيَّةِ تنحني على عقربِ المَغيْب. لا، لا تَقُلْ بعد هذا إنَّنا سنورِّثُكَ العذوبةَ، أو سنُحيطُ مداكَ بالطيورِ، وأباريقِ الآجُرِّ؛ وإنَّكَ ستقومَ مُتَثَاقِلاً من رَغَدِكَ لتُحصيَ إماراتِكَ الأخيرة. لا، لا، سنجذبُ المكانَ عن المكانِ فلا تفرِّقُ بين ائْتلاقِ الجمادِ والحناجرِ؛ فإنْ حاوَلْتَ قَنْصَاً بشباكِكَ حاولنا قَنْصَها بشباكِ الحَمَإِ، فإنْ بطَشْتَ بطشْنَا، وإيَّانَ حجبَكَ البعيدُ كسرْنَا البعيدَ شظايا حولَ قرونِ المكانِ. لا، لا، سنختمُ المكانَ بختْمِ المديحِ، وسنخوضُكَ خَوْضاً بحدائقِ الخَرْدَلِ وثُريَّاتِ العشبِ، رافعيْنَ المذاري، باسطِيْنَ السلالَ، كأنْ لا حصادَ إلاَّ حصادَ دمٍ عادلٍ، وكأنَّكَ البيْدَرُ الأخيرُ. ألاَ لا تَقُلْ بعد هذا إنَّنا لمْ نَخَفْ عليكَ فهدرْنا مساءَك بين المساءات. يَعلَمُ الهَتْكُ الذي لا هَتْكَ بعده، أنَّ كلَّ طعنة لامَسَتْكَ لامَسَتِ البُحْرَانَ، لكنَّها الخُصُومَةُ، واحتفالُ النَّقيضِ بالنَّقيض. فانْهَضْ لتُبْصرَ النهارَ أحَنَّ من بَجْعَةٍ تحت هذا الجسرِ الذي لا يَصِلُ الضِّفافَ؛ لكنْ، سيكونُ لِكليْنَا أنْ يزجَّ بالآخرِ في جِدالِه المعدنيِّ: لا ميثاق، كلانا هاجسٌ، وكلانا رنينُ الدرهمِ على رخامِ المساءِ، ونفيرُ النفيرِ؛ أعزلانِ إلاَّ منْ بوقٍ صلصاليٍّ سيحشدُ ما لا يَحتشدُ أمامَ سُلطانِ الدَمِ. ولسوفَ ترتدُّ خطوةً فأرتدُّ خطوةً؛ ولسوفَ تقفُ من ورائكَ الجذورُ والرمالُ، وتقفُ من ورائي الجذورُ والرِّمالُ؛ ولسوفَ تمتدُّ يدُكَ إلى المقْبَضِ الزَّبرجديِّ للصباحاتِ،

وتمتدُّ يدي إلى المقبضِ الزبْرجديِّ للصّباحات؛ ولسوفَ تنظرُ إليَّ مَليّاً، وأنظرُ إليكَ مَلِيّاً؛ لا ميثاقَ، كلانا عارفٌ أنَّ الفاصلَ الباردَ من الحصى والظلال - بيني وبينك - ليسَ رئةً أو دعابةَ مهرِّجٍ، وأنَّ هذا الفاصلَ الباردَ المُدَّخَرَ لصواعقِ الظلالِ وكنز الباسلِ هو الحلبةُ... انظرْ كيفَ يدخلُ الساهرون قناعاً قناعاً؛ انظرِ الزَّرَدَ المُسْدَلَ على الجلودِ، أو الريشَ الأنيسَ على جبينِ الجيادِ؛ انظرِ السطوعَ الأبْكَمَ للأسلحة والشِّيَع؛ انظرِ النَّافرَ من دمٍ وطيشٍ.. كُلُّهم يدخلون. وكلانا يرى الدَّاخلات أيضاً ذوات بأسٍ، يصْبِغْنَ خباءَ الحلبةِ المفتوحَ على الحيِّ ببهاءِ الأنثى، ويُضْرِمْنَ المساءَ، رابضاتٍ كبقايا سربٍ من القوارضِ على حافةِ المهزلة، يلتَمِسْنَ بأيديهنَّ - كما تَلْتَمِسُ آكلاتُ النَّملِ بخراطيمها دُوَيْبَةَ الأرض - رخْواً من المكانِ يَضْرِبْنَ فيه الوتَدَ الأخيرَ لاغتصابهنَّ الأخير. يا لسَلامِ الأغمدة: كلانا يَرى العراكَ أيضاً، يَرى ارتطامَ الجوهرِ وانسلاخاتِ الكائنِ البديعةَ بين أجرامه وثماره. وكلانا يودُّ لَو تَرامى، لو اتَّسعَتْ خطاهُ للخطى والجُزُر، لو أضَلَّ عن جهاتهِ الجهاتِ فكانتْ كُلُّ حصاةٍ شراعَهُ، وكُلُّ دمٍ قِرانَ جذورهِ.. لكنْ:

لأدْفَعَنَّكَ معي
بين المعاولِ
حادباً عليكَ وأنتَ الشريكُ الذي
يضيءُ المَقْتَلَ تحتَ طعنتي
ولأُبَارِكَنَّ الخرابَ الخرابَ
عابثاً بالمدنِ عابثاً بالأغمدةِ
صائحاً:
فَلْيكُنِ النّهبُ
فَلْيكُنِ النّهبُ...

كُلُّ حصارٍ حصاري أيها الهندسيُّ، فاصْعَدْ معي في مُجُوْنِ المساء، إذْ تُهرقُ الطبيعةُ الآلهةَ، ويستيقظُ الباطلُ الحكيمُ، فليسَ سوانا مَنْ ينثرُ الخواتيمَ والخواتمَ على عتبةِ الكائنِ، ويحشو جراحَهُ بالمساءات.. لا، لا، كلُّ باطلٍ سيشهدُ احتفالي على درجِ المذبحةِ، آنَ تلتفُّ الأرضُ على الصاريةِ ويرسو لهبُ الحضور؛ فلماذا تُغطّي جناحي بالقناعِ، ودرعيَ بالمأساةِ؟ هُبَّ، وأنتَ النَّقيضُ، لأدْفَعَنَّكَ بين المعاولِ، ولأُشَرِّدَنْ

الشَّريدَ. لكنني
قبل هذا
سأشعلُ
البهاءَ
بالبهاء،
مُمْعناً في العذوبةِ يكادُ أنْ يبتكرَني النباتُ، أو يحلمَ الحلمُ بي. حيناً يتربَّصُ بي الصباحُ العاشقُ، وحيناً تَنْتَهِبُني البكورةُ بخناجرِ انسكابِها الثَّملِ. وأقولُ: لئِنْ نَفَضْتُ ردائي نَفَضْتُ الكافورَ وأجراسَ الكتَّانِ، فلماذا يُغطِّي المساءُ جناحيْ بقناعِ الغَريْمِ، ودرعيَ بالمأساةِ؟ غريماً
ناقضاً
صُلْحَ
هذا
الجوهرِ
سأبيحُ الإباحَةَ
وأحلجُ المراثي...
بعد هذا قد تُهيِّيءُ المسافةُ لي سَكْرَةَ القَطَا، وقد تُضْرِمُ الينابيعُ بأسَ المياهِ فاحتضنِ الخاتمةَ ببأسَيْنِ من المياهِ والعَضَلِ. غير أني - يقيناً - أهيِّيءُ القَطَا لسَكْرةِ المسافةِ، وأسوِّرُ المياهَ بقنافذِ الموجِ؛ ويقيناً أنثرُ الخُوَذَ للبراعمِ، وأزيِّنُ الفصولَ بالزَّرَدِ. ويقيناً أختُمُ الصباحاتِ بعافيةِ الأسلحةِ، وأدحرجُ الحياةَ فَرْسَخاً فَرْسَخاً وابتهالي ابتهالُ الوَمِيْض في المقابضِ النحاسيَّةِ. وأقولُ: لَئِنْ نَفَضْتُ ردائي نَفَضْتُ الزمرُّدَ والصَّلصالَ، ولَئِن استدارَتِ الجهاتُ لَنْ تُفَاجَأ إلاّ بي، واقفاً، نصفُ قلبي في عقيقٍ ذائبٍ، ونصفُهُ في الخيانةِ:
«كانتْ ليَ أعضاءُ اللهبِ،
وانقلاباتُ لجذورٍ.
كان لي اللُّهاثُ الطَّليقُ،
والرئةُ الراكضةُ إذْ
تهدأُ الرئاتُ.

كان لي ابتكارُ المداخلِ،
وهدْم المداخل.

كانَ ليَ الطَّيْشُ السَّاحرُ،
وسُلْطانُ الجناحِ:
أنا القائمُ على خندقِ الفَوْجِ،
سأقتسمُهم ثانيةً
بين الرمالِ والرمالِ؛
ولن يصلوا - إذ
يلبسونَ الصَّفيحَ -
إلاَّ إليّ».

غريماً
ناقضاً
صُلْحَ
هذا
الجوهرِ
سأبيحُ الإباحَةَ،
وأسرحُ الجسورْ...

غير أنَّ هؤلاءِ المُسْدَلِيْنَ كالسِّتارَةِ على أدوارهم سيحزِمُوْنَ معي للمناجلِ البروقَ والمساءَ، وكانوا يحزمونَ البروقَ والمساءَ للمناجلِ إذْ تحتدمُ المدائحُ ويسقطُ الطَّريدُ مُثْخَناً بعذوبةِ العراك: ألا كَمْ ركضتُ إليهم قارِعاً الزَّبدَ والصَّهيلَ، كلُّ يدٍ يديْ، ودرعيَ السنونو. وكَمْ ركضنا معاً، نازلِيْنَ درجَ المذبحة، أو صاعديْنَ درجَ المذبحة، نكسو الخرابَ بالماسِ، ونَسْتَلُّ الكائنَ كالحَرْبَةِ من حاضرهِ الخفيِّ. لكنَّنا لم نبارِكْ إلاَّ المبارَكَ باليأسِ، وما فاتنا أنْ نستوطنَ الدَّويَّ، غامريْنَ اللهبَ بأشكالٍ أكثرَ اشْتِعالاً... ألاَ، يشهدُ الطَّيشُ السَّاحرُ، أننا جَثَوْنَا أمامَ المذبحة، هاتفيْنَ: «أيتها المذبحةُ،
أيتها النبوءةُ الباردةُ في

بَهْوِ الحاضرِ البارد؛
يا ضرورةَ اللهاث،
وبوَّابَةَ البوابات:
لن يكونَ قَنْصٌ لعاشقٍ إلاَّ وأنتِ سَهْمُهُ يَتُها المذبحةُ».

ألاَ، يشهدُ المكانُ، أننا بَسَطْنَا الصباحاتِ لحرابِ النَّرجس، وفَضَضْنَا الأختامَ عن عذارى المياهِ. وَلاشْتعالٍ واحدٍ لَمَمْنَا البراعمَ كُلَّها، والنحاسَ كُلَّهُ في سرير أعضائنا، ثم كَشَفْنا عن الحضورِ قناعَ المُهرِّجِ، لتبدأ جِبَايَةُ الكائنِ في بلاطهِ الأخير: إيْ يْ يْـ يْهِ.. بلاطٌ أخيرٌ،
واغتصابٌ أخيرٌ،
والأخيرُ الأخيرُ من كلِّ شيء:
هنا فَلْيَرْتَطمِ الحَيْزُومُ،
وَلْتَنْحَنِ الصَّاريةُ.

لكنّكَ أيها الشَّكْلُ، يا اغتصاباً حاملاً للمذبحةِ سريرَ أعضائنا، قادرٌ أن تُطيْلَ اللعبةَ، قادرٌ أن تفاجئَ بأحابيْلِكَ ومراياكَ تَرَفَ الجوهرِ. وها نحن، بعدَ كُلِّ أخيرٍ، مُزْدَهِيْنَ بسُلْطانكَ نخطو في اتجاهٍ واحدٍ لسهمِ الجَدَلِ الصَّافرِ فوقَ أقدارنا: لَيْتَ تَسْبِقُنا العجلاتُ الخشبيةُ وطيورُ الهياكلِ؛ لَيْتَ تَكْتَمِلُ حَلَقَةُ الأخْلاَطِ من الغُضارِ والشجرِ والموتى والمدائحِ حين نُعرِّي المساءَ وسْطَ الأعمدةِ، ونسندُ الرياحَ فلا تَسَّاقَطُ أعشاشُها.
وها نحن
بعدَ كلِّ أخيرٍ
مُزْدَهِيْنَ بسلطانِ المداخلِ ننحرُ النباتَ والأوردةَ ابتهالاً لهذا الصباحِ الإخشيديِّ على العتباتِ؛ لهذا السطوعِ وأبواقه، للكائنِ راجعاً من النَّهْبِ أغْبَرَ مثلَ صلاةٍ لم يرفعْها أحدٌ لأحدٍ. وها نحن، بعد كلِّ أخيرٍ، نسفكُ الطُّرُقَ ونُغْلِقُ الرياحَ، عازمِيْنَ على أن يكونَ الحصارُ حصارَ الماجنِ والسَّفْكُ سَفْكَ طَعِيْنٍ:

(اغفري يا صباحاتُ، فقد رأينا النساءَ يدلفْنَ من الليلِ إلى الليلِ، والنهارُ

ملقىً بين خلاخيلهُنَّ على المُنعَطَف. رأينا النساء هادئات يجمعنَ أرحامهنَّ - كما يَجْمَعْنَ الكَمأَ - في السِّلال، وسمعنا رنينَ الدمِ في الفِلْزِ، وصعودَ الأرضِ دونما صخبٍ إلى حيثُ ينسى الهواءُ الهواءَ، ويكسرُ الموجُ دوارقَهُ تحت جُزَّة الذبيحة. اغفري يا صباحاتُ، واختَصِرْ أيها الترجمانُ:

كلُّ آتٍ دمٌ،

كلُّ آتٍ دمٌ،

ودمٌ هذه الدَّاليةُ المُنحنيةُ تحت ثِقَلِ المساءِ وعناقيدِهِ.

دمٌ، دمٌ،

دمٌ يدفعُ الزنابقَ بين النحاسِ، دمٌ

يُضْرِمُ النحاسَ في هذيان الزنابقِ.

دمٌ، دمٌ... عادلٌ، وفيهِ ما فيهِ من

دَرَجٍ وتماثيلَ. عادلٌ وفيهِ ما فيهِ من

غزالاتِ الليلِ وأبواقِ الخشخاشِ. عادلٌ، وقد رأينا البيوتَ تَحْمل سُرَرَها وشبابيكها إليه؛ رأينا الماء طافحاً بهالاتهِ ينحني عليه انحناءَةَ أنثى، فصرخنا:

أيها التُّرجمانُ الغارقُ في بلاغتهِ،

أيها التُّرجمانُ،

لقد رأتكَ الأسلحةُ مترجِّلاً من عربتكَ،

نافضاً عنكَ البَرْدَ أمامَ المدينة.

لقد رأتْكَ داخلاً، ورأتِ الجوادَ المنتظرَ

صامتاً، يتراجعُ خطوةً،

أو يتقدَّمُ خُطوةً،

وحيداً، تصعدُ من منْخَريهِ سَحاباتٌ صغيرةٌ من اللُّهاث الباردِ؛ ووحيدةً انتظرتْكَ العربةُ.

جوادٌ وحيدٌ،

وعربةٌ وحيدةٌ،

وكنتَ الثالثَ الوحيدَ

حين خَرَجْتَ غارقاً في بلاغتك.

لَمْ تعرفِ الأسلحةُ ماذا فعلتَ في المدينةِ،
ولم تعرفِ الزَّاويةَ التي اخْتَرْتَها،
وَلاَ الجَليسَ الذي اسْتَمَالَكَ الى سُكُونِهِ وحركتهِ.
لقد رأتْكَ الأسلحةُ خارجاً،
وحين غرقتَ أنتَ والعربةُ والجوادُ
في زحامِ اللُّغةِ وأنقاضِها،
رأتْ من يهرولُ إليكَ ملوِّحاً ولم تلْتَفتْ.
رأتْ من يلوِّحُ، ولخطواتهِ ضَرَاعَةُ الأنثويِّ،
ولَمْ تلتفتْ.
آه، قُلْ لها،
قُلْ لهذه الأسلحة
ماذا فعلتَ في المدينةِ أيها التُّرجمانُ.
أيها التُّرجمانُ اخْتَصِرْ).

وَلْيَخْتَصِرِ الصَّباحُ هذا السُّطوعَ الفارغَ من ساعاتِ الأسلحةِ، فها نحن أكثر انبثاقاً من كوكبٍ عابثٍ، لا نحاذي الأرض إلاَّ لترفعَ للهاثنا ودائعَ المعدنِ وخيلاءَ الكراكي. وكَيْفَما انحنى علينا الصباحُ شَقَقْنَا الدروعَ لينحني على الصباحِ بارقٌ عنيدٌ من الصلصالِ والتَّرَفِ، منادِيْنَ: مَنْ مَرَّ أيها الصباحُ؟ مَنْ مَرَّ أيها الترجمانُ الجاهلُ حاضناً بيديهِ المروجَ والحماماتِ، حافلاً بالعواصمِ؟ ومَنْ ذا الذي أدارَ الينابيعَ على مغزلِ المديحِ ودحرجَ الغيومَ تحتَ الزَّردِ؟ قُلْ لنا أيها الترجمانُ الجاهلُ، يا صباحَ اللعبةِ، أيُّ خيارٍ للهاربِ من المذبحةِ إلى المذبحةِ؟ لا، لا، فَلْيَخْتَصِرِ الصباحُ هذا السطوعَ الفارغَ من ساعاتِ الأسلحةِ، فقد حضَرَتِ الأغمدةُ، وطوَّقَ الشَّكلُ الشَّكلَ؛ وها أنذا
أشعلُ
الأرضَ
بالنهبِ،
جاثياً أمامَ النَّوْلِ، والنَّساجاتُ وحدهُنَّ يُضْرِمْنَ معي النَّسْلَ والخيوطَ: ويا طالما جَثَوْنَ مثلي أمامَ أنوالِهن، حيناً يُفَلِّيْنَ المهزلةَ، وحيناً يَحْبُكْنَ المهزلة، وإذْ يلمحْنَ

الكائنَ بين الخيوطِ مُصغياً إلى دمه، حيرانَ، لا يوقفُ الرنينَ أو يضاعفُ الرنينَ، ينسجْنَ لَهُ المساءَ، وينسجْنَ للمساء الريشَ والخناجرَ مثلي. أنا المحيطُ بالنَّول، وها هُنَّ يُقَسِّمْنَ الحضورَ دماً دماً، والمكانَ فَرْسَخاً فرسخاً؛ أنا المحيطُ بالنَّوْل، سَهْوَاً أيقظتني الأرضُ، وها أنذا أدفعُ الأرضَ عُنْوَةً في سراديبيَ الأليفةِ، وأرى كيفَ يُوْصدُ المكانُ المكانَ، وكيفَ تُنْتَهَبُ الأبجديَّةُ.

(أينَ هذا كلُّهُ من ساعات انحساري عن الفراغِ العريق، حين كانت الأرضُ توأماً للحناجرِ، والجذورُ مَساحبَ من أذيالِ الطفولة؟ أيْنَ هذا كُلُّهُ من ساعات انحساري عن الإماراتِ ورَحِمِ الرَّحِمِ، حين كانت السُّهوبُ أكثرَ قَنْصاً لمجاذيفِ السَّرْخَسِ، والنهارُ أكثرَ امتلاءً بزوابعهِ البيلسانيَّة؟. يا ما حَسَرْتُ ردائي عن ثُلوجٍ، وشَممْتُ الغصونَ، مُرْجِئاً كلَّ برهةٍ في الحجرِ إلى تَرَف، وكلَّ بزوغٍ إلى بزوغٍ عظيمٍ. وفي هذا كلّه؛ في ساعاتيَ الباسلة، وازْدهائي بدمِ ساحرٍ كزَغْبِ الخُطَّاف، لمْ أختصرِ البعيدَ، ولم أسْتَوْثِقِ الوحشيَّ؛ قلتُ: لا، فَلْيكنِ البعيدُ بعيداً، وليكنِ الوحشيُّ سيَّافَ الحاضرِ المَلُوْل.. أينَ هذا كلُّهُ من تواتُري واتِّصالي حَلَقَةً حَلَقَةً عبرَ صليلِ الأعماقِ وانحلالها، حين كانَ الظلامُ تَيْسَاً في القطيعِ الكوكبيِّ، والسنابلُ خطى الصباحِ اللاَّهي؟.. ألاَ يا نجدةً لن تَصلَ، ها قد وصلتُ النوافيرَ بالأبواقِ، وها مَتَاهي حَنُونٌ، والبُزاةُ شهقتي العاليةُ. غير أني يباغتني السوسنُ الكسولُ والزَّائرُ الأقحوانُ فأنثر اشتعالي برعماً برعماً، وردائي غمامةً غمامةً، ناسجاً للندى براقعَ الزعفرانِ وللعراء الحليفِ قناعَ الهاذي: أنا الداخلُ إلى الصباحاتِ بثيرانيَ البهيَّةِ ذاتِ الخوارِ البهيِّ، مُحيطاً بردائيَ الثعالبَ وبنات آوى، وهذا انحساري عن الفراغِ العريقِ حين كان المساءُ قانعاً بدَوْرهِ المُرْتَجَلِ على دَرَجِ المَلْهاة، والفخَاخُ غيرَ مُحْكَمَة لطرائد الأزمنة. غير أني يباغتني هياجُ الكائنِ قبل أنْ يرتدي جَهَالةَ الدَّوْرِ، وحُمَّى شَكلْه الأحمقِ بينَ الأشْكالِ، فأهتفُ:

روَيداً،
سأكون الحاضرَ أيها الكائنُ
من أجل وقوفكَ الطويـ
يـ

يلِ،
مصغياً إلى ثناءِ زوجةِ السيِّدِ في المأدبةِ،
وإلى رنين الزَّرْدِ على صدركَ اللاهثِ
تحت ثقَلِ انتصاراتكَ الصغيرة.
سأكون الحاضرَ أيها الكائنُ
من أجلِ يأسكَ
وبهائكَ الشريد.
سأكونُ الحاضرَ أيها الكائنُ
من أجلِ أن تملأَ يديكَ بالعويلِ،
وشفاهَكَ بالإشارات.
سأكونُ الحاضرَ أيها الكائنُ
من أجل أنْ تُمْليَ البأسَ وسْطَ الأعيادِ،
وتاجُكَ تاجُ الهاربِ.
سأكونُ الحاضرَ أيها الكائنُ
من أجل أن أراكَ، وسْطَ هذا كلِّه، غريماً رافعاً معيَ الأُبَّهةَ الصلصاليةَ حين تأتي المناجلُ، ويأتي المحظورون وآلاتهُم، ضَارِبيْنَ على الصَّنْجِ الصَّامتِ لأحلافِ اللهبِ...
هيا،
إنَّها
ساعةُ انحساري عن الرمادِ العريقِ
وكنزهِ البربريِّ).

وماذا؟
أنا الأمينُ على المراثي، المَحْفُوْفُ بخواتمِ الأنقاض، فَتَحْتُ لَكُم مداخلَ المساءِ السَيِّدِ: ها رماحُهُ وجواريُهُ، والحلبةُ المنتظرةُ إشارةَ المهرّج. وَلَكُمْ نهرْتُ الأدراجَ بمهاميزِ اللَّيلَكِ، وأوثَقْتُ باللبلابِ حاضرَ المهزلة. هَلاَّ ارْتَفَعْتُم إليَّ، هَلاَّ أَحَطْتُم جبيني بالجباهِ والفيروزِ، وكَمَمْتُم فمي بالجهات؟... آه، كَمْ تغرَوْرِقُ عيناي بالمعدنِ وأوشكُ أن أُقْنعَ البروقَ أنها ثرثرةُ العالمِ الكَهْلِ إذْ أراكم تخرجون من الزَّبدِ حاضنيْنَ

الأقفالَ، كأني لم أهيِّىءِ الباسلَ للباسلِ، ولم يرتفعْ رنينُ العواصمِ السَّاقطةِ على رخام العراء:

بهيجاً،
بهيجاً فَلْيَكُنْ خضوعي ليقظةِ الحيِّ.
بهيجاً،
بهيجاً فَلْيَكُنْ حصارُكُمْ أيُّها الرَّاحِلون.

وماذا؟

أنا المُبَاهي بدمٍ عادلٍ أقْرَعُ المساءَ الآن - هذا المساءَ الصَّديقَ - بيَد لاَ نثَار لمعْدَنٍ عليها، وأخطو داخلاً فتخطو معي الجذورُ وأبواقُ الصَّلصالِ والصباحاتُ؛ تخطو الرمالُ معي والهياكلُ ولهبُ الينابيعِ والطفولةُ؛ تخطو الرياحُ والرئاتُ والقَنَادِسُ؛ تخطو المداخلُ والأقحوانُ؛ يخطو الرمادُ والدروعُ وأعراسُها؛ ويخطو اللبلابُ وابنُ عُرْسٍ وجواري المياهِ والنساجونَ؛ تخطو الجهاتُ معي؛ وتخطو الأقفالُ والحَجَلُ واللّبونات؛ تخطو المذبحةُ والعَرْفَجُ والأقنعةُ وسنونو الآجرِّ؛ يخطو المهرجُ والثيرانُ؛ تخطو الأسلحةُ معي... أنا المُبَاهي بِدمٍ عادلٍ،

بهجياً
بهيجاً فَلْيَكُنْ خضوعي ليقْظَةِ الحيِّ.
لكنني،

حين يزدحمُ البَهْوُ الصَّلصاليُّ لهذا المساءِ بالعاشقين، وتغفو أدراجُ الحَلَبةِ والجيادُ، أخطو خارجاً من المساءِ الصَّديقِ كأني هُدْنَةٌ إنْقَضَتْ، عارياً من جديدٍ، وجسدي الحِبْرُ والمياهُ.

(كيف أنسى أنني خرجتُ، قبل هذا، من المساءِ لابساً زُرُوْدي وعذوبة المعدنِ النبيِّ في الأسلحةِ، عازماً على أن تكون جِرارُ الكائنِ جِرارَ نَهْبٍ عادلٍ، وصباحاتُهُ أكثرَ انْشغَالاً بفحولةِ النَّباتِ؟ وكيفَ أنسى أنني تقرَّيْتُ الهُبُوبَ الموائِمَ لانتشاري على الدروعِ والبراعمِ، أو أنني الْتَمَسْتُ مساربَ الدمِ في كلِّ حيٍّ لأصعدَ في الدمِ خافقاً كالعويلِ؟.. لا، مُذْ خَرَجْتُ لم تُشرِ البوصلةُ إلى الجهاتِ:

كلُّها تتناسخُ في حصارٍ واحدٍ
واحدٍ
واحدٍ.

والذين جاءوا قبل هذا المساء كانوا مثلي يملأون قِرَبَهم بالماء، وخوذاتِهم بالنجومِ الزعفرانيةِ، مُصْغِيْنَ إلى اندفاعِ النَّهارِ التَّيْسِ وقوائمه الرَّشيقة عبر البهوِ الأخير، حيث ترفو المياهُ أسمالَها وتختزلُ الخيوطَ. ألاَ كَمْ هتفنا: «أيتها الجالسةُ أمامَ نَوْلِ الأشكالِ، يا حنينَ أبعادنا، وبلادَ البلاد»، ولم نقصدْ أحداً بالهتافِ، لأننا مُذْ خرجنا من المساءِ لابسينَ الزُّرودَ وعذوبةَ المعدنِ النبيِّ في الأسلحةِ، لم تُشرِ البوصلةُ إلى الجهاتِ: كلُّها تتناسخُ في حصارٍ واحدٍ
واحدٍ
واحدٍ
واحدٍ).

بهيجاً،
بهيجاً فَلْيَكُنِ الحصارُ في يقظةِ الحيِّ.
بهيجاً،

بهيجاً فَلأَكُنْ حين أُشْعِلُ الأرضَ بعد هذا بالجمهراتِ، طاعناً كالمحاربِ بنصاليَ الأرجوانيةِ المرايا والأسماءَ، ولي جَهَالَةُ الصباحِ وأنقاضُهُ، صاعداً درجَ المذبحةِ لأجرفَ البقايا التي أغْفَلَتها الحوافرُ والأسلحةُ؛ صاعداً لا أُريحُ الأنوالَ من نَسْجها، وأهيبُ بالنَّسَّاجاتِ أنِ اصبِغْنَ بالنحاسِ الخيوطَ، وأكْثِرْنَ من النقوشِ على نسيجِ الخرابِ. وقد ينتابني ما ينتابُ الأنقاضَ من حنينٍ إلى انْدثارٍ بهيٍّ، فأهتفُ: لا، يَتُها النساجاتُ أكسرْنَ أنوالَكُنَّ، واتركْنَ للغبارِ أنْ ينسجَ النَّسْجَ من صخبِ اليباسِ ويأسِ الجذورِ، ولْيكُنْ بعدي مدىً ضيِّقٌ، ومفاتيحُ تذوبُ كُلَّما رفعتْها البراعمُ نحو أقفالِها، وليكنِ مساءٌ كوحيدِ القرْنِ، ثَقيلاً يطأُ الأبواقَ الصلصاليةَ والأعمدةَ، ويجرفُ الغزالاتِ؛ لا صحوَ فيهِ إلاَّ لبَجَعٍ هائمٍ وخلدٍ أعمى. ولْيَكُنْ نهارٌ وطيءٌ بعدي، ذو شروخٍ، يجوسُ في المدى الهندسيِّ للخرابِ كإوزَّةِ المستنقعِ، زَحْفُهُ زَحْفُ فَقْمَةٍ تجرُّ ذَكَرَها المقتولَ، أو كأنَّما أطبقت الغيومُ بأنيابها عليهِ، وشقَّقَتْهُ مخالبُ النباتِ. ليس فيه شَرْخٌ إلاَّ وفيهِ كوكبٌ مهرِّجٌ وحدَّادون يطوفون بمطارقِهم حولَ حدْوَةٍ لا تُرى.

وليس في تجاويفهِ غيرُ قرونِ الذَّبائحِ ونفيرِ الهباءِ. وأهتفُ: أكثرَ، أكثر احتداماً فَلْيكنِ الحجرُ بعدي، فَلْيُظِلَّ على العراءِ بأسلابه ودفوفه؛ فَلْيمسَّ بطيلسانه وخزِّه التخومَ. وأعلى فليكنْ هرْجُ اليباسِ، وأشدَّ مَرَحاً فَلْتكنْ خليلاتُهُ الراكضاتُ بتيجانهنَّ الصغيرةِ من الجذورِ ورؤوسِ الحدآتِ الميِّتة: «أيها اليباسُ، أيها اليباسُ، لعلَّكَ لم تقفْ بيننا قبل هذا، أو لعلَّكَ كُنتَ تنظرُ أبعدَ وأنت واقفٌ بيننا، فأغفلتَ هذه البقيَّةَ.. خُذْها أيها اليباسُ، خُذْها بَوْصَةً بوصةً، وقميصاً قميصاً، ومُدَّ في ايوان أعضائنا المائدةَ لنملأَ لكَ الصِّحافَ الخزفيَّةَ بساعاتِنا (ساعاتِ النَّهبِ وانحسارِ الكائنِ عن بَرْزَخِهِ، حيث تَنْتَشِرُ قُلُوعُ الخفيِّ، وتتعرَّى الصواري لفحولةِ الجهات)، واخْتِمْ بخَتْمِكَ المصاريعَ، مهرولاً، كلَّما ختمتَ مكاناً إلى آخر، وحولكَ عُجولُكَ[٤] ومصابيحُكَ، مُطلاًّ من الأعلى كأنَّكَ عُرْفُ ديكٍ أو زرافةٌ. أيها اليباسُ...».

وأنتِ يَتُها الغيومُ ذواتِ العكاكيزِ البحريةِ، يا فضَّةَ الرَّحمِ، فَلْيَكنْ مجيئُكِ مجيءَ تيْهٍ إلى تيْهٍ. وأهتفُ: أجْرأَ فليكنِ الرمادُ، طليقاً كشهيقِ منْفَاخِ الكُوْرِ، ورئتُهُ الخطى التي لا تعود: «أجرأَ، أجرأَ كُنْ أيها الرمادُ، خاوياً دَمِثاً في الخواء، وافْتَحْ صناديقَ حليِّكَ للنهبِ، هاتفاً: ألاَ لا يرجعَنْ أحدٌ دونَ نهبٍ، ألاَ لا يَرْجِعَنْ أحدٌ». وأهتفُ قُمْ أيها المعدنُ، وليكنْ رنينُكَ انبجاسَ الهزائمِ واندحارَ البذورِ؛ ثَملاً شُدَّ إليكَ الينابيعَ عضواً عضواً، والْثُمِ الشفاهَ الخَبيئةَ في الأعشابِ، كأنكَ سقفٌ لن يُؤْوِيَ إلاَّ الذي لهُ رنينُكَ الثَّمِلُ. بهيّاً فَلْتَكنْ أيها المعدنُ في أشْكالِكَ ونهبِكَ، حاضراً حضورَ الذي لا حضورَ إلاَّ بهِ، ولْتَكُنْ مُباغتاً تختمُ الدمَ بخَتْمِ الصَّليلِ والفلزِ. أما أنتَ أيها النباتُ، يا مركبةَ اللهاثِ وتوأمَ الحركةِ، فاخلَعْ خمارَ المدائحِ التي صاغَها الخارجون من وقتهم، وليكنْ يُخضُورُكَ شَتيْتاً، وأليافُكَ سكرى بأنينِ الثمارِ في ذُبولها. ولُمَّ انسياباتكَ الناعمةَ أيها النباتُ، لُمَّ فِراءَ الأكمامِ المهيأةِ للنحلِ والفراشاتِ. وأهتفُ: فَلْتكنْ حَدَأَةً هذه المياهُ أطْبَقَتْ عليها الفخاخُ، آناً تنقُرُ الحديدَ، وآناً تنقرُ الجناحَ من هياجٍ وذُعْرٍ؛ ولْتَتَخَبَّطْ وسْطَ مهاميزِ الغماماتِ والظلامِ، غَبْراءَ فضَّتْ عن جرائِها الموجَ، وعن يَرَابيعِها غشاءَها القصديريَّ: «يَتُها المياهُ، يا الحاضنةُ تحت أثدائها الجراءَ واليرابيعَ، فَلْتكوني حَدَأَةَ اليابسةِ وأسْمَالَ المُهرِّجِ، ولْتَكُنْ يدُكِ اليدَ المُمْسِكةَ بالحناجرِ وأعلامِ

---

(٤) أنظر الملحق، فصل «بقرات السماء».

الوقتِ». وليكنْ بعدي نشيجٌ بطيءٌ بطيْـ
يْـ
يْـ
يْـ
ـيءٌ،
أنا القَهْقَهَةُ البطيئةُ لأفولٍ بطيءٍ.

ولكنني، في غمرةِ انْسكابي من ميازيبِ هذا النَّشيدِ الفاحشِ، أستديرُ ثانيةً نحو الحُبارى والكراكيِّ إذ تعبرُ الأعمدةَ الباقيةَ من حُصُونِ المساء، كأنني نَسيْتُ أن أُضرِّجَ الأجنحةَ بابتهالِ الكائنِ، وأن أجعلَ الهواءَ رخيْماً في المناقيرِ. وأسْتَدْرِكُ فألُوِّحُ لها بالغصونِ، مُغْمضاً عينيَّ على أُفُقٍ كلُّ ما فيه طَيْرٌ، وأعضائي على سطوعٍ راكضٍ بسيوفِ أزاهيرِه. وأقولُ: ريثما أشهدُ الينابيعَ خوذةً تتدحرجُ على عتبةِ الصباحِ، والنَّباتَ نوَّاساً لساعةِ النَّهْبِ، ستكون هذه الحُبارى والكراكيُّ سَلالِمَ المُسْنَدَةَ على لهبٍ حنونٍ. وفي غمرة انسكابي من ميازيبِ الليلِ حاملاً أختامَهُ وفوانيسَ أرواحه الطَّعينةِ، أَسْتَدْرِجُ النَّدى الى مديحي، وأُغوي السهولَ، مُهْرِقاً كنوزي البربريَّةَ للأعشابِ ريثما تنهضُ الأرضُ ثانيةً في عويلِ الكائنِ، ويزدهي الرمادُ بأحناشه ووعولِه، لاَ لأَمْنَحَ الأرضَ حَظْوَةَ اللُّهاثِ، أو الرَمادَ خَفْقَ دمٍ عادلٍ، بل لأُضْرِمَ النَّهبَ ثانيةً، قارعاً الرمادَ بالرمادِ، والأرضَ بأنقاضِها؛ وليكنْ نَهْبي نَهباً بطيْـ
يْـ
يْـ
يئاً
أنا القَهْقَهَةُ البطيئةُ لأفولٍ بطيءٍ،
وطَبْعي طَبْعُ المساء.

(قبل هذا؛ قبلَ دخولِ اللهبِ عارياً على نجمةِ الهواء البتولِ؛ قبل أن يغْمدَ الغُبارُ نَصْلَ جِداله في العراء، وتَلْتَقطَ البراعمُ خَرزَ الجذورِ الهاربة، كُنْتُ مُتَّكئاً على سياجِ الصباحاتِ وقناعيَ القُرى والمياهُ، أَنْظُرُ الكائنَ داخلاً من الرياحِ على أعراسهِ، قارعاً بأبواقه الصلصاليةِ حدودَ البروق، شَفيفاً، تَخْطُرُ الفراشاتُ بين أليافِهِ وشرايينهِ، وتعبُرُ اللَّقالقُ سِرْباً سِرْباً كأبجديَّةٍ لم تكْتَمِلْ. وكان

النباتُ مثلي مُتَكِئاً على سياجِ الصباحات، نشوانَ من صليلِ الجذورِ في جهاتها الخفيَّة. مَرِحاً كان النباتُ في ثرثرةِ ثمارِه، وانشغالِ الزَّهرِ بدُعابةِ المياه. وكانت الكواكبُ مُتَّكِئَةً مثلي على سياجِ الصباحات، عاقدةً حولَ خُصُورِها مَرَاويلَ الفراغِ العريق، تنثرُ للجهاتِ المهرولةِ كالجراءِ غنائمَ الأعالي. غير أنَّ الأرضَ وحدها بين هذي الكواكبِ كانت تنثرُ الرَّنينَ الإخشيديَّ للفلْزِ، والأغمدةَ، والهوامَّ، مُتَّكِئَةً على سياجِ الصباحاتِ من دونِ قناعٍ في احتفالِ الكائنِ بالأقنعة: ألاَ أنَّني رفعتُ للأرض - قبل هذا - أختامَ العذوبة، ورفعتُ للأرضِ أُضْمُومَةً من ورقِ البُرْديِّ، هاتفاً: «اختمي أيتها الأرضُ هذا البُرْديَّ باللهاث. اختميه بالخَشَاشِ والرِّئات. اختميه بالخناجر، بالماء، بالخطى التي لا تصلُ؛ اختميه يَتُها الأرضُ بالنَّقيْضِ المبارَك». وللأرضِ وحدها - حين كانتْ تتهدَّلُ على سياجِ الصباحاتِ في انتظارِ الكائن - غسلتُ الكائنَ بالصليل، تاركاً لخطاهُ أن تتوازى في مجدهِ الغريب. غريباً - قلتُ للكائنِ - ادخُلِ العراءَ، وَلْتَنقُرِ الشُّعاعاتُ نَقْشَ روحِكَ الذهبيَّ... إيْه، قبل هذا، قبل أن يباركَ المباركُ ويَقْتَنِصَ المرئيُّ أشْكالَنا؛ قبل أن يعرفَ الظلامُ أنَّهُ صنوُ الباطن، ويعرفَ الضوءُ أنهُ سَليلُ المتاه، كنتُ لا أحْتَكِمُ إلاَّ إليَّ، عادلاً كنتُ. شَغوفاً باللَّهْوِ الغامض، حَيَّاً حيَّاً، كأنَّ كلَّ حياة أوْثَقَتْ إلى سياجي غزالاتها خَوْفَ أنْ تَشْرُدَ الغزالاتُ، وارتمتْ قُرْبَها لتنامَ. أَنا المتلألىءُ وسْطَ العناقيدِ الزرقاءِ للمياه وفاكهةِ النحاس، شَغُوْفَاً كُنتُ باللَّهْوِ الغامض، أدخلُ الصباحَ بسلالِ الغيوم، وأرجعُ في المساءِ مُثْقَلاً بإرثِ المساء: كلُّ قناعٍ قناعي، وعباءتيَ الأسرابُ الطويلةُ من ثعالبِ السهول. وها أنذا، قبلَ أن تَكْتَملَ الأحاديثُ عن بسالتي ويأسي، أرى انبجاساً رَهِيْفاً وسْطَ الصلصال، وأشمُّ عَبَقَ الكائنِ في خمائرِ العراءِ: إنَّها نُزْهَةُ الأرضِ في طَيشها، إنَّها نُزْهَةُ الأرض).

طَبْعي طَبْعُ المساءِ، وَلاَ مَنْ يُنْشِدُ المساءَ.

يا حاملاً رنيني، أيها المَديدُ وسْطَ المساء، هاتِ النشيدَ مُضيْئاً كَمُذَنَّبٍ مُرجانيٍّ، وانثرِ اللهاثَ كالسُّمْسُمِ على رغيفنا، فها نحن ثانيةً أمامَ الحَلَبَة، وأبواقُنا الصَّلصاليَّةُ على أُهْبَةِ النَّفيرِ ريثما تحلُّ الأباطيلُ عناقيدَها مثل ذؤاباتِ النساء، وتلبسُ المياهُ

قناعَها الباسلَ. وها نحن، في اندفاعِ الدمِ هاذياً إلى وريدِ العُنُقِ، نشدُّ راحاتنا ثانيةً على مقابضِ النِّعْمَةِ، وعيونُنا لا تفارقُ المَكْمَنَ الأكثرَ مَقْتَلاً لهذا الكوكبِ الأخيرِ.. لاَ، لَنْ يكونَ طَعْنُنا في المَقْتَلِ: سَنَسْتَدْرِجُ الكوكبَ الى فراغٍ آخرٍ غيرِ الفراغِ الوَصِيْفِ حول كواكبِ المساءِ؛ إلى فراغٍ أكثر غَمْراً بزعفرانه وبراعمه، حَاذِق، يسنُّ النِّصَالَ بِمبارِدِ التَّرَفِ، ويُرَصِّعُ المقابضَ بالجدالِ. وسَنُلْقيه بين الخلاخيلِ الخفيَّةِ، لا يستردُّهُ الكائنُ إلاَّ نَهْباً: ألاَ أيها الكوكَبُ الأخيرُ، يا الأخيرُ كأبواقنا، حين لم تكنْ خَرَجْتَ بَعْدُ من صواعقِ الفلْزِ والغبارِ، كانتْ قَدَمُ الكائنِ مُثْبَتَةً على حافةِ الفراغِ، ويدُهُ تتقرَّى أعمدةَ المساءِ. نَزِقاً كانَ، يخلطُ الصباحاتِ بنحاسِ زَرَدِه، ويضربُ ببوقهِ الصلصاليِّ كراكي البروقِ. وكَمْ تَعرَّى من صَلْصَاله لِيُريَ البعيدَ عذوبةَ البعيدِ، ويكشفَ الصباحاتِ النائمةَ حولَ زمرُّدِ الدمِ. غير أنك أيها الكوكبُ الأخيرُ - خارجاً من صواعقِ الفلْزِ والغبارِ - فاجأْتَهُ بيقيْنِ الأبجديةِ، فاجأْتَهُ بالمكانِ، فها هوذا، جاثياً أمامَ الينابيعِ - لا فضولَ في قناعه - يسردُ للمياه حلمَ الآخرين، وينسى كيفَ يُبْرَمُ الخفيُّ ويُنْقَضُ الخفيُّ؛ وها أنتَ في أسمالكَ المائية تكسرُ مجدَ المياهِ موجةً موجةً على بابِ الكائنِ، وتتقصَّى اليقيْنَ في التُّرَّهَاتِ الحيَّة. آه، أيها الفاتحُ المستسلمُ، يا كوكباً أخيراً أخيراً، أيُّ كوكبٍ آخرُ يعبرُ الأعماقَ ويحاذيكَ؟ أيُّ كوكبٍ يُحيْطُكَ بحصارِ الحيِّ ويُلقي بين أسمالكَ المائيَّةِ بُوْقَ اليابسةِ والحروفِ؟ وحيداً خَرَجْتَ من صواعقِ الفلْزِ والغبارِ، وحيداً خَرَجَ الكائنُ من صليلِ الأسلحةِ، وها أنتما تَقْتَسمانِ المساءَ والنذورَ... لكنني - يقيناً - أشمُّ في هذا المعْقَلِ المباركِ لكائناتِ المَرَحِ طِيْبَ كواكبَ أخرى أيها الكوكبُ الأخيرُ:

(هناكَ، في السَّديمِ العابقِ برائحةِ الكُتَّانِ والريشِ؛ في السديمِ المُغْتَبطِ بمراكبِ الهَيُوْلَى وتفتُّحاتِ اللاّمرئيِّ؛ هناكَ، أعلى قليلاً من مُستوى الهذيانِ، نَهَضت الكواكبُ من المراثي، دافئةً كَسْلَى، تَعْصبُ جباهَها بمناديلِ البُكُوْرةِ وتَنْتَعِلُ الجهاتِ. وفي السَّديمِ المُغْتَبطِ بأساورِ النبوءةِ، هناك، أعلى قليلاً من أُفُقِ الحصارِ العظيمِ، تقدَّمَت الكواكبُ في رُدهاتِ حُلمها، تحفُّ بها الرُّجومُ الضَّريرةُ، وتُرْجُمانُها المساءُ. تنتظرُ، ولا تنتظرُ، كأنها قادمةٌ إلى نفسها خارجَ السَّديمِ، خارجَ مَخْدَعِ اللاّمرئيِّ، خارجَ العذوبةِ المسدوْلَةِ على مداخلِ الأعالي. لا... كانتْ قادمةً من هناكَ في لَهْفَةِ المُسْتَوْحِشِ إلى شَريكٍ غامضٍ،

تلْتَمسُ في عذاباتِ الكائنِ مداراتِها الضائعةَ وكنوزَ الليلِ. لكنها لم تنحدرْ أكثَر؛ كانتْ حدودٌ مُضيئةٌ بينها وبين الكائنِ الأخيرِ؛ حدودٌ تتفتَّحُ كأكمامِ الجُوْريِّ، وتُصغي في جَلاَلٍ إلى جَدَلِ المياهِ والعويلِ. وها هي ذي، أعلى قليلاً من مستوى فأسٍ في يدِ المحاربِ، مختالةً بأقراطها المرمريَّةِ وانعكاسِ خواتمِها على نَصْلٍ، تُوْمِىءُ إلى المساءِ المُهرِّجِ... ويَبْدأُ المساءُ).

يقيْنَاً أيها الكوكبُ الأخيرُ أنكَ توأمُ المساءِ، توأمُ البُرْهَةِ المُلْتَفَّةِ باللهاثِ وخيالاتِ المَعْدَنِ. يَقيناً أَنَّكَ تفتحُ الآنَ حدوداً ثانيةً للرَّغبةِ، وتُمَوِّهُ الجذورَ، طاعناً حيثُ لا يكونُ طَعْنٌ إلاَّ في المَقْتَلِ، ناصباً مراياكَ لانْحلالِ اليابسةِ والمناجلِ المقتحمَةِ حصادَ الينابيعِ. وأزعمُ ـ وهذا زُعْمُ الكائنِ أيضاً ـ أنكَ لا تَرى من الدمِ إلاَّ البَرْزَخَ الأكثَرِ ازْدِحَاماً بالأحابيلِ، ولا ترى في خيمةِ الرمادِ إلاَّ قيَانَ الرمادِ. لا، لا، أيُّها الفاحشُ في الحضورِ، يا توأمَ المساءِ: هذي أسلابُنا وَقربُنا اليَقْطينيَّةُ، وهذي مدائحُنا التي لم تكتملْ، لَسْنَا نمدُّها إليكَ، بَلْ نُريكَهَا امْتداحاً لنَهْبٍ عادلٍ أيها الكوكبُ الأخيرُ، وأمَّا فتحتَ صناديقَنا لَمسْتَ قلاداتِ الدَّمِ، والقُرى، وأباريقَ الحاضرِ المَلُوْلِ. ألاَ انْحسرْ قليلاً عن رئاتنا أيها الأخيرُ، يا فُسَيْفَساءَ النهارِ الأخيرِ، لتتقرَّى بأناملكَ اللُّهاثَ الأبْعَدَ تحتَ الأغشيَةِ؛ اللّهاثَ المُبَارَكَ لبراعمِ الصَّلصالِ. وادْفعْ أناملكَ أبْعَدَ، في رئاتنا، أبْعَدَ، إلى حيثُ تَسْرُدُ المروجُ للأبجديَّةِ تُرَّهَاتِ البُقُوْلِ، إلى حيثُ الأسلحةُ وصخبُ الأقحوانِ. واهْبِطْ ـ إذا شئْتَ ـ هذا الدَّرجَ من الأغشيةِ والدمِ المشدودِ إلى دَوْرَتهِ الحيَّةِ، ستصرخُ: «هذا قناعٌ في أسفلِ الدرجِ، وهذا غدٌ آراميٌّ»، ولربَّما صرختَ: «عَلاَمَ هذه الأرائكُ كُلُّها في رُدْهَةِ الرِّئاتِ؟ عَلاَمَ هذه الفؤوسُ والأقفالُ؟»... لا، لا، أيها الفاحشُ في الحضورِ، يا صريراً أخيراً لبابِ المساءِ الصَّدىءِ، أنتَ لا ترى من الدَّمِ إلاَّ البَرْزَخَ الأكثرِ ازْدِحَاماً بالأحابيلِ. لكنني لن أضيِّقَ عليكَ الآنَ طَوْقَ المراثي، بل سأُكْثرُ الثناءَ على الجالسِيْنَ أمامَ ساعاتهم الرَّمليةِ وهم يُجوِّفُوْنَ الجهاتِ كجُحْرِ اليَرْبُوعِ، وحين ينهضون ستنهضُ أنتَ أيضاً أيها الكوكبُ الأخيرُ، أجْوَفَ كجُحْرِ اليَرْبُوْعِ، ولن تردِّدَ الجهاتُ بعدَ ذا إلاَّ القَهْقَهَةَ البطيئةَ لأفولٍ بطيْ

يْـ

يْـ

يءٍ.

أنا القهقهةُ البطيئةُ لأفول بطيء.

عادلاً كطعنة عادلة فاجأتُ الأرضَ (تلكَ المُسْتَلْقية تحتَ غشاء شَفيْف من الأحماض والنُّقُوْش)، ولم يكنْ معي غيرُ تُرْجُمانِ الصَّلصال. قُلْتُ فَلْتَجيءْ كائناتُ المَرَح، فهذي فِخَاخُ الأرض، وهذي فخَاخي (كلانا يهيِّئُ مقاديرَهُ ويَسْتَميلُ المساءَ)، فَلْتَجِيءْ كائناتُ المَرَحِ لتغسلَ بالدُّعابة هذا العراكَ المُحْتَدمَ وهذا البطشَ. فلْتَجيءْ لَنحْتَكِمَ إلى المَرَحِ في اشتعالِ الدم... وجاءتْ كائناتُ المَرَح لَفيْفاً لَفيْفاً كطيورِ الوَرْوَر، تتدلَّى أبواقُها من الأحزمة النباتية؛ قلتُ فلتأت النساءُ أيضاً... وجاءت النساءُ، كانَ لهنَّ رائحةُ الكَرَنْب، ولَمَّا تَزَلْ في ذؤاباتهنَّ بقايا زَهرٍ وَطَلْع؛ هادئات جِئْنَ، لكنهنَّ كنَّ يتوَجَّسْنَ قَلَقاً من الأرضِ مثلي، ومن ذلك الأفولِ المتعاقبِ للأفقِ بين خيامِ المياه. قلتُ فَلْيأتِ الصَّخبُ أيضاً، فليأتِ المُبَدِّدُ الباسلُ للسكونِ الباسلِ... وجاء الصخبُ بَطِراً يعابثُ من حوله عذارى النحاسِ:

(قبل هذا جاءَ البنَّاؤون، وتهدَّلَت الهندسةُ)

قلتُ: ماذا أيضاً؟، ها اكْتَملَ الحُضُورُ..

إيْـ

يْه

عادلاً فاجأتُ الأرضَ، قلتُ فَلْتَكُنْ خُصُومةٌ عادلةٌ: هذي فخاخُ الأرض، وهذي فخاخي، وكلانا سيلتمسُ في احتدامه أن يشدَّ أَزْرَهُ المساءُ. قلتُ: من أجلِ أن يكونَ سُلطانُ الكائنِ أكثرَ تَرَفاً بين أترابه من ملوكِ المياه والنباتِ أبدأُ هذا كلَّهُ... لكنْ، حين اكْتَمَلَ الحضورُ فاجأني الكائنُ فالْتَبَسَتْ عليَّ الخُصومةُ: فِخاخٌ بيني وبين الكائنِ، وفاصلٌ يقتسمُ على جهتيه النساءَ والصخبَ، وكائناتِ المرحِ. وها كلانا يلتمسُ في احتدامه أن يستميلَ المساءَ. وبيننا، بين هذي المعاولِ ولهاثها المعدنيِّ، وحدها الأرضُ ترفعُ القهقهةَ البطيئةَ نَذْراً للأفولِ البطيْـ يْـ

يءٍ.

أنا القهقهةُ لن ترفعَ الأرضُ نَذْرَها إلاَّ معي. أمَّا أنتَ أيها المساءُ، يا هُدْهُدَ أعماقِنا، ففيكَ ستَنْحلُّ الأقنعةُ وتتكشَّفُ السراديبُ الحليفةُ لنخرجَ من حصارِ النِّعمةِ

أكثَر نَزَقاً فَنُحْكِمَ الحصارَ على النِّعْمة؛ وفيكَ سنقتسمُ أسلابَنا من النهاراتِ الصغيرة كدروعِ السَّلاحف، وعيونُنا لا تفارقُ المَكْمَنَ الأكثَر شَرْخاً في الأبجدية، لأنَّنا وهبْنا الأبجديةَ خطانا فَلَمْ تصلِ الخُطى أيها المساء. وها نحن - إذْ نَقْتَسِمُ وسْطَ مَرحكَ النهاراتِ والهوى - نصيحُ: فَلْيَتَّسِعِ الشَّرْخُ، فَلْيَتَّسِعِ الشرخُ فَلاَ يصلِ الكائنُ إلى الكائنِ إلاَّ نَهْباً؛ وسنغْزلُ وسطَ مَرحكَ أيها المساءُ مساءاتنا، لاجمين الأَلَقَ الحيَّ للأغمدةِ لئلاَّ يَجْفَلَ الكوكبُ الأخيرُ. وفَرْسَخاً فَرْسَخاً سنعرِّي النباتَ والتخومَ من أقنعةِ النهار؛ فَرْسَخاً فَرْسَخاً سَنُحيطُ بالظلامِ الأشْكالَ، ونقتحمُ المرئيَّ وصليلُنا صليلُ البعيد: هيهاتَ أيها المساءُ، هيهاتَ.. لن ترفعَ الأرضُ نَذْرَها إلاَّ معي، ومعي ستدخلُ الأنقاضُ والأبجديةُ حصارَ الحيِّ أيها المساء. لكنني مُزْمِعٌ على أن أُهْرِقَ النشيدَ، وأُسْلِمَ الحيَّ للإباحةِ، طاغياً كالسَّديمِ، يتواطأُ في تفتُّحاتي الرمادُ والمياهَ. وكأشدِّ ما يكون رنينُ الحيِّ في اجتياحِ الأُنثى سأمزجُ رنيني بالسَّديْم هاتفاً: «لَتخالَنَّكَ الكواكبُ أيها السديمُ تَفَتَّحْتَ كاللهاثِ ثانيةً وفَرَدْتَ شراعَ المراكبِ لرياحِ الأشكال. ولَتخالَنَّكَ عاكفاً على أقْفَالِ الصباحاتِ بمفاتيحكَ الأرجوانيَّة تُطلقُ سراحَ الحديدِ والسنابلِ»... أعرفُ أن السَّدْيمَ سديمٌ، والكواكبَ هناكَ، أعلى قليلاً من مستوى الهذيانِ. وأعرف أني هنا - وسْطَ النشيدِ المُتهدِّجِ وفؤوسِ الصَّلصال - لا أزالُ راكضاً أمام جمهراتي، مُسْتَنْفِراً بقايا البقايا، وما تزالُ الجمهراتُ مثلي تُسيِّجُ بالخَزَفِ تخومَ أيامها، وتنصبُ السلالمَ على أعمدةِ المساء؛ ومعاً لا نزال أمامَ مداخلِ الحَلَبَةِ، نرقبُ المدارجَ المكتظَّةَ بأقنعةِ الحاضرين، ونُصْغي إلى القهقهةِ البطيـ

يـْ

يـْ

يئةِ للكوكبِ البطيءِ.

(ما هكذا يبدأ المهرجانُ في حضورِ الدمِ العادلِ أيها الكوكبُ الأخيرُ، ما هكذا يقتحمُ المنشدون نعمةَ النشيد(٥): يعرفُ الهباءُ الذي لا هباءَ بعدهُ أننا - حين انشقَّتْ عنا الشرارةُ الأولى لمطارقِ الحياة - نهضنا، مَرحيْنَ نهضنا، وكانتْ عُجولُنا أكثرَ مَرَحاً أمامَ المحاريثِ وهي تُصغي إلى الطَّقْطَقَةِ العذبةِ لانشطارِ الترابِ والشرارات؛ نكاد نلمسُ السُّعاةَ اللاَّمرئيينَ وهم يصعدونَ برسائلِ

(٥) أنظر الملحق، فصل «الأناشيد».

الجذورِ الزعفرانيةِ إلى الهواءِ العاشقِ.

يعرفُ الهباءُ الذي لا هباءَ بعده أننا حين عُدْنا أوّلَ مرةٍ من حصادِ البقولِ والفاكهةِ تنازعتْنا هواجسُ النهبِ، فقلنا: لا .. فليكنِ الترابُ ملْكَ محاريثنا، ولنكنْ ملْكَ البذورِ. غير أنَّا لم نُترجمِ الخفيَّ الواقفَ في عراءِ البطشِ هناك، مُرْسلاً يديه إلى مقابضِ أبوابنا. آآآه، يعرفُ الهباءُ الذي لا هباءَ بعدهُ أننا اندلَقْنا إلى العراءِ كما يندلقُ النَّبيْذُ على لحيةِ الفاتحِ، ممسكيْنَ بالمحارثِ ينظرُ الكائنُ منَّا الى الآخرِ، جَهْماً، يَحْبكُ بعينيه الأحابيلَ، وفي دمه المراثي. وكي لا تُفْصحَ الخُصومةُ عن مغْزَلِ الخصومةِ الحَذقِ، قلنا: فَلْتَكُنِ الأقنعةُ حدودَ الكائنِ، لا يعرفُ أحدٌ أحداً إلاَّ حين تَصْطَفُّ الأبواقُ حولَ رمالِ الحلبةِ، ويصعدُ النفيرُ الأرجوانيُّ إلى الرئةِ الحيَّةِ: هاكَ أيها الكوكبُ الأخيرُ، هاكَ، اشْهَد الكائنَ دونَ قناعٍ في الحَلَبَةِ، على أُهْبَةِ الخَوْضِ في بُحْرانِ الفلْزِ وفجاءةِ الفجاءةِ، تتخبَّطُ في شرايينهِ الطفولةُ، وفي رئتيه الفاكهةُ والينابيعُ، فما هكذا يبدأُ المهرجانُ في حضورِ الدمِ العادلِ أيها الكوكبُ الأخيرُ، وما هكذا يقتحمُ المنشدونَ نعمةَ النشيدِ. لا، يعرفُ الهباءُ الذي نُغَطِّي طواويسَهُ بالعباءاتِ أننَّا - حين انْشَقَّ عنَّا الدويُّ الأوَّلُ لارتطامِ الحياةِ بالغبارِ - نهضنا شاهريْنَ مناجلَ السنينِ الشريدةِ، آناً نقرعُ بمدائحنا بابَ الحياةِ، وآناً نقرعُ بالأبجديةِ سياجَ السديمِ. ونذكرُ أيضاً أننا رفعنا الأبواقَ خاشعينَ أمامَ الصَّخَبِ البهيِّ في المعدنِ؛ أمامَ حضورهِ الدَّافىءِ المُباحِ، نُوشكُ أن نمدَّ راحاتِنا إلى ألَقِ المقاديرِ فيه، فقلنا:

عِمْ مساءً أيها المعدنُ،

عِمْ مساءً أيها الشَّكْلُ الباسلُ،

عِمْ مساءً يا مَرحَ المَرحِ.

ثم خَلَعْنا أشكالنا، نازليْنَ درجَ الروحِ الى العَراءِ الأعظمِ. ينظرُ الكائنُ منَّا إلى قناعِ الآخرِ، عارفاً أن ذلكَ القناعَ ألَقٌ للعويلِ. ولربَّما تَغافَلَ واحدُنا عن الآخرِ: عَيْنٌ على القناعِ، وعيْنٌ على المعدنِ الباسلِ، قارئاً بينهما الفَجاءَةَ وتفتُّحاتِ الوقتِ. وكيف لا يبقى الكائنُ مُسْرِفاً في انحنائه أمامِ الكائنِ مُذْ خَلَعْنا أشكالَنا، مُذْ خَلَعنا مواثيقَ اغْتباطنا بالسَّديمِ فَعرفْنَا حدودَ أعضائنا؟ وكيفَ لا يبقى مُسْرِفاً في التصاقهِ بالقناعِ يُخفي عن الكائنِ نوافيرَ امتداداتهِ

الذاهبةَ أعلى مِمَّا يَسعُ الكائنَ؟ وكيف لا يموِّهُ هذا كُلَّهُ فيلتفتُ هاتفاً:
عِمْ مساءً أيها الوردُ،
عِمْ مساءً يا دليلَ المساء
عِمْ مساءً أيها الحجرُ،
عمِيْ مساءً يا وَصيفَاتِ الوحْشَة...؟
إنَّهُ - يقيناً - سيجمعُ بعدَ هذا حرابَ الجوهرِ، مُغيْراً حيثُ الحدودُ حدودٌ؛ فما هكذا يبدأ المهرجانُ. وما هكذا يقتحمُ المنشدونَ نعمةَ النشيدِ أيها الكوكبُ الأخيرُ).

إذنْ،
بطيْـ
يْـ
يئاً فَلْيَقْتَحِمِ المساءُ المراثيَ، وَلْيَخْرُجِ المنشدونَ من كهوفِ المياهِ رافعينَ بيارقَ الزَّبدِ وصنوجَ الأعماقِ، فقد أَقْفَلَ الكائنُ الحَلَبَةَ مُومِئاً إلى الدم ليبدأ الرِّهانُ الطويلُ. طويْـ يْـ يْلاً إذنْ فَلْيَكُنْ حُلْمُنا، طويلاً فَلْيَكُنِ النَّفيرُ المُعولُ لبوقنا الصلصاليِّ، ولْيخرُجِ المنشدونَ من متاهِ العذوبةِ، سائقيْنَ الرمادَ والجذورَ، فَلَنْ يباركَ إلاَّ المباركُ. غير أننَّا - في غمرةِ الرِّهانِ الطَّويلِ - سَنَلْتَفتُ إلى الأفقِ الْتفاتَةَ الحَيْرانِ: «خيالاتٌ في بالنا، أَمْ خيالاتٌ في بالِ الأفقِ هذه الجموعُ المتلألئةُ كالعناقيدِ، لا تَقْتَرِبُ ولا تبتعدُ، هناكَ، أعلى قليلاً من مستوى خُوْذَةِ النُّخبةِ؟». وسنقتربُ من الأفقِ اقترابَ الظنونِ من الظنونِ، هاتفيْنَ: «لا شيءَ في الأفقِ عدانا - نحن خيالُهُ الجَموحُ نهيءُ الخيالاتِ للمرايا». وفي غمرةِ الرهانِ الطويلِ سنتوكأُ على الوميضِ الحنونِ لحلمنا، صاعديْنَ هابطيْنَ تلك الأدراجَ المشْتَعلةَ بقهقهةِ الكائنِ وصريرِ الأبوابِ التي لا تُرى، لابسيْنَ تيجانَنا، لابسيْنَ الشَّمَاتَةَ والأُبَّهَةَ... أنا الأَبْهيُّ ما أزالُ راكضاً أمام جمهراتيَ، ولْيَحْذَرِ البعيدُ البعيدَ.

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ.
وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءَ.
(ما هكذا يَتَواطَأُ العاشقونَ على دمهمْ

ما هكذا يبدأ المهرجانُ والمنشدون).

ألاَ لن ترفعَ الأرضُ نذْرَها إلاَّ معي، وأنا الأَبْهيُّ لن أرفعَ المديحَ الأخيرَ للصباحِ إلاَّ مُثْخَناً بنعمةِ النَّهبِ..

إذنْ
بطيـ
ـْ
يْئاً فَلْيَمُرَّ الرَّمادُ بي. بطيْـ
ـْ
يئاً فَليكُنْ دخولي إلى المديحِ،

عَبِقاً بانحلالِ الأبجديةِ والجهاتِ، ولْتَكُنْ روحي ظهيْرَةَ الظَّهيرةِ وهي تتوسَّدُ الهَرْطَقَةَ جَنْباً إلى جَنْبٍ معَ الظلامِ والحديدِ في قَيْلُوْلَةٍ واحدة، فأنا - يقيناً - قادمٌ من الدمِ، ذاهبٌ إلى الدمِ؛ ويقيناً لأَخْتِمَنَّ هذا الدَّوْرَ العنيدَ بقَرْعٍ عنيدٍ على سندانِ الإباحَةِ حتى أرى المعدنَ مُغْتَبِطاً بأَدْوارِهِ، والرمالَ مُنْحَنيةً تلتقطُ في سلالِها العواصمَ الهاربةَ. وفوْجاً فوْجاً سأبيحُ للخواتيم أن تدخلَ المأدُبَةَ وراء خطى الغبارِ المهرِّجِ، وسأدخلُ المأدبةَ (هذه المأدبةَ الحافلةَ بوجوهٍ كالأقفالِ، وغيومٍ تندلقُ من كؤوسِ الوفودِ)، مائساً كورقِ الشجرِ العالي، حاضناً في تجاويفي هباتِ اللهبِ وقواريرَ الظلامِ.. فليكنْ، فليكنْ دخولي عَبِقاً بانحلالِ الأبجديَّةِ والجهاتِ، فَمَا أنا وسيْطُ الليلِ إلى النهارِ كُرْمَى أن يخرجَ الكائنُ من كهفهِ إلى السطوعِ الأبكمِ لشموسِ العراءِ، لكنني الوسيطُ - العويلُ كُرْمَى ارتطامٍ واحدٍ للشموسِ والكهوفِ برنيني الإخشيديِّ: أنا هُلْبَةُ الكوكبِ الرَّاسي على الأنينِ، بطيْـ
ـْ
يْئاً فَلْيَنْحَدرِ الكوكبُ معي على دَرَجِ الأنينِ.

(لماذا يا القريبةُ أكثر ساعةَ انكسارنا، لماذا يا حبيبةَ التَّعَبِ لم تلتقطي من أيدينا خواتمَ البَسَالَةِ في ساعاتنا الباسلة؟ لماذا لَمْ ترفعي البَسَالَةَ إلينا حينَ دخلنا البهوَ مرحيْنَ تقطرُ من أهدابنا بروقٌ صغيرةٌ كالحُبَاحِب، ومن ثيابِنا الغماماتُ والطيورُ؟ أكُنْتِ حَليفةَ التَّعبِ يا حبيبةَ التعبِ؟ أَمْ كانَ

لسُلْطانِكَ المدى الأرْحَبُ بحنانه علينا ساعةَ انكسارنا؟... يا لَلحلم: كأننا نرفعُ إليكِ وجوهنا ثانيةً، مرتبكيْنَ وكأنَّما تَنْحنيْنَ علينا الآنَ، وديعةً مُتْرَفَةً بجوهرٍ مُتْرَفٍ؛

أتذكرينَ،

مرةً رفعنا أطباقَ الحلوى عن المائدةِ معاً،

وتركنا على المائدةِ أقْدارَنا؟.

مَرَّةً ودَّعَتْ يدُكِ يدي،

وتركنا على العتبةِ وداعاً تائهاً

لا يمضي معكِ ولا يمضي معي؟

مَرَّةً.. لا، مُذْ أقْفَلْتِ السياجَ كلُّ سياجٍ

مدخلٌ إليكِ، وكلُّ أرضٍ وراء السياجاتِ

بَعْضٌ من لهاثنا؛ ولهذا اغفري اقتحامَنا

العَبِقَ بانحلالِ الجهاتِ يا حبيبةَ التَّعب).

إيْـ يْـ يْه، لستُ قاصداً أن أجمعَ الكائنَ تحت نَصْلِ العذوبةِ، بل قاصدٌ أن أُشَرِّدَ الكائنَ في العذوبة. وسأستفحلُ، وستستفحلُ الجمهراتُ معي، وستستفحلُ معنا الأبواقُ الصلصاليةُ والأقنعةُ والصليلُ، ولا ديمومةَ بعد ذا إلاَّ ديمومةَ الدَّمِ... اجْمعني أيها الكوكبُ الأخيرُ قناعاً قناعاً، وسأجمعُكَ حَلَبَةً حَلَبَةً، وَلَتَكُونَنَّ بيننا أواصرُ الوميضِ الحكيمِ للدروعِ.. إيْـ يْـ يْه كَمْ أقولُ: لا، لا تَخْتِمَنَّ هذا المساءَ بالمساءِ، ولا تَدْفَعَنَّ الكوكبَ الأخيرَ كالمهرِّجِ أمام الحاضرينَ في المأدبةِ. وأقولُ: اتركْ للكائنِ أنْ يُسْرِفَ في صَقْلِ دُعاباته أمامَ أُنثاهُ، فها هي المصائرُ الصلصاليةُ، وها هي الانكساراتُ ملءُ الأباريقِ في يدَيِّ النَّادلِ. وما أنا لأَخْتَزِلَ هذا الاخْتِزَالَ كُلَّهُ؟ وَمَنْ ذا سَلَّ عليَّ سيفَ السديمِ فاتَّقَيْتُهُ شاهراً على السديمِ الأشْكالَ والمراثي، كأني وحدي امتداداتُ الأرضِ الساهرةُ على المرئيِّ والكنوزِ؟. لا، أقولُ لا تتأبَّطَنَّ من زادكَ غيرَ المساءِ والقُبَلِ، ولا تُلقَيَنْ في الحلباتِ قرونَ الطرائدِ وجلودَها، فلربَّما جاءتكَ الحلباتُ وديعةً، لا صَخَبَ لرمالها، ولربَّما أبْصَرْتَ الجالسيْنَ على مدارجِ الحلباتِ بأقنعتهم يرفعونَ الأقنعةَ هاتفيْنَ لعراكٍ ليس إلاَّ عراكَ البَراعمِ... أتُراكَ رأيتَ البراعمَ في عِراكها؟ أرأيتَ كيفَ ينفضُ البُرعُمُ عن البرعمِ أهدابَ النَّدى ويصطادُهُ بشِباكِ

الظلال؟ لا غلبةَ في عراكِ البراعم، يقيناً، لا غَلبةَ في عراكها. قد تقول إنَّ البراعمَ أعضاؤكَ الثانيةُ، ونسْلُكَ التوأمُ الذي يرتدي أدْوارَكَ هناك إذْ تَنْتَهي هنا.. لا، لا تأسِرَنَّ بكَ التخومَ الحيَّةَ، ولا تجهرَنْ أنَّ المياهَ حُلْمُكَ وحُلْمُكَ اليابسةُ: المياهُ حلمُ المياه، واليابسةُ حلمُ اليابسةِ. إيْـ يْـ يْه كم أقولُ: انهضْ خفيفاً بجسدكَ وحدَهُ، فاتحاً مخابئكَ الخفيَّةَ بين الحلم والدمِ ليخرجَ النباتُ والماعزُ والصقورُ والمدارجُ والحليُّ والفاكهةُ والغيومُ والأغمدةُ والمرايا والسنونُ والقبابُ والمراكبُ والماسُ والحديدُ والمناجلُ والأعمدةُ والأرجوانُ والأبجديةُ والجيادُ والينابيعُ والطميُ والظهيرةُ؛ ليخرجَ الكائنُ واستعاراتُهُ البليغةُ، فما أنتَ امتداداتُ السَّديمِ الساهرِ على القَهْقَهَةِ البطيئةِ للأفولِ البطيءِ. وأقولُ تجفَلَنَّ إذا سمعتَ الأنينَ هناكَ، فأنتَ هنا؛ ولا تَنْشرَنَّ شراعَكَ على صاريةِ البروقِ، فأنتَ الصَّلصاليُّ إنْ أضاءتْكَ البروقُ انْبَجَسَتْ من الصلصالِ النوافيرُ والخمائرُ، فلن تشهدَ، بعد ذا، رئةً إلاَّ تتنفَّسُ من رئتيكَ، ولا نبضاً إلاَّ فيه نَبْضُكَ، فمن أنتَ لتُحيطَ هذا الفَيْضَ كُلَّهُ بطُمأنينةِ الفَيْضِ؟.. هيهاتَ، ها هم الندامى بأبواقِهم، وها هم السُّعاةُ مهروليْنَ في رُدْهَةِ الصلصالِ وعلى جباههم أختامُ المساءِ والرنينِ: رنيني هذا، أنا الهُلْبَةُ الإخْشيديَّةُ للكوكبِ الرَّاسي على المرايا.. فَلْيَجْمَعْني الكوكبُ

قناعاً

قناعاً،

وَلأجْمَعَنَّ الكوكبَ قناعاً قناعاً ومن حوليَ الجمهراتُ مُزدانةً بحليِّ الآجُرِّ تنحرُ الأغاني وتحشدُ الأقفالَ. وَلَيكُونَنَّ شريكي في هذا التَّرفِ المساءُ؛ لأكُونَنَّ شريكَ المساءِ، صاخباً أَلجمُ الأنقاضَ، وأغمرُ بعناقيدِ الباطلِ قناعَ النهارِ الأخيرِ.

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ.

وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءَ.

يا إلهَ المساء؛

يا إلهَ الظلامِ الذي تتخبَّطُ مُرْضِعَاتُهُ في حليبِهنَّ؛

يا إلهاً مُشْرِفاً من الحِبْرِ على هرطقةِ الحِبْرِ: أيُّ صَخَبٍ سيرفعُ إليكَ بعدي هذا الريشَ كُلَّهُ، وهذهِ المواثيقَ والهزائمَ كُلَّها؟. أما لو مَضَيْتُ بأبواقي وأحابيلي إلى حيثُ

لا غَلَبَةَ للأبواقِ والأحابيلِ لأعَدْتَني إليكَ أكثرَ طَيْشاً، نَقيْضاً يُخَوِّلُ سُلطانَكَ أن يكونَ سُلْطاناً باسلاً بنعمةِ الحضورِ الباسلِ للنَّقيْضِ. غيرَ أنني سأديرُ العَجَلَةَ الخشبيَّةَ للأقدارِ، يا إلهَ المساءِ، في عذوبةِ الصلصالِ، دونَما احْتِكَامٍ إليكَ، دونما احْتِكَامٍ إلى الحِبْرِ، جارفاً هذه المواثيقَ كُلَّها كي أراكَ مُلْقَىً بين الصليلِ والرنينِ تَتَضَرَّجُ بلهاثِكَ الفراشاتُ، وتَنْحَلُّ في راحتيْكَ الأختامُ... أنا الأختامُ، من سَيَمْهرُ الفِلْزَ بي؟

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ.
وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءَ.

عَدَمٌ يغزلُ الأقنعةَ، والصباحاتُ تغسلُ أقدامَها في الرِّئاتِ: فَلْيكُنْ مَرَحي مَرَحَ السديمِ - أيتُها الأنقاضُ - في المأدبةِ الأخيرةِ للكوكبِ الأخيرِ.. وأنتَ، أنتَ يا نديمي على هذه المأدبةِ الصلصاليةِ، لا تَنْثُرِ الأسئلةَ كحجارةِ النَّرْدِ، ولا تتوسَّلْ بعينيكَ هاتيْنِ أنْ أسترسلَ الآنَ في انحلالي حَلَقَةً حَلَقَةً كأني سلسلةٌ من حديدٍ، طَرَفَاها صَخَبٌ، والصَّخَبُ قَيْدٌ مُحْكَمُ الوثاقِ على أبدٍ مُحْكَمِ الوثاقِ. أيها النديمُ الساهرُ حول تُرَّهاتِ الصباحِ وديمومةِ الأنينِ، لا تُغْمِضَنْ عينيكَ هاتيْنِ عليَّ - على المباركِ المباركِ بالهذيانِ:

(كان نديمي صامتاً في حُنُوِّهِ على ودائعِ الموتِ وأسمالِ الطبيعةِ، يجمعُ بيديهِ فراسخَ الحُلْمِ كما يجمعُ البستانيُّ الزهراتِ القديمةَ من طريقِ البراعمِ، غيرَ آبهٍ بمغزلي الدائرِ بين خيوطِ المدائحِ وكُراتِ الحديدِ. قلتُ: أفِقْ يا نديمي قبلَ أنْ يَخْتَلِسَنا النفيرُ الخفيُّ للعذوبةِ، أو تَتَخَاطَفَنا الصباحاتُ، أفِقْ. غيرَ أنَّ النديمَ الصامتَ مثلي على المائدةِ أغمضَ عينيهِ عليَّ، على المياهِ واليابسةِ، على المصائرِ والعناقيدِ والأعمدةِ، فَلَمْ أُفِقْ إلاَّ ويديْ بين الأيدي العاليةِ تَتَقَرَّى الوميضَ الحنونَ للأسلحةِ، وتَلْتَقِطُ الأشْكَالَ).

ومن أيْنَ لي أيها النديمُ أن أُحيطَكَ بالأساطيرِ والكَرَفْسِ، وأن أجعلَ الفراسخَ الباقيةَ من أعضائنا مغازلَ كمغازلِ العرَّافاتِ؟ أنا المُحْدِقُ بالمساءِ سائرٌ من صليلٍ إلى صليلٍ، مُباحاً لمُجونِ النباتِ وخُيلاءِ المعاولِ:
فليكنِ النهبُ،

فليكنِ النهبُ..
هذي هباتي هباتُ المُبَذِّرِ بالأقنعة.
غير أني -
حين يتوّجُ الرمادُ الرمادَ،
وتُلقي المياهُ بأقفالها في المياه -
أستردُّ الأقنعةَ والوجوهَ، تاركاً للسَّديمِ مفاتيحَ اللُّهاثِ ودروعَ الأباطيلِ. ولربَّما التفَتُّ التفاتةَ المُشْفقِ على بقاياي المسفوكةِ بين الأبجديةِ وزَهرِ اليقطينْ، أو اعتراني حنينُ الحاضرِ إلى الحاضرِ، هاتفاً:
«لم نطلبْ شيئاً أيتها الآنسةُ،
لم نطلبْ شيئاً سوى بضعَ حروبٍ صغيرةٍ،
وحفنةً من زنابقِ الوميض.
لم نطلبْ أيتها الآنسةُ إلاَّ حدوداً لرئاتنا،
وقُبَلاً في هدناتِ الحروبِ الصغيرة.
لم نطلب غيرَ همسةٍ مُسْكِرَة، غيرَ أنْ
ترتفعَ يدُكِ الآنَ بهذهِ الكأسِ الترابيةِ
نُخْبَ انتحارٍ جديدٍ للصباحات.
... آهِ، كَمْ قلنا - وسْطَ هذا السَّهرِ الغامضِ للمراثي -
إنَّكِ عربونُ المصائرِ لأعماقنا،
وإنَّكِ خاتمُ الفاتح.
عَذْباً فليكنْ فَمُكِ في مَهَبِّ القُبَل».
هاتفاً:
«عَلاَمَ تنهضيْنَ من البراعمِ، ولَمَّا تنهضِ الأنقاضُ بَعْدُ من مجونِ البراعمِ؟.. كلُّ سائرٍ سائرٌ إليكِ، وكلُّ نصلٍ يعلو الآن يعلو في مَهَبِّكِ أنتِ؛
عَذْباً عَذْباً فَلْيَكُنْ صَخَبُكِ في مَهَبِّ الحنين».
هاتفاً: أنا المُحْدِقُ بالأختامِ، وهذا حِبْرِيَ حِبْرُ السنابلِ أيها النديمُ، فلا تُغْمضَنْ عينيكَ عليَّ لئلاَّ تراني واقفاً أمام السياجات، مُلَوِّحاً بأوراقِ الجَرْجيْرِ للطفولة، راكضاً من هنا وهناكَ، يتدلَّى من عنقي السديمُ ومن أهدابيَ المدائحُ؛ لئلاَّ تراني لاجئاً بالمضائقِ إلى المضائقِ، وبالسهولِ إلى السهولِ، أَجْرَدَ كالحكمةِ، لا يبدأُ مَقْتَلٌ إلاَّ بي

أيها النديمُ ...
فَلْيكنِ النهبُ،
فَلْيكنِ النَّهْبُ،
هذي هباتي هباتُ المُبَذِّرِ بالأباطيل.

غير أني -
حينَ نَفَضَتِ الرمالُ عن زُرُوْدِها الرياحَ، وحين احْتَضَنَتْ عرائسُ(٦) الصَّلصالِ جرارَ البُعُوْلَة - عَرَّيْتُ المساءَ من أسمالِ الشَّفَقِ ووميضِ خناجرِهِ البازلْتيَّة، كأني مُزْمِعٌ على أن يكونَ الظلامُ توأمي الباسلَ فوق المدارجِ، مُزْمِعٌ أن تنفضَّ الجموعُ تحت خباء أشْكالها، وأن ينقَضَّ الدمُ انْقِضَاضَ الباشقِ على الدَّمِ: أنا القهقهةُ البطيئةُ لأفولٍ بطيْـ
يْـ
يْيءٍ،

ليسَ للمساء عليَّ تَرَفُ المساء، بل للرَّنينِ وحْدَهُ عليَّ ميثاقُ الخناجرِ الزعفرانية والسهوبِ التي تتدافعُ أمامَ القناع؛ فهل عادَ كائنٌ إليَّ إلاَّ رافعاً بوقَهُ الأخيرَ، وهل سَاوَرَتْني عن خَفيِّها المياهُ إلاَّ قارعَةً بالصواري انحلالَ المياه؟.. لأجْثُوَنَّ لِطَبْعِ الوريد المُشْتَغلِ بأقلامه العَجُوْلَة، وللخواتيمِ المطمئنَّة كالتِّيجانِ على رؤوسِ الأعمدة، صافراً كالسَّهم إلى مُسْتَقَرِّيَ الأزليِّ بين الأقحوانِ وأسلحةِ الصَّلصال. غير أني -
حين تخلعُ الحدودُ أبعادَها،
وتنسجُ الفراشاتُ شبَاكَ الحقول -
أتركُ الكائنَ للُعْبة، وأُصْغي إلى حمحمةِ الينابيعِ وهي تعضُّ على لِجامِ الرماد، كأنَّما خَبَّأَتْ عنها السُّهولُ المسَالكَ، وضيَّقَ الحصى عليها بالمهاميز؛ وإذْ يسألُ المساءُ: «ماذا تَصْنَعُ الينابيعُ؟» أسألُ المساءَ: «ماذا تَصْنَعُ الينابيعُ؟».. أمَا لو تداركَني النَّباتُ، وسَيَّجَتْ لهاتيَ المَحَابرُ، لَلَمَسْتَ الينابيعَ بيديكَ أيها المساء تحت قناعي، بهيَّةً كنذورِ العاشقِ، ولها انعكاسُ خَرَزٍ صَقيْلٍ على جبينِ الجيادِ في الظهيرة، وَلَلاَمَسْتَكَ الينابيعُ بذؤاباتِها المحلولةِ على ثدي الكائنِ المُترجِّلِ عن هذيانه بعدَ

(٦) أنظر الملحق، فصل «العرائس».

العِراك، المُثْخَنِ بي في انتصاراته وهزائمه: إيْـ يْـ يْـ يه لو تداركني الكائنُ. بَيْدَ أني - إذْ تَسْتَنْسِخُني الصبَّاحاتُ - أظَلُّ صافراً كالسَّهم إلى مُسْتَقَرِّيَ الأزليِّ بين الأحابيلِ والأقحوانِ، ونَصْلِيَ نَصْلُ الحقولِ.

وماذا أيضاً؟ يسألُ المساءُ.
وماذا أيضاً؟ أسألُ المساءَ.

بطيئاً، بطيْ يْـ
يئاً فَلْتَتَساقطْ على المائدةِ أعضاءُ النَّديمِ،
فَلْيتساقَطِ المساءُ والحقولُ،
فَلْتتساقطِ الينابيعُ والأسلحةُ
والمكانُ
والأبجديةُ
والصليلُ
والمدائحُ.. ألاَ لاَ يَبْقَيَنْ غيرُ الباطلِ الحيِّ - هذا الباسلِ في اخْتِزَالاتِهِ الحيَّةِ وسْطَ هبوبي؛ أنا القهقهةُ البطيئةُ لهبوبِ الدمِ البطيْ
يْـ
يْـ
يِيءِ،
فمَنْ سيرفعُ معي أبواقَهُ ابْتِهَالاً لهذا المساء؟.

أيا الكوكبُ الأخيرُ،
أيها المُلْتَجِىءُ إلى دروعنا بَعْدَ مِحْنَةِ الكواكبِ،
ها نحن معاً لمرةٍ أخيرةٍ تحتَ خيمةِ الحِبْرِ، والوَصيْفَاتُ - المراثي يحملْنَ إلينا أباريقَهُنَّ الطَّافحةَ بنفيرِ الأبواقِ والبَسَالاتِ؛ معاً تحت غلالةِ النَّشيدِ الذي لا يُقالُ، لكننا بنعمةِ البطشِ والظلامِ نُسْدِلُ الكائنَ كالسِّتارةِ على مصائرهِ الشريدةِ. وكما تأسُر البوصلةُ الجهاتِ نأسُر الجهاتِ بِشبَاكِ الرَّنينِ، رافعيْنَ مجاهيلَنا للصلصالِ، صاعديْنَ هذهِ السلالمَ الخبيئةَ وسْطَ دهشةِ الدمِ إلى النَّيْلوفَرِ.. إيْـ يْـ يْهِ أيها

الكوكبُ الأخيرُ، يا الملتجىء إلى مصابيحنا الآجرية بَعْدَ محْنَة الكواكب، قُلْ لنا كيفَ أحاطَ بكَ البَجَعُ ساعةَ دَخَلْتَ إلينا من بوَّابةِ السديم؛ ساعةَ لم يكنْ عراكٌ بَعْدُ، ولم تكنْ للكائن نعمةُ النَّهب. قُلْ لنا كيفَ رميْتَ أمام أقدامنا قناعَكَ العرجونيَّ، وأشركتَ الغبارَ المهرجَ في انحنائكَ لنا. قُلْ كُنتَ تائهاً هناك، في البعيد البعيد، وسطَ لهو الآلهةِ وصولجاناتِ الشهوة، وسط رتابة البطشِ المُنسكبِ من أباريقِ الغيب. قُلْ التجأتَ إلينا لتعرفَ التعبَ أيها الكوكبُ الأخيرُ، لتبسطَ مسافاتِكَ الأخيرةَ للأسلحة، رافلاً بينها في اللُّهاثِ المخمليِّ وعويلِ العويل...

(فَلْتَكُنْ شَريكَ الكائنِ المبارَك أيها الكوكبُ الأخيرُ؛ فَلْتَكن امتداداتنا في الظلام المبارَك؛ فَلْتكنِ الأعلى حين يكونُ الأعلى سَهْمُ البهاءِ الذَّاهبُ الى المَقْتَل. فَلْتكنِ الأخيرَ أيها الأخيرُ، نشوانَ، ملْءُ غمدكَ سيفٌ واحدٌ للغمام والخيانة، ثَقيلاً بخطاكَ الثقيلة تَنْزِلُ الدَّرجَ[7] الأرجوانيَّ وهواؤكَ الطبولُ. أمَا سَمعتَ نَبْضَ أيَّامنا تحت قشرةِ الصَّواعقِ قبل أن تَصِلَ أيها الأخيرُ؟ أما سَمعْتَ انْقضَاضَ الفراغِ بمناقيره الذَّهبيَّة على قناعِ الكائن؟.. وحْدَهُ الدمُ - وحدهُ الدمُ بفصُوله وسلالمه - كان أوَّلَ الخارجيْنَ إليكَ، وديْعاً، ولأبواقه صَخَبُ القُرنفل.. آه، امتداداً كُنْ لنا في المباركِ يا قطيعاً أخيراً من النَّباتِ والجُزُر).

معاً،
معاً،
لمرَّةٍ أخيرةٍ، تحت خيمةِ الحِبْرِ، سَنَقْتَنِصُ المراثي، ونلجمُ الأشْكالَ.
معاً، معاً.

وماذا أيضاً؟ يسأَلُ المساءُ.
وماذا أيضاً؟ أسأَلُ المساءَ.

أخيراً،

(٧) أنظر الملحق، فصل «الأدراج».

ها أنذا أَسْتَثِيرُ البَطْشَ في الجذورِ، وأحْنُو بأعضائيَ الوحشيَّة على ألَق المياه، كأن انحلالي كانَ قَوْسَ قُزَحٍ تَتَملْمَلُ فيه خناجرُ الأعالي المُشَعْشِعَةُ قَبْلَ أن تهوي على الحياة؛ كأني كُنتُ ضَرْبَةً سَدِيْدَةً للصَّباحات فاسْتَحَمَّتْ بيَ الأباطيلُ.. أخيراً، ها أنا، وحوليَ الأختامُ والهياكلُ، أعْزَلُ إلاَّ من بوقٍ لنفيريَ الأخير. غير أني إنْ أسْقَطْتُ خاتمي الصلصاليَّ على الرُّخامِ سَمِعْتُ نَبْضَ التوأمِ الحيِّ ـ توأمِ اللُّهاثِ والرَّنينِ ـ آتياً عَبْرَ شبَاك النَّدى ومراوحِ العَرَاء؛ ولَسَمِعْتُ، ثانيةً، نَقْرَ الأسلحة على قناعِ البطولة: هيا أيها المُسْتَفْحِلُ الأعزَلُ إلاَّ من بوقٍ لنفيركَ الأخيرِ، هيا أيْقِظِ الظلامَ، وقُلْ:

عِمْ مساءً أيها الكائنُ.

عِمْ مساءً أيها الكوكبُ الأخيرُ.

عِمِيْ مساءً أيَّتُها البطولة.

مُلحَق

البغل الأعمى

حين تكسَّرت الموجةُ ذاتُها، موجةُ الدَّلْبوْثِ والقُنَّب، وئيداً خرجَ البغْلُ الأعمى بقطيعهِ الأشْقَرِ من البغال العمياء. وكانَ انْ تَجَمَّعَتْ حولَهُ العجولُ الشريدةُ، وهرولتْ إليه التَّيَاتلُ فوْجاً فوْجاً كأنَّها تَنَسَّمَتْ غبطةَ العَرَاء بالقوائمِ الأقوى، ولامَستْ خَطْمَها شُعاعاتُ الصَّخبِ النَّحيلَةُ في زحامِ الحوافرِ... وكيفَ لا تهرولُ التَّيَاتلُ والعجولُ، إذْ يرتدي الغبارُ قناعَهُ المحبوكَ من الجلودِ الحيَّة، وتهزُّ العذوبةُ قَرْنَيْها المُلْتَفَّيْنِ كَقَرْنَي ذَكَرِ الكَوْدِ احْتِفَالاً بالوريثِ الأعمى لأرضِ العَمَاء؟.

يقيناً أيها البغلُ يقيناً أنَّكَ نَصْلُ انبِثَاقٍ غامضٍ في السُّكُونِ المُجمَّعِ الصَّلْدِ كَبِلَّوْرَةِ الخَوَاتم.

الحدأة

كفاكِ ارْتطاماً بهذه القبورِ المعَلَّقَة كالقناديل في بَهْونا، كفاكِ أيتها الحدأةُ، يا مَسيْلَ الظهيرةِ في صباحاتِ الطيورِ. لقد رأيناكِ قبل هذا، قبل أن تستحمَّ الرياحُ بالأجنحةِ، ماضيةً من رمادٍ الى رمادٍ، كأنَّكِ نبوءَةُ الأعالي، ويدُ الشَّهوةِ المُمْسِكَةُ بصولجانِ المدائحِ.

كفاكِ انْقِضَاضاً على ديكَةِ الصباحِ الأعمى،
كفاكِ كفاكِ يا ابْنَةَ الرِّيْش.

بنات آوى

في النَّفيرِ الأولِ لأبواقِ الظلامِ، كانتْ بناتُ آوى الأميراتُ يَدْلفْنَ، خلْسَةً، إلى عواصمهنَّ الضائعة في زحام اليقطين ومراكب البقول، كأنهنَّ شهابٌ مُعْتمٌ؛ شهابٌ طويلٌ من الوبَرِ والخناجرِ، دحرَجتْهُ روحُ اليقظةِ الأخيرةُ إلى حلمِ النباتِ، وكأنهنَّ تَفَتُّحُ السهولِ الخفيُّ بعد ما أطبقَتْ زَهَراتُ الأقاليمِ أوراقَها على الحديدِ والهَرْطَقَة.

إيْهِ يا بنات آوى، يا حبيْسَات نعمةٍ لَمْ تَكُنْ للكلابِ أو للثعالبِ، فَلْيَكنْ صوتُكُنَّ المتلألىءُ مقْبَضَاً في يَدِ الرَّهْبَةِ؛ مقْبَضَ مِنْجَلٍ أو بابٍ مُشْرِفٍ على النهارِ المتهدِّلِ في سريرِهِ الدمويِّ.

بقرات السماء

بقراتٌ مضيئةٌ، بقراتٌ غامضةٌ ذاتُ جلودٍ غامضةٍ تدخلُ الزُّقاقَ السماويَّ، واحدةً تلوَ الأخرى، رشيْقَةً، يُجلْجِلُ حَجَرُ الخوارِ من خلفها في الفراغِ المديدِ. ومن كوكبٍ إلى كوكبٍ، من نَيْزكٍ إلى نيزكٍ، من فراغٍ إلى فراغٍ تتحرَّكُ أذيالُها كَيَدٍ تَهشُّ عن عسلِ الآلهةِ نَحْلَ الأباطيل.

بقراتٌ تدخلُ الزقاقَ السماويَّ،
ومن خلفِ قرونِها يتقلَّدُ المساءُ مراسيمَ الرَّعْدِ والفُحُولة.

العرائس

حين انْحَنَتِ الأسلحةُ، ومَرَّ المشيِّعُونَ ثقالاً في أكفانهم الأزليَّة، أغلَقتِ العرائسُ بابَ المساء الكبيرَ، راجعاتٍ إلى مخادعهنَّ تحت نواعير الزَّبد ومطر الغابات.

بَيْدَ أنهنَّ تركْنَ للعابريْنَ أمام بابِ المساء رغيفاً أخضرَ من الغَمَامِ الأخضرِ، وبروقاً مُرَصَّعَةً بالطفولةِ والجنون.

الأدراج

لعينيكَ أيها الكائنُ الصَّقيْلُ كالجُمانة.. لعينيكَ تقفُ هذه الأدراجُ سنةً بعد أخرى، وحجراً بعد آخرَ، في المكانِ ذاتهِ، مُستَسْلِمةً للطَّعناتِ الرَّطْبةِ وقَهْقَهَةِ الدَّوْرِ الذي لا ينتهي.

لعينيكَ أيها الكائنُ الصَّقيلُ كَعَيْنِ الغَاضِب.

الأناشيد

١
إننَّا كُنَّا يقيناً تحتَ نارِ الأقحوانْ
نَتَقَرَّى خنجرَ الريحِ البتولِ
ونسمِّي المهرجانْ.
فلماذا لا يردُّ التُّرْجُمانْ
عندما نسألُهُ
أن يُهجِّيْ موتَنا؟.

ولماذا كانَ موتٌ،
كانَ ما يجعلُ هذا الموتَ غمْدَاً للصباحاتِ التي تُشْهَرُ خلفَ الذاكرةْ
ألأنَّ اللغةَ المنكسِرَهْ
قَهْقَهَاتٌ ومرايا؟.
آه، مَنْ يذكرُ كَمْ كان الشَّمالْ
طَيِّباً، كانتْ سهولٌ تتوازى
وأباريقُ الظلالْ
تنحني للعابرينْ؟.
كانت الأرضُ التي تعرفُنا تعرفُنا
وثلوجُ السهلِ من عامٍ لعامْ
ترتدي مثلَ الزرازيرِ مسافاتِ الحنينْ
وتُغطِّي الذاكرةْ.

كانَ سَهْمٌ أخضرٌ بين التلالْ
ذاهباً من أوَّلِ العُمْرِ، ولا نعرفُ من أطلقَهُ،
غيرَ أنَّ الذاكرَةْ
لَوَتِ الوقتَ كعوْدِ الخيزرانْ
فرأينا عُمْرَنا أشْبَهَ بالقوسِ، ومن ثَمَّةَ أضحى دائرةْ
ورأينا في الحطامِ
ثلجنا الهاربَ من عامٍ لعامٍ.

ولماذا كانَ ثلجٌ،
كانَ ما يجعلُ هذا الثلجَ ميراثَ المسافاتِ التي تفتحُ بابَ الذاكرةْ؟
ولماذا يا إلهَ الخُلْوَةِ المُنتحِرَةْ
ولماذا يا إلهَ امرأةٍ تُشهِرُ سيفَ الأقحوانْ
لا يغطي الثلجُ هذي المجزرَةْ
أو يردُّ التُّرْجُمانْ؟.

٢

إن هذي الصغيرةْ
طفلةً لا تزالُ، ولكنها
سَنَةً سنةً تعبرُ الأربعيْن.
سنةً سنةً يا مساءَ السِّنينْ.

٣

إنني ألمحُها
في قِناعِ السُّنْبُلِ
وقناعِ البُرْعُمِ الطَّيِّعِ في أدْوَارِهِ
فوقَ هذا المسرحِ المشتعِلِ.
إنني ألمحُهُ
صاعداً، يحملُ من أقدارِهِ
خاتمَ الصَّلصالِ، والبوقَ، وحُمَّى الجَدَلِ.

إنني ألمحُها،
إنني ألمحُهُ:
هيَ في إِعْصَارِها
تَتَهادى، وهْوَ في إِعْصَارِهِ.

٤

من أعلنَ المهرجانْ
وزيَّنَ الجرحَ بأسمائنا؟
لا، لم تزلْ في غمدِ أنقاضِنا
سيوفُ هذا المكانْ.

يا سيِّدَ المهرجانْ
لا تَنْصِبِ الآنَ مراجيحَنا.

٥

أنتَ لم تعترفْ بَعْدُ أنَّ الغريبْ
لم يزلْ راكضاً حولَ ساعاتِهِ
مُجْفَلاً وغريباً.

أنتَ لم تعترفْ.

٦

لا العنبُ البريُّ، لا السُّمْسُمُ
يعرفُ كيفَ انْسَلَّ قلبي إلى
عَرائِهِ، واقتادَهُ البُرْعُمُ.
وكيفَ دارَتْ شَفتي حولَهُ
هاذيةً: باللهِ يا بُرْعُمُ
هل عَبَرَتْ تلك الَّتي مَرَّتْ على بالنا
هل عَبَرَتْ وحْدَها،
أمْ كانَ في موكبها العالَمُ؟

٧

تُراني ارتميتُ عند بابها
أمِ ارْتمى عند خطايَ البيتْ؟
تُرانيَ الْتَفَتُّ نحو بيتها
أمْ أنَّ أرضَ البيتْ
إلْتَفَتَتْ، والتفتَتْ حِجَارُ ذاكَ البيتْ؟

عَلامَ يا كوكبَ ذاكَ البيتْ
تركضُ حولَ بيتي؟
عَلامَ لا تدخلُ؟ هل نسيتْ؟

هيهاتَ يا غيابي
أعرفُ أنَّ بابَها يسكنُ حُلْمَ بابي.

٨
أأنا طفلُها
أمْ طفولتها وهي ترنو إليّ
نائماً قُرْبَها،
وتُغَطِّي بأهدابِها جبهتيْ
وتغطي يَدَيْ؟.

أأنا طفلُها؟.

٩
قيْلَ: هذا قَبْرُهُ.
قيلَ: هذي الشَّاهِدَهْ.
قيلَ: تلكَ الزهراتُ المُجْهَدَهْ.
والعصافيرُ التي حامَتْ على القبرِ قليلاً - عُمْرُهُ.

غيرَ أنَّ العارفيْن،
والأزاهيرَ التي شَيَّعَتِ النَّعْشَ، وأسرابَ السنونو
والغيومَ الصَّاعِدَهْ
هَمْهَمَتْ: لاَ ... كُلُّ قَبْرٍ قَبْرُهُ.

/ حزيران ١٩٧٧ - أيلول ١٩٧٨ /

الكراكي

الفصل الأول / ديلانا وديرام

تَيْتَلٌ على الهضبة،
وسكونٌ يرفع قرنيه عالياً كالتَّيتل.
فلا تقتربَنْ أكثرَ أيها الدليلُ،
ولا تبتعدَنْ أكثرَ،
مكانك هو المكانُ الذي ترى منه الجذورُ الجذورَ،
والأرضُ ميراثَها.

تَيْتَلٌ على الهضبةِ،
وسكونٌ صلدٌ يرفع قرنيه عالياً كالتَّيْتَل.

١

انظُر إليها، إنها جمعُ سِلالِ شقراءَ تحت ومضِ دمكَ يا ديرام. انظرْ إليها كيف تغفو لصقَ ساعدكَ، وأنفاسها تتهاوى شهاباً شهاباً في شسْعِ فحولتكَ النبيلة... أتذْكُرُ يا ديرامُ ساعةَ جئتَها وديعاً تتسرْبَلُ بالسهولِ، خطاكَ خطى نهارٍ، وصخبُكَ صخبُ السُّنبلِ؟ أتذْكُرُ المساءَ الذي ترقرقَ في عينيكَ، المساءَ الأولَ، حيثُ سطوتُما بالقُبَلِ على كنوزِ الكائنِ، وكشفتُما عن مسيلٍ غريبٍ تحت حجرِ الروحِ؟. تمهَّلْ ديرامُ، تمهَّلْ في عبثكَ الساحرِ بأعشاشِ قلبِها - قلبِ ديلانا المعلّقِ كطعنةٍ ملآى بالحياة.

٢

انظري إليهِ، إنهُ سهمٌ أشقرُ تحت ومضِ دمك يا ديلانا. انظري إليهِ يزيِّنُ المساءَ

بصليلِ فحـولتـه، ويَرْقَى إلى صليْلك سُلَّمَ اللهـاث، كَأَنْ كلُّ ترف ترفُهُ، وكـأَنْ أنت كلماتهُ التي يُنْشِدُ بها نشيدَ الرَّجُلِ. فَهَلاَّ سردتِ عليه ما يسردُ الغمامُ على بناته، وهَلاَّ نزلتِ إليه من العذوبة العالية، شاهرةً مرحَ الأعالي، لتغمري سهلَ قلبه بقمحِ النشيدِ؟ هيا ديلانا، إنهُ متَّكيءٌ قربَ يدك ويسردُ الفاكهة.

٣

انْظُرْ إليها، لَكَمْ تداعبُ صدرَكَ بشعاعٍ من الشفاهِ والأناملِ. انظرْ إليها يا ديرامُ تَرَ عشرين قلباً تحت قلبها، وكلّ قلبٍ يهذي فينسجُ في هذيانه عشرين قلباً؛ إنَّها مصبُّ الرَّجلِ المضمَّخِ بهديرِ الجذور؛ إنها مصبٌّ من الساعاتِ والجَدَل؛ مصبٌّ أخيرٌ لكلِّ بسالةٍ أو خوف. فلا تَقْتَرِبَنْ أكثرَ يا ديرام، ولا تَبْتَعِدَنْ أكثر. مكانُكَ هو المكانُ الذي ترى منه العذوبةُ ذاتَها نائمةً في سلالٍ شقراءَ ودمٍ أشقر.

٤

انهضي قليلاً ديلانا، وأَحْكِمي حصارَكِ الطريَّ، فَلأَنْتِ الغابةُ التي تزدهرُ فيها سلالاتُهُ، وتمتزجُ الأحشاءُ بالطيور. وَلأَنْتِ صليلُهُ بين الصليل، ومديحُهُ الذي يرى فيه كلُّ مَلِكٍ مِلْكَهُ، وكلُّ شريدٍ درباً إلى المُلْك. فإذا انحنى عليكِ ارفعي إلى فمه إناءَ الأنثى، وإلى صدرهِ المرتعشِ درعَ صدركِ المضرَّجَ بالغماماتِ والعصور.

٥

انهضْ قليلاً يا ديرام، انهضْ واقفاً لترى من أعالي المرحِ سفحَ الأنثى المُنْبسطَ بين وميضِ الأقنعةِ والأغاني، فَلأَنْتَ سيفُ ينابيعها، تضربُ بكَ الصباحاتِ فتنشقُّ عن الحنينِ والأيائل. وَلأَنْتَ أنفاسُها بين الأنفاس، ومديحُها الذي يغمسُ فيه الهواءُ نبالَ آلهتهِ الشريدة. فإذا انحنتْ عليكَ ارفعْ إلى فمها فَمكَ المرصَّعَ بنشيدِ الرَّجُلِ، وإلى صدرِها المرتعشِ درعَ صدركِ المرصَّعَ بالمياهِ والمدائح.

٦

انظري إليه ديلانا، انظري كيفَ يضمُّ يديه على الصواعقِ وينثرُ على سريرك الرياحَ. انظري كيف يتدلَّى من لهاثكِ كثمرٍ، وينصبُ الفخاخَ للنبات، كأنَّما يُباهي

بكِ سيوف المياه. انظري كيفَ يحيطُ بالمياه كاليابسة، ليحصُرَ نبضَ قلبك الطالعَ من المياهِ زبداً ومراكبَ... لكنْ، حين يفتحُ شبَاكَهُ، آخرَ النهارِ، فتتطايرُ من الشبّاكِ الكواكبُ والكراكيُّ، دعيه غافياً في نبوءاته، دعيه ديلانا، فهو لا يُمْسِكُ من الأرض إلاّ قبضةً من الآجُرِ، ولا يرى إلاّ جناحَ ثديكِ فارداً على الأرضِ ظلَّ المساءِ والذكورة.

٧

انظُرْ إليها يا ديرام، انظرْ كيفَ تجمع أمامَ قلبكَ أسرابَ الإوزِّ، وتغزلُ الغيومَ. انظرْ إليها تتهادى قطيعاً قطيعاً من آخرِ السفوحِ، يدُها في يدِ الأفقِ الراعي، وثوبُها ينحسرُ - حين تعبرُ الجداولَ قفزاً - عن جذورٍ لا تلمسُ الأرضَ، بل تلمسُ المديحَ الذي تتغطّى به الجذورُ كلُّها. فإذا رأيتَ أن تأخذَ يدها في يديكَ فخُذِ الأفقَ أيضاً، وإذا رأيتَ أن تضمَّها فَلْتَضُمَّكَ الجذورُ ليرشُقَ الثمرُ بأنفاسِك الثَّمرَ، أو لتهرعَ إليك الأرضُ مُمْتَشِقَةً سَيلَها العَرِمَ من اللَّبنِ والأشكال.

٨

أيقظيه ديلانا، أيقظيه من سُباته الموشّى بعذوبةِ ألفِ قلبٍ سكرانَ، وأيقظي معه الصباحَ ليمضيا إليكِ معاً، مُعَفَّرَيْن بالشهوة وبالغضارِ والمرحِ، فهو الأخيرُ الذي سترينَهُ هاذياً ينفخُ في أبواقٍ هاذيةٍ، ويملأُ، كالنَّادل، بالبطولة كؤوسَ الغرقى، واقفاً في المهبِّ ذاته، في المهبِّ العريقِ للجذورِ واغتباطِ الوحشيِّ بالوحشيِّ. وهو الأخيرُ الذي سترينه مُقْبلاً إليكِ كإشارةٍ أطلقتْها العاصفةُ قبل أن ترتدي خوذتَها الدمويَّةَ، وتَشُدَّ ملاءَةَ المائدةِ فتنثُر الأواني على رخامِ الأرواحِ. أيقظيه، أيقظيه ديلانا.

٩

أيقظْها يا ديرام، أيقظْ فراشةَ الغيبِ ويُعْسُوْبَهُ الذهبيَّ... أيقظْ ديلانا، وأيقظْ معها البيتَ حجراً حجراً، ثم أيقظِ الساحةَ المحيطةَ بالبيت، وأيْقظ السياجَ. وإذ تنتهي من ذلك كُلِّه أيقظِ الصباحَ النائمَ قربَ السياجِ، وقُلْ تعالي ديلانا، تعالي لنشهدَ السطوعَ الحيرانَ للأرض وهي تَذْرُفُ الحديدَ والبهاءَ على درعنا الآدميِّ، ولنكْشفْ، بعد ذلك، ثدييْنا لنصلِ الحقولِ، مرتجفيْن من عذوبةِ النَّصلِ إذْ يغوصُ إلى حيث يجري السمسمُ والزعفرانُ، كأنَّما نحاولُ، معاً، أن نكونَ الجراحَ التي لا جراحَ

بعدَها ...

هيا أيقظْها يا ديرام.

١٠

أيقظيهِ ديلانا، أيقظي الفتى الذي يتململُ تحت الشُّعاعِ المنسابِ على صدرهِ العاري. أيقظيهِ وأيقظي النهارَ والأرغفةَ، ثم املأي دلوَك - الدلوَ الذي تسقيْنَ به حيواناتِ الصباحِ التي لا تُرى - املئيهِ شَرانقَ قَزٍّ وتوتاً مما يتساقطُ من المدائحِ، لتخيطي بالحريرِ والتوتِ هذه العذوبةَ المُسْدلةَ حول ديرامَ. أيقظيهِ، أيقظيهِ ديلانا.

١١

أيقظْها يا ديرام، وأيقظِ الحلمَ من حلمهِ تحت أهدابها، ثم الْقِ على ديلانا حصاةً من الوقت لتموجَ كسطحِ النبع، وتَتَّسعَ دائرةً دائرةً، كلُّ دائرةٍ عربةٌ، وفي العرباتِ البقولُ والطرقُ. هيا بالله عليكَ، فها هو رسولُ الأوديةِ يقطفُ لكما عناقيدَ الضبابِ، وينثرُ على سياجِ البيتِ طفولةَ الخُزامى. أيقظْها، أيقظْها يا ديرام.

١٢

أيقظيه ديلانا، أيقظي قناعَ الملهاةِ - هذا الفتى المطوَّقَ بمناجلِ الآلهةِ. أيقظيه لئلاً يفوتكُما ندى الصباحِ العجولُ وغواياتُهُ المضحكةُ، فلربَّما عرفتُما أن للندى صهيلاً في العشبِ، وأبواقاً تُؤْذِنُ بالهرطقةِ المَرِحَةِ للترابِ المَرِحِ.
أيقظيهِ، أيقظيهِ ديلانا.

١٣

أيقظْها يا ديرام، أيقظْ هذا البذخَ السماويَّ - ديلانا، وانثرْ عليها حَبَباً من الضُّحى وأشيائهِ الباذخةِ. فإذا ترامتْ أمامكَ يَقْظى اسْتَطْلِعْها كما يستطلعُ النّباتُ النّباتَ. واجلسا معاً تستظلُّكما القُبَلُ، وتُغوي بكُما الأغاني الأغاني. أيقظْها، أيقظْها يا ديرام.

١٤

أيقظيهِ ديلانا ، أيقظي الشُعاعَ الآدميَّ - ديرام إذْ يَتَحَدَّرُ سكرانَ من بهاءِ الذَّكَرِ، ولا تجعلي حِجَاباً عليهِ يديْكِ أو اللُّهاثَ. مديداً فليكُنْ، واضحاً مَشُوْفَاً تتراءى في شفَافَته العناقيدُ والبراعمُ، فتملكيْنَ كُلَّهُ، وكلَّ ما يتراءى فيه، معاً . وتملكيْنَ أن تكوني المَخْدَعَ الآدميَّ للنباتِ وأحلافِهِ من غمامٍ وأجنحةٍ. أيقظيهِ، أيقظيهِ ديلانا .

١٥

أيقظْها يا ديرام، أيقظِ الدمَ الحيَّ وأشكالَهُ الصديقةَ، وتكلَّلْ ليقظةِ ديلانا بنفيرٍ رقيقٍ، فهي يقظةُ عرشٍ تَتَدَانى في سُلطانه الينابيعُ وتستحمُّ الجداولُ. وهي قوسُكَ ترمي بهِ - حين ترمي - ذاتَكَ كُلَّها في نشيدٍ أخيرٍ. أيقظْها ، أيقظْها يا ديرام.

١٦

أيقظيهِ ديلانا ، أيقظي التَّرَفَ وأشكالَهُ الصديقةَ، واشْهديهِ إذ تتفتَّحُ أهدابهُ عن طيورٍ، فهو يقظةٌ ليسَ يشهدُها إلاَّ صباحٌ ممسكٌ بصليلِ المياه، وهو قوسُكِ ترميْنَ بهِ - حين ترميْنَ - رَحِمَكِ كلَّهُ في نشيدٍ أخيرٍ. أيقظيهِ، أيقظيهِ ديلانا .

١٧

أيقظها يا ديرام، أيقظْ غُدَّافَ الزبدِ ديلانا ، وانشرْ قلوعَكَ حين تتملْمَلُ من دغدغاتِ دمِكَ الصباحيِّ، فأنتَ مُقْبِلٌ على دمِها بسحابٍ عُريانَ. أيقظْها ، أيقظْها يا ديرام.

أيقظيه...
أيقظْها ...
لم أشَأْ أن أوقظَ الأرضَ في ذلك الصباح.
لم تَشَأْ أن تُوقظني الأرضُ.

كلُّ شيءٍ يمضي حين تكتملُ الإشاراتُ، والذي يتشبَّثُ بالأنينِ يمضي معهُ الأنينُ:

هكذا مضيا ـ ديلانا وديرام ـ فلم أشأ، ذلكَ الصباحَ، أن أوقظَ الأرضَ، ولم تشأ أن تُوقظَني.

كانا ملءَ بصري، فتى وامرأةً، وكنتُ دليلَهما الأبكمَ، أفتحُ لسهمهما ممراتٍ من الندى، وإذ يشردانِ بين صنوجِ البراعمِ أجعلُ البراعمَ احتفالَ الشاردِ بالشاردِ. بيدَ أن الجهاتِ التي ضلَّلْتُها عنهما ـ ليهدرا معاً ما يشاءان من فتوحٍ ـ سوَّرَتْهُمَا بالخطى والفضولِ، فإذا المكانُ دَرَجٌ بين أدراجٍ عاليةٍ يصعدُ الحجرُ عليها الحجرَ، والقناعُ القناعَ، وإذا ديلانا وديرامُ مثخنانِ تتداعى خلفَ درعيْهِما بروجٌ من عسلٍ، وترتطمُ بأهدابهما السُّمُنُ والغرانقُ.

لا، لم أشأ أن أوقظَ الأرضَ في ذلك الصباح،
ولم تشأ أن توقظني الأرضُ.

لكنني، كدليلٍ لم يَقُدْ عاشقيْنِ إلاَّ إلى وميضٍ مُرٍّ، قلتُ أروي الذي جرى، وقلتُ أبدأُ الفاجعَ عَلَّ لي مَسْرباً إلى العذبِ، فها تروي معي ـ حينَ أروي ـ جذورٌ شَتَّى من بُصَيْلٍ وليفٍ ودمٍ أشقرَ، تَضامَّتْ، معاً، جدائلَ في مهبِّ المديحِ.
قلتُ أبدأُ من حيث طوَّقَ الغبارُ سِلالَ ديلانا وديرام، وكانا راجعيْنِ من حصادِ الكمأ، يعلو ذؤابتيهما نثارٌ من طَلْعِ البقولِ، كأنِ استحمَّا بالأزاهيرِ فأودعتْهما الأزاهيرُ براكينَ لهوِها، وكأنْ نَسِيا قُبَلاً في العشبِ فهرولَ العشبُ إليهما بالذي نَسِيا.

كانا راجعيْنِ، وكانتِ الأرضُ راجعةً من حصادها النهاريِّ بألفِ سنبلةٍ، وألفِ لهبٍ، وألفِ اقتحامٍ تركَ الباسلونَ فيها أقدارَهم يَقْظى تحت موجةٍ لا تُرى، وألفِ درعٍ مشقوقٍ، وألفِ صاعقةٍ مبتلَّةٍ بالقُبَلِ، وعشرين رجلاً رموا ديلانا وديرامَ بسهمٍ من الرمادِ فانحنيا للسكونِ الذي يبعثرُ في طريقهِ الينابيعَ، ويعصفُ بالقُرنفلِ.

هكذا مضيَا : فتى وامرأة.

وأنا، كدليلٍ لم يَقُدْ عاشقيْن إلاّ إلى باطلٍ عذبٍ، كنتُ عارفاً أنّ ما يجعلُ القلبَ وريثَ المصبَّاتِ يُهرقُ القلبَ كَسرٌ يذرفُهُ الهاذي. لكنني مضيتُ بهما - ملتفَّيْن ببروقٍ تتفتَّحُ عن هالاتِ المُرِّ - صوبَ بهاءٍ لم يرثْهُ أحدٌ، وهناك قلتُ انشرا القلوعَ كطالعٍ تَستشرفُ فيه اليابسةُ قرعَ المياهِ على درعِ المياه، فأنتما، كعاشقَيْن، نَذْرُ الأَبهةِ للأَبهيِّ. ورأيتُ أن أستطلعَ الطَّالعَ، كدليلٍ لم يَقُدْ عاشقَيْن إلاّ إلى رثاءِ جَسُورٍ، فلمحتُ ديرام يروي لديلانا ضحىً لا يُروى، ضُحىً تخاطفتْهُ القرونُ ففي كلِّ حافةٍ منه ضربةُ قلبٍ أو فأسٍ من فؤوس الحنين. ورأيتُ ديرامَ جاثياً يهتفُ بالخيولِ الخفيَّة: انهضي؛ ويستصرخُ المدائحَ فتلتقطُ المدائحُ رُشَيْمَ العويلِ من يديه بمناقيرها.

بالله، بالله لا تَدعُوْني، بعد هذا، أسرد الأرضَ جهةً جهةً، والسماءَ برقاً برقاً، فأنا استطالةُ الحكاية، إنْ رَويتُ رويتُ قلبي طالعاً في العاصفة بقبَّراتِ النحاس. لا، لا تَدعُوْني، بعد هذا، أروي الموتَ بالموت، وأطأ العذوبةَ بفراغٍ كحافرِ البغل، بل انظروا، أنتُم الجالسون على سُوْرِ المغيبِ، تَروا عشرينَ رجلاً يُغطُّوْنَ ديرامَ وديلانا بعباءاتهم، قبل أن يسيلَ خيطٌ واحدٌ من الدم، مُتَعَرِّجاً، بين الحصى والقشِّ، ويغيبَ في آخرِ العراءِ.

هكذا مَضَيَا: فتى وامرأة

هكذا مضيا. لم يقلْ أحدٌ شيئاً، ولم تنبسْ شفةٌ بالكلامِ الذي ضَرَّجَ شجرةَ المدائح.

(في الزوبعةِ الأخيرةِ التي ختمتِ المدنَ بختْمِ الجاهلِ، غطَّى الشيوخُ أرواحَهم بصنوجٍ من طينٍ، وارتدوا زَرَدَ الدمِ فبقوا بعدما جَرَّدَتِ الزوبعةُ الأشياءَ من صباها. بقوا واقفيْنَ، كقرنٍ على جمجمةِ ثورٍ ميت، حيثُ تهدَّلَتْ من حولهم غصونٌ بيضاءُ ومناراتٌ بيضاءُ. ولأنَّهم إرثٌ أخيرٌ، وربابنةٌ من زبدٍ يديرونَ دفَّةً لا تُرى، أسْلَموا ديلانا وديرامَ إلى عشرين قبضةً ذَيَّلَتْ صحائفَ اللهبِ العذبِ بختْمِ الجاهل.)

هكذا مضيا، في الزوبعةِ الأخيرةِ التي افْتَتَحَ الجاهلون مجدَهم بها، وأنا استعيدُ ذَا المَضَى لا ليُروَى، بلْ لأدفعَ عني هذا المديحَ الذي امتدحتْني بهِ الأرضُ كدليلٍ لعاشقَيْنِ

أفْرَطْتُ في نهبِ قلبيهما بسيوفٍ من عسل. وأسردُ ما أسردُ لا ليُرْوَى، بل لأرجعَ الى المكانِ الجاهلِ، حيث يجلس الجاهلونَ، تحت الأعمدةِ، شيوخاً تساوَتْ أمامهم سطورُ الأفقِ بسطورِ الرمادِ.

آهِ ديرامُ، كنتَ فتى هارباً من السهول مُلْتَفّاً بصواعقِ السهول.

آهِ ديلانا، كنت امرأةً هاربةً من بَعْلها إلى خيارٍ لا خيارَ لصبًا هاربٍ فيه.

فتى وامرأةٌ أبْرَمَا معاً عقدَ طعنةٍ واحدة، فأضْرَمَا هذيانَ المكانِ الجاهل.

إيهِ يا المكانُ الجاهلُ، يا رقعةَ العقدِ المُبْرَمِ بسلطانِ القويِّ وحكمةِ الموتى؛ يا أنينَ الهزائمِ كلِّها آنَ تُخْفَى الهزائمُ بالمراثي، وتُعلَنُ بالمراثي، كيفَ أتبعُ البدايةَ؟ كيف أتبعُ امرأةً وفتىً في المكانِ، وكانا شاردَيْنِ عنهُ إلى ضُحىً لا يطلعُ على الأشكالِ، بلْ على القُبَلِ؛ ضحىً خفيفٍ كسوطِ الحوذيِّ، يهيبُ بصقورِ العذوبةِ فتنقضُّ، وبالجذورِ فتعدو إلى الجنونِ العظيم؟. لا، لم يكنْ مكانٌ، ولم تكنْ ترى الكراكيُّ، بَعْدُ، مهازلَ البنائيْنَ من الأعالي. كانَ أفقٌ إذاً، وهوىً يتدلى بعناقيدهِ من عرائشٍ خفيَّة. وكانا راكضيْنِ، فتى وامرأة، يحملُ أحدهما إلى الآخرِ عرشَهُ، وقِرْبَةَ الماءِ، والأرغفةَ التي رَقَّقَتْهَا أناملُ العناصر.

هكذا التقيا.

هكذا أطعمَ الفمُ الفمَ زبيبَ الهذيانِ، وأهدى القلبُ إلى القلبِ ممرَّاتٍ من الريشِ مسقوفةً بالخواتم.

إنها الأرضُ الآنَ (هكذا أروي). إنَّها المصباتُ وطُعْمُ الكائنِ لِقَنْصِ الكائنِ: كلُّ شيءٍ في سيرةٍ ذاهلة، والفاكهةُ تحلجُ من ذهولِ الجذورِ أوَّلَ صليل، وأنا دليلُ ديلانا وديرامَ، دليلٌ يخيْطُ الجهاتِ بالمرحِ، ويُلقي بمفاتيحهِ إلى الغمامِ الأسيرِ، فلا يريانِ إلاَّ قلبيهما مُحْكَمَيْنِ كالقيدِ على العذوبةِ، ولا يشهدانِ، أنّا التفَتا، غيرَ العاشقِ يَتَقَرَّى بلهاثِهِ ختمَ العاشق.

(أتذكرُ خَتْمَك ديرامُ؟ أتذكرُ الختمَ ذا المقبضِ الصلصاليِّ؟ أتذكرني مائساً من حولك في الهواءِ المتدحرجِ كالنَّرْدِ وقد بسطتُ عليكَ سلطانَ الماءِ ودغدغةَ

الحقولِ؟ آه كم كنتَ صغيراً حين رفعتَ يديك، أوّلَ مرة، ملؤهما البيادرُ والوشاشاتُ. آه، كم تقاربتْ خلفَ ظلّكَ الصغيرِ جيوشٌ حنونةٌ وَعَسْكَرَ الأقحوانُ. وكنتَ تنثُر، آنذاك، قطَانَكَ للقرى لتتبعكَ، كَمَنْ ينثرُ للزرازيرِ فُتَاتَ الخبزِ قربَ فخاخه. لكنها اتَّكَأتْ على خوذةِ القادميْنَ من غيبِ زيَّنَتْهُ المدينةُ بثرياتِ الكتابةِ، وبقيتَ أنتَ، شارداً شرودَ يقظةٍ وسطَ ظلامٍ هازلٍ.

أديرامُ لا تنتفضْ حين تسمعُ صليلَ الينابيعِ الراكضةِ بسلاسلِها، وقرعَ السنابلِ على فحولةِ العراءِ، فأنتَ تَغْشَى، الآنَ، بهزائمك بطولةَ المدينةِ، وتغمدُ الخنجرَ الأخيرَ، خنجرَ النباتِ والنَّهبِ. أديرامُ لا خَتْمَ إلاَّ ختمكَ يَسْعَى به المصبُّ إلى المصبِّ، ارْمِهِ ارْمِهِ، ولْتَضعِ الجداولُ).

هكذا أروي، هكذا يطعمُ الفمُ الفمَ زبيبَ الهذيانِ. أيقول لي أحدٌ، بعد هذا، تمهَّلْ أيها الدليلُ؟

لا، سأروي المَدَّخَرَ من عوالمٍ، وأفتحُ القربَ على مداها، وليكوننَّ حديثي حديثَ نيزك، وإشاراتي نزهة موجٍ جميلٍ، فلا يرى ديرامُ وديلانا غيرَ قلبيْهما - حين أروي - مُحْكَمَيْنِ على العذوبةِ، ولا يشهدانِ، أنَّا الْتَفَتَا، غيرَ الدمِ يتقرَّى بلهاثهِ ختمَ الدم.

(أتذكرينَ خَتْمَك ديلانا؟ أتذكريْنَ خَتْمَكِ ذا المقبضِ الشَّفَقيِّ؟ أتذكرين رفيفَ يدي وقد أمسكتا برسائلِ البراعمِ، وكانتْ يداكِ تسفحان لي، على مَهَلٍ، أحابيلَ الثمرِ؟. أتذكرين، كنتُ الدليلَ الحزينَ للفرحِ، أتعجَّلُ أن ينحدرَ ديرامُ من أقاصي الهضباتِ، ويأتي ليُقْفلَ بابَ البحرِ برتاجِ البراري.

كنتِ في الأربعين، كنتِ ملآى بالذي يُبيْحُ الحربَ ويجعلُ الخيانةَ لهوَ طفلٍ. وكنتِ مُهْمَلَةً أيضاً، مَحْضَ امرأة، ككُلِّ امرأةٍ أعطتْ لبعلها ما لبعلها؛ وأخفتْ بعضَ قناديلها، ككُلِّ امرأةٍ، قرابينَ للموحشِ الظمآنِ إلى يدٍ تُهرقُ الإباحةَ، وتمزجُ الهينماتِ بالخلاخيلِ.

وقتذا جاءَ ديرامُ، وقتَ فرغْتِ من نسجٍ ما للبعلِ، وتشاغلتِ عن نفيرِ الأنثى بنفيرِ السلطانِ الذي يُملِّكُ الكائنَ مشاغلَ الكائنِ، فيمضيانِ ضريريْنِ إلى المهرجانِ.

وقتذا جاءَ ديرامُ، وقتَ لم يكن لكِ سرٌّ أو غضبٌ، فرفعَ إليكِ، في آنيةِ

نهبه، سرِّك والغضبَ. آه ديلانا، ليس بمبارَك من لا سرَّ لَهُ، من لا يُغْلِقُ على فلْذَة منه بابَها فيستَمْلِكُ، وهو المملوكُ أبداً، بشاغلٍ أن يُرى يقظانَ أمامَ خيمةِ القويّ.

وصارَ لك سرُّك ديلانا، صارَ لك ما تقفلينَ عليه بقفلِ الأناشيد، وتفتحينَهُ فتعبثِينَ عبثاً حلواً بالأناشيد، فلا تنتفضي حين تدخلُ السنابلُ عليكِ الآنَ، في ملاءات من الشهوة، ساحبةً خلفها ظلَّ سيفٍ من سيوفِ الغبارِ المحارب، فهي تجهدُ أنَّ ترى خَتْمَك الذي تسعى به المصباتُ إلى المصبَّاتِ. ارْمي خَتْمَك، ارْمَيْه ارْمَيْه، ولْتَضعِ الجداولُ.)

على رسْلكَ أيها النبعُ،
على رسْلكَ أيها الهباءُ.
على رسلك أيتها الصواري،
على رسْلكِ أيتها الأرخبيلاتُ، فهذا قَوَامُ نشيدي.

بَيْدَ أنني، كدليلٍ، لن أبْرِمَ النشيدَ بمطالعَ مُرْسَلَة كَتيْلَة القُطنِ، بل سأدعو الشهودَ نباتاً نباتاً، وسنعتصرُ، معاً، لهاثَنا في نسغِ الورقةِ الوحيدةِ العاليةِ، ورقةِ الملهاةِ التي بسطتْ ظلَّها على قُبْلَةِ العاشقَيْنِ، حين أسدلتْ عشرون يداً ستارَ الكهولةِ على الضُّحى.

○ ديلانا، زوجة الكتابة، وأم ابنتين، يعنُّ لها أن تذكر بين الحين والحين هروبها من المدينة الى المدينة. وإذا جلست لترفو ما تمزق من ثياب ابنتيها، في الظهيرة، ترفو الحاضر أيضاً بعينين دامعتين.

○ ديرام، فتى الهضبة، يعنُّ له أن يجلس قُبال ديلانا، ناسياً أنه الغريب. فإذا نظرت إليه بعينين دامعتين أرخى قناعه الصارمَ، وأجهشَ بالرعدِ.

كلاهما طفلٌ. فتى وامرأةٌ طفلانِ، وأنا الدليلُ الأبكمُ أقودُهما عبر شجرِ الدرَّاقِ ومناقيرِ الغماماتِ السَّكْرَى.

باللهِ يتُها الغماماتُ السَّكْرَى، يتُها الغماماتُ السابحةُ في نبعٍ من العظامِ وقرونِ التَّياتلِ، انهضي ثَكْلَى في قناعِ كلبٍ، واكسري تاجكِ الشَّفيفَ. وأنتنَّ يا شجراتِ الدراقِ ألاَ لا يَسْتَظِلَّكُنَّ شبحٌ أو شريدٌ. أما أنا، ذاكُمُ الدليلُ الذي سَلَّ الهَرْجَ كمديةٍ، وشقَّ الأغاني، فحسبي أنني جالسٌ هنا، قربَ ثورٍ ترتطمُ بعينيهِ الزِّيزانُ، ويُفَلِّي جِلْدَهُ القُرَّادُ الطائشُ، وكلانا ينظرُ - إذ ينظرُ - إلى سَرْوَةِ البحرِ آنَ تميلُ بأعشاشِها.

مرحى ديرامُ
مرحى ديلانا:
لم أكنْ كما ينبغي أن يكونَ الدليلُ. لم أتطلَّعْ قَطٌّ إلاَّ إليكما، غيرَ آبهٍ بالقِيَافةِ التي تجعلُ الأثرَ رنينَ صنجٍ يَفْتَتِحُ الموتَ.

مرحى أيها الفتى
مرحى يتُها المرأةُ:

لم أكنْ كما ينبغي أن يكونَ الدليلُ. كنتُ سارحاً بين أهدابكما، أرى ما تريانِ؛ وأمتدحُ، مثلكما، بهاءَ الملوكِ الذين أطلقوا المُدُنَ ككلابٍ سلوقيَّةٍ، وخرجوا يبحثونَ عن شعوبهم. وأمتدحُ الطيورَ أيضاً، والمشاعاتِ والمياهَ، وأحفرُ روحي بمعولٍ نَديٍّ لألمسَ في فجواتهِ الخيامَ والأسلحةَ.

دعني ديرامُ، سألقي عليكَ عباءَةَ الأميرِ.
دعيني ديلانا، سألقي عليكِ عباءَةَ الأميرةِ.
وسأجثو
مانحاً لضربةِ النهرِ الكاهنِ صدري كُلَّهُ، عَلَّ يهتدي بالدَّوِيِّ دليلٌ غيري فَلا يَمْتَحِنَ الكتابةَ بعاشقيْنِ يختتمانِ النشيدَ بالغضب.

إيهِ أيها الغضبُ، أمَا كانَ إلاَّ أنْ أقودَ فتى هارباً، وامرأةً هاربة؟

(حين جاء ديرامُ بأشيائه الصغيرة إلى المدينة، كان عابقاً بلهاث اليقطين، وفي جيبه بقايا ذُرةٍ. لم يُكَلِّمْ أحداً. نظرَ في ورقةٍ وتتبَّعَ الإشاراتِ إلى بيتِ صاحبهِ الأرمنيِّ.)

إيْهِ أيها الغضبُ...

(كانَ لا بُدَّ من يقظة. كان لا بُدَّ من شراعٍ حجرٍ. وصاحبُ ديرامَ صديقُ صبا. يعرفُ أن يستيقظَ مع الحجرِ ويقودَ اليقظةَ. وقد روى لديرامَ عن نساءِ المدينةِ، عن رياحِ المدينة، وعن رطوبةٍ تُبَلِّلُ الكلامَ والنومَ. وياما امْتَقَعا وهما ينظرانِ إلى العارياتِ يتدفَّأنَ قربَ لهبِ البحرِ.)

إيْهِ أيها الغضبُ...

(مدوَّرَةً كانتِ المدينةُ، مدوَّرَةً مثل إلْيَةِ الكبشِ. وكان ديرامُ يحتفي بأعوامهِ العشرين، صامتاً كصاحبه الأرمنيِّ الصامت. غير أنَّ الخبطةَ المائةَ للحقولِ على بابه أيقظتِ العتَّالِيْنَ الغرباءَ، الذين يجاورون مَسْكنهُ جَمْعاً جَمْعاً في الغُرَفِ، فأوقدوا لأعوامهِ بَسَالةَ الغريبِ، وغنَّوا للهذيانِ.)

إيْهِ أيها الغضبُ...

(يقول ديرامُ: أيُّ فضاءٍ هذا، أيُّ صفيحٍ يغطِّي اليقظةَ؟
ويقول الأرمنيُّ: دَعْكَ من الأقفال فأنتَ ابنُ المدائحِ.
يقول ديرام: أيُّ غزوٍ للحجرِ هذا، أيُّ نهبٍ بسيوفِ العويلِ؟
ويقول الأرمنيُّ: دَعْكَ من حصاد الحديد.
يقول ديرامُ: أيُّ خوذةٍ هذه، أيُّ سروةٍ تتدلَّى منها خصْيَتا سلْوَرٍ؟
ويقول الأرمنيُّ: دَعْكَ من الأغاني، فهي لا تهبُّ على شراعكَ أنتَ.
يقول ديرامُ: أيُّ مصبٍّ للفجاءاتِ هذا، أيُّ مَلِكٍ مقنَّعٍ بقناعِ المهرِّجِ؟
ويقول الأرمنيُّ: دَعْكَ من مشاغلِ البُكورةِ، فقد أشرفَ المغيبُ على

سُلطانه.)

إيْهِ أيها الغضبُ، كنتُ جاثياً أمنحُ النهرَ الكاهنَ زَرَدي، وأحُوْكُ العطشَ للجداولِ، لكنني إمَّا التفتُّ رأيتُ ديرامَ فتىً يهدمُ المدينةَ ويبني المدينةَ.

(ببأسٍ كبأسِ الخُلْدِ بدأ ديرامُ، وبأجرٍ كأجرِ فتى. كان يرفعُ الكتبَ من المخابىءِ إلى ذاكرةِ الموتى، ويحزمُ لباعةِ الكتابةِ الجَدَلَ والرمالَ. ثم يرجعُ آخر النهار ليجلس على سطح المبنى، مرتشفاً مع الشاي المسائيِّ رائحةَ أنثى لم تطلعْ من الصلصال بَعْدُ. غير أنه التقى ديلانا، بعد مئَيْنِ من شموسٍ تتالتْ على فراغٍ مُترفٍ بصخبِ الحديدِ، فبكى.)

إيْهِ أيها الغضبُ...

(كانتْ ديلانا تنتظرُ أيضاً، بعدَ أربعيْنَ دورةً من دوراتِ السنابلِ. وكانتْ تسعى إلى أن تجعلَ من ابنتيها سبباً ما لرضوخِ الدمِ للدمِ.

وديلانا مائدةٌ. وديلانا نَسَّاجَةٌ من نَسَّاجاتِ المدينةِ، غزلتْ، ذاتَ يومٍ، على مِغْزَلِ الماءِ أقدارَها، وهي مُذْ ذاك حَيرى بين أن تأسرَ السنونو أو تطلقَ السنونو، لكنها استغفلت القاعدةَ وحَيْرَةَ القاعدةِ، فشقَّتِ المدينةَ بعَمَدٍ ترفعُ السُّهوبَ كَظِلٍّ فوق الأرواحِ.)

إيْهِ أيها الغضبُ...

(حينَ دخلَ ديرامُ بيتَ ديلانا، قالتْ: خلقْتُكَ من شُبُهاتِ الأنهارِ.

قال: وأشياءَ أخرى.

قالت: خلقْتُكَ منِّي.

قال: وأشياءَ أخرى.

قالت: خلقتكَ من النهبِ فانْتَهِبْ.

قال: وأشياءَ أخرى.

قالت: خلقتكَ من مساكبٍ وبقولٍ.

قال: وأشياءَ أخرى.
قالت: خلقتكَ من مطالعِ العويلِ.
قال: وأشياءَ أخرى.
قالت: خلقتكَ من بريقٍ موحشٍ يتلألأُ على مقابضِ البّوابات.
قال: وأشياءَ أخرى.
قالت: خلقتُكَ من ذُهولي.
قال: وأشياءَ أخرى.
قالت: خلقتُكَ من نذورِ الظلامِ الى الظلامِ، ومن بكوريَّةٍ غائصةٍ بنصلها في الجذور.
قال: تعالي إذاً.
فاحْتَضَنَتْهُ وبَكَيا.)

إيْهِ أيها الغضبُ، سأُمْهِلُ الأرضَ حتى تأتي الأرضُ بشفاعةِ الأسلحة، وسأُنذرُ الخفيَّ حتى يكشفَ عن موقدهِ، لأني أستجمعُ الآنَ سيرةَ القُبَلِ وحبريَ الحُبَاحِبُ، مستعيناً بما لا يُرى، بالسُّماني، بإوزٍّ يختزنُ في الحواصلِ كلامَ الضفافِ. ولَيَسْرُدَنَّ معي الشجرُ - حين أسْرُدُ - هذهِ المطالعَ المُدبَّجةَ بريشِ الغرابِ وعُصَافَةِ الشَّعيرِ:

مطلع أول

كانا يركضان معاً حولَ صاريةِ المدينةِ، مُلْتَفِعَيْنِ برسائلِ الشتاءِ، مرحُهما مرحُ النورسِ، ولهاثُهما لهاثُ الغُدَّافِ.
كانت ديلانا تجهدُ أن تمسكَ ببرقهِ الغضِّ، ويجهدُ ديرام أن يمسك بغمامَتِها الغضَّةِ. وحين تعبا، جلسا معاً قرب صارية المدينة، هي تنحسرُ انحسارَ موجةٍ قليلاً، وهو ينحسرُ انحسارَ موجةٍ قليلاً، تاركيْنِ على حبالِ المطرِ قميصَهما الزبديَّ ووشاحَ مملكةٍ لم تكتملْ.

مطلع ثان

كانا قادميْنِ من ناحية الغَرْبِ، من الناحيةِ المتَّصِلَةِ بأنينِ الملوكِ، وبآخرِ التماعٍ للبرق على سنانِ البطولة.

كانا قادميْنِ، وقد خرجا، توّاً، من خلْوَةِ الكائنِ، حيث يتركُ الذَّكَرُ وراءَهُ مجداً أعزلَ، وتتركُ الأنثى وراءَها أقاليمَ عزلاءَ. وحين التقيا المدينةَ نثرا للمدينة حفنةً من الموجِ ومن خيامٍ خضراءَ، وعلَّقَا على سياجها مديحَ المياهِ ووشاحَ مملكةٍ لم تكتمِلْ.

مطلع ثالث

كانا شفيفيْنِ، وكانتْ تُرَى من خلالِ صدريْهما رفوفٌ صغيرةٌ من زُمَّجِ الماءِ؛ ويُرَى الشاطئُ أيضاً، ومراكبُ الموتِ، ونُوتيُّوها الصاخبونَ سُكارى يقبضونَ على البحرِ ويطوونَهُ كالثوبِ، فينفرُ من الأعماقِ تيسٌ يقودُ تيوسَ الباطلِ المرمريَّة.

وماذا يفعلُ ديرامُ، وماذا تفعلُ ديلانا؟ لقد شَفَّفَا كثافةَ الحَيْرَةِ فما رُؤِيَ غيرُ الحَيْرَةِ، وشَفَّفَا الجسدَ فما رُؤِيَ غيرُ الباطل.

كانا شفيفيْنِ، غيرَ أنَّهما أوصدا، الآن، بابَ الهواءِ الشَّفيفِ، وارتديا للكثافةِ الكثافةَ، فها هُما يستعرضانِ جمهراتِ الظلامِ بسُلطانِ مملكةٍ لم تكتمِلْ.

*

إيْه أيها الغضبُ، يا صديقَ الخيولِ، وسَّطْتَني، فكنتُ نفيرَكَ إلى الأبوابِ، أستميلُ الغَضْبانَ وأُغْضِبُ المَرِحَ. وقد شَقَقْتُ المدينةَ، وشَقَقْتُ في المدينة بطانةَ السَّيدِ: نساءَهُ وحوذِيِّيْهِ ورماحَهُ وبغالَهُ؛ وأسرفتُ فشققتُ الوردَ والمياهَ، فكان انبجاسٌ عظيمٌ لصاعقة مَرَّغَتْ شفاهها على خوذةِ المغيبِ. وكوسيْطٍ لكَ أيها الغضبُ، كساحلٍ يُمْلي خصومةَ البحرِ على اليابسة، فتحتُ قِرْبَتي لظمأ المَحاربِ، وهتفتُ: ظَلَّ كما أنتَ، وليظلَّ عليكَ الزَّرَدُ، وفي يدكَ مقبضُ الجذورِ والحديد، فإنْ طعنتَ بالجذورِ فَضَضْتَ عن المدينةِ خَتْمَ الأعمى، وإنْ طَعَنْتَ بالحديد طَعَنْتَ المُهَيْمِنَ الأعمى وحدَهُ، وتركتَ المدينةَ للعاصفِ السَّكْرَانِ. وهتفتُ: ظَلَّ كَما أنتَ، ظَلَّ مُمْعِناً في امْتِثَالِكَ لكاهناتِ البراعمِ الجاثياتِ قربَ كوكبٍ صغيرٍ من ورقِ الهندباءِ، وانفخْ معهنَّ في بوقكَ العالي، كأنَّكَ الوصيُّ على قَنَصٍ يخرجُ الأقوياءُ إليه فيضلُّونَ المسالكَ، وتنتحرُ كلابهم

السُّلوقيَّةُ من ركضها وراءَ ابنِ عُرْسِ الآلهةِ. وابتهجْ، أنتَ النذيرُ اليُخْضُورِيُّ للحمَمِ، بذبولِ البراكينِ والحلباتِ، فهو ميعادُكَ لتنسجَ للبراكينِ مداراتٍ أخرى، وللحلباتِ مواطىءَ لم تكنْ حلباتٍ. وتَقَحَّمِ البهوَ المديدَ، بهوَ العويلِ، فخلفكَ كاهناتُ البراعمِ بمكانسهنَّ يكنسْنَ الأعمدةَ والأباريقَ والأدوارَ التي اهترأتْ تحتَ درعِ المُلَقِّنِ. بالله ظَلَّ كما أنتَ أيها المحاربُ. ظَلَّ باسطاً صليلَكَ على العضلةِ البيضاءِ للثلوجِ، وعلى التَّرَفِ الباردِ لعروشِ الموتى.

إيْهِ أيّها الغضبُ، وسَّطْتَني، فَشَغَلْتُ بكَ كَتَبَةَ الليلِ. غير أني لم يُشْغِلْني غيرُ ريحٍ واحدةٍ، هَبَّتْ قبل أن أُسْلِمَ المدينةَ لطواحينِها؛ ريحِ حنونةٍ أمالَتْ ديرامَ وديلانا كَعُشْبَتَيْنِ فوق سفحٍ تُشْرِفُ منه المصبّاتُ على المصبّاتِ.

(أتدري ديرامُ كم اشتاقتكَ شجراتُ الدَّلْبِ السَّبْعُ؟ الشجراتُ الممسكةُ بفوانيسها قربَ مجرى السيلِ؟ أتدري كم هَرِمَتِ المداخنُ، وتهدَّلَتِ البيوتُ؟ أتدري، لَمَّتِ السهولُ مسافاتِها وانطوتْ كطفلٍ، وبعثَرَ النهرُ أباريقَهُ تحت أقدامِ القرى؟ وأنتَ لما تزلْ حائراً بين أن تقود ديلانا إلى لهبٍ آخرَ، وبين أن ترجعَ إلى عرشِكَ النباتيِّ وندامى العراء.)

... ولماذا أشْتَغِلُ بحنينٍ لم يَدَعْ للحاضرِ مجلساً حولَ مائدةِ الحاضرِ؟ أنا الدليلُ الأبكمُ لانقراضٍ مُزْهِرٍ سأُسوّي النشيدَ عاشقيْنِ، وسأهدمُ العاشقيْنِ، جاعلاً للمطالعِ أذرعاً مائةً، وللخواتيمِ أقداماً مائةً، بعد ذا لن يكونَ لعاشقٍ فرارٌ، ولا لقُبْلَةٍ أن تكتملَ إلاّ بالهذيانِ. فالذي أغمدَ عشرين نصلاً في الأغاني (حيث كان لديرام وديلانا زادٌ يغذّيانِ به الصباحات) سيغمدُها، ثانيةً، في الأغاني، ليبقى هذا الحصارُ الكهلُ مستيقظاً بشيوخِهِ.

بَيْدَ أني سأبقى مستيقظاً، أيضاً، كدليلٍ أخيرٍ يقود النهارَ إلى المراثي. وَعَلاَمَ لا أُباغتُ الحاضرَ هكذا، مستيقظاً كالمراثي؟ عَلاَمَ لا أجمعُ النقائضَ أضاميمَ أضاميمَ تَقْدِمَاتٍ إلى هذا المهرجانِ النحيلِ كالقَصَبَةِ، ذي العُقَدِ كالقَصَبَةِ؟. هاكُمْ أرى الباطلَ السيِّدَ حائماً ومن حوله فراخُهُ الزبديَّةُ، وأرى الشَّهقةَ العاليةَ، والفضاءَ الزاحفَ تحت بطونِ اللَّبونات، فإنْ مَدَدْتُ يديَّ ضَمَمْتُهما، يقيناً، على رعشةٍ أو أنينٍ... للأنينِ إذاً، لابتهالٍ سَرَتْ بهِ الجذورُ إليَّ، سأَهَبُ هذه الطعنةَ هِبَةَ النشوانِ للأبجديةِ

النَّشْوَى، وسأصغي حينها إلى رنينِ الحروفِ الساقطة من مواثيقِ القويِّ، الذي أوثقَ الكائنَ بعقْدٍ لا خيارَ فيه. وسأصغي حينها الى القويِّ أيضاً، يتقرَّى بطولةً لا تُرى.

(ذاكرٌ كيف فاجأتِ الخوذةُ الخوذةَ بعدما انطوتْ صفحتانِ من مدائحِ ديرامَ وديلانا. ذاكرٌ أنهما انتهيا فبدأتِ المدينةُ. ذاكرٌ أن عشرين طعنةً هوتْ، وأن عاشقيْنِ انفضَّا عن مجلسِ الينابيع. ذاكرٌ: لم يُقْتَلْ ديرامُ، ولم تُقْتَلْ ديلانا، بل رجعا، كلٌّ الى مسائه. ذاكرٌ: حطَّمَ ديرامُ جرارَ أنثى خذلتْ قلبَها بعد الحصارِ. ذاكرٌ: أغلقتْ ديلانا على صورةِ الفتى أفقها، وانحنتْ لجرار الكهولةِ بعد الحصارِ. لذا تَجرَّعْتُ آخرَ برقٍ، وتَحَيَّنْتُ الخرابَ.)

أيُّ ذاكرةٍ للبرق؟ مَدٌّ من السطوعِ المُرِّ، مَدٌّ من تعاقباتِ الدمِ والنبيذِ. وأنا الدليلُ مُوْثَقٌ بأثرٍ صاخبٍ في الفراغِ الصاخب. غير أنني أغضُّ قلبي عن مراراتِ الأرضِ الصديقة، وأهمس: «يتُها الأرضُ، يا موكبَ الحصى والحروف، انظري كيف ساويْتِ المحاريثَ باللهوِ. انظري كيف تعبرُ السنابلُ بأسمالها، كسيرةً كدمٍ كسيرٍ. انظري، أما كان لهؤلاءِ الواقفيْنَ تحت ثريّاتِ السَّيد أن يقذفوا السيدَ بأحشاءِ كلب». وإذْ أفيضُ بهباتِ العويلِ أرفعُ قلبي بمراراتِ الأرضِ صوبها، صارخاً: «تُؤخذيْنَ بالمحاريثِ تارةً، وبِمَنْ يُشَرِّدُ المحاريثَ تارةً. آه، لَتَضيْقَنَّ بكِ جهاتُكِ حتى لَيَضيْعَ الهواءُ عن الهواءِ».

فليزدهرْ بالبولِ هذا كُلُّهُ، فَلْيَرِثِ البولُ هذا كُلَّهُ.
ولتكنْ ضربةٌ أشدُّ من الخيانةِ.

لا، بي حنينٌ بَعْدُ إلى زلزلةٍ حلوةٍ ونهبٍ حنونٍ. ودليلاً لم أزلْ، دليلاً أفضى بعاشقيْنِ إلى سَوْرَةٍ من خرابٍ، ولكنني - يقيناً - حين سُقْتُهما بسوطِ الغمامِ وبوصلةِ النَّسغِ كنتُ مُنْبِئاً هذه الأقاليمَ بسلطانِ الروحِ، بسلطانٍ لا سطوةَ فيه غيرُ سطوةِ المَرَحِ. فماذا عليَّ بَعْدُ؟ ماذا أرفع نخبَ سديمٍ صَلْدٍ، وانتصارٍ حزين؟.

هَبْني أيها الماءُ خَتْمَ الماء،

هَبيني يتها القلوعُ سَكْرَةَ القلوعِ.

فأنا الحريْفُ كطعمِ حريْفٍ، نسجتُ توّاً شبَاكي، وهاأنذا أتدافع حقبةً حقبةً بعجولي وماعزي، ممسكاً بلجامِ الهضباتِ، وعربتي الحقولُ. وكَمَنْ يحشدُ الدولَ أحشدُ الكراكيَّ. وكمن يحلجُ الصوفَ أحلج الفلزَ واللّدائنَ، وأنصبُ السلالمَ للبرقِ فيصعدُ إلى شَعْبِهِ الدَّلْبُوْثيِّ.

(وماذا عن ديرامَ أيها الدليلُ؟ ماذا بعدَ عشرين طعنةً مَحَتْ عقْدَ العذوبةِ بين دمهِ ودمِ ديلانا؟.)

هَبْني أيها المديحُ مطالعَ المديحِ،
هَبيني يتها البواشقُ هدأةَ البواشق.

(وماذا عن ديلانا أيها الدليلُ؟ ماذا عن رنينٍ أعادَها رماداً إلى بَعْلِها الرَّمادِ؟.)

هَبْني أيها النشيدُ ما يرفعُ المزاريقَ عالياً، لتطعنَ بها الأيدي المائةُ للسهوبِ فهدَ الكتابة، فقد عييتُ من أن تراني المدينةُ لصقَ درعها، جالساً، تتعرّى في موقدي الغصونُ، وتبعثرُ الطيورُ أعشاشَها اللّهبيَّة. وعييتُ من نداماي يسردونَ الصليلَ ذاتهُ، صليلَ الحدائقِ، وحمحمةَ الجسورِ الهاربةِ، في حين أني أجمع الهادئيْنَ لنهبٍ هادىءٍ، وأتدرَّعُ بالمياه، صائراً من مصبٍّ إلى مصبٍّ، ومن غدٍ محاربٍ إلى غدٍ محاربٍ، لأجعلَ الغضبَ تحيَّةَ العالمِ للعالمِ.

هيا أيها النشيدُ،
هيا
شُدَّني
قليلاً
بأليافكَ الكوكبيَّة،

فمـا أنا إلاَّ دليلٌ سَوَّرَ المسـاءَ الآجـريَّ بحـرابِ الملهـاة، وتَتَبَّعَ الأثرَ الأكـبـرَ، أثرَ البذورِ وهي تشقُّ الجلودَ عن أحناشِها الترابيَّة وتستقبلُ الأبدَ الشريدَ.

(كـشـريـدٍ غَصَّ ديرامُ حين حَدَّثَتْهُ الطرقُ عن أيامهِ الراكضـةِ تحت أقـواسِ الخنشارِ، وعن قلبهِ العاري في مهبِّ المدينة.
بكى، بعد ذلك، قليلاً
وخبَّأ تحت أسمالهِ النباتيةِ مملكةً لم تكتملْ.)

هيا أيها النشيدُ، هيا نقفْ معاً خلفَ قناعٍ أخيرٍ لِنَتَحَيَّنَ الأرضَ حين تعبرُ أقدارَنا بسربٍ من الآلهة. هيا، لأجعلنَّكَ أيها النشيدُ قناعي، ولأمْتدحَنَّ الظلامَ اليقظانَ، ففيه تغزلُ الأحابيلُ خيوطَها الحلوةَ، ويتوسَّدُ المَرحُوْنَ الكلامَ الذي سيقالُ في الحروبِ المَرِحَة.

وكحربٍ مرحةٍ
سأدخلُ
البلاطَ المفتوحَ على الجهاتِ،
وَعَجُوْلاً سأتقدَّمُ الكواكبَ الصغيرةَ ومركباتِ المياه، لأخوضَ بقايا الممالك، حيث تقفلُ الكائناتُ حلمَها بقفلِ الدم، وتركضُ الدِّيكَةُ من ضحى الهزائمِ إلى ضحى الهزائمِ. وكأيٍّ مضى سأمضي، تاركاً للرعب أساورَ وقلاداتٍ يرتديها في الفتوحِ الجميلة.

أنا الرعبُ الحكيمُ،
ولا فجيعةَ بعدي.

لكنني مُسْتَضْعَفٌ بديرامَ، مُسْتَضْعَفٌ بفتىً قادني - أنا الدليل - إلى صاريةٍ ضَلَّلَتْ حولها المياهَ، وأخفتْ عن اليابسة أجراسَها. وكم تعتريني حُمَّى الفاكهةِ فأودُّ لو لقِطَافٍ نَذَرْتُ مُلْكِي، لا لترابٍ يذبلُ بي. وأودُّ لو نسيتُ ديرامَ فأعفيتُ قلبي من سطوةِ الحكاية، فأنا، حين أبقى لسردٍ أبقى طيِّعاً كالكلامِ، فإمَّا نَفَدَ اسْتَمَلْتُ كُلَّ عصيٍّ ليطحنَ بي.

آخِ ديرام،
أَحَطْتَ بي، فحنيني أنتَ، وإذ أحِنُّ لا أستعجلُ الأسلحة.

أأروي بَعْدُ؟
أأروي كيف مساءً عاد ديرامُ عارياً من رائحة ديلانا، ومن شقائقِ أسرارها؟. كلُّ شيءٍ تهدَّلَ آنذاك: البرقُ والعذوبةُ وأسرارُ الصلصال. عادَ واحتمى بي، ضائعاً يلمُّ القرى ويشمُّ الأودية، كأنَّما ضيَّعَ السنابلَ التي سَلَّمَتْهُ مفاتيحها.

أأروي كيف عاد وقد تكوَّمَتْ تحت أنفاسه العُجُوْلُ الخائفةُ، وتقرَّحَ الهواءُ؟ عادَ مُدَّثِراً بمعطفٍ آجُرِّيٍّ، وفي يده بقايا درعٍ. كان عارفاً أن حَرْبَهُ انتهتْ، وأن للعاشقَيْنِ ألاَّ يرجعا، بعد ذلك، إلى غزوٍ يسْبي فيه الآخرُ الآخرَ القُبَلَ، ويأسرُ مدائحَ الجسدِ.

أأروي؟... عاد راكضاً تتهالكُ من حوله شُرُفاتٌ، وتشقُّ الحدائقُ أثوابَها. وكشتلَةِ سمسمٍ طوَّقَ بأوراقه بقايا الظلالِ والشعاعاتِ التي نَسيتْها الشموسُ الأخيرةُ. وحين ابْتَرَدَ قليلاً قرب جراري، صاحَ: «أيها الدليلُ، أُفلتَتِ الصاعقةُ وتبَلْبَلَ المديحُ أيها الدليل».

يا لَديرامَ،
بعد نزهةٍ في العنب، بعد أن مَلَّكَتْهُ الأرغفةُ نصفَ شَذَاها، وتَمَلَّحَ الملحُ بحلمه، طوى القُبَلَ، ثانيةً، كالمنديلِ، وغطَّى المملكةَ التي لم تَكْتَمِلْ، ريثما تُفْسحُ الملوكُ لملوكٍ أُخَرٍ، والأعمدةُ لأعمدةٍ أخرى؛ وريثما يبشِّرُ الحديدُ بأعراسه في المكانِ الذَّاهل.

هكذا سَلَّ ديرامُ أنقاضَه كمدية، وقال: تَبَرَّجْ أيها الحجر.
فبأيِّ شيءٍ أوقفُ الآن انقسامَ العناصرِ؟ وبأيِّ يدٍ أردُّ سلالاتٍ مُجفلةً أيقظتها قرونُ الأيائل؟... آه، كانَ صريرٌ أَوَّلَ الأمرِ، صريرُ بابٍ، ومن البابِ تدافعتِ الأقنعةُ والحدآتُ فغطَّتِ الأرخبيلَ المَلْمُوْمَ قُرْبَ روحِ الكائن.

أكنتُ أهذي؟

لا، كلُّ بابٍ يُفتَحُ الآن يُفْتَحُ على صلصالٍ يَلِدُ، وعلى غضبٍ جالسٍ أمامَ المائدة يُحصي المراثي.

وديرامُ يُحصي المراثي أيضاً. يُحصي نبوءاتِ المهرِّجِ، ويرتجلُ الملحمة.

وديرامُ يعدو كأنَّما انتهتِ الملحمةُ، مستبدلاً قناعَ العاشقِ بالبحرِ، والحنينَ بهرطقةِ العاصفة: هكذا يبدأ نشيدٌ آخرُ،

وتَتَنَحْنَحُ الأرضُ في مجلسِها.

أنا الدليلُ أخبركم هذا، وأخبرُ المياهَ بحديثِ الحديدِ.

يا لديرام،

بعد نزهةٍ بين أباريقِ السهولِ ومكائدِ الوردِ، لم يجد سواي منتظراً، وفي يدي رسنُ خمسينَ نيزكاً من نيازكِ العذوبةِ تضربُ بحوافرِها النَّشيدَ العاري.

فَلْيَشُقَّ جُؤْجُؤُ الغامضِ هذي الموجةَ الجَذْلى، ولْتَعمَّ طِبَاعُ الغبارِ، فأنا الدليلُ لم أزلْ دليلاً،

ولم يزلْ ديرامُ متَّكئاً قُرْبي،

يخلطُ الحكايةَ بالأساطيرِ،

ويُهرقُ الجهات.

ولم يزلِ المكانُ هو المكان: دروعٌ ومدائحٌ، وشَعْبٌ يحتضنُ القناعَ الأكبرَ؛ شَعْبٌ واقفٌ قُرْبَ مرساة الأدوار، حيث تلهثُ الأرضُ، ويطردُ الرَّبَابِنَةُ بقبَّعاتهم ذُبابَ الزَّبَدِ. وللمكانِ نشيجٌ. للمكانِ جلدٌ وَشَقٌ. والذاهلونَ ذاهلونَ من بوقٍ يتدلى فوق لوتسِ الأسلحة.

• هاتِها إذاً،

هاتِها أيها المكانُ،

هاتِ قَطَاتَكَ، فأنا الدليلُ دليلي قطاةُ الصَّرخة.

(يقول ديرام: لا بأسَ يا صاحبي، كلها خطوتان وتضيِّعُ المدينة غزالاتِها

التي دخلت بَهْوَنا. وستنسلُّ ديلانا فتمتلئُ الغرفةُ بجنسٍ آخرَ. ويضيف: كانتْ مَحْضَ امرأةٍ هاربة، توسَّلت الى فتى - بعد عشرين عاماً من استباحات بعلها - أن تعودَ عذراءَ مَنْهُوْرَةً لحصاد جديد، فأغضى حَيرانَ. ويُغْضي ديرامُ فأعرفُ أن ما انتهى انتهى، وأن لقلبه ابتهالاتٍ تُضَمِّخُ النساءَ، كُلَّهنَّ، منْ رَشَاشٍ واحد.)

هاته إذاً،
هاته أيها المكانُ،
هات نَرْدَكَ ولْيَأْتَمِرْ، كلانا، بإمْرَةِ الهاوية.

غير أني، وأنا دليلُ الهاويةِ أيضاً، أفتحُ بوَّابة الضحى لقُضاتي فيدخلون حاملينَ محابرَ الغضبِ وأقلامَ البازلت. وأدخل بعدهم بسربٍ من بقراتِ الملوكِ وقنافذها، لنبدأ المرافعةَ - مرافعةَ القولِ الذي يُفْرِدُ ذيلَهُ كديكٍ روميٍّ، ويلتقطُ بمنقاره عَدَسَ القُرونِ. وإذْ ذاك ندعو شهودنا؛ ندعو الحقولَ وزيزانَ الحقولِ ومزاميرَها الخزفيَّة، قارعينَ خوذاتنا بأعواد السُّمَّاق: هكذا يُتْلَى الحُكْمُ فيجرجِرُ الحُجَّابُ المياهَ من قَرْنَيْها خارجاً، ويغلقون البابَ فَيُغْلِقُ صريرُهُ الحاذقُ سياجَ الأرواح. بعد هذا ينفرُ الجفافُ بطواويسه، رائحاً غادياً وظِلُّهُ ظِلُّ خُنْفُسَاء. بعد هذا يجفُّ الكائنُ حتى لَتَتَكَسَّرَ تحت أليافهِ العوالمُ التي خبأتها الصواعقُ، فينفرُ، بدورهِ، رائحاً غادياً وظِلُّهُ ظِلُّ جُدْجُدٍ. وكلَّما استنجدَ بالآلهةِ أَنْجَدَتْهُ بعظاياتٍ تنفخُ في دمهِ رثاءً حامضاً.

هكذا يُتْلَى الحُكْمُ،

فيغدو الكائنُ ملهاةً حامضةً تحت جلده الحَرْشفيِّ، وتتخبَّطُ في عروقه الظِّربانُ. وأنا الدليلُ أنظرُ في الأمرِ، نشوانَ، كأنَّما أَنْجَزَتْ خطواتي أحابيلَها؛ كأنَّما اقْتَصَصْتُ لديرامَ من رُمَاةِ الجهالَة، وكسرتُ الأقفالَ الصدئةَ العَشْرَةَ لأبوابِ القويِّ: ألاَ فَلْتَجُزَّ البطولةُ قَنْزَعَتَها، وَلْيُغَطِّ اليقطينُ بأوراقه طبولَ الجدال، فالحُكْمُ يُتْلَى، وتُتْلَى على العاصفةِ مواثيقُ المعدنِ... آهِ، نكهةُ العماءِ وحْدَها هي نكهةُ الحروفِ أيها المكان.

(... وديرامُ مسترسلٌ في اعتكافه خارجَ الحُبِّ، خارج المدائحِ التي نسجتْها ديلانا في فورةِ الأنثى، وحيداً كما دخلَ المدينةَ، يقطعُ أيامَهُ بحَدْوَةِ

النهارِ العاديِّ، النهارِ الذي لا فجاءَةَ فيهِ ولا خَرْقَ لميثاقٍ.
ينهضُ مبكراً إلى عمله.
ينهضُ مبكراً إلى تعب مبكرٍ.
ينهضُ مبكراً إلى قناعه فيرتديه،
وإلى لُهاثه فيعلِّقُهُ على صدره كخَرَزَةِ السَّعْدِ ويمضي.)

ولديرامَ أتلو هذا،
ولقلبه الباذخ كشُجيرة الفلفلِ أبْسطُ حكمةَ الدَّليلِ.
وأودُّ لو تنفضُ الجهاتُ كُلُّها مثلما ينفضُّ الساهرونَ عن مجلسٍ. وأودُّ لو يبقى الغبارُ وحده، مُتَّصِلاً حلقاتٍ حلقاتٍ في وسطِ فراغٍ عابثٍ يضلِّلُ الشمسَ عن المغيب، ويمزجُ الكواكبَ بنبيذِ الظلامِ، فلا تغيبُ شمسٌ، ولا يغيبُ ظلامٌ. يبقيان، هكذا، واقفَيْن، درعاً الى درعٍ، وأيديهما على مقابضِ الفؤوسِ. وأودُّ لو يحتكمانِ إليَّ فأُقْصيْهما، فارداً سريري لحدائقِ الفراغِ وسراطينه الحالمة. آه، ليتَ لا يبقى مكانٌ لظلٍّ حين يلتهمُ الهباءُ تفاحاته، ويركض ظبيُ السديمِ الأعمى بين الأشكالِ. ليتَ تختفي الوحشةُ بسلالاتِها، ليتَ... ليتَ...

آهِ أيها الهيوليُّ،
أيها الشريكُ النبيلُ،
انثرْ أرُزَّكَ علينا؛
انثرْ شعيرَكَ وفلْزَكَ، واهبطْ إلينا من مقاصيرِ الفاكهةِ العاليةِ. اهبطْ إلينا، أنا وأميراتِ العماءِ الممسكاتِ بِرَسَنِ السيلِ الأعظمِ، وهُنَّ يأمرْنَ القنادسَ أن تسدَّ مهبَّ الآلهةِ بالجذوعِ والطينِ. فإنْ هبطْتَ هُرِعْنا إليك بأكاليل القُرَّاصِ، بسلالٍ من كستناءٍ وصخبٍ، ولَنُغْمِدَنَّ، حيث تغمدُ خنجرَكَ القُزَحيَّ، مصائرَ مسنونةً كالمناجلِ... هيا أيها الشريكُ الهيوليُّ، يا ظلَّ كلِّ شيءٍ، لتَكُنْ بقراءتُك هي الأكثرَ خواراً. لتكنْ أنتَ أناملَ الأرضِ التي تُطْبِقُ على أجاصاتِها اليابسة، وتهزُّ ريحانَةَ الظلامِ. أووه، قبلكَ كانت الأرضُ مسقوفَةً بأنقاضِها، وبعدكَ تأوي إلى سقفِ أنقاضِها، هكذا هي؛ هكذا تأبى إلاَّ أن يَجُرَّها فاتحٌ أو يائسٌ. وأنا الدليل أُنذرُ لليأسِ الباسلِ حكمةَ الدليلِ، وآتيكَ يا نقيضَ الأشكالِ، لنتأبَّطَ، معاً، للعراءِ الخاوي مفاتيحَ

أسمائنا، وسلالاتٍ تُشبهُ الأبواقَ على جدارٍ ملكيٍّ.

ولماذا نُبْقي الأرضَ، لماذا نُبْقي الأرضَ؟
لماذا، حين نهدمُ الكائنَ، ونعبثُ بأدوارِه الهندسيَّةِ، نُبْقي الأرضَ؟

(... ويقـول ديرامُ: لا يا دليلي، لِتَبْقَ الأرضُ، لِتَبْقَ مـرمـيَّةً قُرْبَ خَصْيَتَيِّ القويِّ. لِتبقَ هكذا، يجرُّها فاتحٌ أو يائس.)

ولديرامَ أتلو هذا،
لديرامَ أغزلُ اليأسَ كُلَّهُ، عسى يهوي فلا أسترسلُ. ولكنه يمعنُ في اقتفاءِ المدينةِ بعنادِ اليأسِ، ويتركُ لي أن أقتفي كَلْبَةَ النشيدِ.

كُنْ مُؤاتياً يا هبوبُ، كُنْ مؤاتياً. فديرام يُصغي الآن لريحٍ جديدةٍ، ولريحٍ جديدةٍ أتلو هذا، داخلاً من بوَّابةِ الغبارِ الكبيرةِ، وملءُ يأسيَ الزعفرانُ والسفرجلُ، مُزْمعاً على أن أمُدَّ ديرامَ بأسبـابٍ مُتْرَفَةٍ يغسلُ بهـا أنينَهُ المُتْرَفَ؛ وأن نلقي، معـاً، في الغامضِ شِباكَنا ذاتَ النسيجِ الملمومِ من الصَّعْتَرِ والهلْبُوْنِ.

أأتلو بَعْدُ؟ أأتلو النباتَ أم الأجنحةَ؟
لا، لديرامَ أتلو مواجعَ السهولِ. أتلو كيفَ يلتقطُ البَجَعُ الغيومَ من النهرِ، وكيف تمتلىءُ دروعُ الينابيعِ بهبَاتِ الحجرِ. لكن ديرامَ فتىً غضٌ. وديرام ينسى في المدينةِ أن ينثرَ البُنْدُقَ لسناجبِ الغبارِ، ويُقْسِمَ بالحُبارى.

(بات ديرامُ يرفعُ وجهه عالياً كي يرى الشرفات. وبات مُجْفلاً، يغادر من حَيٍّ إلى حَيٍّ، ومن عمارةٍ إلى عمارةٍ، ضَيِّقاً كالغُرَف. لا تتَّسعُ أقدارُهُ لحركاتِ المهرجِ ذي المفاصلِ المعدنية، الشاردِ شرودَ القناصلِ بعد حديث مُقْتَضَب عن الثورات. وباتَ طعيناً أيضاً، مُضَرَّجاً بالأحابيلِ ووساوسِ الحديد المصقول جيداً على مداخلِ العماراتِ وحول النوافذِ. وهو غريبٌ أيضاً، غريبٌ حتى مصبَّاتِ دمهِ المطوَّقةِ بالخشخاش.

يقول صاحبه الأرمني : ماذا تَبَقّى لك؟
يقول : المدينة .
يقول صاحبه الأرمني : إنها ليست لأحد .
يقول : لا ، إنها للنقيضِ الذي يهدمُ الكلامَ .
يقول صاحبه الأرمني : وماذا تنتظر؟
يقول : انتظرُ الباشقَ .
يقول صاحبه الأرمني : لا عصافيرَ في المدينة .
يقول : لا لأَقْتَنصَ العصافيرَ ، بل لأقتنصَ الفاجعة .
ويصمتان ، معاً ، حين تمرُّ أولَ أنثى ، مضمَّخَةً بالبيلسانِ ووميضِ الخراب .)

كُنْ مؤاتياً أيها الوميضُ لأتلو لديرامَ هذه الصرخةَ . وأنتُنَّ يا أمهاتِ النهرِ ، يا اللواتي ترفعْنَ مظلاَّتكنَّ الطحلبيَّةَ وتدخلْنَ المدينةَ من وراء ديرام ؛ يا اللواتي لظلالكنَّ أصداغٌ مطوَّقَةٌ بفقاقيعِ الكلسِ ، لا تبارحْنَ هذا الفتى . فَلْيسمعْ حفيفَ أثوابكنَّ ، دائماً ، قربَ سريرِه ، ولْتمسَّ جبينَهُ ، أبداً ، وشوشاتُكنَّ الخفيضةُ وأنتنَّ تتجادلْنَ مسرعاتٍ بين الغُرَفِ . ولْتحفظْنَهُ حفْظَ ذئبةٍ جراءَها ، ناصباتٍ من حوله فخاخَ الحقولِ فلا تصلُ إليه المدينةُ إلاَّ أسيرةً . ولقلبهِ الباذخِ كشُجيرةِ الفلفلِ ادفعْنَ سمكاتِ الترابِ تتواثبْ سَكْرى فوق سريرِه ، فهو فتى هاربٌ ، يحبُّ أن تدغدغَ المسافاتُ قلبهُ بريشةِ الشَّمالِ ، وأن يضمَّ سريرُهُ حفنةً من ترابٍ توقدُ الطفولةَ . هيا يا أمهاتِ النهرِ ؛ هيا يا اللواتي يخبِّئْنَ تحت صَدَاريْهِنَّ الإشنيَّةِ مفاتيحَ الينابيعِ ونكهةَ اللَّبنِ ؛ هيا أدِرْنَ معي رَحَى الصلصالِ لنطحَنَ البطولةَ ، وليكُنْ مؤاتياً وميضُ الدمِ فَنَجْبِلَ الطحينَ والوميضَ رغيفاً مما يأكلهُ النهارُ الأعمى . ولي أيضاً يتُها الأمهاتُ ، لقلبي الباذخِ كَقَنْزَعَةِ الهدهدِ ، أَطْلِقْنَ ديكَ الأمومةِ ذا العرْفِ الياقوتيِّ ، وافْتَحْنَ السياجَ لدجاجاتِ المَرَحِ ، فأنا دليلُ ديرامَ مُزْمعٌ أن أقودَ ديرام ببغليْنِ من الأمومةِ والمرحِ إلى حيث تتهيَّأُ الأسلحةُ لعرسٍ أخيرٍ .

(باتَ ديرامُ عَجُوْلاً . باتَ ينظرُ إلى براكينِ المدينة وأساساتِ جُسُورها بعَيْنَيْ راكُوْنٍ ، ويجفلُ إجفالَةَ البَشْرُوْشِ من قهقهاتِ الحجرِ الخفيةِ . باتَ جَسُوراً أكثرَ في إغواءاتِهِ ، يقولُ للنساءِ ما يتمنَّيْنَ أنْ يَقُلْنَهُ لأنفسهنَّ أمام

المرايا، ويضحكُ من إسراف قلبه في امتداحِ ديلانا ذاتَ يومٍ، وهي أنثى، ككلِّ أنثى، تَهبُ أدراجَها - إذْ تَهبُ - لا لِذَكَرٍ بتعيينٍ، بلْ لمنْ يفجؤُ أنقاضَها فيسندُ الأعمدَةَ.)

لكنني أرى ديلانا أيضاً، من خلال ورقِ الدَّلْبِ الذاهلِ، جالسةً قرب كوكبها المهرِّجِ، ومن حولها ابنتاها تتصيَّدانِ ذبابَ الرمادِ، وتقضمانِ تفاحةً لا تُرى.

إيْهِ ديلانا، لا تاجَ لكِ الآن، وليس لقلبكِ غيرُ نفيرهِ العاديِّ، نفيرِ دَوْرَةِ الدمِ الرَّتيبةِ. وكنتِ أكثر حرصاً على أن تشتغلَ أقدارُكِ اشْتغالَ الحدادْينَ، يجعلونَ الحديدَ مقبضَ بابٍ أو سلاسلَ ترفعُ الأراجيحَ. وها عُدْتِ ديلانا من ذهولٍ حُلْوٍ إلى ذهولٍ مُرٍّ، ترفعيْنَ عينيكِ قليلاً عن مغْزَلِ المغيبِ لتدمعَا، كأنَّما تريْنَ ديرامَ الفتى نازلاً درجَ الشتاءِ الذي أحببتماهُ معاً؛ نازلاً درجَ المطرِ، تتدلَّى من جيوبهِ البروقُ وسُبَّحَاتُ الغيومِ. وكنتِ تفرحيْنَ، ديلانا، فرحَ طفلةٍ في الأربعين إذْ يداعبُ ديرامُ طفلتكِ الصغيرةَ، مُتَّخِذاً شكلَ سِلَّوْرٍ، أو مُقَلِّداً صوتَ جدي أناضوليّ.

(قبل أن ينصهرَ العقيقُ ويصعدَ صعودَ الفتوَّة إلى ثمرةِ ديرامَ، وقبلما تنعقد روحه حجراً من عقيقٍ تضمّهُ ديلانا إلى عقْدِ روحها، كان يحتفي، خلسةً، بأنثى في الرابعةِ عشرة، ملآى بنزقِ العذوبةِ وطيشِ الزَّبرجَد. وكانت تحتفي، هذه الطفلةُ، خلسةً، بفتىً في التاسعة عشرة، ذي أنينٍ صامتٍ، خجولٍ كبيوتِ القرى. كانت تعرفُ أنها جميلة كما ينبغي، وأنَّها، وهي المصبُّ الربيعيُّ لأباريقِ الجبلِ، تجرفُ ابنَ السهولِ - ديرامَ من الضِّفَّتيْن.

وكان يعرف أنها جميلةٌ كما ينبغي، وأنهُ، وهو المقلعُ الأكبرُ بين مقالعِ الكوبالتِ، يُحصي من مكانهِ البراكينَ، عارفاً أيَّ سفحٍ من سفوحِ الأنثى الصغيرة ستغمرُهُ خمرةُ المعدن، وأيّاً ستغمرهُ رقائقُ من بازلتِ الآدميّ.

غير أنهما لم يكشفا الأبعدَ في مخابىءِ جسديْهما؛ لم يكشفا نبوءَةَ العَضَلِ وهذيانَ الدم، ولم يَغْزُ أحدُهما الآخرَ بسيوفِ النعناعِ التي يملكانها.

لقد أدركت الأنثى الصغيرةُ، وهي ابنةُ ديلانا، أن للفتى ديرامَ مهبّاً على شراعِ أمِّها. وأدركَ ديرامُ أن هذي الأنثى الصغيرة لم تكنْ غيرَ بوصلةٍ تشقُّ

لحيزومِ لهاثه مضيقاً الى أمومةِ البحرِ، الى اللألأةِ المديدةِ لكهْرَمَانِ الأعماقِ - ديلانا.)

إيْه... كنتِ تعرفينَ ديلانا ما الذي يحبكهُ الوردُ للوردِ، والصخبُ للصخبِ. وكنتِ ترينَ إصغاءَ الفتى والفتاةِ الى التَّفَتُّحِ الصلصاليِّ لروحيْهما، غير أنكِ اقتحمتِ غابةَ الفتى بسربٍ من الشّقراقِ لم يتركْ شجرةً إلاّ أضاءَها بقناديلِ الأعشاشِ، فأعطتكِ الغابةُ صولجانَ الدليلِ. أما الفتاةُ، وهي مديحُ أحشائكِ أنتِ لثورِ العذوبةِ، فقد خبَّأَتْ كواكبَها المنثورةَ في فضاءِ ديرامَ لعيدٍ آخرَ؛ لعيدٍ لا تتقاسمُ فيه أنثى وأمُّها صريرَ بابٍ واحدٍ في ممَرِّ الفحولةِ.

وأنا ديلانا،

أنا الدليل الذي وسَّطَ السهولَ بينكما،

ودَلَّ الأنينَ على الأنينِ،

أمْلي على الوحشيِّ، الآن، إمْلاءَ دُلْدُلٍ، وأغمسُ الهواءَ، مثل ريشةِ المؤرِّخِ، في طبائعِ اللبوناتِ، ليتفتَّحَ أكثرَ، رئةً رئةً، لأناشيدِ الغضبْانِ. ولكِ أنحني ديلانا، لزهرةِ الوحْشَةِ التي تضربُ بجذورِها، عميقاً، تحتَ تدْييْكِ العَنْدَمِيَّيْنِ. لكن، حَسْبُكِ أنَّكِ احتضنتِ، ذاتَ يومٍ، توأمَ المياهِ، ومَرَّغْتِ لهباً عارياً على لهبٍ عارٍ. أمَّا ديرام، فمن أجله أمْلي الوحشيَّ، ليبقى رافعاً سراجَ الهباءِ، حيث تستطيلُ الظلالُ والأقنعةُ، وتَمْضَغُ الأرضُ، في هدوءٍ رتيبٍ، لُبَّانَ الأشكالِ. ولي،

لنَفْسي المستديرةِ كقبَّعةِ القرغيزيِّ،

ليَقيني الممتلىءِ بهارجَ وريشاً،

وللبسالةِ التي تتبرَّجُ لفحْلِ الضَّجرِ،

أمْلي على الأغاني شهوةَ المياهِ:

المياهُ المياهُ.

فَلْتَكُنِ المياهُ عربتي وجيادي.

فَلْتكنِ المياهُ عصايَ إذْ أجتازُ، كالأعمى، سراديبَ البطولةِ.

المياهُ المياهُ.

درعيَ المياهُ.
والمياهُ جِدَالي حين يحتدمُ الهواءُ الهرطوقيُّ.

المياهُ المياهُ.

تنزلُ المياهُ في الصباحِ عن سريرِها، وليسَ عليها من زينةِ الأرضِ غيرُ عقْدٍ من الأشرعةِ. وتصعدُ إلى سريرِها، في المساءِ، مُخَضَّبَةً بقلقِ المناراتِ، والصواريِ التي لم تصلْ. والمياهُ فأسُ العذوبةِ التي تُهيِّئُ للآلهةِ حَطَبَ الكونِ. والمياهُ كلبٌ يجرُّ زحافتي على جليدِ الأبجديةِ.

وهي تابعي الحاملُ مِحْبَرَتي وأختامي حين أدخلُ على أسيادِ المساءِ لِنُبْرِمَ عقْدَنا، عقْدَ كوكبٍ أو نشيدٍ.

فَلْتُعَجِّلْ نَفْسي، إذاً، في اقتسامِ الهرطقةِ بينها وبين الوردِ، ولْتُهَيِّئِ المياهُ سريرَ حُوذِيِّنَا. أما أنتَ أيها العماءُ الثدييُّ؛ يا عماءً يشحذُ سيفَ الخاتمةِ ويُغوي المكانَ، فَلْيَتريَّثْ جُنْدُكَ المدجَّجُ بالزِّنْكِ والحَبَقِ وخمائرِ العاصفةِ المزَّةِ، إلى حين تُسَرِّحُ الأرضُ جيادَها الكبريتيةَ، وتستلقي رخوةً كاليَرَقَةِ في ظلِّ نسرِها الكهلِ. نسرٍ كهولةٍ تَرْمُقُ الفرائسَ بعينينِ من غبارٍ. يقيناً ستلمحُها أيها العماءُ. يقيناً ستلمحُ الأرضَ ضارعةً إلى غبارٍ يَكْحَتُ صدرَهُ بأظافرِ المغيبِ. وستعدو أيها العماءُ، في هذه السَّانحةِ، مُمْسكاً فأسكَ الذهبيةَ، فأسكَ الأولى التي انعكستْ على شفرتِها التماعاتُ الفراغِ فوُلِدَتِ الأرضُ وَمْضاً، وستضربُها فترجعُ وَمْضاً تَتَمَرْأى فيه خنانيصُ الظَّلام.

(تعرفُ ديلانا هذا؛ تعرفُ المساءَ ذا الهيكلِ الماموثيِّ الذي ينتظر حَربَةَ العماءِ. وهي ترفعُ اليه، إلى المساءِ ذاته، حُلْمَ ابنتيها المقبلتيْنِ بأثدائهما الصغيرةِ على شراعِ الجَسَدِ. وتودُّ لو عَجَّلَتِ الضَّربةُ، وانفطرَ الجمادُ حاسراً أشلاءَهُ عن جَرَّةٍ واحدةٍ للفحولةِ تشربُ منها امرأةٌ وابنتاها.)

فَلْتُعَجِّلْ نَفْسي....

(يعرف ديرامُ هذا؛ يعرف انتظاري لإباحةِ العماءِ، آنَ ينصبُ الخرابُ ميزانَهُ البركانيَّ: قيراطٌ من الغضبِ في كَفَّةٍ، وفي الأخرى النهارُ والبسالةُ...

وديرام مثلي، يحمل المتاعَ الأخيرَ من طيشٍ وخبزٍ وأبوَّةٍ تحنو على الأسلحةِ، كأنَّما يتهيَّأُ لجلالِ الموجِ، أو لتِيْهِ ساحرٍ.)

فَلْتُعَجِّلْ نَفْسي في اقتسامِ المديحِ بينها وبين الباطل.
فَلْتعجِّلِ المياهُ في اقتسامي،
فأنا العَجَلَةُ الدائرةُ، تدورُ في مداريَ المداراتُ،
ويتّكيءُ عليَّ الظلامُ المحارب.

لا، لا تَدعُوْني أسترسل في الحكاية. لا تَدعُوْني أحمل إلى الغبارِ أمشاطَهُ الأزلية. بَيْدَ أنكم مسترسلونَ مثلي في سَرْدِ أحزانكم، وكُلَّما انتهتِ الحكايةُ أعدْتُمُوْها، مُضطجعيْنَ تحت جسرٍ لا تسمعون من عابريهِ إلاَّ التَّمْتَمَةَ ودبيبَ الفراغِ الملجوم، فأكادُ انْفُضُ الجِسْرَ عليكم، كالثوبِ، حجراً حجراً، وعموداً عموداً؛ لكنني أتداركُ ابتهالي، فأقولُ: لا، دَعْهُم حاضنيْنَ ماسةَ الوقتِ الغبراءَ، دَعْهُمْ... فهُمُ الحاضرُ الطالعُ كالفُطْرِ من الخُرافة، وهم الهاويةُ التي أنْبَتَتْ من عمائها الشيوخَ، فهبُّوا ممسكيْنَ بحُطَامِ الأرضِ يلوِّحونَ به، ويأتَمرونَ بطيشِ الآلهةِ فيهوون بعشرين طعنةً على وعلِ العاشقِ.

(آهِ أيها الشيوخُ، سنُجاري ضَجرَكُم ذاتَ يومٍ، لكننا لن نُوصِدَ حُبَّا كحُبِّ ديرامَ برتاجِ جَفَافِنا.)

حجرٌ يهوي،
حجرٌ من جَمَشْتٍ:
هذا ما يراه ديرامُ فيهتفُ: انظرْ يا صاحبي.

ويضحكُ صاحبُهُ الأرمنيُّ، ففي كلِّ يومٍ يهوي حجرٌ من جَمَشْتٍ على روحهِ السائلةِ، فتجفلُ فيها السراطينُ والزُّمَّجُ والندامى الغرقى.

حجرٌ يهوي...
مَنْ لَمْ يَرَ حجراً يهوي؟ مَنْ لَمْ تَمَسَّهُ زعانفُ حجرٍ يهوي؟
ليس قصدي أن أدلَّكُم على حجرٍ، لكنهُ يهوي،

هو ذاتُه،
ذلكَ الحجرُ، حجرُ الرَّحِمِ الذي تتعثَّرُ به المدينةُ فتتدحرجُ حروبُها الخفيَّة.

أنا الدليلُ أُخبركم بهذا؛
أنا الدليلُ أتلو هذا للغابةِ التائهة.
وأقول: فَلأَكُنْ بسيطاً مثل بذرةِ السمسمِ؛ فَلْيتقدَّم البسطاءُ حفاةً على ردائيَ المبسوطِ، حامليْنَ إلى ديرامَ غنائمَ الرمادِ وذبائحَهُ اللَّهبيةَ. فَلْيزدحمِ البهوُ بالبسطاء.
فليمنحوني البسيطَ ليَسُوْدَ النشيدُ البسيطُ:
لحُبٍّ بسيطٍ أتلو هذا،
لحبٍّ مستوحدٍ كتيسِ الجبلِ،
لحبٍّ لا تُمسكُهُ الأغاني، ولا يتسلَّقُهُ اللَّبلابُ.

(كانتْ ديلانا ساهمةً، ذات يومٍ، تُقَطِّعُ البَصَلَ والبنجارَ، وتقشرُ الثوم. كانتْ جالسةً قرب نافذة تُطِلُّ على حلمِها؛ جالسةً قرب حلمِ النافذة المطلَّة على حديقةِ الشتاءِ، حيث الحركةُ الدَّؤوبةُ للعرائسِ وهُنَّ يزيِّنَّ الشجرَ العاري بسيوفِ البَرَدِ.

كانتْ ساهمةً لا تسمعُ من المطر إلاَّ خطواتِهِ، ومن حاشيته إلاَّ ضحكةً باردةً تَتَحَدَّرُ على الزجاج البارد.
حينذاك دخلتْ ابنتُها الصغيرةُ صائحةً: «أمَّاه، كيف يرسمون بطَّةً ضاحكة؟».
قالت ديلانا: «لا تضحكُ البطَّةُ يا ابنتي».
صاحت الطفلةُ: «كان ديرامُ يرسم لي بطةً ضاحكة».
لم تجب ديلانا، بل أغرورقت عيناها.
قالت الطفلة: «هل تبكين؟».
«إنه البصلُ» أجابت ديلانا، وأطلَّتْ من النافذة، ثانيةً، على حديقة الشتاءِ، حيث صخبُ العرائسِ وهُنَّ يُقَطِّعْنَ البَصَلَ البَاردَ فتغرورقُ عيونُ

الشجر.)

من سيتلو، بَعْدي، خَبَرَ العرائسِ ولهوَ الشتاء؟

قلتُ: لا بُدَّ من دليل، لا بد من خطىً يقودُها الدليلُ. قلتُ: لا بُدَّ من صخبٍ بعدَ هذا، لا بُدَّ من عاشقَيْنَ أُخَرٍ يحرقون الأشرعةَ ليتوهوا... قلتُ: لا بُدَّ من هذا كلِّه لتكونَ لي غبطةُ الذاهبِ إلى المهرجانِ بقطيعٍ من الخنازير، أو بقناعٍ قصديريٍّ يرى الحاضرونَ عليه انعكاسَ حرابهم.

قلتُ هذا، وقلتُ أشياء أخرى، لكنني استرقْتُ السَّمْعَ إلى المدينة، إلى أعمدةِ العماراتِ وهي تقرعُ في صمت طبولَها الاسمنتيَّة، مُؤْذِنَةً بمجيء الرعاة الحاضنيْنَ حِمْلانَ الصواعق. وكان البسطاءُ يسترقونَ معي السَّمْعَ، خافضيْنَ أبصارَهم، وهم يرسمون، جلوساً تحت الجسورِ الهاذيةِ، أبوابَ الينابيعِ، ثم يخلعونَ النِّعالَ ويُريْحُوْنَ أقدامَهم الحافيةَ في بِرْكَةِ النهارِ الحافي.

بُسطاءُ كثيرون يفعلون هذا. بسطاءُ يُعَرُّوْنَ في الحروبِ البسطاءَ، وآخرون يجفلون من البؤسِ فيبتلهونَ إلى البؤس. وأنا الدليل أجعلُ الأمرَ أكثر لهواً، فأقودُ إليهم الغابةَ. بَيْدَ أني حنونٌ أيضاً، أُقْنِعُ نَفْسي بأن لِلَّهَبِ أعذارَهُ ليبقى بارداً، وبأنَّ للكائنِ الشريدِ أعذارَهُ ليبقى هكذا، جاثياً تحت الخوذةِ الكبيرةِ ينظرُ من شقوقها إلى الهزائمِ التي تستعرضُ، كالأميراتِ، سبايا الحاضرِ ومصائرَهُ الشَّعْثَاءَ. وأزاحمُ الوردَ إذ يتهادى بأقدامِ الجذورِ إلى حروبهِ النَّاعمة، حروبِ الطَّلْعِ التي تتَغَاوى فيها المدَقَّاتُ كالعذارى، وتكشفُ الحقولُ عن فَرْجِها الوثنيِّ... ألا لَيْتَكَ زاحَمْتَ معي، ديرامُ، هذا كلَّهُ؛ ليتكَ أبقيتَ من لهاثك ما يملأ الرئاتِ ابتهالاً لحضورِ الأنثى، أو زفيراً يتركُ على بِلَّوْرَةِ الحقولِ بُخَارَ الذَّكَرِ. غير أنكَ هادىءٌ الآنَ، تُطلُّ من شُبَّاكِكَ العالي على فوهةِ المدينة، حيث تتشبَّثُ سحاباتٌ صغيرةٌ بالأسلاك قبل أن يبدِّدَها ضحكُ الخادماتِ من عَبَثِ الكهلِ السَّيد. هادىءٌ أنتَ الآن، لا تفكِّرُ في نبيذٍ ما، أو في نَهْبٍ، بل في الحساءِ الذي تُعدُّهُ الصديقةُ الجديدة.

ولأنَّك هكذا؛ لأنك انسَلَلْتَ من غير أن تَعْلَقَ بشيابك أقواسُ قُزَحٍ، أو تَسِيْلَ على جبينكَ مدائحُ العُنَّابِ، راكناً إلى مساءٍ حُلْوٍ - مساءٍ منثورٍ كالسُّكَّرِ المنثورِ على رغيفِ الروحِ... لهذا، لذاك، للرخاءِ الأَبْكمِ على وجهِ المُهَرِّجِ، أرخيتُ قبضتي عن

الدِّرعِ وَحَلَلْتُ الغضبَ كما أُحلُّ سيُوْرَ الحذاءِ، مُقْبلاً على الأرضِ بقناعٍ آخرَ، بقناعِ النديمِ لا بقناعِ المُغيْرِ.

(تعالَ ديرامُ، تعالَ انظُرِ الملوكَ على الصهواتِ يُظَلِّلُوْنَ أعينهم بأيديهم من الشمس، ويتبعون الفرائسَ. تعالَ انظرْهُم منتظمِيْنَ صَفَّاً صَفَّاً خلفَ كلابٍ مُنْتَظمَةٍ صفَّاً صفَّاً، خلف طبَّالِيْنَ منتظمِيْنَ صفَّاً صفاً يستثيرونَ بطبولهم دجاجاتِ الأرضِ وخنازيرَها. أبَّهيُّوْنَ ديرامُ، أبَّهيُّوْنَ على شطرنجٍ أبَّهيٍّ. مُلوكٌ أباً عن جَدٍّ، وصاعقةً عن صاعقة. تعالَ، تعالَ نتوسَّطِ الملوكَ. تعالَ ندلّها على رعيَّةٍ حَسْبُها أن ترى الملوكَ. تعالَ ندلَّ الملوكَ على مُلْكِها. ولنكنْ نديمَيْنِ، فَلَمْ تُهَيِّىءِ الممالكُ مغازلَها بَعْدُ، والنسَّاجونَ لم ينهضوا. ألَسْتَ تريد هذا ديرامُ؟ يقولُ صاحبهُ الأرمنيُّ.

لكن ديرامَ ساهمٌ، يتفكَّر في العماراتِ المغلقةِ، والزهرِ المتدلّي على شرفاتِها مثل خصْيَةٍ مقطوعة.)

هذا عالم يُتْلَى. هذا حبْرٌ يُتْلَى. وديرامُ ممسكٌ بريشةِ الجذورِ يخطُّ رسائلَ للضبابِ الوالي، هادئاً، لا يفكِّرُ في نبيذٍ ما، أو في نَهْبٍ، بل في النهرِ المُعَلَّقِ فوق المدينة؛ النهرِ الأعْزَلِ الجَسُوْرِ، الذي يُهيِّىءُ أعشاشَهُ للُهاثِ الأسلحة، ويستطلعُ الحجرَ. وديرام يُحصي من شرفته مُلوكاً يمرُّونَ، وممالكَ تجتازُ الطريقَ متوكِّئةً على عصيِّ البازلت، ناقراً بأناملهِ على غشاءِ المَشْهَدِ، كأنَّما يستوقفُ الغبارَ العابرَ ليُحَمِّلَهُ زهرةً ما، أو طبلاً، إلى الأعيادِ التي تَتَهَرَّأُ نعالها من الرَّقصِ على المياه. ويرفعُ بصرَهُ، ثانيةً، إلى الأعلى، إلى النهرِ الجَسُوْرِ ذاتِه، المُعَلَّقِ بكلاليبِ الآلهةِ، صارخاً:

«لماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تنفخُ في بوقك النُّجَيْليِّ فيصعدُ المنشدونَ إليكَ، حامليْنَ أعضائي في بُرعمٍ، ويَقظتي في أباريقِ الصَّلصال؟.

لماذا تُريني القرى بين عَفْرَتَيْ إِبْطَيْكَ،

وتحزمُ المدينةَ، في جَرَيانكَ، بحبلٍ من السِّيفيرِ وزيزفونِ الطمي كحزْمَةِ الشُّوفان؟

لماذا تتبعني أيها النهر؟

لماذا تحمل قنديلكَ، والأرضُ واضحةٌ كما تَرَى؟ أنيصٌ أنتَ، بأشواكٍ فضيَّةٍ، أمْ

مَرْمُوْطٌ يقضمُ جذوعَ الحروف؟
مَهْلاً إنْ كنتَ سهمَ الشَّمالِ، أو نَوْرَجَ المحاربِ. مَهْلاً مَهْلاً،
لكَ أعيادُكَ، ولي أعيادي،
وكلانا عالقان في شَبَكَةِ المساءِ الحُلْوِ،
المساءِ المنثورِ كالسُّكَّرِ على رغيفِ المدينة.
وكلانا جُرْنٌ تطحنُ العاصفةُ فيه عَدَسَها،
فلماذا تتبعني أيها النهر؟
لماذا تكشفني لنخيلِ البحرِ المُتَّشحِ بهزائمِ الساهريْنَ ساهراً يُؤَجِّجُ الحقولَ، ويُحَرِّضُ النباتَ على الأعمدة؟
دعْني أيها النهر،
دعْني في مدايَ المُغْلَقِ بثلاثين كبشاً، وسريرٍ واحدٍ تتخاطفُ النساءُ عليه مملكةً لم تَكْتَمِلْ».

... وديرامُ يتبعُ بعينيهِ، من الشُّرفةِ، حَجَلَ المدينةِ يختالُ قُرْبَ الغامضِ المُتَمَدِّدِ كالنِّمسِ في الظهيرة؛ بل يتبعُ بعينيه السحابةَ المُدَّثرَةَ بالكسلِ ورائحةِ المحارِ، ويرجعُ الى غرفته، هادئاً، يتفكَّرُ في ما مضى، في يدٍ مَرَّتْ على شَعْرِهِ فأفاقتِ المياهُ.

(الصديقةُ الجديدةُ تُعدُّ الحساءَ.
الصديقةُ الجديدةُ الغبيةُ تُعدُّ الحساءَ.
الجميلة الغبية تُعدُّ الحساءَ.
الجميلة الغبيةُ الجديدة ترتمي على السريرِ ذاته، العابق بديلانا.
لكنَّ الذَّكَرَ ذَكَرٌ، لا يخذلُ أنثى حين تراهنُ بثديَيْها على ينابيعِهِ.)

لو ترينَهُ ديلانا، لو ترينَ ديرامَ، لأقفلتِ النافذةَ التي تُطلِّيْنَ منها على عرائسِ الشتاء. لهرعتِ نازلةً الى سراديبِ الأرضِ تَلُمِّيْنَ جذوراً نَسيْتِها، ورياحاً نثرتْ ديرامَ على شراعكِ العالي. فَلَشَدَّ ما تخجلين من سريرهِ المدعوك بأنثىً أخرى، ومن يديكِ اللَّتينِ سَوَّيَتَا ملاءَةَ السريرِ، ذات يوم، لِيَنْقُرَ لهاثُكما، كالعصافيرِ، خُبزَ الوسادة. لكنك لا ترينَ شيئاً ديلانا، إنَّما يشقُّ عليكِ أن تسمعي رفيفَ قُبَلٍ هناكَ؛

قُبَلٍ كان حَرِيّاً بها أن تُستَنْفَدَ في الحصارِ الضَّاري لأعضائكما الضَّارية.

لو ترينهُ ديلانا، لو ترينهُ الآن، لَوَدَدْت أن تعودَ ابنتاك إلى الهيئة الأولى، مَحْضَ بويْضَتَيْنِ لا يدفعهما المَنِيُّ إلى مقاصيره، ولَوَدَدْتِ أن لم يُبحْك عقْدٌ لأحد. لركضت حُرَّةً كخريف حُرٍّ ينفضُ الفصولَ عن جسده الفَحْلِ ويستوطنُ العاري. لَقَلَبْتِ صحنَ الحساءِ، وأعْدَدْتِ حساءً آخرَ، وقلت لصديقته الجديدة: «هذا لي»، ثم حضنت ديرامَ حتى امتدَّتْ جذوركما، عميقاً، في أعمدةِ العماراتِ وأساساتها. غير أنك جالسةٌ قربَ النافذةِ المطلَّة على رئة الشتاء، لا تفكريْنَ في العرائسِ الراكضاتِ من شجرةٍ إلى شجرةٍ بعقود البَرَدِ، أو في الأرضِ المُلْتفعة بفرائها السنجابيِّ، بل في خيطٍ من الدمعِ لا تعرفيْنَ أأسَالَهُ البصلُ، على المائدةِ، أمْ حنينُ الأنثى إلى مديحٍ بحريٍّ.

هكذا يتفكَّرُ ديرام.
هكذا تتفكَّرُ ديلانا.
والمكانُ مدينةٌ تتقدمُ صوبَ خصيةِ البحرِ الزرقاء.

ليس هذا شأني. أقولُ: ليس شأني أن أجرَّ أيامهما إلى الكتابةِ برسَنٍ من الفَوْقَسِ أو الأقحوانِ. وأقول: دَعْهما هادئيْن، فهما يجفلانِ إنْ نثرتَ عليهما رذاذَ الذاكرةِ الحامضَ... لكن، لِمَنْ أتلو هذا إذا لم أوقظِ الموجةَ الحامضةَ - موجةَ الغروبِ المضمومةَ على صليلٍ، وإرثٍ ضائعٍ؟ وإذا لم أهيِّئ المساءَ لِعَضَّةٍ يخترقُ نابُهُ فيها الأرضَ من الثدي إلى الثدي؟:

فلتأتِ الأبجديةُ وسلالمُها؛
فليأتِ القلقونَ وكابوسُهم الملكيُّ؛
فليأتِ شبيهي ذو الخوذةِ الخزفيةِ، فأنا الدليل لن أزيِّنَ الظلامَ، بعد هذا، إلاَّ بالحُمَّى؛ لَتَبْسطَنَّ الحُمَّى أعماقَها كورقةِ العَرْعَرِ فتطنّ من حولها بعوضةُ الحياة، ولأبسطنَّ أعماقي المَرِحَةَ كورقةِ العرعرِ فيتدحرج عنها ندى الحمى والأبجديةُ والقلقون، أما شبيهي فسيتلو الغبارَ كلمةً كلمةً، جالساً كالمُلَقِّنِ وراءَ الشعاعِ الأخيرِ الذي يضيءُ الطَّعنة.

... آه، لم يكنْ دأبي الغضبُ. لم أُردْ إلاَّ أظلَّ دليلاً يقودُ عاشقيْنِ إلى سمسمٍ ومديحٍ، غير أن الكهولَ ذاتهم - الكهولَ الذين يهدهدون الأرضَ كلَّما أفاقتْ،

ويموِّهون الوقتَ ـ يكسرون بوصلةَ دليلٍ مثلي يفتحُ لبناتهم، ونسائهم اللواتي لم يُقْفِلْنَ فضاءَهنَّ بَعْدُ، مَمرَّ الأنثى إلى مَصَبِّها.

لهذا ينفُثُ الغضبُ خمائرَهُ الآدميَّةَ،

ولهذا أنفخُ في بوقِ المغيبِ، داعياً شبيهي السديميَّ إلى الوليمة؛ داعياً الأشكالَ إلى مسيلٍ آخرَ يدحرجُ نَرْدَ الجوهرِ من حليبٍ إلى حليبٍ، فَيُرْضِعُ النَّقيضُ النَّقيضَ، والهباءُ الهباءَ.

... وماذا أتلو لهذا الهباء، ربِّ، ماذا أتلو؟

لا كَتَبَةُ الجذورِ يُمْلُوْنَ عليَّ، لا الفجيعةُ تُملي، بل أرتجلُ، ولارْتجالي فِخَاخٌ تتخبَّطُ فيها الطيورُ والبطولة.

(كان ديرامُ يَرْتَجلُ مثلي مهاراتِه السهليَّةَ خالطاً بين البرقِ والنرجسِ، فتضحكُ ديلانا لعذوبته التي تختالُ بذيلٍ كذيلِ السّنجاب. وكان يُكَنِّي طُرُقَ المدينة بأسماءِ الينابيعِ والهوامِّ، فتبتسمُ ديلانا لبداهته التي تختالُ بذيلٍ كذيلِ الهدهد. لكنه حين يُريها يديه المُبْتَلَّتَيْن بظلالِ الكينا وعويلِ السنابلِ، تَجْهَشُ بالسنينِ فتجهشُ السنونُ برنينٍ يوقظُ الأسلحة.)

ربِّ، لماذا جعلتَ دليلاً مثلي يقود المكانَ الثقيلَ بأعراسه وراء الخُطى الثقيلةِ؟ لماذا مَكَّنْتَني من مساءٍ لا يستسلمُ فاخْتَزَلْتَ الظلامَ كُلَّهُ في ياقوتةٍ تتدلَّى على صدري؟ لماذا جَمَعْتَني هكذا: رُبْعَ مياه، رُبْعَ صليلٍ، رُبْعَ هاويةٍ، رُبْعَ مديحٍ لا يُمْتَدَحُ به إلاَّ الغامض؟. لقد تَبِعْتُ الزوبعةَ الأعلى، والغبارَ الأكثرَ بهجةً على قناعِ المحاربِ، حنوناً كالفوضى، وطيِّعاً كأنَّما ائْتَمَرَتْ جُسُوْري بالعويلِ فوَصَلَت الخرابَ بالخرابِ. وتبعتُ الحباحبَ الذهبيةَ تصعدُ من أنينِ السهولِ، كأني وصيفُ السهولِ أشاركها أرقَ العشبِ، أو أغزو بفأسٍ كُلَّ ملْكٍ لا يُسْرِجُ لأعيادِه جيادَ الخُزامى. وها وصلتُ المدينةَ، ففي كلِّ مُنْعَطَفٍ مني شَبَحٌ، وفي كلِّ نَهْبٍ مشْجَبٌ لي، يُعَلِّقُ الغامضون عليه رياحَهم كقميصٍ.

(لم تعرف ديلانا ما الذي أرَّقَها: كانَ فتىً كالآخرين، نحيلاً جداً، وحزيناً

جداً.

لم تعرف ديلانا ما الذي أرَّقَها: كان جالساً قُبَالها، تلك الليلة، لم ينظرْ إليها، بل تَمْتَمَ قليلاً عن بلادِ الشَّمالِ.

لم تعرف ديلانا ما الذي أرَّقَها: كانتْ يداه الخجولتان تمسكان كأسَ الماءِ في ارتعاشة ظاهرة، وكان مُطْرِقاً، كان مُمْعِناً في الإِطراقِ، كأنما يختبىءُ في أمومةٍ لم تتفَتَّحْ بَعْدُ.

لم تعرف ديلانا ما الذي أرّقها،
لم تعرف ما الذي أرّقَ أعوامَها الأربعين.
غير أنَّ الليلةَ تلكَ ـ الليلةَ المفطومَةَ عن أثداءِ الظلامِ التي لا تُحصى، وذاتَ القناعِ الرَّطْبِ كَكُلِّ قناعٍ يصطحبُهُ البحرُ إلى المهرجانِ ـ لم تجمعْ نكهتَها وقواريرَها عن سرير ديلانا، ولم تغادرِ الغُرَفَ.

تلكَ الليلةُ ضَرَّجَتِ النهارَ التالي، والليالي التاليَةَ، ولمْ تَقُمْ عن كُرْسِيِّها في الغُرَفِ.

ليلةٌ مديدةٌ،
وأرَقٌ مديدٌ،
وديلانا تكسرُ صورةَ الفتى، وتجمعُ صورَةَ الفتى.)

وأنا أجمعُ العاشقَيْنِ،
أجمعُ لوزَ حنينهما،
راكضاً بأشجارِ البَطْمِ والبتولا من سهلٍ إلى سهلٍ، لتستظِلَّني الكمائنُ الحيَّةُ إذ تنتظرُ يرابيعَ الملوكِ، أو بجعَ الأرضِ الهاربةِ. راكضاً بالفجيعة؛ راكضاً بالكُوْدِ والغزالاتِ والثعالبِ والظِّربانِ وأكباشِ الجبلِ؛ راكضاً بالغابات؛ راكضاً بالمياه، بالمعادنِ وملائكِها؛ راكضاً بالغيومِ؛ راكضاً بالجهاتِ، بالأختامِ كلِّها، بالبراكينِ

والفاكهة، بتوائمِ الثلوجِ، بالأبجديةِ والأنقاضِ والينابيعِ، حتى باب البحر، وهناك أرتدي قُلُنْسُوَةَ الزبدِ الوالي ريثما تهرولُ المدينةُ إليَّ بجزيْتِها، أو يُنْتَهَكُ الهواءُ، من جديد، بأنفاسِ عاشقيْن.

لماذا، ربِّ، أسيِّجُ المكانَ بهذا الغضبِ كلِّه، من أجلِ عاشقيْنِ نسيًا، الآن، ما كان يُصيِّرُ دمَهما حجَلاً في العروق؟ ألأني كنتُ الدليلَ فأسلَمْتُهما إلى خاتمةٍ كاللّبلابِ تتسلَّقُ زَرَدَ المدينةِ، أم لأني أرى كلَّ دليلٍ ينتهي، مثلي، الى بابِ البحرِ، يرتدي قُلُنْسُوَةَ الزَّبدِ الوالي ويحلجُ اليابسةَ؟... آهِ أيها الغضبُ، كَمْ يدٍ لكَ، كَمْ مِحْبَرةٍ تغمسُ فيها ريشةَ الجحيمِ النبيل!!

(فلأدَعْ ديلانا، قليلاً، لشأنها،

فلأدَعْ ديرامَ، قليلاً، لشأنه،

ولأذكُرْها، ابنةَ ديلانا، ذاتَ الأربعة عشر عاماً، التي رأتْ كلَّ شيءٍ، فوَدَّتْ ألاَّ يعودَ أبٌ الى بيته قطُّ.

كانتْ بكْرَ بيتها، وسلطانَةَ البيتِ. حُلوةً بين أترابها، لا تتمنَّعُ على مديحٍ، ويُسْكِرُها أن ترى الأرضَ راسيةً في بُرعمينِ على صدرها.

كانت الأكثرَ اختيالاً؛ محبوكَةً كشراعٍ صغير.

لم تُحبَّ أحداً قطْ؛ لم تَبْلُغْ بَعْدُ أنْ تُحبَّ، وكانتْ تتغاوى، حلوةً تتغاوى، مغزولةً بغمامِ الطفولةِ التي تَتَلَفَّتُ في مرحٍ وهي تخرجُ من الباب.

لم تكلِّم ديرامَ كثيراً، لكنها تراهُ، وتمعنُ - إذ تراهُ - في لمسِ روحهِ الجالسةِ مثلهُ قُبالَةَ أمِّها: روحٌ خجولةٌ وجسدٌ خجولٌ.

تعوَّدَتْ تراهُ هكذا، وتعوَّدَ يراها هكذا، حتى إذا مرَّتْ بهِ - ذاتَ مساءٍ - مروراً ساخراً، هَبَّ وألوى يدَها.

لم تظنَّ - وهي الطافحةُ بإطراءِ الآخرين - أن يهبَّ خجولٌ خَشِنٌ فيلوي يدَها.

ومثل طفليْنِ تناهبا اللَّعِبَ الطائشَ: تسخرُ منه، مراراً، فيلوي يدَها مراراً. تشدُّ شَعرَهُ فيشدُّ شَعْرَها. تشتمُ فيشتمها. حتى كانا وحدهما، ذات يوم، وكانتْ منحنيةً، قريبةً إليه بفمها، بَعْدَما لواها، فشدَّها أكثرَ، شَدَّها فتناثرَ عقْدُ القُبَلِ، فتدحرجتْ من فَمها إلى العنقِ وغطَّتْ أرضَ البيت.

ظلاً صامتيْنِ بعد ذا.
يومٌ، يومان. صمتٌ وقُبَلٌ بَعْدَ الصمتِ وقَبْلَهُ.
آه، كانتْ سنبلةً مَوَّهَتْ طريقهُ الى حقلِ السنابلِ قليلاً.
غير أنَّها رأتهما، رأتْ رَعْداً ناعماً من سُماقٍ وزنبقٍ يتأرجحُ بين صدره وصدرِ أمِّها، فَوَدَّتْ ألاَّ يعودَ أبٌ إلى بيته قَطْ.
ودَّتْ ألاَّ يعودَ أبوها. ألاَّ يعودَ الذي لم يُسَيِّجْ قلبَ أنثى أزاحَ قلبَها عن مسيلِ ديرام).

حنانيْكِ يتها الأبديةُ، يتها المحفورةُ مثلي على خوذة، سأُصْلِحُ من هَيْأتي قليلاً، سأُصْلِحُ من هيأةِ اليابسةِ، وأنسِّقُ المياهَ إناءً إناءً على مَسْطَبَةِ الروحِ قبلَ تدخلَ العدميَّاتُ بنبالهنَّ الآجريَّةِ يقنصْنَ الكواكبَ وتوابعها؛ قبل أن يخترقْنَ مطالعَ الأغاني بحروفٍ مَلُوْلَة، أو يطعنَّ الغزالةَ الحائمةَ حولَ أبجديةٍ لا تُرى. وسأُصْلِحُ من هيأةِ الليلِ فيدخلُ الحُلْمَ طائشاً في عباءاته الطائشةِ، فأنا الدليلُ لن أدلَّ أرضاً، بعد هذا، إلاَّ على رُعبها، سأزيِّنُ الرعبَ بقَنْزَعَةِ الببغاء، وسأمتدحُ حدَّاديْه المُعَفَّرِيْنَ بهُبابِ الأقدارِ. بل أنا الرعبُ الدليلُ ستتبعني الأنقاضُ، ويَسْتهدي بيَ هدهدُ الهباءِ الأخيرُ:

هكذا أعزو إلى نَفْسي ما تعزوهُ المناجلُ إلى نَفْسِها.

وأشردُ، إذ أقول هذا، شرودَ ديرامَ على الشُّرفة الغبيةِ، ناظراً إلى البوقِ الأبعد، بوقِ النهارِ المُلْتمعِ تحت وميضٍ مُرٍّ. ناظراً إلى الأفق يتهادى بجلده الصِّنْبَانيِّ بين الخوذاتِ، ثم أغمضُ عينيَّ فأستعرضُ وُلاَةَ النهارِ، الوُلاَةَ الأكثرَ بطشاً في النهارِ، الأكثرَ مَرَحاً في الليلِ، وأستعرضُ نساءَهم اللّواتي يعرِّيْنَ الخادماتِ لكلابهنَّ، هناك، في الأرضِ التي تتدلّى كعنقودٍ من داليةِ الغروبِ الأبديِّ: وُلاَةٌ، ونساءُ وُلاَةٍ، ودورٌ واحدٌ يصعدُ الممثلون فيه الى المسرحِ وينتحرون.

شاردٌ أنا، شاردٌ ديرامُ على الشُّرفةِ الشاردة،
وأمامنا تتمطّى جُسُوْرٌ وعماراتٌ،
بيوتٌ ومياهٌ تتمطَّى،
وتتمطى ديلانا التي تُعدُّ العشاءَ لابنتيها فيسقطُ الصَّحْنُ من يدها،
يسقطُ الصحنُ من يدِ كلِّ امرأةٍ،

فيتناثرُ على مساءِ المدينة.

(ضجيجٌ في الغُرَف،
ضجيجُ صحونٍ تتناثرُ، وأطفالٍ يتشاجرون.
ضجيجُ أسِرَّةٍ في الغرَف،
ضجيجُ نزوحٍ وشبقٍ وعظامٍ كهولٍ يتشاجرون.
ضجيجُ ألعابٍ في الغُرَف،
ضجيجُ ورقٍ للكتابة وكَتَبَةٍ يتشاجرون.
ضجيجُ نشيدٍ في الغُرَف،
ضجيجُ محاريثَ وثيرانٍ وموتى يتشاجرون.
ضجيجُ نبوَّةٍ في الغُرَف،
ضجيجُ غيومٍ وخطىً وآلهةٍ يتشاجرون.

أوصدي النافذةَ ديلانا،
أوصدِ النافذةَ ديرامُ،
قبل تسمعَا قَرْعَ الحاضرِ الغضبانِ على البابِ،
طالباً معطفهُ،
وقُفَّازيْه،
وحذاءَهُ العالي ليمضيَ خارجاً.)

كلُّ شيءٍ شاردٌ،
والأفقُ يتمطى،
فلماذا حزنكَ، هذا، ديرامُ؟
غير أن ديرامَ، الذي تُعدُّ صديقتُهُ الجديدةُ الحساءَ، يكوِّمُ تحت معطفهِ الغيومَ، والجُسورَ، والعماراتِ، والمحابرَ، ويبكي.

لطالما تمنيتُ أن أذرفَ نشيداً غير هذا، وأن أُمجِّدَ الفراشاتِ لا الحديدَ. لطالما حَنَنْتُ إلى شبيهي الذي يعابثُ الينابيعَ فيخبِّئُها تحت أسمالهِ النباتيةِ، أو يختبىءُ في

الينابيع فترشدُ الحقولُ إليه الحقولَ، والجذورُ الجذورَ. لطالما صرختُ من شُرْفتي: «تقدَّمْ أيها الشَّبيهُ»، فينفرُ راكضاً، تُجَلْجِلُ في قدميهِ خلاخيلُ النهرِ، فلا يقفُ إلاّ خارجَ المدينةِ، حيث يرفعُ يديه عالياً فتتقاطرُ الكائناتُ المَرِحَةُ والبروقُ والعرباتُ التي تحمل الى القرونِ القرونَ دروعَ القرون. لطالما لمحتهُ يعبُر نافذتي في قناعِ السنابل، صقيلاً كماسة، تتلألأُ في عينيه مَجَرَّاتٌ من الدمعِ والأشكال. لطالما نظرَ إليَّ نظْرَةَ الشقائقِ فاهتزَّ قلبي، لكنَّما البعيدُ يُمْعِنُ في ركضه، والقريبُ يجتاحُ، فلا أراني إلاّ في نشيديَ هذا، في كَمِيْنِ النشيدِ، رابضاً للوقتِ بفأسٍ فُخَّاريٍّ وحفنةٍ من أنينٍ تنثرُهُ ديلانا حولَ بيتها.

يا لَلأنينِ إذاً،

يا لَهبوبِ الأنينِ:

لم يبقَ عاشقٌ. كلُّهم مضوا. كلُّهم دحرجوا جُمَانَةَ الروحِ الكبيرةَ الى المُنحدرِ ومضوا. كلُّهم أفاقَ، ذاتَ صباحٍ، فألفى قلبَهُ نائماً بَعْدُ، فانحنى ومضى.

يا لَلأنينِ إذاً:

يخلقونَ أمواجَهم ويكسرُونَ الصواري.

فَلْتَنَمْ يا قلبُ فَلْتَنَمْ قليلاً. فما أنتَ إلاَّ دنٌّ يتعاقبُ الضائعونَ عليه، أو الغزاةُ الذين يعبثونَ بالفتوحِ وينسونَها.

فَلْتَنَمْ

فَلْتَنَمْ.

(لم تَنَمْ ديلانا بَعْدُ.

نامَ بَعْلُها ولم تنمْ هي بَعْدُ.

نِصْفُها لديرامَ، ونصفُها لابنتيها.

نصفها لبيتٍ، ونصفها للعراءِ.

إنها حَيْرَةُ العصورِ والمكان.

إنها حَيْرَةُ النشيد الأبكمِ إذْ يُنْشدُهُ الجَسَدُ بين حبيبٍ وبَعْلٍ.

إنها حيرةُ الخيارِ كُلِّهِ، حَيْرَةُ الخَبْطَةِ التي تُفَجِّرُ ما يأتي، أو تمحو ما مضى.

آهِ... نِصفها ساهرٌ هناك، ونصفها ساهرٌ هنا.)

فَلْتَنَمْ،
فَلْتَنَمْ أيُّها الهاذي.

(لم يَنَمْ ديرامُ بَعْدُ.
نامتْ صديقتهُ الجديدةُ، ولم يَنَمْ هو بَعْدُ.
نامت المدينةُ والأنقاضُ، ولم يَنَمْ هو بَعْدُ.
نامت الجُسُوْرُ ولم ينمْ هو بَعْدُ.
نامت المياهُ والغيومُ والأرواحُ ولم يَنَمْ هو بَعْدُ.
نامَ الشجرُ،
والسهلُ،
والحكاياتُ،
ولم يَنَمْ هو بَعْدُ.
نامَ الغاضبونَ، ونامَ المساءُ، ولم ينمْ هو بَعْدُ.
كُلُّهُ لديلانا،
كُلُّهُ لحَيْرَة لا تَصلُ أحداً بأحدٍ.
آهِ، لم يُخَيَّرْ في الأمرِ:
جاءَ الكهولُ وقضوا أن تَظَلَّ ديلانا لبعْلِها).

فَلْتَنَمْ،
فَلْتَنَمْ أيها الهاذي،
فما قَلْبُكَ إلاَّ قلبٌ، وما أنتَ إلاَّ دليلُ عاشقيْنِ لم يُكْمِلا نَهْبَ روحَيْهِما.

الفصل الثاني / تعريفات

ديرام

هو ما أخبرتُكُمْ، هو ما أخبرتُ الصلصالَ والهواءَ: فتىً رهيفٌ كأمسيةٍ هيَّأتْها النساءُ لمديحهنَّ. فتىً خجولٌ، ساقت الجداولُ طميَ أعماقه إلى البحرِ، فتصيَّدَتْهُ مصبَّاتُ الحجر. كان يجفلُ، أول الأمرِ، من الحجرِ الصاخبِ، الحجرِ المديدِ ذي النوافذِ، المُتَبرِّجِ أبداً ككاهنةِ الحربِ. غير أنه تَقَلَّدَ دهاءَ الوالي فاستنسخَ طباعَ الجُسُوْرِ، وباركَ الجموعَ التي لا تَبْتَسِم. لم تكنْ سلاماً تلكَ الهُدْنَةُ، فالحقولُ التي واكبته بأجرامها الخنشاريَّةِ ظَلَّتْ تنفخُ في بوقها، حيناً بعدَ آخرَ، وظلَّتْ صباحاتُ الشَّمالِ تشحذُ، قرب المدينة، مناجلَ الحنينِ... إيْهِ ديرامُ، كنتَ تقولُ: «بقُبْلَةٍ تبدأُ الملهاةُ،

بقُبْلَةٍ تبدأُ الحربُ كلُّها.

بقُبْلَةٍ خفيفة تَتَمَجَّدُ رويداً رويداً،

وتَكْتَنِزُ كماً يَكْتَنِزُ الخنوصُ.

بقُبْلَةٍ يبدأُ هذا كلُّهُ،

بقُبْلَةٍ خفيفة تمتلىءُ بصخبِ رجلٍ وامرأةٍ، بصخب جسديْنِ يجوِّفانِ موجةَ العَضَلِ ليُخَبِّئا أعضاءَهما، كلٌّ في مقبرةِ الآخرِ الحيَّة.

هكذا يكتملُ جدالُ رجلٍ وامرأة، جدالُ أحشائهما، حيثُ يستيقظُ وريثُ القُبْلَةِ الخفيفةِ ليَرِثَ الغضبَ كُلَّهُ، والملهاةَ كُلَّها».

كنتَ تقولُ هذا ديرامُ، وتنفخُ بوقَ الحقولِ، رهيفاً كأمسيةٍ هيَّأتْها النساءُ لمديحهنَّ. لكنك انسَلَلْتَ إلى الوحْشَةِ، أخيراً، لتسمعَ النَّفيرَ الأبعدَ، النفيرَ الذي لا يوقظُ إلاَّ الأنقاض.

ديلانا

كلَّ يومٍ تفتحُ البابَ ذاته لابنتيْها.
كلَّ يومٍ تُعدُّ المائدةَ ذاتَها لابنتيها.
كل يوم تتفرَّسُ البَعْلَ ذاته.
وهي
منذُ
عشرين
عاماً
تتفرَّسُ البعلَ ذاته.
وغَدُها هو الغَدُ الذي مَضى، غَدُ الحركةِ ذاتِها والشُّرُوْدِ ذاته.
هي ما أخبرتكم. هي ما أخبرتُ الصلصالَ والهواءَ، وقد انْسَلَّتْ إلى الوحشةِ، ثانيةً، لتسمعَ النَّفيرَ الأَبْعَدَ، نفيرَ أعوامِها الواقِفَة، كالوَشَقِ، على هضبةٍ لا فرائسَ حولها.

التَّيْتَل

حكيمُ الفصيلةِ، بَلْهَ الحكيمُ الأبهى، يرفعُ شارةَ الحيوانِ ونذورَهُ إلى ملوكِ العراء، صاعداً هابطاً ذلكَ السفحَ الصخريَّ المُشْرِفَ على خيامِ المغيبِ، حيث أوَتِ الصواعقُ إلى السريرِ، وتركتْ نارها، خارجاً، توقظُ في الظلالِ مُجُوْنَ الظلالِ، وفي الهواءِ طيشهَ الملكيَّ.
حكيمُ الفصيلةِ الصامتُ يرفعُ قَرْنَيْه، عالياً، فوقَ غمامِ الجبلِ، كَمَنْ يُرْشِدُ الحجرَ الشارد.

الوَشَق

السليلُ الحائرُ بين شَكْلِ القطَّةِ وشكلِ النّمرِ، سليلُ الهِرَرَةِ وروحها الباكية،

يقتربُ، في حذر، من طريدته الأخيرةِ، زاحفاً تارةً، مهرولاً تارةً أخرى، مُلَطَّخَ الشاربيْنِ بدمِ فريسةٍ لم يجفَّ بَعْدُ.

إنها الطريدةُ الأخيرةُ للسليلِ الحائرِ، فهو لا يسمعُ، في بُرْهَاتِ انشغالِهِ المثيرِ الآنَ، الزَّحْفَ الصامتَ لشبيههِ الأقوى - كَوْجَرِ الصُّخورِ.

لكنه سينقضُّ، بعد قليلٍ، على الطريدةِ، وسينقضُّ عليه الكَوْجَرُ.

أووهِ، أيها السليلُ، إنها الطريدةُ الأخيرةُ.

السُّلُوْقِيّ

إنك الرِّهانُ،
وليس عليكَ، أنتَ الرَّشيقُ، أن تهدأ قَطُّ.
ستركضُ طويلاً.
ستظلُّ راكضاً من دغلٍ إلى دغلٍ،
ومن هَوْرٍ إلى هَوْرٍ،
تنقلُ الطرائدَ القتيلةَ، بفمكَ، عبر المياهِ،
أو تستنفرُ البَطَّ ودجاجاتِ الحقولِ على مرمى سهامِ الصيَّادين.
مُدَلَّلٌ أنت، ولكَ الحَظْوَةُ في الطعامِ الأنقى،

لكنهم سيسدِّدون إليك، ذاتَ يومٍ، رِمْيَةَ المُشفقيْنَ، آنَ تخذلكَ قوائمُكَ النحيلةُ، ورئتاكَ اللتانِ تشمَّمَتا مخابىءَ الفرائسِ المذعورةِ، وستحيا، من بَعْدِكَ، طويلاً طويلاً، طيورٌ شَتَّى، وحقولٌ لم يطأها أسيادٌ يتبعونَ كلابَهم.

الهدهد

كأنَّما عَزَلَتْكَ الطيورُ،

كأنَّما أَفَقْتَ ذاتَ صباحٍ فاستوحشْتَ المملكةَ فاعتزلْتَها، هارباً من الينابيعِ إلى الينابيعِ، وليسَ لك من سيماءِ المَلِكِ غيرُ قَنْزَعَةٍ وطبْعٍ كطبعِ الكهولِ.

غير أنَّكَ مَرْصَدٌ حيٌّ،
يسمعُ اليباسُ تحتَ جناحيْكَ طبولَ المياهِ.

البَشْرُوْش

الرَّزِيْنُ الأبكمُ يُفْرِدُ جناحيْه فوقَ البحيرةِ،
منقارُهُ الى أسفلَ، وعيناهُ تستطلعانِ الحركةَ المَرِحَةَ لثعابينِ المياهِ وذباباتِها الخضراء .
لَشَدَّ ما يريدُ الطرائدَ حزينةً حين ينقضُّ من الأعلى،
لكنَّها مَرِحةٌ بكماءُ،
مَرِحةٌ في المياه المرحةِ،
وذلك ما يحزنُهُ،
ذلك ما يحزنُ البَشْرُوْشَ الأبكمَ فيظلُّ منقضّاً، سُلالةً إثْرَ سُلالةٍ، على المَرَحِ الأبكمِ للمياه.

السنجاب

تتدحرجُ حبَّةُ البندقِ الأولى من الأعلى.
تتدحرجُ الحبَّةُ الثانيةُ، والثالثةُ، والرابعةُ، والخامسةُ، والسادسةُ من الأعلى.
حبَّةً حبَّةً يتدحرجُ البندقُ تحت الشجرة البلهاءِ، الشجرةِ التي يجمعُ السُّنجابُ ذاكرتَها حَبَّةً حبةً، ويدحرجها الى وكْرِهِ.
ذاكرةٌ من البندقِ تتدحرجُ، كلَّ عامٍ، حَبَّةً حبةً، إلى وكْرِ الأميرِ ذي الذَّيْلِ المَرِحِ، والشجرةُ تَنْسَى.

١٩٨٠

بالشبّاكِ ذاتها،
بالثعالب التي تقودُ الريحَ

فهرست الكائن

الحيوان الأخير

هذا هو أنتَ،
أيها المنتفضُ تحتَ بروقِ الحبرِ. هذا هو أنتَ،
وقربكَ ظلٌّ سكرانُ،
ظلٌ مما تلقيهِ الأرضُ، في غروبها، على رغيفِ الكائنْ.

هذا هو أنتَ،
صلبٌ كروحٍ صلبةٍ يرنُّ على حوافها قرعُ عكاكيزِ الظلامِ المائةِ،
وخلفكَ مائةٌ من النساء يطحنَّ، في جُرنٍ واحدٍ، يقظةَ البطولةْ.

هذا هو أنتَ،
دأبُكَ دأبُ المؤرِّخ، لكن تؤرِّخُ المياهَ وحدَها.
بسيطاً تؤرِّخ المياهَ. بسيطاً تُغوي الحبرَ ليتهيأ الحبرُ لسباتِ الكلامِ،
لتبقى وحدَكَ يقظانَ في حلمِ الحروفِ؛ يقظانَ حتى آخرِ انتحارٍ للأرضِ قربَ مرآتِها.
تهيأ، إذاً؛
تهيأ للذي ينثرُ الحديدَ في روحِهِ،
ويحرثُ المساءَ بمحاريث البحرْ.
تهيأ أيُّها المبذرُ شموسَهُ،
سيأتي المهرجونَ، وحاملاتُ اليقطينِ اللواتي يمضغنَ الفحمَ بأسنانهنَّ النهريةِ.

سيمتدحونكَ، جميعاً، ببوقٍ واحدٍ، كما يمتدحُ الموتى موتهم ببوقِ الظلامِ، فأنتَ أنتَ، مُمْتَدَحٌ أبداً بشعبٍ سهرانَ على ودائعِ الأنينْ.

تهيأْ أيها المتكيءُ على الشتاءاتِ،
فغيمٌ لا يستلكَ لا يستلُّ الرعدَ،
وريحٌ لا تهتدي إليكَ لا تهتدي إلى الهبوبْ،
كأنكَ الحانةُ، تغرفُ الأرضُ من يديكَ النبيذَ، وتُفْشي أسرارَ طينها.

ومحبوكٌ أنتَ،
محبوكٌ كالعضلةِ، أو كالجناحِ؛
مشاعٌ، ووقتُكَ وقتُ رفوفٍ من اللقالقِ تعبرُ الهذيانْ.

تُسمَّى،
ومن يُسَمِّك يسمِّ قلبه،
تسمَّى، ومنْ يُسمِّك يُسَمِّ الرئةَ الخفيةَ لأقدارهِ.

هيا،
أحْكِمِ الأرضَ عليكَ؛
أحْكِمْ رتاجاتِ الغضبِ الألفَ،
وافتحِ البابَ لتختطفَكَ الصرخةْ.

الفراشة

رفرفي؛ يا مسافةَ القبلِ، فلكِ ينهضُ الحدادون بمطارقِ الضوءِ، وتغزلُ النساجاتُ بمغازلهنَّ خيوطَ الفصولِ. رفرفي على مدايَ المطوَّقِ بحماماتِ الصلصالِ، فإنتِ شاغلةُ الدم الذي يتلفَّتُ من مناراتنا مستطلعاً هزائمَ الدمِ، وجناحاكِ صفحةُ الكاتبِ المدونِ قهقهةَ الحديدِ. رَفْرفي، رَفْرفي.

كنتِ، من قبلُ، خاتمي إذْ يرفعُ العارفونَ خواتمهم، وكنتِ التماعةَ الأرض على

مهمازيَّ إذْ تَخزُ الجذورُ مهارَها بمهاميز النعمةِ، لكنْ لا مديحَ في شفتيَّ الآنَ، وقلبي طرقةُ الحاضرِ على صفيحِ الحاضرِ. رَفْرِفي.

رَفْرِفي يا ابنتي، رَفْرفي
فالبروقُ تتلمَّسُ الدربَ إلى جبيني بعكاكيزها.

رَفْرِفي، رَفْرِفي.

الفقْمَة

أنشدْ نشيدكَ على صخرةٍ عاليةٍ، واجمعِ الريحَ كلَّها قربَ ثدييكَ، فأنت تفطمُ البحرَ الآنَ، وتهيبُ بالمرضعاتِ أنْ «هدهدنَ وليدي على سريرهِ الرملي»، فما مِنْ عويلٍ سيعلو عويلكَ آنَ يأخذُ القطيعَ ذكرٌ آخرُ، وما مِنْ أنينٍ سيواسي الأنينَ آنَ ترى إناثَكَ يتوسلنَ فحولة الغريب.
ولينشدْ قطيعُكَ الأنثويُّ، أيضاً، نشيدَهُ؛ قطيعُكَ الذي يتبعُ الغالبين، وليبقَ الرملُ في زَرَدهِ ويدُهُ على مقبضِ المياهِ، فبابُك إليه، بابُكَ المُفضي إلى جهةٍ أمينةٍ ككلبِ الضرير.

رذاذٌ يبللُ الجلدَ البهيَّ قبل أن ينحدرَ الجسدُ إلى سلامهِ؛
رذاذٌ يبللُ الأبديةَ.

الحُباحِب

العائدون من أعماقنا يضيئون فوانيسهم الصغيرةَ. نعرفهم، أو نكادُ. عابثون في حُنُوٍّ، قلقون كالكلامِ، فعلامَ نجمعهم، ثانيةً، في المدى ذاتهِ؟ علامَ نهدهدُ في الأسرَّةِ المُعلَّقةِ شَبحَ الأرضْ؟
إنهم عائدون، أنجزوا الضربةَ بخناجر النبيذِ، ونضدوا الأباريقَ الملأى بعافيةِ النسيانِ، هاتفين بنا: اجلسوا. هذه أعماقُكم؛ هذه صباحاتٌ تتقافزُ كالقردةِ فوق

غصونِ المتاهْ.

حُباحِبٌ هُمُ؛
حُباحِبٌ أومضتْ في الظلامِ فكسرنا سريرَنا.

الحجل

كانَ ما كانَ: مرحٌ سلَّ السفوحَ كسيف؛ مرحٌ سلَّ الفضاءَ وأهوى على الأعشاشِ فتطايرتِ الأرضُ سُماني، ونُحاماً، وكراكيَّ، حتى امتدَّ برقٌ من الطير بين غد ضائعٍ، ومديحٍ ضائعٍ، فقلنا تطايري، تطايري أكثرَ يتُها الأرضُ؛ تطايري بجعاً، ونِمْنِماً، وغرانقَ، ولتتطاير حولَ ردائكِ الغضاريِّ سلالاتٌ وحباحبُ من فضةِ اليأسِ، فلنا في النشيدِ أرضٌ أخرى، رخيمةٌ كَغَبْغَبَةِ حجلٍ يستدرجُ الأنثى.

حجلٌ؛
تذهبُ الأرضُ ويبقى حجلٌ في المدى.
حجلٌ؛
يذهبُ المدى ويبقى حجلٌ في النشيدِ.
حجلٌ؛
حجلٌ أفقُنا. حجلٌ ظلُّنا. حجلٌ بدايةُ الكلامِ. حجلٌ كلامُنا.
حجلٌ، حجلٌ. إشهدي يا مدارج تهوي إذ تهوي الأرضُ،
وأكتبْ أيها اليأسُ بالريشةِ الباقيةْ.

القطاة

البراري تُلقي خاتمها المضفورَ من نشيدٍ وريشٍ على المائدةِ، وتنهضُ غضبى فينهضُ الغبارُ الوصيفُ، وتنهضُ الحاشيةْ.

البراري تهرولُ في البلاط المغلقِ بأقفالِ الصباحاتِ؛ والبراري تخلعُ قفازَها المائيَّ

وخفَّيها المائيينِ، صاعدةً إلى شقيقاتها اللواتي يستعرضن، من المشارفِ، قوسَ قزحٍ سكرانَ، وأعراساً تنسجُ السنابلُ فيها سراويلَ للأرضْ.

البراري تركضُ شعثاءَ، حاضنةً ملءَ رئاتها، أسِرَّةَ الجذور، والخيامَ التي نسيتها الصواعقُ في الحجرِ، غير أنها تتعثر بجناحٍ صغيرٍ؛ جناحٍ مرسلٍ كظلٍّ يغطي الظلالَ بشباكِ النشيدِ، فتلوي على ذاتها، وتوطِّدُ المكانْ.

لا فرارَ الآن؛ لا فرارَ في كلِّ آن:
البراري تتكيءُ على عمودها الأزرقِ، وقطاةٌ تسردُ المدى.

اللقلق

مَنْ للأبيضِ الحزين؟ مَنْ لعشبٍ يعرِّي بناتِ النهر؟ منْ لضفافٍ تسرقُ شمعدانات المياه؟ منْ للريحِ تتشبثُ بساقينِ نحيلتينِ، ومنقارٍ يلتقطُ الريحَ من برْكةِ النهارِ؟ منْ لأنينٍ يرتدي قلنسوةَ العرسِ؟ منْ للربيعِ، شرُطيِّ الفصولِ، الآمرِ باسمِ عذوبةٍ لمْ تكنْ؟

مشعشعاً كالصرخةِ يرتفعُ الأبيضُ الحزينُ في فضاءِ حناجرنا؛
مشعشعاً كالصرخةِ يرتفعُ الأبيضُ الحزينْ.

الحنكليس

أتذكرُ المياهُ: ذيلٌ يمسُّ الغدَ، وأعضاءٌ لينةٌ تجوِّفُ الحدودَ القريبةَ؟
أتذكرُ المياهُ: أبدٌ رشيقٌ في حراشفهِ الكهرمانيةِ، والأعماقُ الأكثرُ وقاراً تنثرُ عقود سُبَّحاتها؟
أتذكرُ المياهُ: حركة وزَبَدٌ. ضرباتٌ خفيفةٌ للعضل الجسورِ، والزعانفُ تومضُ في انسيابها فينشغلُ الضوءُ بإرثهِ من الظلالِ على الصفحةِ الساحرةْ؟
... وأنَّى تذكرُ المياهُ؛ أنَّى يشغلُها بهلوانُ الشعاعاتِ مُرسِلاً سهامهُ المضحكةَ؟.
وامياهاهُ؛ واعريناً من الزرقةِ يضمِّخُ أشبالهُ برعودِ الملحِ؛ واقرعاً يقرعهُ الصدى على

خوذة الأغاني، استحمّي بنشوة الزعانف الأقوى، وليني تحت عريكة الديك الزبديّ، فمياهٌ أنت، بلْ نشيدُ الرئة الهاذية لهذا المتمايل الطريّ، الراقص كظلامٍ يسلُّه الظلامُ في نشوته المتلألئة.

ذيلٌ، وأعضاءٌ متصلةٌ لينةٌ،
والحراشفُ تغمضُ على الماء جفونها فيبتلُّ بالحنينْ.

الخُلد

الأعمى، سبيُّ العماء المنمَّق كالأخيلة، يتنحنحُ قربَ الوكر، كأنما يتنشَّقُ عظةَ الينابيع، أو يلهو بمغزلٍ لا يراهُ. لكنَّ السنابلَ ترى، والجحورَ تفردُ لعينيه المغمضتين شراعَ العراءْ.

هادئاً يستطلعُ الغامضَ.
هادئاً يستطلعُ المدى الموحشَ كأعماقه الموحشة،
والهواءُ ريشتُهُ؛ الهواءُ صولجانٌ، وخيالُ حَسَبَةٍ تترنحُ تحت مهاميزهم الأرقامُ الحامضةُ، فبأيِّ هواءٍ يكملُ الناقصَ؟ بأيِّ هواءٍ يحسبُ صدى الضربة التي تزوِّقُ العماءْ؟

الأعمى يستطلعُ من جحره ذاتَهُ المديدةَ كشرخٍ مديد،
مستأنساً بدبيب الأفق الحفيد، وصرخة الأرض - أمِّ الظلام الحافية.

العنكبوت

بحلمٍ واحدٍ، وأذرعٍ كثيرة، تخيطُ الأعماقُ فضاءَها؛
وبأذرعٍ كثيرةٍ يشعلُ المساءُ قناديلَ أشباحه،
لكن،
هذه الشباكُ، التي تتخبطُ فيها فراشاتُ الأبد الثقيلةُ، ليستْ نسجَ حكيمٍ، بل

نسجُ طاهٍ يتذوَّق الغيبَ كما يتذوَّق الحساء.

(الطهاةُ لا ينسجون الشِّباكَ
الطهاةُ ينثرونَ توابلهم على الذي في الشباكْ)

ما همَّ، كلٌّ ينسجُ خطابَهُ بالأذرع الكثيرةِ الهادئة،
والسطورُ تتقاطعُ بالرفيفِ الهادىء لأجنحة الموتْ.

الحلزون

حَسْبُهُ أن يكون قريباً من وحشته القريبة. حسبُهُ أن يهزَّ قرنيه اللينين متلمساً غمامةَ ذاته التي تبلّل غُرَّةَ الظلام. حَسْبُهُ أن يموجَ في ضفاف الصَّدفة، مُصعِّداً في القشرة القاسية زفيرَ الحالم. حسبُهُ البسيطُ البسيطُ، الهيِّنُ الهيِّنُ؛ حسبهُ المغلقُ المشدوهُ بالبعيدِ المشدوه.

بيتُهُ معه.
يمضي فيمضي بيتُهُ معه.
مُفَكِّرٌ يجرُّ فكرتهُ الصدفيةَ، ويدخلُها لئلاَّ يراها.

الديك

الهرطوقيُّ، ذو الريش، يدلقُ محبرةَ الضُّحى فوق أوراقنا؛ يدلقُ الضُّحى بنقرٍ خفيفٍ، كأنْ هو جنينُ الشعاعات الأولى، التي تدلفُ ببغالها إلى الكثيفِ فتديرُ الرَّحى.

الزيز

رعاعُ الظهيرةِ، الملتفعون بمجدهم القاسي، يوقظونَ بوآقهم.

(انفخْ، انفخْ في بوقكَ أيها الزّيز).
والنفيرُ لا يوقظُ أحداً.
(انفخْ، انفخْ في بوقكَ أيها الزّيز).
طواويسُ غاضبةٌ تشقُّ بريشها الظلالَ،
والشجرُ الكهلُ يبددُ الحمى بمراوحه.
(انفخْ، انفخْ في بوقكَ أيها الزّيز).

لا لجيوش، بل لكسلٍ هذا النفيرُ.
وبواقُ المأساةِ الثرثارُ يحبُكُ الغبارُ أدوارَهُ، وتضحكُ من بوقهِ الظهيرةُ.

الطاووس

مِنْ هنا، من حدائقَ معلقةٍ في الريشِ، تنفضُ زوبعةُ اللونِ عنها غطاءَها، وتتناثرُ الريحُ تاجاً تاجاً، فما يُرى ليس إلاّ مهرجانَ الغدِ الحُوذيِّ في ظلِّ أمسهِ الحوذيِّ.

فليبكِ هذا الطائر.
فليبكِ ريشُهُ.
وابكِ، أنتَ أيضاً، يا مدلَّلَ الحاضرِ المتلصِّصِ من ثقبٍ في قفلِ الموتْ.

الفهد

خفيضاً فليكنْ صوتُ الرمادِ في الموقدِ الذهبيِّ لأعمارنا، فبعدَ قليلٍ يمرُّ الهباءُ المُجَنَّحُ سائقاً بناتهِ ومريديهِ؛ وبعد قليلٍ يمرُّ الجَليلُ الذي يوازن بين الخطى كما يوازنُ الأفقُ بين ذاتهِ ومرآتها.
بخطى خفيفةٍ يمرُّ الجليلُ، متشمماً سحابةَ الفرائس، كأنَّهُ رئةُ الترابِ، أو المدوِّنُ العارفُ بالذي ينسجهُ الهواءُ من أقاصيصهِ.

أيها الموقدُ الذهبيُّ،

بخطى خفيضةٍ، قربَ أعمارنا الخفيضةِ، يمرُّ الفهد.

العصفور

هَبْني خفَّةَ المهرجِ، هبني طعمَ خطوةٍ في الجحيم الأنيسةِ، لأهبَ الهواءَ سحرَ خواتمه الخفيفةِ، وليتبرَّجِ الفضاءُ حجراً حجراً، فبي طيشُ الماءِ وخفقةُ الشكلِ الذي يقامرُ بيواقيته. وأنتَ، أنت، ذاكَ، يا خفيفاً كمرساة الشعاعِ. تقدَّم لألاقيكَ بهبةٍ لا تُعطى، وامتحنْ ريشي بلهبكَ ذي العُرفِ اللازورديِّ، فأنا فكاهةُ الطيرِ، وثرثرةُ الريحِ التي تجرعَتْ نبيذَ أباريقها.

إلى أين تحملني جناحايَ؟؟
إلى أين أحملُ جناحيَّ؟

ضيقٌ كلُّ شيء،
ضيقٌ كلُّ شيءٍ.

اليعسوب

كغيمةِ ملحٍ ويودٍ؛ كصيفِ صائغٍ يتملَّى أقراطَ الظهيرةِ، والحجارةَ الأكثرَ بهاءً في الخواتمِ؛ كبابٍ؛ كرتاجٍ في البابِ؛ كفراغٍ تهَبُهُ الروحُ إلى وصيفها؛ كنقرٍ صامتٍ؛ كمناقيرَ تتخاطفُ الجذورَ.. ككلِ ذاكَ، كثقةٍ تُغوي، طنينُ هذا اليعسوب في مضجعِ الملكةْ.

... والملكةُ تستسلم للسيدِ.

والملكةُ تنثُر إماراتها كرذاذ الوميضِ على زَغَبهِ وجناحيهِ، في التحامهِ الأقصى بسلطانه الذكوريِّ.

وإذ يهدأ رفيفُ الأجنحة؛ الرفيفُ المضمخُ بنُعمى الهباتِ، وبالهمسِ الذي يبتكرهُ الجسدُ همساً في انقلاباته الدافئة... إذْ يهدأ اليعسوبُ، تدخلُ عاملاتُ النحلِ، فتتناثرُ الذكورةُ وسمسُمُها الخفيفُ؛

يتناثرُ الجسدُ حولَ ثُقْبِ القفيرِ،
ولمّا تَزَلْ بين زَغَبهِ فتافيتُ شهوةٍ وعسلْ.

الخفاش

ليس لي جراحٌ، فالخفيُّ توأمي، وأنتم بقاياي على حافةِ الصباحِ الأخيرِ، وإنْ حرتُمْ فيَّ فأنا ظمأُ الرحيلِ، ورنينُ الخطوةِ الفارغةِ في ملكٍ يتشبثُ بأشباح الندامى. أأسألكم: أيُّ شاهدٍ قال عني ما تعرفون؟ أيُّ شاهدٍ اختلطتْ عليه تفاحةُ الغيبِ فألقى عليَّ ظنوناً مما ينسجه ظلُّهُ المسكور قربَ قمرٍ مكسورٍ؟ هنيئاً لي بغبطةٍ تتعالى من فوانيس ذعركم؛ هنيئاً لجناحيَّ بالخفقةِ الساحرة في فراغٍ تحلجونَ قربهُ لهاثكم كالقطنِ، ياليَ، ياليْ.

طعمُ زبيبٍ وبندقٍ فوقَ لسانِ السهولِ،
طعمُ فلزٍ فوق شفةِ المساء،
وهبوبٌ نشوانُ للغامضِ يداعبُ الأجنحة كلَّها؛
وأنا،
خفقةً،
خفقةً، أتسللُ إلى المُطْمئنِّ لأبعثرَ كؤوسَ نشيدهِ.

ياليَ...... ياليْ.
ليس لي جراحٌ، والنهارُ أيقونةٌ تتدلى على صدرِ توأمي المقتولِ.

الثعلب

مجرةُ الأغاني تبسطُ فراءَها للمجراتِ، فاقتربوا، أيها المختالون، بفخاخكم الزرقاء، لتتصيدوا يمامةَ الحيلْ.
لكن، بأيِّ أحبولَة ستأسرون هذا المهرقَ كالقهقهةِ؟ بأيٍّ ستأسرون الرخيمَ مثلَ الانشاد للمياهِ؟ ليكنْ. خذوه، خذوا الطائشَ الجميلَ، فهو قرعُ الحكايةِ على

بابكم... إيه، أكانتْ لكمْ حكايةٌ قبلَ أن يمسَّ بذيلهِ الحكايةَ؟

تبدِّدُونهُ فيبقى.
تبدِّدُونه فتبقى يمامةُ الحيَلْ.

الحمار

آن يتخذُ سيّافُ الغيبِ كمالاً ككمالِ الظلامِ، وتركعُ الرياحُ الأسيرةُ، تغرورقُ عيناكَ، يا هادئاً ترى الذي ترى، وتكفيكَ من الأبدِ قضمةٌ واحدةٌ، فلماذا تأسى للوقتِ، ولماذا تضربُ بحافركَ على رخامِ بطشنا؟

يا حمارُ،
يا جدالَ الكسلِ المُرْبكِ، تلفَّتْ بعينيك الناعستين إلينا، وأطبقْهما، فإنكَ لن تظفر برؤىً مثلنا قط؛ رؤىً تمضي على زحافةٍ تجرُّها ديكةُ الثلجِ. يا حمارُ، يا شظايا كأسٍ ارتختْ يدُ النّديمِ عليها فهوتْ في الفراغِ مائة عامٍ قبل أن تتشظى، آضربْ بحافركَ، آضربْ بأذنيكَ، آضرب بالكسلِ المُرْبكِ هذه اليقظةَ السارحةَ تحت خوذاتنا، واغْفُ، فقدْ أغفى الوقتُ - ترجُمانُكَ الغاضبُ.

وديعٌ أنتَ، وتغرورقُ عيناكَ.

الغراب

أنا صغيركُم، أنا الخزفُ المتناثرُ من فوهةِ الأغاني، شقيقُ الهزائمِ كلِّها، شقيقُكم، أضعُ بيضيَ في أعشاشِ الرئاتِ، وأُغطِّي الخساراتِ بالريشِ. أنا... آه، كمْ مَلَكٍ مَرَّ بي، كمْ أساطيرَ، كمْ نهايةٍ. لا غدٌ لأحدٍ، غدي ضربةُ الرَّاعي بعصاهُ على تيسِ الجهاتِ، فإمَّا شردتْ جهةٌ عادتْ إلى أحابيلها.
ذَرُوْني إذاً. ذَرُوْني وهدأةَ الروحِ المشقوقةِ كلحاءِ الشجرِ، وابتعثوا المكانَ يجيءُ إليَّ بحوصلةٍ مُرَّةٍ، فعلى المائدةِ مُتَّسعٌ للهباءِ كلِّهِ.

أنا،

أنا،

لا انهدامَ إلّأي. شققتُ مسافاتكم فتهدّلتم من الشقوق سلالاتٍ ترفو الغمامَ والثلوجَ، وأمعنتُ فراراً بجناحيَّ فتطايرتْ ساعاتكم في ظلّيَ كالريشِ. خرابٌ إذاً. هدأةٌ للخرابِ. وأنا الصَّخبُ المهرولُ في الحروفِ كلّها.

غُ رَ ا بٌ... اهدأوا.

النسر

أهو وصيُّ الأقاصي يدوِّنُ مديحَ الأقاصي، أمْ سَهرُ الريشِ على حَجَرِ المكان؟ لا يا سَهَرَ الريشِ، لا واسعٌ أو مـديدٌ إن تراءى من جناحٍ؛ لا جناحَ لو لم يفق الواسعُ المديدُ. وأنتَ، عالياً، على أيِّ حالٍ، تغزلُ الخيالاتِ، وفي ظلّك يتماوجُ الصلبُ. مُرَّ، واخفقْ كنبضةٍ في الغدِ العالي، غدِ العاصفةِ وَحْدَها آنَ تقرعُ الفراغَ القديمْ.

مُرَّ، لا:
فليَمُرَّ الفضاءُ الحيرانُ في ظلّكَ المُحيِّر،
وَلْيَخْلَعِ المرئيُّ مهاميزَ عصيانهِ.

بيروت - ١٩٨٢

الحديد

رُبما ذكَّرني الوردُ بنفسي،
رُبما ذكَّرَ بي الوردُ رمالاً حُزمتْ كالنَّفسِ
قبل أن يُطلِقها البحرُ متاريسَ، ويأتي بسدودٍ.
رُبما ذكَّرني البحرُ بإطراقته
حين أطرقتُ، وأفضى بي إلى ماءٍ طريدٍ:
كلُّ منفى صحوةٌ، فاكتملي
يا جهاتي بكمالِ نزقٍ،
واكتملْ يا رعبُ؛ هل باركتَ أنقاضي برعبٍ ثَمِلٍ؟
ربَّما. لا. يا حديداً
مُترَفاً كاللَّهوِ، لاهٍ بالحديدِ
باركِ الفِلزَ الذي يصحو على فِلزِ نشيدي.
يا حديداً مَرَّ بالبالِ فأصغى البرعمُ الصَّلدُ لتاريخي إليهِ
وتدانى ظلّيَ اللاّهي لكي يُلقيٍ عليه
حفنةَ الريحِ التي ألهمتِ الحيَّ بلاغاتٍ. كأنْ منْ ثمري هذا: رنينٌ صاعدٌ في الجذرِ،
أقدارٌ، وحمى حجرٍ. لا بأس، ماذا يا حديدُ؟
مَرَحٌ ينسجُ ميعادي، ويُفلي، ويُعيدُ
فكأني هربٌ. قُمْ يا ظلامُ. آجتهدي يا شجراتُ
واقرأي يا ضربةَ السهلِ سفوحي:
طائرٌ هَذَّبَ ينبوعي، وآوتني مهاةُ

فغدي يصحو وقد طوَّقهُ شرقانِ: هَذْرٌ، ووعيدُ.

آهِ كَمْ كان يعيدُ البرقُ ما أنسى، وينسى فأُعيدُ.

يا حديداً مُشرِفاً مثلي على الحيِّ تُراكَ انبجستْ أيامُكَ الدِّفلى فغطَّيتَ مدى الحيِّ، وألهمْتَ مديحي
أن يكونَ الساهرَ الممسكَ بالأنقاض؟ أن يُمْهِلَ ما لا تُمْهلُ الأرضُ؟ كريحٍ سَيُقادُ الماءُ في نهب، ويعلو غامضٌ في كل عيدِ.
يا حديداً كالحديد
يا مدى بَوْحٍ يُسمّى كلَّ بوحِ
فلتكنْ في غَمْرِكَ الحلو صنوجٌ، ولأكنْ باباً إلى الصَّلْدِ الذي يُعطيكَ مجدَ المعدنِ الحيِّ: سَأَرْفضُ كَلَمْعٍ، وسيأتي الأزلُ
هازلاً بعدي، وبعدي
ككتابٍ سوف يُسْتقْرا الغدُ المُرْتجلُ.

يا حديداً كأنيني.
يا حديداً يقرعُ الحاضرُ شُبَّاكَ النَّبيِّينَ بهِ.
يا حديداً بَعْدُ لم يُمْتَهَنِ
لَمَديحٍ ليس يستنفدُ ما يجعلك الآن إلهيًّا. جبيني لك، أو عذريَّةُ الماء الحصينِ.
يا حديداً... إيهِ، كم جذرٍ سيستوقدُ من جذركَ أعنابَ رفاهٍ،
وكَمِ الصاخبُ قد يستلُّ من وهْجكَ أقمارَ السكونِ.
لُعَبي كونٌ، فإنْ مرَّت بي الريحُ اقْتصدْ بي في هبوبي
فَلِمَنْ أمحو ثُريًّا لهبي الهاذي، ومِلْكي، وشعوبي؟
ليْ يقينُ المُهْلَة الأكثر فضْلاً،
وليَ الأبقى مِنَ الفجرِ الأمينِ.
وحديدي أنتَ. هل يكْبرُ بي إلاَّ حديدٌ؟

غير أني ممعنٌ في شأن ما لا شأن يُغويه: شظايا حملتْ حلمي إلى تلك الشظايا،

وتفجَّرْتُ فأغلقتُ كتاباً كانَ. ما مثلي سوى الضربة إنْ رنَّتْ ترامى ضيِّقٌ، إنْ رنَّ قبري في القبورِ اتَّسَعتْ. صنجٌ هوايَ. ابتعدي يا ريحُ. أنقاضٌ تحثُّ البحر أنْ يجثوْ، ومهْدٌ يركضُ

بوليدِ الماء، فالأيامُ نَسْلٌ عَرَضُ.

ولأني... أين من آنٍ أحاذي جمهراتِ الرعبِ كي يشتغِلَ الرعبُ بأقداري.

أرعبٌ بعدُ؟ أمهلتُ الشظايا

ساعةً، قلتُ: استعيدي

جسدي عُرساً، وفيضي بالهدايا.

ولأني... ليت يا الآنُ أغنيك كحبرٍ غمَّستْ أقلامها الأسماءُ فيه.

ليت... ما هذا بتيه

بلْ نبوءاتٌ تقلَّبْنَ على مخْدَعيَ المائيِّ فاستشرفتُ في الموت هوايا

وتزيَّنْتُ بأسراري التي تغسلني

كشهيد، وحملتُ الجسدا

غافلاً عمّا تهاوى منهُ، مشّاءً به، مُتَّئدا.

ولئنْ أسرفتِ الأجرامُ في نهبيَ، فالأشياءُ تعدو

بي، وترفو الريحُ ذاك البَدَدَا

يا حديدي، أنتَ، يا الهذا بثدييكَ على أفواهنا

سنروِّيكَ، التقطْ أثداءنا:

كلُّ موتٍ سلَّةٌ مثقوبةٌ،

كلُّ غيبٍ درجٌ ينزلهُ الغيبُ إذا ما ابتعدا

فكأنْ دورةُ هذي الروحِ لا تعرفُ إلاَّ موجَنا

وكأني ـ يا الهباءُ الثَّمِلُ،

يا ثُمالاتي التي تُهرقني

مثلَ حبْرٍ غمَّسَتْ أقلامَها الأسماءُ فيه،

وارتداهُ الأزلُ ـ

موشكٌ أن أبعثَ الأنقاضَ في هيئة ما ليس بأنقاضٍ، واسترسلَ في نجوايَ: طينٌ مدني. طينٌ أساطيريَ. بحرٌ قال ما لمْ يَقُلِ الشعبُ. «ألا تعترفين الآن؟ ماتت ـ يا

فتاتي ـ أمَّهاتُ النبعِ، ماتَ التَّيْتَلُ الأخضرُ. شمدينُ تهاوى مرةً أخرى على باب الحكاياتِ. عروشُ وملوكٌ بقيتْ. تعترفين؟ اعترفي مثلي بتاريخٍ غشتْني سَوْرةٌ منهُ فلم ألمحْ سوايْ.

كان تاريخاً هنا،
واقفاً كالكلب قدَّامَ السرايْ
كان تاريخاً، وقدْ زيَنْتُهُ ـ
أو توهَّمتُ ـ بشعب، فإذا البحرُ سلاحي ويدايْ
وإذا المنفى الذي يُشْهرني يُشْهرني
مِزَقاً في رمحهِ العالي. فتاتي اعترفي». لا. موشكٌ أنْ أغرقَ البحرَ بمدحٍ. موشكٌ
أن يقتفي الماءُ رغيفي كعصافيرَ، وأبنائي يشدُّوْنَ الصَّواري
بقلوعٍ، أو يرجُونَ المجاذيفَ التي ضمَّخها
عَبَقٌ من غديَ الفاتحِ. عودي كحصارِ
يا غواياتٍ رميتُ القلبَ في خوذاتِها،
وتغاويْتُ. ألا يجمعني
غيرُ منفايَ؟ ككلبٍ يقفُ التاريخُ إذ يُشْهرني المنفى الذي يُشْهرني
وأنا العَنْدَمُ، بل ريحانُ ما ينبضُ في هذا الغبارِ
فالمواعيدُ مواعيدي، وما من خبرٍ إلاَّ تناهى خيطُهُ من كفني.

... والحديدُ العذبُ ينسابُ. أعُمْرٌ يا حديدُ؟
هَزَّني السرَّوُ قليلاً، هزَّني الشُّوحُ، وألوى
حلميَ الصفصافُ فانداحَ النشيدُ:
كمْ رعتني القُنبلةْ
كيتيمٍ؛
كمْ بكتْ حولي العماراتُ بكاءَ السنبلهْ
واستظلَّتْ بي متاريسٌ، وآواني البعيدُ.
أأبٌ، إبنٌ أنا
للمسافاتِ؟ أمِ الحاضرُ غمدُ الزَّلْزَلهْ؟

صعترٌ بابي. رأيتُ الماءَ في هيئةِ سيفٍ
كُلّما أهوتْ به كفٌّ عليّ
عُدْتُ، في النشأة، ميراثاً من الزَّهْرِ الحَيي.
غير أني حين أهوي بسيوفِ الماء تنهارُ بلادي:
ضربةٌ تُحيي بلادي،
ضربةٌ أخرى تُميْتُ.
شرَكاً كانتْ كمثل الله، تنهدُ فتنهدُ جيادي.
وكبابٍ مغلقٍ كانتْ أمامي وورائي
يفتحُ المَنفى ليَ الأفقَ فأرمي درعيَ الأخضرَ للمنفى، واستصرْخُ ماءً فيُنَجِّيني بماء
فإذا ما التفتتْ عيناي للباب غشاني الظّلموتُ:
ضربةٌ تُحْييْ إذاً،
ضربةٌ أخرى تُميتُ.

يا بلادَ الرعبِ كم كنتُ وحيداً.
يا بلاد الرعبَ كمْ أسرفتِ في قتلي فأمسى قلبُكِ الأبكمُ كالجرحِ وحيدا.
أأبٌ، إبنٌ أنا
للمسافاتِ، فلا أعرفُ إلاّ خشبَ المنفى حديدا؟

فليكنْ. أغلقتُ تاريخي كما يُغْلِقُ حوذيٌّ على الاسطبل، واسترسلتُ في نجوايَ: بيتي كان في الحيِّ كبيت، يَردُ المُتعبُ ظلاًّ في كراسيه، ويُلقي رأسه للشرفةِ البكماء كي تمزجَ بالاهداب غيماً، وعماراتٍ يلوح الأفقُ في أهدابها نهباً لفأس المعدن العاريٍ. وبيتي كان بيتاً في حصار الروحِ، آواني من العُزلة، أوى الليلَ من فجرٍ جحيميٍّ. وكانتْ قُبرَّاتُ الطين ترميه بأعشاشٍ من الدمع، ويصطادُ الفراغُ العابثُ الأشياءَ من إسمنْته.

وأنا في سَمْته
آيةٌ كالنَّرْدِ، أَلقي بي إلى الأعماق حيثُ العُمْقُ صوتي.
كان بيتي رحلةً كالظمأ الحلوِ، وكانْ...
أينَ بيتي؟

كسرَ الكأسَ على هذا المكانْ
واغْتَلى حتى تشظَّى
فالندامى حجرٌ من حولِه، الآن، أساساتٌ تهتَّكْنَ فعرَّيْنَ البيانْ.

سوفَ أستوفيكَ يا بيتُ من الأقدارِ كالفاتحِ يستوفي الجباياتِ. سأستوفيكَ باباً أزرقاً، سقفاً من القصديرِ، أدراجاً جُماناً:
[ستكونُ المكتبهْ
قربَ هذا البهوِ، والمدفأةُ
في جدارٍ ربما يعلوهُ رَسْمٌ قَدَريٌّ،
أو تصاويرُ حديد. وهنا الزاويةُ
سوف تَزَيَّنُ بالنَّبْتِ. وقربَ العتبهْ
بعضُ سجاد، وفوق النافذهْ
تتدلىَّ سُترٌ ملتهبهْ...].

سوف أستوفيكَ يا بيتُ. أما مِنْ حجرٍ
يهتدي بي، ويُهديني إلى تأويلِه الصاخب للبحرِ. أما مِنْ حجرٍ؟
حَمَلَ البحرُ مراياي إلى أقداره،
ورمى بالسَّفرِ
مثل عنقودٍ الى دالية الرملِ. أرَمْلٌ سوف يُهديني إلى تأويله الصامتِ للبحرِ؟
اشتعلْ يا ربُّ، هذي «خلدةُ» الدِّرع. نَبيُّونَ يجسُّونَ خراف الموج في «خلدةَ»، أنقاضٌ تعيدُ السِّيرةَ الكبرى لِخَلْقٍ ذاهلٍ. بوْحٌ نحاسيٌّ. مرايا.
حملَ البحرُ مراياي إلى أقداره،
فجثا كالطفلِ يستلُّ من الرملِ رُؤايا:
[خُفَّ. ذا تيسٌ حديديٌّ. تعمَّدْ ببريقِ القاذفِ
واعبرِ الشاطئَ كالبهوِ إلى ضوءِ بلاط،
حيثُ يقتادُ الملوكُ الأرضَ تحت السَّعفِ].

مثلَ عنقودٍ رمى البحرُ بأيامي، فالقيتُ إلى البحرِ بجمْعٍ مُتْرفٍ:

أُبَهيُّونَ، حِرابٌ ثَمَّ، أشكالٌ كما نُخبٍ سماويٍّ تهامَسْنَ بهِ
أمهاتٌ لم يُردْنَ البحرَ إلاّ خاتما
وتوشَّحْنَ وشاحَ الوقتِ، فاسْتَدْنَينْ وقتاً عَدَما
فإذا ساءلتَ: هل من جهةٍ؟
قُلنَ: آتتنا جهاتُ الروحِ خُبزاً عَنْدما.

يا فراغاً غنمتهُ الروحُ كُنْ
هندسيَّاً يا فراغُ.
خرجتْ أنقاضُنا من سرِّها،
وتجلى الأبدُ الثرثارُ قرْطاً هزَّهُ في الغيمْ زاغُ.
يا فراغاً جفلتْ منه عذاراهُ، اسْتبِقْنا يا فراغُ:
إنَّهُ طاووسنا الرمليُّ في «خلدةَ». أرضُ الأرضِ. ميثاقُ مياهٍ. ثَبَجٌ كالجوهرِ الغاضبِ. غمْرٌ مَرِحُ
فتشَّبثْ يا مدى الله بأكفانٍ وميضٍ:
كلُّ ذعرٍ يرتدي الآن دروع الفجرِ، والبحرُ الذي يلهثُ بَحرٌ شَبَحُ.

[كان في «خلدةَ» متراسٌ من الأُفقِ،
وفي الأُفقِ سرايا من مداراتٍ توزَّعْنَ القُبَلْ:
شفةٌ تنقَضُّ كالليلِ على حَلْمةِ هذا البرقِ،
أيدٍ تخطفُ الصخرَ كأقراصِ عسلْ.

كان في «خلدةَ» ما كان: امنحيني سُتْرتي،
وحذائي،
وسلاحَ التوأمِ الأكبرِ؛
هاتي بالجسارات كرُمَّانٍ، ودُليّ -
كي تَمسَّ الذَّكرَ البحريَّ في المكْمَنِ - عذراءَ الأزلْ].

يا فراغاً...

منجنيقاتٌ تدكُّ الفجر بالنرجس، والحلمُ حديديٌّ: هنا رأسٌ كبيروتَ على صحنٍ ترابيٍّ، مدارٌ، وسِلالٌ أحملُ الشرقَ على ظهري بها:
[هل تلصَّصْتَ عليّ
يا إلهي، من كُوى الطينِ، وأرخيتَ الغبارَ المرمريّ
فوق ثدييَّ الذُكوريَّينْ؟]. أطفالٌ هنا،
أجمعُ الأشلاء حتى أتخطَّاها إليّ
فأرى جسميَ ينبوعاً، يكادُ البحرُ أن يلمس من ذُعْرٍ بقايا شفتيّ.

خبئيني يَتُها الأقمارُ في سُنْدسِ هذا الغضبِ المُوصَدِ. خَبِّىءْ أيها الرملُ لهاثي في متاهاتكَ، فالموجُ مضيءٌ، وعلى «خلدةَ» أهدابٌ كأهدابي إذا ما انغلقَتْ
رفع الماءُ خياماً لجيوشي فوق ثدييه: [إلهي
غُضَّ طرفاً عن أحابيلي، فإنيِّ كالمتاهِ
أغسلُ الفجر كما الخوذة حتى أتغاوى
قربَ هذا الموت]... آه يا محاريثَ غمامٍ ورفاهِ
شفِّفي الأبعدَ، فالأبعدُ أعضائي التي أسْلَمْتُها
للأساطيرِ، وفي «خلدةَ» أسلمتُ الأساطير إلى لهوٍ، وحَبَّكْتُ الحِيَلْ:
[كان في «خلدةَ» تيهٌ وثَمَلْ
ومرايا يتخطَّى البحرُ آمادَهُ فيها
موشِكاً أن يُمْسكَ الشَّكلَ، ويصطاد الجبلْ].

خبئيني يتها الرَّوعةُ في رملٍ، حديدٌ نَفَسي
ولنبضي زَبَدُ
ساحَ في قلبٍ من الآجُرِّ مَكْبُوبٌ عليه الزَّردُ
فإذا كاشفتُ حرباً بمغاليقي استجارتْ
بحروبٍ، وانبرى كلُّ شرُوقٍ يَرِدُ.

هكذا عينايَ، واحْلولى غدي.

عجِّلي وابْتَردي
شُهُبَ الماءِ بذوبٍ من حديدٍ عسلٍ،
وخرابٍ عَسَلٍ؛
عجلي وابتردي.
لِحصاري سرُّهُ،
ولنهبي من جساراتٍ تطاوَلْنَ كسروٍ سرُّهُ،
ولأبعادي حفيفُ الأبد.

فليكنْ ما كانَ. شقَّتْ عن مراياها الثواني ظلَّ هذا العدم الضاحك، شقَّتْ موجةٌ أثوابها، وانحسرتْ ظمآى. (على «خلدةَ» رفٌّ من قطا ضلَّ سهولَ الأرضِ. هلْ «خلدةُ» أرضٌ خسرتْ هذا الفضاء الرحْب كي تربحَ من شوقٍ قطاها كفضاءٍ؟).

لا تكن يا موتُ مثلي عاكفاً في قلمٍ يسْطُرُ، والحبرُ حديدٌ.

لا تكنْ يا موتُ مثلي عاكفاً في ذهبٍ ينثرهُ الموتى على النبع الجحيميِّ. هنا «خلدةُ». (رفٌّ من ذباب الأزل أرْفضَّ عن الجرحِ السماويِّ). هنا «خلدةُ» قُمْ يا غضبُ؛

قُمْ بكهّانكَ، أعلى من حنينٍ،
مالئاً كفَّيكَ بالعنبرِ والماسِ، ترابيًا، تعضُّ الشُّهُبُ
نارَها الخرساء من حولك. قُمْ يا بحرُ، قُمْ
صَنماً بعد صَنَمْ
وشعوباً أيقظتْها زُرقةُ المَدْحِ الذي نَمَّ به المُرْتَقَبُ.

... وحديد. رُبَّ سربٍ من غزالاتيَ نقَّرْنَ على الموجِ الحديديِّ بأظلافٍ حديدٍ،
فتفَاجَّ البحرُ: ذُعْرٌ بعد ذعرٍ. أيْكَةٌ من زبدِ الخَلْقِ. رمادٌ خرزُ
كلُّ ذا في صرخةٍ واحدةٍ،
ونفيرٍ يتشظَّى البوقُ من إعْواله.
كلُّ ذا رمانَةٌ فتَّقَها الغامضُ؛ لا، ذا كَرَزُ
نثرتهُ القبضةُ الأشهى على ثدي... حديدٌ، أينَ منْ أحْواله
هذه الرعشةُ في كفّيَّ؟. (وا «خلدةُ» شُدّي رَسَنَ الرملِ قليلاً يحْفُنِ الرملُ منارات تناثرْنَ، وأشكالاً كَسَتْ أقدارَها بالبحر). عيناي على البحرِ، وأعضائي مضيقٌ:

[سقطتْ شُرفتُنا
من علِّيِّنْ، وطارتْ جارتي
كدخانٍ. حمل الشارعُ عكَّازيْه للملجأ فاجتاحَ الحريقُ
ملجأ الشارع. طفلٌ مَرَّ بالبابِ، ومن خلفه مرّتْ أمُّهُ
فَكَسَتْ أشلاءَها أشلاؤهُ.

سقطت شُرفتُنا
من لغاتٍ لم نكن نعرفها
سقطَ العالمُ من شرفتنا
في لغاتٍ لم نكن نعرفها،
فاستعانَتْ جارتي
بثُقَابٍ وهي تُؤوي موتَهُ في موتِها]

إنها أسماؤهُ؛
ذا حديدٌ، وهي ذي أسماؤهُ:
من رمالٍ تَصْهرُ الأعماقُ كالوقت فَماً
فيلاقيها بأثداءٍ تجلّتْ حولَها أثداؤهُ.

يا لأسماء. أعيني ضربتي يا أمُّ في «خلدةَ». بأسٌ مثل بأسي يصعدُ الأدراجَ من مَكْمَنِهِ البحريِّ. بأسٌ يعقدُ الشاطىءَ كالسُّترةِ من أزرارِهِ البيضاءِ. في «خلدةَ» يا أمُّ أعيْني حجري الأبيضَ كي يهوي ثقيلاً، وأعينيني لأمضي نحو ريحانةِ هذا الماءِ آنَ الرملُ يَتَشَبَّثُ كالأنثى بُخفِّيَّ، ويغدو النَّفَسُ
ضيِّقاً من حَيرةِ الروحِ. غداً تنبجسُ
ملءَ نافوراتيَ الأشكالُ حتى
يغدوَ الرملُ ظلاماً بجناحين؛ فمن يلتمسُ.
في رمالٍ لم تَكُنْ - سطوتَهُ؟. الآنَ أنا والبحرُ. لا شاطىءَ، لا برَّ، غُدَافٌ يصلُ الموجَ بموجٍ، وسنونو

يحملُ الأفقَ إلى أعشاشنا
فاعينيني على الضَّربةِ يا أمُّ بموتٍ لا يخونُ.

[مضتِ الطائرةُ الأولى، وعادتْ أُختُها
حين طارتْ شرفتي
فنزلتُ الدرجَ الأبكمَ محمولاً على الذُّعْرِ، فسدَّتْ جارتي
ببقاياها عليَّ الدرجَ الأبكمَ: هاكُمْ ثديهَا
لِصْقَ بابِ المصعد، الفخذَ هناكْ
في زوايا لم تعدْ إلاَّ زوايا،
وعلى السقف بقايا
من حذاء شدَّهُ كالصِّمْغِ لحمٌ. وإذا...
ما هَمَّ إنْ كان «إذا» أو كَانَ «ذاكْ»:
مِزَقٌ من كَبدِ الحاضرِ تحبو،
وملاكٌ أحمرٌ يلهو بأحشاءِ ملاكْ]..

كم تشبَّثْتُ بأعضائي التي سالتْ كماءٍ،
فإذا تجرفُ أعضائي يديْ
وإذا بالهاويةْ.
حيث عمرٌ من فراشاتٍ ـ تقودُ الأبْهيْ
صوبَ رعبٍ حاصرَ الحاضرِ بي.

أأنا الرعبُ؟ مديحاً هاتِ يا رعبُ، بغالاً ومحاريثَ، فإني دافعٌ «خلدةَ» كالطاووسِ في غابةِ هذا الزبد الشمسيِّ. ما الغابةُ؟ أقواسُ قُزَحْ تقرعُ البابَ، ولكني أسيرُ الخدرِ الآتي من البأس، وقلبي ذهبٌ، عُمريَ بَوْحٌ ذهبيْ.
أعْتقِ الحاضرَ بي..
أعْتقِ الحاضرَ بي،
يا نَشيدي، واعْبرِ الماءَ إلى هذا المَرَحْ.

كم تشبَّثْتُ بأعضائي التي سالتْ كماء،

فإذا يجرفني الماءُ الى «خلدةَ»: وارملاهُ حُثَّ الضربةَ الأبْهى لتبقى الآنَ أبهى، واختمِ الرعبَ بختمٍ أشقرٍ، فالأفقُ سَيَّافٌ، وهذا الظلموتُ الحيُّ يعدو كَسُلُوقيٍّ على الشاطىء. وارملاهُ أُحْكِمْ رِمْيَةَ الراكضِ من نرجسةِ الأرضِ إلى حُلْم المياهْ.

[مَضَتِ البارجةُ الأولى، وعادتْ أختُها

فتلقَّاها العُراهْ

بحديد لِيِّنٍ كالروح] هل كان الإلهْ

أزرقاً يا ماءُ كي يحضرُ هذا الهَرْجَ محمولاً على ثيرانِهِ الزرقاء؟ كمْ هرطقة توَّجَتِ البحرَ فأجفلنَ مراياي يرابيعُ استطارتْ من ضباب البحر. عهدي... أيُّ عهدٍ لكَ يا ماءُ؟ مديحي أشقرٌ كالصَّاعق. الشَّاطىءُ جَرْسُ الهمسةِ الأولى لحربٍ هرولتْ ثيرانُها بالرملِ، بالأرضِ التي تُشهِرُ من رملٍ سيوفَ التَّرفِ.

أيُّ عهد، وأنا ابنُ الخَزَفِ

أتقرَّى الروحَ في تأويلها

فأراني كالجهالاتِ مُضَاءً بغد مُرتجف؟

وأراني... من يرى الحاضر مُرْخَىً فوقَ ثدييه كَشَعْرٍ ثُمَّ لا يستلُّ مِشْطَ الأفْق؟ بطٌّ زبدٌ حوليَ؛ ديكٌ وإوزَّاتٌ من الماء، دجاجٌ حجريُّ الريشِ؛ سُورٌ وسياجاتٌ: أنا مزرعةُ الله، سترعى عشبي الأرحامُ كالماعزِ، غيمٌ وخنانيصُ دمٍ زرقاءُ ترعى جسدي الأزرقَ. واليومَ الرُّعَاةْ

سوف يقتادون ماضيَّ ككبشٍ

بأتانِ الحاضرِ المُجْفَلِ. لُمِّي يا حياةْ

زَرَدي المنثورَ، لُمِّي خُوَذَ الموجِ التي بَعْثَرْتُها

بجناحيَّ، فريشي ورقٌ يغسلهُ ماءٌ أُجَاجٌ ثُمَّ يَسْتَدْرِكُهُ الماءُ الفراتُ.

وأنا.. أين أنا؟

أغمضَ المنفى جفوني فتفتَّحْتُ متاهاً ليسَ يُحْكى:

كلُّ منفى يُسْلِسُ الغيبَ الذي يقتادُهُ

نحوَ حِبري، وإذا الحِبر تشكَّى

رَسَتِ الريحُ ببطشٍ، أضحكَ الماءَ وأبْكى.

[في حزامي قنبلهْ
تتدلّى،
وعلى سطح العماراتِ سماءٌ تتدلّى
مثل إحليلٍ من الضوء، فيا هذا المدى
لا تلُمْني إن توسَّطْتُ عذاراي بوَمْضٍ وشظايا
ضمَّخَتْها عُذْرَةٌ كالآيِ تُتْلى.

في حزامي قنبلهْ
جعلتْ زَمْزَمَةَ القُبْلَةِ أعلى].

واحديداهُ...

[تهاوى جاريَ الأعرجُ قربَ الدَّرجِ
فتراكضتُ إلى أطفاله
عَلَّني أوصدُ بابَ البيتِ كي لا يلمحوهُ
غير أني لم أجدْ من ذلك البابِ سوى أقفالهِ
وسكونٍ يتمرأى في حُطامٍ لَزِجٍ].

من أنا؟ أمسكتُ أنقاضي كفانوسٍ، فدارتْ حوليَ الأيامُ في أسمالها تقرأ ما يسقطُ من خوخٍ وتينٍ. حاضرٌ بي حاضرُ الفلْزِ. حديدٌ يتعرَّى. من أنا؟ فانوسيَ الرملُ أضاءتْهُ مياهٌ. وامياهُ انحسري عن خصيَتي
هذه الأرضُ فروجٌ،
وأنا السَّهمُ النَّبي.
ليَ منفاي، فَمنْ أين بلادي سوفَ تستحضرُ منفاها؟. عويلٌ يضربُ الشرقَ بغُصنٍ مرمري.
والمسافاتُ التي أغلقْتُها

بغباري، تفتحُ الماءَ علي
فإذا بي هجرةٌ يودعُها البرقُ بيوتاً وعذارى.
وإذا بي.. واحديداهُ ارفعِ العاصمةَ، الآن، إليكْ
بخطاطيفٍ من الشِّعْرِ، وبعْثرْ هذه الأقدارَ كالقمحِ عليكْ.

واحديداً من دُعابات وهمسٍ،
واحديداً يُؤْكَلُ، الآنَ، على مائدةِ البحر؛ حديداً غافلاً عن شهوةِ الغيبِ؛ حديداً كابتهالِ الشجرِ الأعمى إلى الكاهنةِ العمياءِ في خُضْرَتهِ؛
واحديداً ثرثرَ التاريخُ في حضرتهِ
بكلامٍ صَدِىءٍ،
رافعاً نجوى من الملح ومن قهقهةِ الرملِ إليه؛
واحديداً ضمَّ في شهوته
جُندبَ الفجر، اختطفْنا بيدٍ زرقاء، كُنْ عيدَ نباتٍ، وادفعِ الحاضرَ كاليقطينِ يَدَّحْرَجْ حَثيْثاً من غدٍ لاهٍ إلى لاهٍ سواهْ.

[كنتُ في ذاكَ المتاهْ
كابنِ آوى.
كنتُ ما تقتلهُ اليابسةُ الجذْلَى، وتُحييهِ المياهْ
لم يكنْ لي غيرُ منفايَ صدىً يُرْجِعني
صوبَ أعضائي، وكانتْ تتهاوى
شُرفاتٌ شُرُفاتٌ،
وزُقاقاً فَزُقاقاً، حجراً بعدَ حجرْ.

إيهِ، مثلي كَمْ تَغاوى
مَطْلعاً في غضبٍ،
أو عُصاراتٍ بها يهذي الثَّمرْ].

وغواياتي غواياتُ مديحٍ.

مَرَّ بي الشاطىءُ، مرَّتْ موجتانِ،
مَرَّ بي البحرُ، ومرَّ الأُفقُ الصَّلدُ على بغلٍ جُمانِ.
مَرَّ بي مَدٌّ فراغٌ، والورائيُّ الفراغُ،
مرَّتِ الأرواحُ، والآلهةُ، الأعمقُ من أعماقنا.
مَرَّتِ النَّفسُ التي تُوْهمنا
أنَّ للرعبِ فُروجاً كالمكان.
مَرَّ درعٌ فتهيَّأتُ وحيداً كحضورٍ يُغْلِقُ الأعماقَ، والفَرْجَ السديميَّ على صوتٍ مَنِيٍّ،
وتهيأتُ أباريقَ من الآجُرّ دارَ الخزفيُّ البرقُ في البهوِ بها
فالسُّكارى مُدُنٌ أسرى تفرٌ.
وأنا أُرْجِعُ ما فَرَّ إلى خَنْدقِهِ:
خندقِ الرعبِ، وأمحو فيجاريني المَمَرُّ.

ليس بعدي من يَكيلُ البُعْدَ في ميزانِه.

كنتُ هذا،
كنتُ حقلاً، وشذى زهر نحاسيٍّ، نحاساً، وحساسينَ من الزئبقِ. كنتُ البرهةَ الكبرى لظلٍّ، وغُدافاً يخرقُ العُذْرَةَ. كنتُ...
كيف مزقتُ المواثيقَ، وجئتُ
بمواثيقَ من الصَّعْتَرِ؟ يا «خلدةَ»، يا أحشاءَ أحشاءٍ، ويا بوقَ غدي
أمهلي عاصمتي، واقتطفيني
كَبِداً عن كَبِدٍ.
واجمعيني، بعدذا، كي تجمعي اللَّألأةَ الزرقاءَ للحاضرِ، كي تكتملَ الدورةُ في هذا الحديد الحيِّ. يا لَلْحيِّ، أهْرَقْتُ هباتي تحت ثدييه المسائيين؛ أهرقتُ المساءا
فوق ثدييه؛ الْتمستُ العَبَقَ الضوئيَّ من غيبٍ لكي يمنحهُ
عَبَقَ الهَرْجِ المُضاءا:
[أيها الهَرْجُ الذي يخلقُ من لحمٍ سحاباً،
وشموساً من لهاثِ الذَّكَرِ؛

أيها الهَرْجُ الذي يجري على أفلاكهِ
من مكانٍ لمكانٍ حَجَرٍ
لا تلامسُ شهوتي بين شبَاكِ الشّهوات.
قلتُ للحاضرِ أغْلِقْني على «خلدةَ» فاستوقفني قربَ النَّباتِ
فجذوري في عَلاءٍ عَبِقٍ
ولأوراقي ائتِلافُ الجُزُرِ]

كنتُ هذا،
كنتُ ما يجمع من ماءٍ نسيج السَّهرِ
ويسوّي الرَّملَ في قيديَ ماءا.

كنتُ... يا لَلْحيِّ، أوثقتُ إلى أعضائهِ
قهقهات الأزلِ. استدْنيتُهُ حتى يراني في غوى أشيائهِ
وتهتَّكْتُ، فجاءا
لاعقاً تاريخَهُ الأغبر كالخصية؛ كوَّرْتُ على خصيتهِ
نارَهُ الخُنثى، وأجريْتُ الخيانات مَذيّاً في مطاويهِ، فأرغى خُيَلاءا.
... لا تسلِّمْهُ، إلهي، لسوايْ
وأنا أُرْجِعُهُ لهواً غبياً، وهباءا.

قلتَ: «لا تغضبْ»، إلهي.
قلتَ: «هذا خَلْقيَ الأصْفى»، فقعَّرْتُ مدايْ
تحت ما يسقطُ من زيتونهِ
غير أني حين حاصرتُ حصاري،
وتتبَّعْتُ إلى «خلدةَ» أجراسَ هوايْ
رَجعَ الحيُّ إلى ملهاتهِ،
والمكانُ الصلدُ أفضى بي إلى ملهاتهِ،
فإذا البحرُ سلاحي ويدايْ.

[أطْلقِ القاذفَ، أطْلقْهُ، وفجِّرْ هذه الأمَّةَ في مضجعها؛
فَجِّر البابَ الذي أوصَدَتِ الأمَّةُ دوني.
أطْلقِ القاذفَ يا طفلُ على الماءِ الكَمينْ.
أطْلقِ الأرضَ كَتيسٍ، وتجمَّعْ في هبائي
غاضباً من أزلِ الله، ومن شعبٍ تسامى بالفُكاهاتِ، ومنِّي
فأنا آلفتُ ما كانَ أمامي وورائي
بخيوطٍ، وصدىً رَثَّ على النَّوْلِ المُسنِّ.

أطْلقِ القاذفَ، يا طفلُ، وعُدْ بي لكَميني
حيثُ تستشرفني الريحُ، وتُلقي
درْهَمَ الحيِّ إلى الريحِ وشحَّاذِ السكون].

يا حديداً مُتْرفاً كاللَّهوِ، يلهو بحديدي
صَدِئَ الليلُ من الهولِ، وما زلتَ شهيّاً كَنَشيدِ.

نيقوسيا - شباط، آذار، ١٩٨٣

الضّباب المتّزن كسيّد

1

إنها المشيئةُ التي تضربُ الأرضَ بقناعها، وأنتَ رنينُ الضربة. فتموّجْ إذاً. تموّج مُنْزَلقاً من ورقةٍ إلى ورقةٍ، ومن لهاثٍ إلى لهاثٍ، وأقْضُمِ الأبديَّة بأسنانِ الخنشارْ.

لا تَقُلْ إنَّ تلك الصاعقةَ المتدثِّرة بمعطفها الفرائيِّ هي لكَ.
لا تَقُلْ إنَّ العذوبة سوْطُكَ الذي تقودُ به جيادَ النبات،
والنهارَ إوزّةٌ شردتْ من حقلِكَ الحديديّ، بل التمسْ ذاكرةَ التُّفاحِ بكلماتِ الغُصنِ، وأطلِقْ يديكَ كذهبٍ مطحونْ.
غزالتُكَ هناك؛ غزالتُكَ البلّوريَّةُ تحت الشجرة البَّلوريَّة، وقلبُكَ هنا، يهزُّ قرْنيهِ ليرُدَّ الفجر ذا الفراء عن سريرك الذي يهوي عميقاً، الى حيثُ لا نعاسَ يرعى بقراته البيضاءْ.

إنها المشيئةُ التي تضربُ الأرض بقناعها، وأنتَ رنينُ الضربةْ.

2

فلْنَتَفاوَضْ كسيِّدَيْن.

أجلس هنا، أمامي، فأنا جالسٌ ومعي ما تريد،

وحدّق فيَّ كما ينبغي لخصمٍ أن يُحدِّقَ، ثم ضَعْ على المنضدة ما تحتوي جيوبُكَ:

الحديقة أوّلاً. إنني أرى الجذورَ تخترقُ السُّترةَ، والترابَ يُعَفِّرُ قميصَكَ. هنا، على المنضدة.. الحديقة أوّلاً.

ثُمَّ هاتِ السحابةَ تلكَ، التي تبلِّلُ حوافَّ القبعةِ، وتتدلّى خصَلٌ باردةٌ منها بين خصلات شعركَ. وهاتِ القوسَ قُزَح، ذاكَ، المائلَ على صدّارَتِكَ المذهَّبَة. هاتِه.. هنا، على المنضدةْ.

لا، لا تكنْ شاحباً، ولنتفاوَضْ كسيِّديْنِ، فمعي ما تريد.

اجلس أمامي، وضعْ على المنضدة ذلك البهاءَ الذي أتْعَبَ مديحي؛ والمسافَةَ أيضاً، مسافة الغضبِ المؤطَّرَة كصورةِ جَدٍّ.. هاتِها، وهاتِ المساءَ المتدلّي على صدرِكَ كربطة عُنُقٍ.

وافتحْ أزرارَ سترتك لأرى ما تبقّى. نعم نعم: نجمةٌ مختبئةٌ، وبقايا معركة؛ مسرحٌ وبلابلُ نائمةٌ فوقَ سيفٍ.. ضعها كلَّها هنا، كلَّها، وكذلك الحريقَ الذي لم يبدأ بَعْدُ.

لا تَكُنْ شاحباً، فمعي ما تريد.

3

مُثْخَناً بالحدائق، مائلاً كقوسٍ يمتدُّ من الذهب الى المديحِ:

هكذا يتمدَّدُ ظلُّكَ على أشيائي؛

وبعونِ صوتِكَ، وسَمَعِكَ، يأخذُ الوقتُ طريقَهُ الى الكلامِ الأخيرْ.

أُصارِحُكَ بالسُّنونوة الميّتَةِ على سلكِ الشارع،

وأصارحُكَ بالجبلِ ذاكَ، الذي يُرى من شُبَّاكي رافعاً مِطْرَقةَ ضبابِهِ فوق حُطام الشَّفَق.

أصارحُكَ بأنين الباب.. أنا الجالسُ هنا، أمامَ صَحْنِ الرَّجُلِ الذي قُتِلَ في البابِ فَلَمْ يَلْمَسْ وجْبَتَهُ.

أميري، يا عافيةَ الظلامِ، تسلَّلْ من الفضيحةِ إليّ.

4

«الضبابُ المتَّزِنُ كَسَيِّدٍ يطأُ العتبةَ النباتيَّةَ»: ذلكَ ما تقولُهُ الخادمُ لسيِّدتها. لكنك، أنتَ الواقفُ بزهوٍ من كسرَ أُصُصَ الورد، وبعثرَ اللّبلابَ؛ أنتَ الواقفُ طويلاً أمامَ الحديقَةِ بِمَقصَّاتِكَ ومِعْزَقِكَ، وعلى يديكَ أثرٌ من سَمادٍ طريٍّ، لا تَرَى ذلك.

تطأُ العتبةَ ذاتها، حيث يطأُ الضبابُ، ناظراً أبعدَ مما تنظُر الخادمُ، وترجعُ صارخاً: «آسكتي. إنَّهُ يتذرُ النَّباتَ، ويَقْتَحِمُ ببهلواناتِهِ المضحكين».

أحذيةٌ من ضبابٍ،
وعُكَّازاتٌ من ضبابٍ،
وأجدادٌ نَسُوا المدخلَ إلى حديقةِ بيتِكَ:
ذلكَ ما لَنْ تقولَهُ أنتَ؛
ذلك ما لَنْ تقولَهُ الخادمُ لسيِّدَتِها.

5

الطُّيوفُ التي من سُمْسُمٍ ترفعُ الفجرَ كالسِّتارةْ،
وأنا، أيُّها الشهيُّ المُرْتَبِكُ كجناحِ الزِّيْزِ، أشقُّ طريقي إليك بشبكةِ المصارع وحَرْبَتِه.
لُهاثي كَرَفْسٍ، وعَرَقي صواعقٌ من فراءٍ ناعمْ.

قد تُفْلِتُ منيِّ أيها الشهيُّ المُرْتَبِكُ هنا، وقد تُفْلِتُ هناكَ، لكنني الحيرةُ التي تُدْرِكُ اليقينَ، والظلُّ السلطانُ الذي ينحسرُ وينتشرُ، حتى لكأنَّ قبضتي، وحْدَها، هي الأكيدُ الذي يتحصَّنُ به الشَّكُّ المُتْعَبُ، والغامضُ الهاربُ من قَدَرِهِ المُفْتَضَحْ.

أينَ تمضي سليلي؟ أينَ تمضي يا شهيّاً شُغِلَتْ به الأنوالُ، وحاكَهُ الظَّلام؟
كلُّ شيءٍ مُطَوَّقٌ بي، فالينابيعُ جُعْبَةُ سهامي، والنهَّارُ كَلْبي.

6

بسيوفِ الجليد، ومنجنيقاتِهِ، تفتحُ الأرضُ طريقها إليّ.
بزيزانِها العدميَّة، وشعوبها التي أتشمَّمُها كَطَهْوٍ مُرٍّ؛ بسعاةٍ يحملون أحشاءهم كالبريد، تفتحُ الأرضُ طريقها إليّ.
وأنا، كَجَسُورٍ، عاكفٌ على لهويَ لأبذِّرَ إرْثَ الغريبِ وأقدارَهُ.

7

مِنْ سيصلُ، أيتها الأرضُ، من سيصلْ؟
ذبائحُ من رخامٍ. مغيبٌ صقيلٌ، ولهوٌ مخضَّبٌ بأنينٍ. صقّالاتٌ تحمل المدينة، وفجرٌ كالسُّتْرةِ. غداً، غداً. دعْ كلابَك أمام الباب، دَع المغيبَ وانزلْ عن المرساةِ، فالأعماقُ أعماقُك. غداً، غداً. كصاعد، لا، كحكمةٍ تحت ورقة اللَّبلاب، يلمحُكَ الغبارُ العابثُ. وآلاتُكَ؟ لا. شفافَةٌ ترفعُ الآلةَ الصَّقيلةَ. مياهٌ تلتَفتُ، والصاريةُ بين يديكَ. مَنْ سيصلُ، من سيصلُ؟. غنيمةُ النَّدى الأسيرةُ وعويلُها، غنيمةُ النباتِ أنتَ. أأصرخُ: أفِقْ؟ لا.
صباحُكَ البوَّاقُ يطلقُ النَّفيرَ، والجبلُ يعدو.

من سيصلُ، أيتها الأرضُ، من سيصلْ؟
صدىً كآتِ سكرانَ. صدىً كدميةٍ في الواجهةِ ينادي العابرَ، والروحُ تحرقُ أزياءَها. آتبعني يا بيتُ لنُلقيَ نظرةً من شُبَّاكِكَ على المزهريَّة، ويا زجاجَ النافذةِ تَقَنَّعْ

بي كقهقهة تمشّطُ شَعْرَها . لا . عابثٌ مثليَ مرَّ بالشَّفق. عابثٌ مثليَ مَرَّ فأطلقت الملهاةُ إوَزَّها . عميقٌ هذا . عميقٌ هذا . صرخةٌ ترتطمُ كالزِّيزِ بشجرةِ الأغاني ، والمكيدةُ تستسلمُ لمرآتِها .

مِنْ سيصل؟
من سيصل
أيتها الأرضُ؟
شبحي يضيءُ سراجَ الأشباحَ ،
والقيامةُ تنثر التوتَ على الكفن الذَّهبيِّ .

8

للبحيرةِ ، خلفَ الباب ، طَرَقاتُها ،
وللعراء ، خلفَ درعيَ الأملسِ كرداء الأمير ، طَرَقاتُهُ ،
وخلف المياهِ طَبَّالونَ ، وعرائسُ من صرخاتِ الحمقى .

أماه ، ضعي سلالك هنا ،
ضعي المكان كَخُفَّينْ أمام الفراغِ لضيفكِ السَّكران ،
ويا أَبي أجعلْ سهرَكَ مديداً ، وتوسَّدْ ـ كما مِنْ قبلُ ـ آبارَك العميقةَ ، حيثُ الفضاءُ دَلْوٌ ، والغبارُ حَبْلُكَ السُّكَّريّ .

طَرَقاتٌ على كلِّ باب .
طَرَقاتٌ على الحطام الأَكبرِ ، والسيلُ يزخرفُ الدروع .

نيقوسيا ١٩٨٣

منزل يعبث بالمرآت

السور:

هكذا، قُرْبَ حجارَته، قُرْبَهُ، قُرْبَ النباتِ المندلق من قِرْبة الحجر. هكذا، بسطوع ما يتراكضُ بهذيانهِ المُجَلْجِلِ فوق الحافة الشمالية، وبصوتٍ في الشجر المنبثق أعلى من الحافةِ الشمالية، حيث تتقاربُ ضفافُ وتنفصلُ متكئةً على مجاذيف العظَام وصرخةِ الثمر المتساقطِ مثل أجاصاتي إلى المجزرة؛ هكذا، نَعَم، لا بِرَسْمٍ يدوِّنهُ الفجرُ على الباب، لا بخريفٍ خافتٍ كَوَسْوَسَةِ إناء يختطفهُ الشاربُ، أو بحبورٍ يعضُّ على سهمهِ المرجانيِّ، بل بنقرٍ شفيفٍ على البوصلةِ الشفيفة يرفعُ المشهدُ قيودَهُ الى اليدِ التي تهزُّ مفاتيحَها في الظلامْ.

حجارةُ الباب، بابٌ في حجرٍ شهيٍّ كإغماضةٍ. وأنا أرفعُ التَّرْقوةَ الصَّلبةَ للظلامِ إلى غماماتهِ الصَّلبة.

.. وسورٌ، نعم.
محضُ درجٍ وطيءٍ، وحجرٌ مهرولٌ.
بابٌ، وبابٌ في البابِ وغدٌ في قفله. ورخاءٌ تقنَّعتْ محظيَّاتُهُ باللَّبلابِ: شُبْهةٌ تُعبر ككمثرى، وصريرُ البوابةِ يرمي مخدَّته الى الشفيفِ العالي.

الحديقة:

بآلاتِ الزهرِ الرَّهيفةِ، وسلالمِ الشجرات، يُبْدعُ الصَّخبُ نقشَهُ الأكملَ على خَزَفِ نشيدي. والورقةُ تهمسُ الورقةَ؛ العشبُ يشتغلُ على لهبهِ ومُجونهِ؛ السماءُ التي تحاكي الظلَّ، من فوق، تَزِنُ بِفَادنِها الغيبَ الماثلَ كحائطٍ؛ وحروبٌ في نسغِ كُلِّ شيء.

غفوةٌ كنهارٍ مقذوفٍ من شرفة الجيلِ تستبدُّ بي.

غفوةٌ تصلني بالأرض وتحجبُ جهاتِها.. والحديقةُ لي:

بضربةٍ؛ بستةِ أيدٍ تُخْني عليّ بالضربة تتشظّى الحديقةُ معي، أو تنفلتُ كسنجاب، وأنا أمدُّ يديَّ بالبندق واللّوز: صديقتي، يا شرارةَ الحدائقِ كلِّها؛ يا حديقة المساءِ المطحونِ الذي ينتثرُ على خوذتي، بالغي قليلاً في مديحك لي، وارفعي المكانَ الى بركانه، والذُّباباتِ البيضاءَ الى الروحِ، فما مِنْ ماءٍ سيخبرني بالذي يُخبِرُهُ الماءُ؛ ما مِنْ رسولٍ سيُمْلي عليَّ رسالةَ البرعمِ الأسير وعرباتِه الناجية.

خياميَ كلُّها، أيتها الحديقةُ، خياميَ كلُّها؛ نبعي المتَّكىءُ على عصاي، وجَبَلي الذائبُ كفضَّةٍ يصكُّ الغمامُ عليها صورةَ الغابة؛ هالتي، ووتري المقطوعُ الذي يسقط منهُ سهمي الى مَقْتَلي؛ رسولي، وثوري الذي يطحنُ الشجرةَ بعظامه الخضراء؛ مكاني، ومصابيحي، ومائدتي التي ترفع الصِّحافَ الى ضلالة البهاءِ... كلُّها تتكىء على البابِ، وروحي تقرأ الورقة المستظِلَّةَ بأنين الشجرات.

بآلاتِ الزَّهر، بك أيتها الحديقةُ الضائعةُ في جهات يدي، سأمسكُ الرَّسنَ الأقوى، ناظراً الى ما ينحدرُ من الصَّرخةِ العاليةِ، فلي موعدُ الجذورِ، واحتدامُ البعيد. وإنْ نسيتُ شيئاً من مباهجِ الوداعِ وهسهسات مهاميزه، فسيدركني الظلُّ الرسولُ، أو النبضُ الرطبُ لثمرةٍ سقطتْ في المياهِ؛ إنْ نسيتُ؛ إنْ نسيَ الوداعُ شيئاً من مجوني الذي قَسَّمَ الشجرةَ بين جهاتها.

هكذا كُلٌّ سيُدْركُ الذي لم يفتْهُ. كلٌّ سيُدْرِكُ المُدْرَكَ، وينسى بطشَ الذي فات.

بآلاتِ الزهرِ تتواطأُ الأرضُ على نفسها.

الدَّرَج:

خبزٌ مرميٌّ كَشرك، وبهاءٌ مدوَّرٌ كحدوة البغل، يقضمان الخطى، والمغني يشدُّ العتبةَ الى صدره كطنبورٍ، هامساً: تفضَّلْ.

درجٌ ككلِّ درجٍ: ظلٌّ مذعورٌ، وفُطْرٌ أخضرُ، وقواقعُ انكبَّتْ بمجسَّاتها على الحجر تستقرىءُ النسيانَ المتهوِّرَ كرُعاته الصامتين. هكذا، ككلِّ ما تعرفه وما لا تعرفه، ككلِّ درجٍ هذا الدرجُ، فلا تتأمَّلَنْ شبحَكَ الذي يرتقيه ممسكاً بِرُدْنِكَ كطفلٍ رمى جهلَهُ إليكَ فأيقظكَ من حكمةِ نهبتكَ نهباً؛ ولا تتأمَّل الحجرَ الصقيلَ المتَّفق على ثقله بك، بل تقدَّمْ ناظراً الى العتبةِ وحدها؛ ناظراً الى عظامِ العاصفةِ المملَّحة، والهديرِ المُمْتَدَحِ لشعبٍ مُمْتَدَحٍ.

بعد هذا فليمتدِحْكَ الدرجُ المُفضي إلى ظلِّكَ الشريد.

العتبة:

إنتبهْ، قربكَ حُقٌّ تخبِّىءُ الظلالُ فيه يواقيتها. انتبه، انتبه.
فاكهةٌ تتزيَّنُ لنداءِ الفاكهة قربَ خطاك، قُرْبَكَ، قُرْبَ الرفيف المُتَعْتَع بما شرب الحنينُ من يديكَ. انتبه.
أسيرٌ يدحرجُ الدَّنَّ أمام العتبة، وأنتَ القريبُ من دورتكَ الذهبيةِ ترسلُ خطاك وتبقى حيث ترى الرُّسُلَ ينفخون في القصبة التي ينفخُ فيها النهر أجسادَهم، ويدورُ الحفيفُ ذو الأيدي العشر عليهم بِحُسْنِهِ المُحيِّرِ كمنارٍ نائم.

إنتبه.
إنتبه.
العتبةُ تُدَهْدِهُ الحاضرَ، وخطاكَ تُجفلُ الغزالات.

الردهة:

الريشةُ التي عبرتِ الردهةَ في الهبوب الخفيف لي، ستتمايلُ في الهواء قليلاً، ثم تستقرُّ على المروحةِ الرخاميةِ؛ وقربها، قربَ ظلّها المُتماوجِ من خَفْقةٍ تحرِّرُ الرخامَ كلّه، سأقفُ خالعاً معطفي بعد تلك النُّزهةِ في القُبَل.

الحُجرات المقفلة:

بابٌ هنا، وبابٌ هناك.
بضعُ درجاتٍ تنحدرُ إلى أسفلَ، حيثُ البساطُ المطرَّزُ بالخطى العَجُولةِ وبالثرثرات.
بساطٌ مديـ يـ يدٌ وراءَ بساطٍ مديـ يـ يـ دٍ، وهمسٌ يتقَّرى بيديه السيوفَ المرمية في إهمالٍ إلى الزوايا.
غدٌ كقَرعٍ على صنجٍ، وحاضرٌ يكسرُ المفاتيحَ في أقفالها.

يا مُضيفي،
يا مُضيفي، لا تتقدَّم بي كثيراً الى السحابةِ الجالسةِ أمام نَوْلها.

خروج على عَجَل:

الريشةُ التي عبرتِ الرّدهةَ، في هبوبي، رجعتْ، ثانيةً، في هبوبي.

وصفٌ أخيرٌ يُلْزِمُ كلَّ وصفٍ بعد الزيارةِ التي...

سأتلو ما تَلَت الورقةُ المتناثرةُ على الممراتِ. سأتلو الممرات وأدراجَها. سأتلو تلاوةَ الظلِّ وساكنيه الذين يشرفون على لهاثي بصباحاتهم المعلّقة من أثدائها. سأتلو النُّمورَ قفزةً قفزةً. سأتلو المراوحَ التي يميسُ فراءُ النُّمور تحت حركتها الصلبةِ كزفير اليائسِ، فتقدَّمْنَ بأقلامكُنَّ أيتها المحظيَّاتُ، تقدَّمْنَ كظرافةٍ تتبرَّجُ للضبابِ

الظريفِ، ودَوِّنَّ ما ترينَ منيِّ: شهقتي، ونوافيري المتهتِّكة. دوِّنَّ الممرَّ ذاكَ؛ الممرَّ الصاعدَ بتاجِهِ الرّخوِ إلى الرابيةِ حيث سأرمي، في منتهاهُ، غدي إلى البِركةِ الملكيةِ، وأمضي رقيقاً إلى فجيعةِ الملوك.

... وسأتلو الرملَ المتهيىء لي هناك: سأتلو العابرَ والمُقيم. سأتلو الأعمدةَ كلمةً كلمةً تحت إطلالةِ التماثيل المُتَفكِّهة من قمم الأعمدة، فتقدَّمنَ أيتها المحظياتُ بأقلامكنَّ كي لا يفوتني ما يُحاكُ وما لا يحاكُ. تقدَّمن واثقاتٍ قبل أن تزلزلَ الظلالُ الظلالَ، ويُفْلِتَ المرئيُّ من شباكِ أشكاله، ثم دَوِّنَّ ما تريْنَ من الممرِّ الذي ينتهي إليَّ متباطئاً في أغلالِهِ البيضاء؛ دوِّنَّ حركتي وقناعي، دَوِّنَّ الذهولَ الممسكَ بقُذَالِ كَلْبِهِ أمامَ المداخل.

(تشهد التماثيلُ كلُّها،
تشهدُ الأعمدةُ، والبركةُ الفارغةُ قربَ الأعمدةِ، أنني
تنزهتُ قليلاً هناك).

... وسأتلو الغوايةَ، أيضاً، بصوتي الذي لا صدى لهُ، متّكئاً على سور الجسر فوق الرابيةِ، هناكَ، حيثُ تميلُ الطُّرُقُ بعيداً عن يديكَ القويتين. يديِّ المدينةِ المتدثِّرةِ بالأبراج وبظنونها، فتقدَّمن يا خليلات الظهيرةِ الباردة لتسندنني في عبوري الى الفناء المنتظر بعربته هبوطَ التماثيلِ عن أعمدتها بعد انتهاءِ العُرْس؛ تقدَّمنَ حافياتٍ على الندى المتجلِّدِ، واجمَعْنَ بالأناملِ أذيالَ أثوابكنَّ حتى لا يُشَتِّتَ الخشيشُ رَهْبَةَ الدمِ الذي يبني الهياكلَ حولَ سريري.

كنتُ هناك.
كنتُ أتلو البسيطَ من كتابي عبر الردهةِ الأخيرةِ، ملتفتاً حيناً بعد آخرَ الى القوسِ الحجريِّ.
كنتُ هناك.
كان أطفالُ صديقي هناك أيضاً.
كان صديقي هناك، وكانتْ زوجهُ، وكان الجليدُ الخجولُ متناثراً كنظراتِ الصَّقرِ

في الفناء الذي تأسرهُ التماثيلُ برفاهِ الحجر.

(هكذا، إذاً، روَّضَ المشهدُ جسارتي،
وروَّضَتِ الرابيةُ السفحَ المتكوِّم كجريحٍ).

إيه يتها الأدراجُ الواهنةُ التي لن أطأها. إيه أيها المكانُ الذي يتسلَّقُ الظهيرة كغبارٍ مفجوعٍ. إيه نَفْسي نَفْسي نَفْسي: بعصيانٍ واحدٍ، وضربةٍ واحدة، ستأسرُ الهرطقةُ هذه الممراتِ، وسأبقى حيث يبقى الحاضرُ الخجولُ، هنا، تحتَ القوسِ المشتعلِ بفكاهةٍ مرصَّعَة، جاذباً وتري لأرميَ سهمَ الفضيحة، فإنْ أصبتُ ترامى لمكانُ وديعاً يبسطُ المواريثَ كطُنْفُسٍ، وإنْ نبا الرَّميُ عدتُ إليَّ بعصيانِ الشجرِ كلِّه، والظلالِ كلِّها، ناظراً، ثانيةً، إلى الأفقِ الذي يجمعُ السهامَ لسطوتي النَّبيلة.

كنبيلٍ، إذاً، ينبغي أن أروِّضَ المشهدَ الذي روَّضَ الجسارة.
كنبيلٍ سأدلقُ صحافَ الفاكهة من الأعلى، هاتفاً بخليلاتي: دوِّنَّ هذا؛ دَوِّنَّ ذهبي المَذْرُوْرَ على قرونِ الجليدِ، وارفعنَ خَمالاتِ الريشِ لأتَّقي وهجَ الأجنحةِ، فأنا شبكةُ المديحِ التي يتخبَّطُ فيها عُقابُ المديح.

نذوري، هذه، إلهي.
نذوري، وهباتي، شكيمتي وطبعي المتدحرجُ كتينٍ إلى هاوية الفاكهة.
بَيْدَ أني أشمُّ الفخاخَ بين جسور المدينة وزَرَدِ البحيرات، إلهي؛ وأتقرَّى بيديَّ عناقيدَ اللهب الراكضِ من قوس إلى قوسٍ، كأنَّ بي تواطُؤَ الحجرِ على خلودِ الهباء، وشُرُوْدَ الجُسُورِ عن نفيرِ الجُسور.
بنفيرٍ واحد، أو بشرُودٍ واحد، إذاً، سأطوِّقُ الشتاءَ المتمدِّدَ على الرابيةِ، هناك، حيث الأعمدةُ التي يدورُ من حولها أطفالُ صديقي بمعاطفهم السميكة؛ سأطوِّقُ المغيبَ المُتَقَلِّدَ صولجاناتِ ضبابهِ ومراثيه، وسأُلجِئُ الهاربَ من نعيم الحجر؛ سأُلجِئُ الحجرَ هَيْأةً وسديماً، قارعاً بالأناملِ قرعاً خفيفاً على زجاجِ المساءِ المُعَسْكرِ ببهلواناته وراء البركةِ الفارغةِ. لا، سأدفعُ البركةَ يميناً، والأعمدة شمالاً، فاتحاً لهواي مَمرَّهُ العدميّ:

دَوِّنَّ هذا، دَوِّنَّ هذا يتها الخليلات:
عاصفاً يبدأُ الشَّكلُ، عاصفاً ينتهي.
عاصفاً يبدأُ المكانُ، عاصفاً ينتهي.
وأنا أُحَرِّضُ التماثيلَ، على قممِ الأعمدة، أن تطلقَ قُمْريَّها الجريحَ من شبَاكِ الحجر.

غير أني سأتلو الحجرَ جناحاً جناحاً، وسأتلو البحيرةَ خلف الرابية طعنةً طعنةً، موشكاً - وأُمسكُ نَفْسي - أن أُضرِّجَ الغدَ كله بهبوبٍ يشوبهُ الزَّعفرانُ. موشكاً أنْ أقتحم الهياكلَ بالهياكلِ، والأدراجَ بالأدراج، وحسبيَ الغوايةُ التي تُدَحرجُ قُفَفَ العُنَّاب بِرَكْلَةٍ من قَدَمِها.
دَوِّنَّ هذا،
دَوِّنَّ هذا يتها الخليلاتُ، وأحطِنَ بي ليكون للخطواتِ ثِقَلُها الأكثرُ جهامةً في العصيانِ العظيم.

هكذا،
خفيـ
يـ،
يفاً
سأمضي إلى فجيعة الملوكِ،
هكذا سأنثرُ بهاري على كلِّ مائدةٍ، وأرفعُ الأرضَ بكلاَّبات النحاسِ إلى هَيْأتي.
وسأتلو، بعد هذا، النوافيرَ الصامتةَ في فناء القصر على الرابيةِ؛ سأتلو الشّعاعاتِ الخفيَّةَ التي تدفع عُجُولهَا الى النشيد، كأني الظلالُ تشقُّ عن دورعها الظلالَ، عجلى، تتدانى، أو تتدانى نَفْسي ممرّاً ممرّاً، وزينةً زينةً. سأتلو نفْسي أمامَ الحفيفِ المُفْتَضَحِ للحجرِ، إلهي؛ فليأذَن الجليدُ لي بأنينٍ تتأرجحُ أنداؤهُ بين التماثيل وبين المياه.
ولْيأذن المغيبُ لي بسهمٍ أُفوِّقُهُ ولا أرميه، ليأذَنْ لي بذهولٍ من المشارفِ هذه، ساهرٍ كبجعةٍ تضربُ الفراغَ بمنقارِها الذهبيّ.

(لم يكن عليَّ أن أستسلمَ هكذا في بوتسدام.

لم يكن علي أن أخلع معطفي في تلك الحانة، بل أن أقف في بابها الذي يعلّقُ الضبابُ عليه مفاتيحهُ وحدواته المتلألئة، متستِّراً، كغريبٍ، بهذيان الفرات.

لم يكن عليَّ أن أستسلم، هكذا، يا صديقي، لجمالٍ يُزيدُ كلّ بُرْهَةٍ في رِهانه. لم يكن عليَّ أن احتمل البلاغة الأكثر انشغالاً بما لا يُقال.

في بوتسدام، في حانة يعرفها صديقي، خلعتُ معاطفي المائة التي من كُرّاثٍ، وتوتٍ، وحرشوفٍ، وباقلاّءٍ ولُفّاحٍ، وعدس، وكرفسٍ؛ خلعتُ الشمال المؤتَمَنَ على كنوز الحمى، داخلاً بفخاخي المسكورة عليَّ؛ داخلاً على الحاضر بكؤوسه الفارغة.

أيُّ بطشٍ هذا، صديقي؟

أيُّ بطشٍ لا يعلّق معطفهُ، مثلي، على مِشْجَبٍ في بوتسدام؟)

خفيفاً

خفيفاً سأهبط الدرجَ كما جئتُ،

وستهبطُ الأعمدةُ، من ورائي، ماسحةً بفرْجُونها مجرَّةَ النبات.

خفيفاً سيرفعِ المغيبُ محبرَتَهُ إليَّ، والرياحُ أقلامَها،

وبلهفة الخفيِّ إلى نزهة، باحتدام، بكَيْدِ الوقتِ للوقت والدُّعابةِ للدّعابة، ستهرعُ السهولُ المعتمة، هنا، إلى أنوالها، والجليدُ إلى نقوشهِ التي لم تكتملْ، كأنني سأتأبَّطُ القماشَ والخزفَ، معاً، في عبوري من خيالاتِ الضبابِ إلى أزقّةِ بوتسدام.

(خيالاتٌ كلُّها، صديقي.

خيالاتٌ كالدّراقِ بين يديْن نقشتا المغيبَ على درعي.

خيالاتٌ كأطفالكَ وهم يدلقون على المائدة حلوى ذائبةً. حلوى خيالاتٍ، سُمُنٌ، طيشُ حجرٍ يضربُ بجناحيه جدارَ الحانةِ كغرنوقٍ مذعورٍ. والضبابُ يجزُّ، خلفَ النافذة، بمقصّاته الكبيرة فراءَ الملهاة.

أيُّ بطشٍ هذا، صديقي؟

أيُّ نشيدٍ ينتهبُ النساء، ويسوقُ أمامه الحانة ورصيفَ الحانة؟).

والمغيب أيضاً سيهبطُ الدرجَ، مثلي، إلى حيث تمضي المدينةُ بزُحافاتها صوبَ أبواقِ الحبر. وإذْ سأسندُ كتفي، ثانيةً، الى عمودٍ، في انتظارِ إشارةِ المرور من رصيفٍ إلى آخر، لن أعبأ بالهتاف الثَّملِ الذي يطلقهُ مصيري من جهة أخذتْ كلَّ شيء، وأبقتْ عليَّ، هنا، هابطاً درجَ قلبي ونهْبَهُ؛ هابطاً درجَ كلِّ شيءٍ، كأني سأعيدُ الى الملوكِ خواتمهم، وإلى السِّحْرِ نُمورَهُ الهاربة.

وأنتنَّ، يتها الخليلات اللواتي تتأفَّفن من شرودي، ابقينَ حيث أنتنَّ، تحت الظلِّ الذكوريِّ وعرائشه المتَّكئة على تماثيل الساحة، هناكَ، وسطَ المدينة، وسطَ اللَّوعة التي تكتُمها الجُسورُ المتمسِّحةُ كالقطط بثدييِّ المصارع الأعمى. ولا تقُلْنَ وداعاً إذْ أنتهي إلى الضفةِ الأخرى من جداولِ الرّخامِ هذه، لا. انظرْنَ مَليّاً في الذي دوَّنْتُنَّ على اللهاث العالي، وتراجعنَ قليلاً قليلاً، بمراوحكنَّ، بالقلاداتِ التي نَسيَ المغيبُ على جُمانها عويلَهُ المترَجْرِجَ كالنَّدى.

فلألمحْ ظلالَكنَّ، وحدَها، في مكيدتي،
فلألمحِ الدُّعابةَ التي تُدَحْرِجْنَها إلى هواي.

كم عليَّ أن أبقى هنا بعدَ كلِّ ذاك؟
كم عليَّ أن أشدَّ المدينةَ كسهمٍ إلى وتر الملهاة؟
كم عليَّ أن أرمي الرَّمْيَةَ ذاتها، بالهياجِ ذاتهِ، لتتفجَّرَ المحبرةُ في لهاثيَ هذا؟

تقدَّمْ.
تقدَّمْ وحيداً بجمالِ شرُودِكَ أيّها الغريب.

نيقوسيا ١٩٨٤

قلق في الذهب

إبتدعْ أيها اليأسُ في مهبِّكَ يأسي
وليكُنْ قِرانٌ يُعجِّلُ الخواتيمَ، والعرسُ نفسي
وليكنْ سَهَرُ الغبارِ من عَلِيِّينْ يرمي عليَّ الحلِيّ حتى أبدِّدَ بعضي
في امتداحِ الغبارِ؛ أو أستَدِقَّ كالسهم حتّى
تمهدَ الريحُ بي غدرَها وهي ترمي منازلَ الماءِ شتّى.
ومن ختامٍ،
من غدٍ أو رنينٍ،
من مجاهلَ تعلو كهندباءٍ، ومن لهاثٍ كأرضِ
يجرِّدُ القلبُ سيفَهُ الرمادَ: هاكم شهوديَ ما بين إبرامِ شكْلٍ ونَقْضِ
يدجِّجونَ البعيد بي أو ببعضي
لكأني فَرغْتُ من عبثٍ يُرسِلُ الخرابُ في جَرْسِهِ البهيِّ بجَرْسِ
وكأنْ قِرانٌ يعجِّلُ الخواتيمَ، والعرسُ نَفْسي.
وأنا.. إيه يا المُرْتَجى من ظلامٍ نديمٍ، ومن دويٍّ نديمِ
مُشْكِلٌ يغمسُ المكانُ فيه رغيفَهُ، ولومْضي
نمورُهُ؛ فاصعدي من يقينِ الهباءِ، أو من كثيفهِ المهدومِ
إصعدي يا طرائدَ اليأسِ حتى جحيمي
فالغدُ المقامرُ سَكْرانُ، والوقتُ مَوْلى
يتعثَّرُ من خجلٍ بثيابِ النّدامى، وينحني فيُوَلّى
ولهذا أضيقُ مثلما يضيقُ الغبارُ بالريحِ، أو أتقصّى الجسومَ في هَرْجِها بالجسوم،

عاكفاً عليَّ من ورقِ السروِ، والتينِ، والبتولا،
مُطْبِقاً ظلّي اللّبوْنَ على البرقِ: يا صاحِ، يا برقُ خفِّفْ رفيفكَ، فالغيمُ يقظانُ في سريرِ العناقيد، والأمسُ يركضُ في درعهِ النّباتِ، سيّانَ أن يسرقَ النبيذُ من يديه الكؤوسَ، أو ينْقضَ الهواءُ مواثيقهُ الأخيرة. يا برقُ، يا مغْزَلاً دار بين يديْنِ لا ترفعانِ إلاّ العويلَ، رقِّقْ رغيفَكَ، رَقِّقْ هوى نسائِكَ يرفعْنَ طَرْفاً مَلُوْلاً
إلى الهباءِ إذْ يَحْلَوْلى،
وتَهتّكْ، فالسماواتُ شُبْهَةٌ، والنفوسُ في زَرَدٍ من هَزِيْمِ.

إصعدي يا طرائدَ اليأسِ حتى جحيمي.

وأنتَ؛ أيُّ حديدٍ يموجُ تحتَ يديكَ؛ أيَّ جَمشْتَ
يطحنُ النهارُ في ظِلِّكَ المُجَرَّحِ؟ أيُّ ابتهالٍ يفجِّرُ العُنَّابَ؟ أيُّ سديمِ
يرميْك كالندى بمرايا يسرقُ الفجرُ منها إوزّهُ؟ أنتَ؛ ما لَكَ تدنو
بحبرٍ من الصّدى والرُّجُوْمِ؟
كنتَ ذا المُغَيَّبَ، حلواً، وقد
تَتَقرَّى الظنونُ لهوكَ مُرْخَىً على وقارِ الظنونِ.
كنتَ ذا، أو ذاكا
تغسلُ المعاني قواريرَها عن هوىً فيكَ حتى يخوضَ فيها هواكا
بدروعٍ من الشقائق. مَرْحَى مُتَهتّهاً في دَلالٍ مُتَهتّهٍ. بَعْدُ لم يَشِ جذرٌ بما رفعتَ صوبَ الغصونِ
من مكائدِ الريحِ إذ هي تُرخي على انتحارِ الغصونِ
ستارَها المرمريّ. لا، أنتَ مالكَ؟ روِّعْ مجلسَ الليلِ، رَوِّعْ مَداكَ، واكسرْ على الندى سيفَ قلبكَ. بلْ مُرَّ مُترْفاً برمادٍ يقنصُ الفجرُ فيه المرايا، وأمْعِنْ مع المجاهلِ دكّا
في المجاهلِ حتى يغلبَ الرعبُ من رعبهِ الحياةَ، أو استردَّكَ سَفْكَا
حين يرفعُ البطشُ مثلي محاريثَهُ إليكَ. لا، أنتَ مالَكَ؟ هذا خلافٌ عليكَ حلوٌ، وهذا وَجعٌ يَغْرفُ الحدائقَ. هذا هبوبٌ، وهذي مكيدةٌ من متاه كنُعمى، وإني فُتونُ
نسجَ الموتُ غزلانيَ الصغيرةَ فيهِ، وروّى عبثٌ كلَّ ناريَ، فالأرضُ ليسَ تبينُ.

سُكّرٌ يطعمُ المجاهلَ قلبي، وسُكّرٌ يطويني
على فخاخٍ من الزبيب، وفَتْكٌ يصوغهُ التكوينُ
آن أرمي بما يجعلُ الأفقَ سيّافَ نُعمى، وآن أُرْمى بماجنٍ مسنونِ
من بهاءٍ يشقّقُ القلبَ. يا قلبُ أوقفْ إوزّك يخبطْنَ صدري، ورُدّني كالرنينِ
يموجُ في كلّ بهوٍ. تعالَ،
يا عشبُ؛
هيا تعال،
وأوثِقْ نمورَكَ؛ أوثِقْ رُماةَ يخضورِكَ الجياعَ؛ أوثِقْ كأمسي
غديَ المجفَّلَ، فالوقتُ نفسي:
قِرانٌ يُعجِّل الخواتيمَ، أو عضلٌ من جمادٍ أميرِ
يحزمُ الأرض. أمسُ من الجمادِ الأمير
يحزمُ الهواءَ. أوقفْ إوزّك يا قلبُ يخبطْنَ صدري، وبعثرْ على المديحِ ذُرُوْري.
ثُمَّ، أنتَ، يا شريكُ، هذا خلافٌ عليكَ حلوٌ، وهذا
مداكَ نهْبٌ لكلِّ طيشٍ، وإني فتونُ
ذَهَبَ الهدرُ بي، فالمكانُ نهْبٌ كمينُ.

أهكذا، أيها المعافى كطينٍ، تدورُ بالأرضِ حولي؟ أهكذا تتناهى
فكاهةُ الروحِ؟ قُلْ للمياه مرحى، ولُمَّ ما قَدْ تاها
من شموسِ المياهِ إذ تتدلّى عليكَ في رَغَدٍ مُسْتَطارٍ، وقُلْ كلُّ هذا عيونُ
تتقرَّى الذي كنتَ من قبلُ. (هل كنت ما يتراءى مُشَعْشعاً كنداء من المياه؟)
حَطّم جَمشْتَكَ يا قلبُ. حطّم يواقيت قلبكَ يا قلبُ. حطّمْ مساءَكَ. حطِّمْ تماثيلَ هذا البهاءِ الذي نسيَ المكانُ تدييه قُرْبَهُ. حطّمْ فخاخك في سحْرِ صرختيَ الأبدية. حطّم قرونَ زهوكَ، وارفعْ منارَ الرمادِ حتى يدلّ قلبيَ قلبي
قد آن أنْ أستريح، وحَسْبي
ذهبٌ وجوادٌ من النّدى يبكياني.
قد دقَّ من كلّ آنٍ
وصيْفُهُ عظمَ عظمي، وَدَكَّ من كلِّ صوبِ

غديْ حضوريْ عليْ
ألهذا يا عمرُ تكسو الأغاني
بدروع يرتدُّ عنها إليْ
ظلامُ عمركَ يا عمرُ، والوحشتان: النهارُ والروحُ؟: فليتقاصرْ مَداي، وَلْيكُ فَتْكٌ،
فنَمْ في هباءٍ مزيّنٍ بالطواويسِ نقّشهُنّ الهباءُ فوقَ ملاءاتهِ، وتحَيَّنْ هبوبَكَ في قصبٍ
يابسٍ، فالرمادُ، هذا الأميرُ
يُحصي خنانيصهُ في خيامكَ؛ يُحصي مقِصّاتهِ، ويدورُ
بالأباريق يسقي البديدَ من كلّ شيءٍ، ويمحو
ما تحوكُ القلوعُ في الريح. يا قلبُ ضيقٌ يُفتّحُ اللآلىء في صدفاتِ الحنينِ، أمْ هو
بوحُ
يُسرُّ قبرٌ به لقبرٍ؛ أنورُ
يرفعُ القناعَ بيني وبينك؟ يا للرمادِ، حشدٌ أميرُ
فَكهُ البيانِ، يُغوي، فيرتدُّ قلبي علي
بشظايا من النهارِ إذ فجّرتْهُ الظلالُ شظَّتْ عناقيدها؛ بشظايا
من الحياةِ رقَّ هواها فبانَ منها هوايا.
ألهذا يا عمرُ تكسو الأغاني
بدروعٍ يرتدُّ عنها إلي
سهمُ كلِّ ظلامٍ؟ عييْتُ، يا قلبُ، ثُمَّ عييْتُ:
سرقتني الزنابقُ فاشتاقَ جسمي إليَّ، فعدتُ
مَرحاً، تتهادى المرايا
خلفَ خطوي، لكنّني سهوَتُ
عن جسور الزنابقِ فاختصمتْ ضفّتاي حتى رأيتُ نفسيَ تُرْخى بهذْرٍ على فراغٍ
كنفْسي
ورأيتُ المكانَ يسدلُ أمسي
على المكانِ كأنيّ فَرغْتُ من عبثٍ يُشْرِكُ الهباءَ في شِراكهِ وَقْتُ.
ألهذا يا قلبُ تطوي جسوري
كمثلِ هذا اللّهاثِ يطوي اللهاثَ؟ أمْ هُوَ بأسي
يشفُّ عن رحمةِ الوردِ؟. يا قلبُ متُّ

واختصمتْ في رِحَابِ ظلاميَ أرضٌ؛ ومتُّ
وتهيأتُ ثانيةً للهبوبِ فمتُّ
وتهيأتُ ثالثةً للهبوبِ فمتُّ
وتهيأتُ للحياةِ فشقَّتْ ثيابَها عن صليلٍ، فمتُّ.

كلُّ قلبٍ معي،
كلُّ قلبٍ عليّ.
كلُّ قلبٍ هبوبٌ، وإنني في هبوبٍ يشقُّ بعضي إليّ
ولهذا شُهُبٌ من نعيمِ الجمادِ تهوي على عُبَابي، ويصطادُ عمقيَ صوتُ
وأنا مقبلٌ كي يبشّرَ الزَبدُ الحيُّ بي، ولكي تتدانى
في رُفاتي ملائكُ اللهو والصدى. كيفَ يا قلبُ شقَّ هوانا
صدفاتٍ من الأنين عن خيلاءِ الرمادِ؟. يا قلبُ هذا هوانا
ليسَ إلاّ ضربةَ الماءِ في حَلَباتٍ من الماء، والحاضرانِ مديحٌ وموتُ.

كيفَ يا قلبُ عدتُ
نَشْأةً من عويلٍ مُرَيّشٍ بأنينٍ؟.
كيفَ؟ هذا كميني
مُحْكمٌ كالغُضار، لكنني لم أُصِبْ إذْ رُميْتُ فمتُّ.
وككلّ؛ كنعمةٍ دوَّرتها يدانِ من عسلِ النهبِ أرْقى إلى غبارٍ مكينٍ،
مُشرفاً من مساكبِ اليأس، أو من هديرٍ كيأسي
عليَّ. باللهِ، يا قَلبُ هشّمْ سلالَكَ، ولْتَكُ نفسي
سناجبَ ريحٍ هُرِعْنَ في السروِ فانكشفَ السروُ عن قنصهِ المجنونِ،
ولأذْرِفَنَّ المكانَ من قهقهاتي، ومن مساميّ حتى
يعودَ من حوليَ الوقتُ محض شرودٍ، ويسردَ العَصْفُ شاني
فليس يُدْرَكُ شكلٌ بغير ذعرٍ، وليس تُغوى المعاني
بغيرِ هذا الشهيق. يا ليَ، شتّى
يدحرجُ الرعدُ أعضائيَ الذهبيّةَ، شتّى يخُوّضُ الطينُ بي حيواتٍ، وشتّى يميلُ بي
شفقٌ خلفَ تلك المناجلِ ـ تلك الأخيرةِ ـ تلكَ التي تتلألأُ في شهوةٍ من جُمانٍ.

أيُّ قَنْصٍ، إذاً، في الشِّعابِ أو في الثواني؟

أيُّ قَنْصٍ؛ هوتْ وعولُ فبدّدْتُ بعضي أسىً عليَّ وعدتُ
كي أراني، هنا، في ظريفٍ من الحطامِ، أو ثِقلٍ ليس يُروى وإنْ رواهُ الرمادُ؛
كي أراني رفيفاً من المراثي إذا يرفُّ منها الجناحُ، والبُعْدُ بي يَنْقَادُ.

أيُّ قَنْصٍ؟ سيذرفُ الليلُ قلبي إلى الصباحِ، ويُخفي الأليفَ عنيّ الجَمَشْتُ
فَرَهْينُ المشاعِ إنيّ، مطوّقٌ باللهاثِ الخفيفِ للماء، والحيُّ حولي حصادُ
والفضاءُ أسرٌ، فعدْ بي، يا قلبُ، عُدْ بي إلى مشاغلِ الريحِ حيث المكيدةُ حبرٌ، وروحي
نساءٌ يداهمْنَ من حواري المغيبِ هذا العراءا.

سأمضي، ومن كلِّ سَمْحٍ
معي خرزٌ وشناشيلُ؛ أمضي كَثِيْفَ قَصْدٍ يشفُّ إذ يتناءى
ومثلي السهولُ تمضي فتنشقُّ عن كُنْهِها الأعيادُ:
زَلْزَلٌ أنيسٌ، وغيبٌ يُذَرْذِرُ الجمادَ فيه الجمادُ.
وكَلَهْوٍ سيرفعُ الشَّكلُ أقدارَهُ؛ أو كمدْحٍ
سيعصفُ الحلوُ من كلِّ مَقْتَلٍ، ويبثُّ الغبارُ في فَتْكِهِ الإطراءا.

أيُّ قَنْصٍ؟ تفرُّ من سربِها الأعيادُ
والخفيُّ يلقي المراسي، فللحيِّ بَدْءٌ ظلالُهُ الأصفادُ.

والنعيمُ؟ حدِّثْ هوايَ. حدِّثْ هريرَ هذا الصباح. حدِّثْ مقاماً يضيقُ بالحيِّ. ما من صدىً. ضرباتٌ على الحبر. والآن؟. مَرحى زحامَ ما لا يزاحمُ. مرحى. الملاكُ يعبثُ بالقفلِ، والبابُ نزهتنا؛ البابُ همْسٌ من الظلامِ سارتْ به الشفاهُ. لا. أبدٌ فكهٌ؛ أبدٌ من مشاغلِ الماء. خبزٌ هنا. لا تقلْ لي. فكاهةٌ، والقيامةُ أنثى. تقولُ؟ لا. للنعيمِ دمدمةٌ من غضارٍ، وللمراثي النبوغُ. لا. حدِّثِ العمرَ: كانتْ يداكَ؛ كانَ النشيدُ؛

كـانتْ أباريقُ هذا الأليفِ تسكبُ همـسي . نسـيْتَ؟ حـدِّثْ: مكانٌ غـداً. هَرَبٌ.
والفضاءُ؟ مرحى. غدٌ للمكانِ. بأسٌ تطأطئُ الريحُ من حياءٍ إذا يهُبُّ، وأُنْسُ
يدلقُ الغيبَ فوقَ الدروع ويرسو
بطيئاً، تموجُ أثداؤهُ الألفُ. أُنْسٌ كثرثرةٍ من نحاسٍ. وقلبيَ؟ أوقفْ إوزّكَ يا قلبُ
يخبطْنَ صدري
وأوقفْ أيا مساءُ المساءا:
تعبٌ جهاتي، وللبعيد إذ يتناءى
لألأٌ من أمومةِ النّهبِ يُغوي جسوري.
وأنا، إيه يا المُرْتجى من فضاءٍ يضيقُ بالتدبيرِ
تسهرُ الحياةُ من وحْشةٍ عليَّ، وتُهْريقُني الأقدارُ لّما رجعْنَ مثليَ ماءا.

لكَ يا قلبُ رُجْعى إلى الخفيِّ، أوْ لي رُجْعَى
إلى الكثيفِ بانتْ مخالبُ الطينِ فيه.
لي يا قلبُ رُجعى إلى الشَّتَيْتِ النَّبيْه
حيث ترقى السهولُ ثدييَّ، والأفقُ يشكو إلى العماءِ العماءا؛
ألهذا تسهرُ الحياةُ من وحشةٍ عليَّ، أمْ أنَّ ماءا
يغرُفُ البرقَ من حبر هذا الهبوبِ أو من يديَّ؟ يا للتّيْهِ:
يذهبُ الحيُّ والمواجعُ تبقى
ويبقى الأنينُ يعدو بأختامِهِ التّذْيِيلُ.

أيُّ قَنْصٍ إذاً؟ طَبْعُ هذا المكانِ رَطْبٌ، وطيرهُ التأويلُ
فاعتذرْ أيها القلبُ من سكونٍ يحطّمُ الغَدُ فيهِ
رخامَ قبري، ودلَّ قلبي عليْ
فأنا ذلكَ الشرّيكُ همَّ أن يُري الأرضَ مِلْكها، وهمَّتْ
تِلْكُمُ الأرضُ ألاَّ تُريهِ.

كلُّ هذا كمينٌ يليهِ ما قَدْ يليهِ.

نيقوسيا ١٩٨٤

منعطفاتٌ ظهيرةٌ من ريش.
دهاقنةٌ يصفونَ الليل.
غبارٌ مسحورٌ
وغدٌ كالعداءِ يتهيأُ لأزقةِ الغيب.

المنعطف الثاني في «أفرودويتي ستريت»

عَلِّق الليلَ،
عَلِّقَ الليلَ كقُبَّعَتكَ،
ونادِ حوذيَّكَ النهارَ، الواقفَ، في انكسارٍ، لصقَ عربتكَ الفارغة.

تسعونَ درجةً تحت النعناعِ،
وثلاثونَ فوقَ القُرُنْفُل.

تسعونَ درجةً تحت رحمةِ العضلِ الذي يتهدّلُ، رويداً رويداً، من فضيحةِ الخليَّة، ومداهماتِ الأمسِ بأطفالٍ يشبهون النداءَ الكهلَ لغدٍ كَهْلٍ، فاقتربْ، أنتَ الذي تُعَلِّقُ الليلَ كقبعتكَ، وتحدِّقُ طويلاً في النهارِ، حوذيِّكَ، الواقفِ لِصْقَ عربتكَ الفارغة، ولا تناديه.

إقتربْ أيها المُبَشِّرُ بقيامة العنب، وديمونةِ الريح؛ اقتربْ بدهاقنَةٍ يصفونَ المساء المختبيء في كلام الحديقة، ويتبادلون لفافاتِ التبغ المشتعلة تحت الغبار الأليف الذي غَطَّيْتَهُ بهبوبكَ الأليف، وأنسَ مسافاتكَ المرتبكةَ، ومساءَكَ الذي انزلقَ فأسندْتَهُ، فهويتما، معاً، في بلاغةٍ تتخطَّرُ بمسائها الأنثويِّ.

تسعون درجةً، أنت، في النَّدى، أيها الدليلُ الى دَسَاكِرِهِ.

المنعف الأول في «مكاريوس ستريت»، يميناً، قرب «وينبي»

دراجاتٌ ناريةٌ، وشبَّانٌ في سُترات دون أكمامٍ. وأنا فرحانٌ، هكذا، دونَ أكمامٍ في قميصي، كأنَّما أمضي إلى ما فاتني من لعبةٍ كنتُ أُتقنُها؛ كأنَّما أمضي إليَّ، دون شِعْرٍ، أو بلاغةٍ مما يَنْسُجُ الألَمُ الحلوُ؛ هكذا، إلى ما فاتني فأغضى لأنَّهُ فاتني.

وأنا شاعرُ هذا كلِّهِ: شاعرُ السماءِ الثانيةِ التي تنهبُها العجلاتُ؛ شاعرُ الدَّراجةِ الناريَّةِ، والقمصان التي لا أكمامَ لها؛ شاعرُ الصفيحِ المذهَّب، والمقابضِ التي تتشبَّثُ بها الأيدي الأكثرُ غضباً.

وللعضلِ، أيضاً، مُثُولُهُ في الذي سأدوِّنُ بأقلاميَ المعدنية. وسأفسحُ قليلاً للسِّبَاب ذاتِ الطَّعم المراهق؛ سأفسحُ - في الذي أدوِّنُهُ - مساءً لي، معافى كألفِ مصباحٍ أماميٍّ في الدّراجاتِ الناريَّة. أما هؤلاء المحدودون كمُطْلَقٍ غُفْلٍ، بقفازاتهم، وأزرارِهم الكبيرة كالنَّقدِ المَسْكُوك، فسيكونُ لهم رِفْعَةُ الفراغ في كلِّ حِبْرٍ، وحُنوُّ الفوضى على الأبدِ المُنْتَهَك.

دراجاتٌ ناريَّةٌ. قلبٌ ناريٌّ. وأنا ذاهبٌ إلى ما فاتني.

المنعطف الألف بعد الصاعقة التي تشبثت بي

سأدخلُ هذا البيتَ وأنا أُلقي بعظامي الى المدفأة.
سأدخلُ هذا البيتَ متشبِّثاً بالمكانِ الهاربِ، وبالقبرِ الذي يؤازرُني بكمائن الياقوت، وبالنمورِ الخضراء، الصّاعدةِ قوسَ الظلامِ المُبَارَكِ إلى شهواتي.
سأدخلُ هذا البيت من بابه العاشر، وفراغه الأملس كدرجاتِ العتبة الثلاث، مقسِّماً حلوى الأمسِ شطائر كالأيدي، رافعاً يديَّ بمراوحِ الموتِ إلى الأزلِ المَحْرُورِ في قيوده، إليَّ، إلى شركائي وهم يقذفون بأسرَّة النهارِ من شرفاتهمِ العاليةِ، ضاحكينْ تحت الأقنعةِ الرحيمةِ، ولألأةِ الأعماقِ التي ينفخُ فيها القياصرةُ الحمقى.

سأدخلُ هذا البيت.
سأدخل هذا البيتَ بي.
سأدخل هذا البيتَ برهائني الألف.
سأدخل هذا البيتَ بالأعاصير التي لم تُنْهِها الكتابةُ.
سأدخل هذا البيتَ بشرودِ التراب، وجهامَة النُّطَف.
سأدخل هذا البيـ يـ يـ تَ، مُطْرِقاً كجَدٍّ يُخفي عنهُ أحفادُهُ حذاءَهُ الأخيرَ.
سأدخلُ هذا البيت، دونَ سلامٍ، متَّجهاً إلى المدفأةِ كي ألمَّ عظامي.

المنعطف الأول، جنوباً، حيث يتصل شارع «سباق الخيل» بـ «ناڤارينو ستريت»

لزفافي يحتشـدُ العُنّابُ. لزفافي تحتشدُ النّمورُ، ولسُلْطانيَ صَنَّاجاتٌ يتمايلْنَ في الحنين الذي يُقَلِّبُ المشـهدَ ورقةً ورقةً، فاستريحي قليلاً أيتها القَيْنَةُ السـارحةُ عن غِنائها في حضوري، واسـترحْ أيها الحاضرُ المُطْرِقُ أمامَ نِبالِه الذهبيـةِ، وقوسِه المكسورِ.

سيظلُّ مفتوحاً بابي للمَشْهدِ الذي يقلِّبني ورقةً ورقةً، وللغيب الباحث عن خواتمه الضائعة؛ عن آلهةٍ في اللعبة العذبةِ التي نسجتْها شجرةُ الورد في حديقتي، وشجرةُ الصّبار في حديقةِ جاري. وكذا سيظلُّ قلبي أيضاً: مفتوحاً كصندوقِ أُمِّي، حيثُ يختلطُ دقيقُ الحناءِ بالموسلينْ؛ بالكحلِ؛ بالأحزمة المُقَصَّبة؛ بالخلاخيلِ؛ ببقايا فضاءٍ؛ بنباحٍ بعيدٍ؛ بيابسةٍ خلفَ النباحِ؛ بمياهٍ خلفَ المعسكراتِ الشفيفةِ للأقدار؛ بطواحينَ من نرجسٍ؛ بلصوصٍ يشكرون البيوتَ التي لم يدخلوها؛ بشاقولٍ؛ برفْعَةٍ لم يشهدْها الغبارُ.

سيظلُّ مفتوحاً بابي. سيظلُّ الغبارُ مفتوحاً لدخولكم، بالأحذيةِ ذاتها، وبالسيوف التي تقاسَمْتُم بها خلافةَ الليل.
سيظلُّ الكلُّ مفتوحاً؛ الكلُّ الذي يمسحُ الغبارَ، بريشٍ من وحْشَتِه، عن خوذةِ البارحة.

المنعطف الخامس، شمالاً، إلى مساكن لا أرها

هياكلُ أبنيةٍ جديدةٍ. بنَّاؤونَ. طواويسُ شهوةٍ، وعواصفُ من شجرٍ يتحرَّى مَقْتَلَةَ الريحِ، و
بنّاؤ
وو
 وونَ،
لا يتقنونَ من هندسة الظهيرةِ غير عَرَقٍ يتحدَّرُ إلى الأحزمة الضيّقة، والسراويل.
هياكلُ زبدٍ تتوازى في بَطَرِ المَشَابِكِ الحديديةِ، وطواويسُ في الأبعد، الأبعد، المتناظرِ بكمائنه الياقوتِ، وعواصفُ من شجرٍ ـ من فداحةِ شجرٍ ـ تتحرَّى المَقْتَلَةَ الأكثر ثُبُوتاً في الذي دوَّنته الجهاتُ بحبرها الدَّبقِ: ريحٌ. كذا يرشحُ الخبرُ. ريحٌ، ومَقْتَلَةٌ في الريحَ، و
بنّا
ؤوونَ،
تتساقطُ من لهاتهم أدواتُ قياسٍ، وورقٌ مُسَطَّرٌ،
وسطورٌ من حسابٍ وذهبٍ.

إنه المنعطفُ الخامسُ، شمالاً،
حيثُ الهدهدُ الكوكبيُّ بين براثنِ النِّعمةِ وأنيابِها.

المنعطف الثاني، شمالاً، إلى مساكن النازحين في «آيوس بافلوس»

لِيَدَيْكَ مَلْمَسُ فكاهةٍ، فاقتربْ بشفتيكَ من الخناجر الرقيقةِ هذه، التي تتناهشُها

القُبَلُ. وكُنْ جميلاً كعهدِ الفراغِ بكَ، دانياً تَحت الأكيد المُرْسَلِ كشَعْرِ امرأة، كأنما سيتلقَّفُكَ النهارُ كلُّه، والّليل كلّه؛ كأنما سيتلقَّفُكَ الغدُ بيديْنِ لا تتقرَّيانِ غيرَ الفكاهة؛ كأنما تُحيِّرُ الذي تَحيَّرْتَ فيه؛ كأنما أنتَ والقُبَلُ، معاً، تتناهشانِ الفجرَ المُعسْكِرَ بعَيَّاريْهِ في الدُّراقِ.

ولا تنسَ؛ كُن جميلاً، نقولُ ثانيةً.
لا تنسْ ثيابكَ تلكَ، وعطرَكَ،
وخُفَّيكَ الورقيين،
وابتسامتكَ ذاتها،
وحركتَكَ التي توزّع الحديقةَ شفةً شفةً، والفاكهةَ أنيناً أنيناً، وتجعلُ الحكمةَ أكثرَ جراءةً لتدخلَ على الأقوياء.
ولا تنسَ، بعد هذا، محبرتكَ الفارغةَ،
وبيانَ مُحاجِجِكَ الصامت،
فأنتَ كفيلٌ باعتناقِ الصاعقةِ وأطوارِها.

المنعطف الذي يلي العمارة العالية، شرقاً، في «أفروديتي ستريت»

أشغالٌ كثيرةٌ، وصفائحُ من إسمنت على الأكتاف.
غبارٌ شاغرٌ، ومُلصقٌ مُهملٌ لذكرى مُهْمَلَةٍ.
وأنا، في المدى الذي لا عَطْفَةَ فيه، من الشارع المرتطمِ بالعمارة العالية، أقضمُ تفّاحتي، في انكسارٍ أملسَ كالنهارِ المعتمر قُبَّعَةَ السائح. لكنني أدّخر للهواءِ اليقظانِ شراكاً من الخرز والفاكهة، مُعوِّلاً على الألق ليقطفَ لي مسافةً ثانيةً. وباحتكامٍ إلى الغبار أسندُ الشبيهَ بالشبيهِ، وألوّحُ بالعاصفةِ للأبد المختبىءِ في مواجعِ أزله المختبىء، فإن تذكّرتني الهياكلُ هناكَ؛ الهياكلُ القانعةُ بغدِها الساهرِ على الأساساتِ وإسمنتِها، تذكّرتُ - أنا المتداولُ شفاهاً كمناسكِ الحياة - الأساساتِ الأخرى، الظاهرةَ في الوميضِ المترَجْرِجِ كأثداءٍ تُرْضِعُ البحر الذي يتسلّقُ الضّجرَ إلى دفتري.

أشغالٌ كثيرةٌ من مياهٍ؛ أشغالٌ كأصواتِ الباعةِ، وبروقٌ تتسوَّلُ أسرارَ الصَّيف.
أشغالٌ،
وإسمنتٌ،
ومراجيحُ شفيفةٌ في الطعنةِ الشفيفةِ.
أشغاااالٌ،
والكمالُ المُرائي يستعرضُ الملهاةَ بشقيقاتِه.

المنعطف الثالث بعد جحيم «آيوس ديميتيوس»

كلامُكَ جارحٌ. جسدُكَ جارحٌ. العاصفةُ تستلقي على سريركَ، وأنتَ مشغولٌ بزهرةِ القُثَّاءِ التي ترتفعُ كَلُهاثكَ إلى عَسَلِ سفَادها. أينبغي إيقاظُكَ؟ ابقَ على الحالِ تلكَ، تتهامسانِ أنتَ والعراءُ، يدُكَ في يدهِ كخَلِيْلَيْنْ، ونَفْسُكَ تهيّءُ الأباريقَ الصلبةَ للنُّدماءِ الغرقى.

ابقَ على حالِ الشفق، تأخذِ البعيدَ في جبايتكَ، ويأخُذْك البعيدُ في جبَايته، كأنّما يُحاكي أحدُكما الآخرَ بثرثرةٍ لا أثرَ للملحمةِ فيها.

ومجدُكَ جارحٌ أيضاً، وسطَ هذا المكانِ المضرَّجِ بأُمومةِ التعبِ؛ جارحةٌ هبَاتُكَ، وللمكانِ بين يديك تصاريفُهُ الدمويَّةُ. فابقَ على الحالِ تلكَ؛ ابقَ كثيفاً يتستَّر بكَ الليلُ في افتضاحِ يقينِه، ويُمْليكَ على عَديدهِ الهواءُ الواحدُ.

واصعدْ،
قليلاً،
قليلاً،

هذه السنابلَ المظلَّلَةَ بأثرٍ من جهالةِ الصِّبا، وتوسَّطِ الظهيرةَ بجهالةِ الآنَ، إذا الأثيرُ أنتَ كجَلَبَةٍ تتقدّمُ غلْمانَ الموتِ في عبورِهِم المُحْتَشِمِ.

غير أنك في المنعطفِ الثالثِ، بعد جحيم «آيوس ديميتيوس»:
تحاولُ فتأتلفُ،
وتنسى فتأتلف،
وتُحْكِمُ الدَّسِيْسَةَ فيعبثُ بكَ العِنبُ.

المنعطف الذي يلي المنعطف ذاك

بكثيرٍ من ضراعة اليأسِ إلى شَبَهِهِ أضرعُ إليَّ. أنا المتماثلُ النَّظيرُ. أنا اللهاثُ الآخرُ، المزاحمُ بشبحه الأشباحَ. أنا الخسارةُ المُجَنَّحَةُ، والمُساءَلَةُ التي تكتبونها على أقداركم. أنا. ولأيٍّ أشغلُكم بي، أو أشغلُ نفسيَ بكم؟ ستمضون من هنا، وأمضي من هناك: فراغانِ في الكلمةِ المقسَّمَة ملاكاً مَلاكاً. وإن نظرتمْ إليَّ بعين إلهٍ كَمَمْتُ الحياةَ بمصادفاتٍ كالمناديلِ، ونصبتُ العَرَضَ على أقاليم الجوهر، مُباركاً تلكَ الشفةَ التي تلمسُ الجنونَ عن شهوةٍ، لاَ عن رياءٍ. وببعضي، لا بالكثير الذي يستهوي المجدَ الحيرانَ، أقايضُ البرقَ على فتْنَة كالمغيبِ؛ ببعضي أجعلُ المساءَ فخاخاً، لا بالكثير منيّ الذي تصيَّدَ الحجرَ الآدميَّ. ببعضي أنا.. يا لَبَعْضٍ يطيبُ في هلاكِ بعضه؛ يا للبقيةِ التي تتساقطُ أجاصاتُها على دروع الموتى.

بكثيرٍ من ضراعةِ الموتِ إلى ضجره، إذاً، أضرْعُ إليّ؛
بكثيرٍ من جمالٍ كثيرٍ أعاهدُ الخفيَّ، وألوّحُ للبطولة بانهيارِ الأسرى.

بكثيرٍ مّا، يا شقيقي، بكثيرٍ مّا..

المنعطف الثاني، شمالاً، بعد «بنك أوف سايبرس» في «ناڤارينو ستريت»

لمسةٌ تتقدمُ إلى ذاتها، عاصبةً جبينَهَا الذهبيَّ بدلالِ الذّكَرِ، وقيَّافٌ يؤاخذُ المساءَ بجريرةِ الفجر. فراملُ آليات، ونبالٌ ضاحكةٌ: مالَكَ لكَ، وما للصّخب للصّخب.
وشقيقاتٌ، أيضاً، يتكلَّفن، في مرورهن بالمنعطفِ الثاني، فتْنَةً ليست لهنَّ. شقيقاتٌ كإطناب لا بيانَ فيه: مالَكَ لك، وما للصّخبِ للصّخب.
كنتُ أمضي، أبداً، إلى بيتي الأول، من هنا، ناظراً الى السياجِ الصدىء، وإلى الواجهة الزجاجية للمحلِ الفارغِ؛ ناظراً إليَّ في دهاءِ المُسَيْطرِ على لعبةٍ لا خسارةَ فيها؛ ناظراً الى ما بدّلني خطواتٍ في الألق؛ في مساربه، كأنيّ ذاهبٌ نحو لمسةٍ

تتقدّم إلى ذاتِها، عاصبةً جبينها السُّكَّريَّ بدلالِ الذكَر.

كنتُ أمضي، عشرة شهورٍ، إلى بيتي الأول من هنا، دون أن أصرخَ: آحمني أيها الوقتُ من رَطانَة الجسد؛ احمني من ظلال تسرقُ الشرثرةَ الحلوةَ في الفاكهة. والشقيقاتُ الأربعُ، أيضاً، كن يمضينَ الى بيتهنَّ من هنا، كمصادفات ترتدي مراويلَ الخدَمِ. وكُنَّ يُحيِّنَني بغَدٍ ثملٍ. فأُحَيِّهُنَّ بغَدٍ يقظانَ، يتهيأً كالعدَّاء لأزِقّةِ الغَيْب.

من هنا كنتُ أمضي إلى بيتي الذي توارى خلفَ لمسَةٍ تترصَّدُ ذاتها.

المنعطف الثالث، جنوباً، في «آيوس بافلوس»

لا لأكونَ طفلكِ بعدَ الآن، بل لتكوني طفلتي.
لا لأكونَ نباهَةَ الجسد، وتأويلَهُ، بل لتكوني رهانَ الجُسُور.
لا ليكونَ المكانُ مُساءَلةً،
لا ليكونَ الأكيدُ.

رِفْعَةً رِفْعَةً يتحلّقُ الجمادُ، والنعيمُ الواحدُ، المُتَهتِّكُ تحت مساكبِ ليلنا، ينسى خُفَّيه هناك، وينسى الرمادُ أقلامَهُ. وأنتِ، كعضلةٍ في الجناحِ الأكثر خَفْقاً، تتجمَّعينَ من ألقٍ ورذاذ تحت ثدييَّ. فلا يُقسِمَنَّ المكانُ بكِ؛ لا يُقسِمَنَّ النبيذُ؛ لا.
لا ليكونَ عَرَضٌ، بل كثيفٌ، حُمّى،
لا.
لتكنْ قطيعةُ الأقوى. لتكنْ، لتكنْ أنتَ،
فالقصيُّ يتشاغلُ بكَ عن مجراهُ الساحرِ، وتتشاغلُ هي ـ التي أَوَّلَتْكَ تأويلَها الأنثويَّ ـ عن مراتبِ الليلِ بين يديكَ بأقواسِ الصباحِ العاري.

والمنعطفُ؟ ليكنْ، ليكنْ.
هي طفلةٌ فصَّلَتْ أُبوَّةَ الماءِ، وأنتَ رَحِمُها المشتعِل.

المنعطف، ما بعد بائع المثلّجات

ما الملوكُ؛ ما الأفق الدائرُ كالمغزلِ في ثبوتِهِ الأعمى؟ ما الرهانُ؛ ما المهرِّجُ الحليفُ؛ ما الرّكائبُ التي تتقطّعُ أحزمتُها تحت الوطأة الثانية؛ ما الفضيحةُ التي لا تؤرِّقُ الحاضرَ؛ ما المساءَلَةُ في شأنٍ يتزيَّنُ للمُساءَلَةِ؛ ما المجادلةُ؛ ما الشّجارُ الصاخبُ؛ ما التّواترُ؛ ما الحمَّى في هذا كله؟

أليفٌ مما يغزلُ الصِّبْيَةُ الضاحكون؛

أليفٌ من ترفٍ يتلمَّسِ المنعطفَ بمراوحِهِ. لاهثاً مثلما رئةٌ تنفثُ الجدالَ؛ أليفٌ يتحلَّقُ حولَ أطفالٍ يسألون البائعَ، بنقودهم الذائبةِ، فتوى الجليدِ، في المنعطفِ الأولِ، شمالاً، إلى سور المدرسة؛

أليفٌ أحمقُ، تتشيَّعُ لِهُبَابِهِ الظهيرةُ والنوافذُ؛

أليفٌ كالرِّهانِ على غامض؛

أليفٌ كحديدٍ مُدَوَّرٍ؛ كسياجات؛ كصرخة؛

أليفٌ في احتكامي إليهِ، في اقتصاصي منهُ، وشكوايَ عليه.

بيني وبين الأليفِ ظلالٌ تشحذ الخناجرَ للظلال.

بيني وبين الأليفِ بائعُ مثلَّجاتٍ، وياقوتٌ يتساقطُ حَبَّةً حبةً من الخاتمِ الأكبرِ لخليلتي التي بعثرتِ المكانَ.

في المنعطف الآخر أيضاً، حيث يصل «أفروديتي ستريت» بـ «آيوس بافلوس ستريت»

المدرسةُ، هناك، قانعةٌ بالذي لها: بالسياجِ، وبالأطفالِ الذين فتحوا ثغرةً في السياجِ؛ ببائعِ الحلوى النعسان قرب الثغرةِ في السياج؛ بطبعي الخفيِّ كأجاصةٍ من رمادٍ تتذَرْذَرُ فتلتمُّ في الثِّقلِ الأكبرِ لشجرةٍ مُتَهَتِّكَةٍ.

قانعةٌ

هيَ،

وهي، كمدرسةٍ، لها سياجُها، وأطفالُها، وثغراتٌ في السياج يعبرها الغدُ الشرطيُّ

بحقيبتِه الملآى سياجات، وأطفالاً، ومدارسَ من رمادٍ تَتَذَرْذَرُ فتلتمُّ في الثِّقَلِ الشَّتيتِ لأيَّامنا.

هكذا، إذاً، في المنعطف ذاكَ، تأخذُكَ الحكمةُ من مسائكَ، لتدْخلَ شريداً إلى مسائها. هكذا، إذاً، غريقاً حتى رعبك في الوردِ؛ غريقاً في الهمهمةِ المدوِّيةِ لشجرة التّينِ، يسرقُكَ السياجُ بفخاخِ حرِّيته.

وفي المنعطف ذاته، الذي يصل شارع بيتك بآخرَ (أفروديتي - آيوس بافلوس) لا تُلْق بنظرتكَ على ابنةِ الجيرانِ الواقفةِ تحت غمغماتِ روحها، بل على المدرسة، كأنَّما يستيقظ الغَيبُ كلُّه في يديكَ، بدفاترِه وحبره؛ كأنَّما قَدَرٌ يلقي بحقيبته عالياً فيتناثر الورقُ، والأقلامُ الرصاصُ، والمبراةُ، والشتاءُ الذي تشمُّ في قدومهِ مشاربَ الآلهةِ المكتوبةَ على قميصِ كهولَتِكَ، المفتوحِ حتى آخرِ أزرارِ حماقتِه.

المنعطف الأول، إلى جهتي

حين تحنُّ، طويلاً، إلى المكانِ، لا تَعُدْ إليه.
حين تحنُّ إليَّ، طويلاً، اقتلني.

ماذا ينبغي علي لأشرحَ المسألة؟
الملوكُ ذاهبونَ إلى نيسانَ؛ الشعوبُ ذاهبةٌ إلى نيسانَ، والأبد، الذي انحسرتْ عن كتفيهِ عباءةُ جدِّي، ذاهبٌ، معي، إلى نيسانَ. نيسانُ ذاهبُ معي. نيسانُ ذاهبٌ الى أبوَّتهِ، وهو ينثرُ الودعَ على ما تبقّى من جُسُورٍ وهزائمَ تتلفَّعُ بالبطولةِ الماكرة.
وأنت، الذي تحنُّ إليَّ طويلاً، لا تقُلْ لنيسانَ عنيّ ما يقولهُ الأنينُ، ولا تكشفْني بحبِّي هذا؛ بجسارتي المتناثرةِ هذهِ، على البهو الذي تَرَى في آخرهِ سريري، وتَرَى الوَرَثَةَ يشقُّون الوسائدَ بحثاً عن ممالكي. ولا تحمني بصرخةٍ، أو بحرابٍ كالتي شحذتْ نصالَها أراملُ الفجر، بل أوصدِ البابَ عليَّ وعلى نعشي المرصَّع بفروجٍ متلألئة، وأنصتْ من خلفِ الستارةِ تلكَ - ستارةِ المشيئةِ وعُمَّالها المتشاجرين - إلى قناعي الذي أتركه على سريري، وأصعدُ الأصيصَ النحاسَ، الذي يتدلّى من السقفِ،

مُلْتَجِئاً إلى حَرَمِ المعدنِ وأزْرِ نقوشهِ.

ماذا ينبغي عليَّ؟
ماذا ينبغي على المكان الذي لن تعودَ إليهِ؟

المنعطف الذي يصل سور «سباق الخيل» بآخرِ «أفروديتي ستريت»

الخوذةُ ذاتها تسقط، من الشفق ذاته، على حلبةِ «سباق الخيل»، قربَ بيتكَ في «آيوس ديميتيوس»، وأنتَ تهمسُ الى الخَوذةِ ذاتها، وإلى الشفقِ ذاتهِ: إلهي، بكيتُ كثيراً من أجلِ هذا العالم.

وستبكي كثيراً أيضاً، على الجبهةِ ذاتها، المهيّأة منذ أزَلٍ عالٍ كحذاء فتاتك. وستبكي معك حجارةٌ لم تحملها، وبيوتٌ استسلمتْ لقضاءٍ غضبانٍ يضربُ بقفّازهِ الأسمنتيِّ غَدَكَ الغضبانَ. ستبكي نوافذُ لم تنظرْ منها إلى الحيرة المرتدية قُلُنْسُوَةَ الطَّاهي، وكذلك الأبوابُ وهي تَصْطَفِقُ بدَفْعٍ من الأيدي المغسولةِ بظهيرةٍ سَكْرى.

الخوذةُ ذاتُها، والبكاء ذاتُه.
الخوذةُ الخوذةُ ذاتُها، في حلبةِ «سباق الخيل»،
يوماً بعدَ آخرَ،
وغضباً في عقبِ غضبٍ.

معدنٌ سَلْسَبيلٌ، ودمعٌ رقَّشَتْهُ أزاميلُ صغيرةٌ، هنا، حيثُ استطلعُ من شرفتي أكمامَ الوردِ في الحديقة، وطيشَ الحكمةِ وراء السياجِ الأبعدِ، في انخطافٍ أبعدَ مُدوٍّ، يصلُ صرخاتِ المراهنينَ في حلبةِ «سباق الخيلِ» بالأفقِ الخسران.

إلهي، بكيتُ كثيراً من أجلِ هذا العالم.

المنعطف، في ما وراء المنعطفات المذكورة

بخيَّالَةٍ من مذاهب الوردِ اقتحمُ هذه النظائرَ المكنونَةَ، وبأسرى، ممَّن تسلَّلوا إلى مرحي، أتسلّل إلى سكينةِ المرئيِّ، حصيناً بأقداريَ الخفيفةِ وخطابيِ الخفيف. فإن استعادني غدي منيّ فَلْيَسْتَعِدْني حيرانَ، مطوّقاً أمسيَ الأنثى بحصافةِ النَّبات. وليُطبِقْ على يديَّ بقيدٍ شفيفٍ، لرنين خلاخيله قُزَحٌ، وأقواسُ قُزحٍ، ومراتبُ في الصوتِ خفوتُها تسبيحٌ، واغتلاؤها مشارفُ يُلقي أسرايَ منها عليَّ فكاهةَ الغيب كلّه. فليُطبقْ على يديَّ بريشٍ، أو بصريرٍ من أقفالِ المديح؛ وليكنْ، كأيِّ غدٍ، مُغْلَقاً على قناعهِ المضيء، وصخبِ مجاريْه.

حليُّ الغد، كلُّها، هنا.
إصطرلابُهُ، أيضاً، ومِسْحَاجُهُ.
وهو، بأسلابه، مشافهةً، يتقاطعُ والريحَ، كأيٍّ لَهُ جسارةٌ من رمالٍ؛ كأيٍّ بَذْخٍ؛ كإطراءٍ يكاشفُ الهواءُ به الهواءَ.

غدٌ يكلِّمُ الأشباحَ كما تكلِّم الملوكُ الملوكَ، ليُرجعني إلى غدي.

المنعطف الحادي عشر، جنوباً، إلى حاجز الجيش اليوناني، في «آيوس بافلوس»

بشفةِ الحقيقةِ، ولسانها، يثرثرُ هذا السّاترُ الترابيُّ، على مسمعٍ من الشاحناتِ المسرعةِ، والنباتِ المسرع.

إحدى عشرةَ سنةً، بخُوَذِها؛ بفتور خُوَذِها؛ بالفتورِ الأكملِ لهياكلِ عماراتٍ مؤجَّلَة، يثرثرُ هذا السَّاترُ الترابيُّ، الذي لم ترتفع بنادقُ من حوله، بل نباتٌ أَسَّسَ الفتورَ الأكملَ بحاسباتهِ الرَّطْبة، متسلّقاً الحَدَبات إلى نظامِ المغيبِ المُعَسْكِرِ هناك.

ساترٌ ترابيٌّ،

وهُدنةٌ تقتفي الأثَر الضائع لأرضٍ ضائعة.

فإنْ مرَرْتَ، أيها الحليمُ كجزيرةٍ تتفيَّأُ العابرينَ، بالسَّاتر الترابيِّ، في المنعطفِ الحادي عشر، جنوباً، في «آيوس بافلوس»، تذكَّرْ هدنةَ الوردِ، وحشودَ العنب، ثم مِلْ على العسكريِّ المدجَّجِ بخَفَرِ ثيابه، وقُلْ: أسْعِدتَ وقوفاً أيها المحاربُ؛ أسْعِدتَ خوذةً.

شفةُ الحقيقةِ، ولسانُها، يُحرِّضانِكَ على البعيدِ العاري خلفَ السَّاترِ الترابيِّ.

المنعطف المنسيّ، هناك، بعد العمارة الثالثة

ما ليقظةِ الحُبِّ هذه، ما لأنقاضٍ تتراصفُ طفلاً طفلاً في مراياي؟ فلأمتْ لأجلك. فلأمتْ. فليمتِ النهارُ لأجلك. فليمتِ الحيُّ بيتاً بيتاً لأجلك. فلتمت الحديقةُ، والمدرسةُ، هناكَ. فلتمتْ حلبةُ «سباق الخيل»، والشارعُ المجاورُ، ودكانُ مصفِّفة الشَّعْر، والميكانيكيُّ الذي جمعَ في الساحةِ هياكلَ المركباتِ، كأنَّما يهيِّىءُ للقيامة عجلاتٍ من مطاط، ومصابيحَ مكسورةً، ومقاودَ لا تديرها الأيدي. فليمتْ لأجلك العراءُ الذي يجاورُ بيتَ العجوزيْن، هناك، إذ لا يُشغلانِ أحداً بلعبتهما في الموت السكران لضجرٍ سكران. فلْيَمُتْ هيكلُ العمارةِ الجديدة، ودراجةُ شرطيِّ المرور الناريَّةُ، وسلالمُ بيته. فلتمتْ شجيرةُ الحبق، والأصصُ الأخرى، المتراصَّةُ على السور الاسمنتيِّ الواطىء. فلتمتْ الخيلُ التي تُرى أذيالُها القصيرةُ من خَلَلِ الشجر المقامر بأشكاله. فلتمت الهررةُ الشريدةُ، والشّقوقُ التي افتتحَها «الإخوةُ الماسونيونَ» لصْقَ سورنا الغربيِّ. فلْيَمُتْ محلُ بائعِ المثلّجاتِ لأجلك؛ فلتمتْ صحُفُه المعروضةُ في الواجهة. فلتمتْ أحذيةُ الفتياتِ، بنقرها المتدرِّجِ تحت ثقَلِ الأفخاذِ المليئةِ العارية؛ فلتمتْ شفاههنَّ التي تتلألأ عليها بقيةُ البقية. فليمتْ لأجلكِ ما نسيتُ من مشاغلِ الحَمَامِ في أقفاصِه. فلتمتْ شجيرةُ الفلفلِ التي أحبُّها.

فليمتْ لأجلك ما تريدينَ أن يموت،
ولتموتي، أيضاً، لأكتبَ ما تبقّى.

المنعطف الذي يصل « تشرشل ستريت » بـ « ناڤارينو ستريت »

الصناديق في كل مكانٍ. رافعاتٌ من مكائدِ الحقولِ ترفعُ التُّخْمةَ كغمامةٍ فوق الصناديقِ المتناثرةِ في كلِّ مكانٍ، حيثُ تغزو «التعاونية الاستهلاكية» رصيفَ الشارعِ ببطّيخها، وقُنَّبيطِها، وخَسِّها، وبازلاَّئها، وكَرَفْسِها، وقُثَّائِها، وقواريرِ الغازِ، أيضاً، المقيدةِ بسلاسلَ، إحداها إلى الأخرى، كأسرى حربٍ في الجهةِ الثانيةِ من ظلالنا.

... والنساءُ يحتشدن؛
الفاكهةُ تحتشدُ،
والفضولُ الأبكمُ لغبارِ الرصيف.

خُذْ ما تشاء
رخيصٌ هذا، ورخيصٌ ما يجاورُهُ.
وتذكّر رصيدَكَ في البنكِ الذي يكاد يتّصل بناؤه بـ «التعاونية الإستهلاكية»، ففي ذلك ما يشغَلُكَ عن صباحٍ مهزومٍ أمامَ ظهيرةٍ مهزومةٍ. ولا تنسَ الليلَ الذي سينزلُ ثقيلاً، كأنما يهبطُ من شجرةِ الكستناء، بصيارفتهِ الغامضينْ، وجرائه المغسولة تَّواً بماءٍ فاترٍ؛ ثقيلاً سينزلُ على سطحِ بيتكَ، وسطحِ المبنى الذي يجاور بيتكَ، وسطح ما تبقّى من عالمٍ مسقوفٍ بمآتمَ مغرورقةٍ كعينيك.

الصناديقُ في كلِّ مكانٍ: عنبٌ ورعبٌ. غدٌ ويَقْطينٌ. هزيمةٌ وجرجيرٌ. والنعمةُ، التي تتوسّلُ الى المارَّةِ، بطاستِها التوتياءِ، تغمزُ بعينيها، كأنَّما تمتحنُ المكانَ بِعَبَثٍ كالذَّهَب.

المنعطف الأول، شرقاً، الى المدرسة في « ايوس ديميتيوس »

إن سألتَ يا بيتي، الذي ليسَ لي، عن سُكْنى كشغفِ اللَّهب بنسله، فلا تُقَسِّمَنَّ جوابي بينكَ وبين الحاضرِ المتسوِّل تحتَ النافذةِ الجنوبية، حيثُ العدّاؤون بقرونٍ عظيمةٍ لحيوانات الفجر. بل امتحنْ أبوابكَ، وجدرانكَ المتأَبِّطَةَ حجارَتها الرحيمةَ،

وتخلَّعْ قليلاً لتتذكَّركَ أرضُكَ المنسيَّةُ في جمالِها المنسيِّ.

وبإذنٍ منك، وباعتذارٍ خجول، يا بيتي الذي ليس لي، سأدلقُ الحَيَّ من قارورتي، شجراً، وسياجات، وحماماً في الأقفاص، وأطفالاً صاخبينَ، ووروداً، وقُبلات لا تصلُ، وهريرَ آلاتٍ لم تُفْطَمْ جراءَ حديدها بعدُ، وضَبْحَ خيولٍ في مِرَانِ عَدْوِها بُكُوراً لسبتٍ آخرَ، في حلبةِ «سباق الخيل» ذاتِها، لِصْقَ السياجِ غير البعيد ذاتِه، الذي أراهُ من حديقتي.

آه يا بيتي الذي ليس لي،
أنتَ لست لي.

كذا عليكَ أن تهمسَ صراخَكَ، فالمكانُ ليسَ لَكَ. السياجُ، والشارعُ، والزهرُ البريُّ اليابسُ، في العراء المنظور، ليسَ لكَ. المديحُ وأنقاضُهُ كذا، والمُتَبَارَكُ من غُنُمٍ رديفُكَ المُسَمَّى. لجُلَجَةُ الحطامِ بين يديكَ كذا، وكذا غَلَمَةُ الشفقِ العريْسِ وخُطّافاتُ ذكورَتِهِ.

هيىءْ لي، إذاً، يا بيتُ، نعمةَ عبوري بكَ إلى ما ليسَ لي.

المنعطف الذي يحجبه الشجر، في الجهة الغربية من حديقة جاري

رخيمٌ هذا البرقُ كقُبَّعاتٍ تُرمى من شرُفاتِ الفراغ. وبي، أنا الذي يرى ثِقَلَ صباحه المُنْشدِ، هيامُ نباتٍ، وأزيزُ الطَّلْقةِ التي تُضْرِمُ الحروبَ.
وبي،
أيضاً،
نزفٌ غنيٌّ عن تعريفه كلُعبةِ طفلة؛
بي حذاقةُ الشارع الذي يجاورُ البيتَ،
ووضوحُ الصَّخب في قُبلةٍ خفية.
لكنني، بجهامةٍ كالصباح، وشؤونٍ منسوجة كشجرةِ اللوبياء، أحيطُ بنفسي،

وأحيطُ بالذهب الذي يسمّي لساني لساناً، وكلامي رنيناً من رنين المعدنِ، حتى إذا تساوتِ الشُّبهةُ والقَدَرَ كسوتُ الغدَ باطناً من جمادٍ، مُرْجِئاً ثِقَلَ الورد إلى فراغٍ آخر.

وأُرجىءُ شؤوني أيضاً، ناظراً إلى ذلك العجوز الذي لا يشغلُ أحداً بلعبته. هو، وزوجُه، أبداً، في الحديقة الميتةِ؛ في الموتِ السكرانِ لضجرٍ سكران. ولربما هتفتُ: قليلٌ سيمضي معي إلى مثواي، قليلٌ سيمضي معهما الى مثواهما.

... والحديقةُ ستمضي، السياجُ، وأعمدةُ الكهرباءِ، وزجاجُ الواجهةِ في مَشْغَلِ النِّجارَةِ قربَ البيتِ، وحلبةُ «سباق الخيل»، والخيلُ، والمنتظرون، بأوراقهم، ظهيرة السبت، ليهتفوا هتافهم الرَّتيبَ في رهانٍ رتيبٍ؛ كلُّهم سيمضون الى الغامرِ المُدَقِّقِ، كشُرطيٍّ، في أرواحهم المُرْتَجَلَةِ.

سأرجىءُ شؤوني،
سأرجىءُ ثِقَلَ الوردِ إلى فراغٍ آخر.

كمائن في المنعطفات كلِّها / ختامٌ مّا ـ سهمٌ

اَللبوةُ الذهبيَّةُ تصعدُ بجرائها الملهاةَ هضبةً هضبةً، والشهودُ المتكئونَ، بمعاطفهم الترابيةِ، على سور أقدارنا، يُقلِّمون أظافرهم في إهمالٍ، غير عابئين بالجسارات الكبرى، والعظامِ التي تتنادى إلى بَيْعَةٍ تحت القمرِ الآدميِّ.

والمكانُ يصعدُ الملهاة بحقيقة الغبار، درجةً درجةً، وسط تيجانٍ مُهْملةٍ، وشموسٍ يلمُّها الهاربونَ. أمَّا الخيَّالةُ المقبلون من فراغٍ آخرَ، حاضنين جماجمهم، فيحارون قليلاً في تصنيف المشهد. غير أنَّهم، بإيماءةٍ واحدةٍ، يصعدون الملهاةَ، أيضاً، تتقدّمهم كلبةُ الفتنةِ بأثداءٍ لم يزلْ على حلماتها أثرٌ من لُعابِ الملوك.

هكذا يترصَّدُ المشهدُ ذاتُهُ من مشارفِ الحقيقة؛
هكذا يكتملُ المنذورُ.

وأنتم، إخوتي الجالسون في نفق البلاغة، هناك، ناسينْ أن تسردوا لي تمرُّدَ

الحكاية، وانقسامَ الرّواةِ، لا تنتظروا أكثر؛ لا تنتظروا أن ينسى المشهدُ فضولَكم فيختزلَ القتلى، وأن تتبادلَ السماواتُ المهشَّمةُ مفاتيحَها المهشَّمةَ. وباليد اللدنة كَشفافة تسرقُ القمُراتِ، تلمَّسُوا عذابَ الماءِ، واتَّخِذوني شفيعاً لدى المغيبِ يُغويه الأكيدُ فيتبعثرُ خطابُهُ.

ليس لي غير هذا،
ليس لإخوتي غير هذا،
فإنْ يَضْمَنِ الحجرُ كثيفَهُ المُهْرَقَ ضَمَنَّا الأقفالَ الرقيقة كَنداء، مُقْدمينَ على شُكْرٍ تَنسربُ من خُرُومهِ المآذنُ والسروجُ. وبطشاً إثرَ بطشٍ سَنُلهمُ الروحَ نَثْرَها الأجملَ، دون أن نُعلن في الشهودِ - المتأبطينَ محاوراتِ الهياكل، وظلالها، والمغيبَ الذي يصعدُ الهياكلَ وظلالَها إلى ملهاته المُعادَةِ - سِحْرَ الكلامِ في انكسارهِ كُلَّما اسْتَلهم المُعادَ الفَرْحان.

ليس لنا غير هذا الذهبيِّ
ليس لنا غير هذا المشهد

والأكيدُ لبوةٌ تتقدَّمُ، بجرائها، عربةُ الغبار.

نيقوسيا - ١٩٨٥

خزائن منهوبة

ليَكُنْ ليَ اقتدارُ ببَّغاءٍ حتى أردِّدَ الأرضَ. ليَكُنْ لي وعيدُ الوردِ للورد. ليَكُنْ ليَ الألقُ هذا، المَقُوْدُ بكلبٍ واحدٍ ونَعامةٍ واحدة. ليَكُنْ ليَ ما نسيهُ المُنْحَنُوْن على الأفق - الفقيدِ. ولأكنْ هناك، في اللعبةِ التي يعثر فيها الدّمُ على حُواتِه، فأنا في مستطاعي أن أدلّكمْ على عرينٍ ذهبيٍّ يُغوي البراعمَ، فابدأوا بي؛ ابدأوا الغَمْرَ الذي نرفعُ في طينه الحيِّ ريحاً تلمسُ الشفقَ بأثدائها، وابتسموا، قليلاً، إذ يدخلُ الكمَالُ، كالبستانيِّ، إلى نشيدنا؛ ابتسموا إذ أكملُ إنكساري بالمشيئةِ التي تتّكيءُ على العظام.

وبي يتوعَّدُ الوردُ الوردَ.
بي ينذُر المكانُ المكانَ،
كأنْ أباطرةٌ سيمتحنونَ ما هُيِّئُوا لَهُ.

والذي حولي هو حوليَ: أسلافٌ يهيئون مشيئةً أخرى بآلاتهم الصَّلدة، إذ أراهم، من هنا، تحت الظلِّ الأكبرِ لجناحَيِّ البازِ الأكبرِ، يتخاطرون كعرانيسِ الذُّرَةِ، والغدُ المُخْتَلسُ يُريهم ما أريهم أنا من مَطَالعَ حَالَتْ حواشيُّها بنَفْخٍ يورِّثُ الروحَ اختلافَها.

.. والوردُ يتوعَّدُ الوردَ،
كأنَّ الموتَ ضالعٌ في اختلاقِ الحيِّ أشباهَهُ الحيَّةَ؛
كأنْ سَهَرٌ بليغٌ يُملي على النومِ، بشفاه ألْف، رنينَ التَّاجِ الذي هوى.
فما الذي يدوِّنُ المدوِّنُ آنَ يختلقُ اليأسُ، كالحيِّ، أشباهَهُ المرحيْنَ؟

بي ينذرُ المكانُ المكانَ،
والمرابيُّ الوردُ يتوعَّدُ الوردَ،

فاحذروني
لا بسيوفٍ تؤاخي النّعمةَ؛ لا بالصدى ذاكَ، المُفسّرِ كَراوٍ ضجران؛
احذروني بالأبقى،
احذروني بالمصادفة الثقيلة كردف الحمار؛
ولتأنس الحيلةُ الى الحيلة آن يَسكُنُ العَرَضُ إلى شموله، فالذي يُبقيني هكذا، مرمىً تسدِّدُ الحقيقةُ سهامَها المكسورةَ إليه، هو ذاته الذي يُبقي الفاجعَ المتألّقَ في الدَّمِ المتألّق، لا بحيطَة تذكّركُم بالصدى المُفسِّر، أو بالقطيعةِ المشغولةِ من كثيفٍ يُروى، بل من تهافتِ الفاني على سحْرِه.
كلُّ هذا مدخلي إليكم بالبَرَمِ المُمْتَدَحِ، لأكتبَ الورقةَ الأولى، المسطَّرَةَ بحشْدٍ مُداهنٍ؛ لأعبثَ بالورقةِ الأولى عبثَ المؤرِّخِ يُحْيي بَهْلُولَةَ الأعمى؛ لأريكم ما ترونَه، بسيطاً حَيّاً، يُروى بكلامٍ تحسبونَهُ من مَراتِبِ المُشْكلِ، لكنه نذيرُ الخَزَنَةِ الضالعيْنَ في تدبيرِ الرِّهانِ الذهبيِّ
الذهبيِّ
الذهبيِّ
الذهبيِّ،
في آنٍ يرقِّقُ الأرغفةَ،
متلمِّساً حطامَ الجهاتِ بلسانِهِ السُّمّاق.

والحقيقةُ ترقِّقُ أرغفتَها، أيضاً،
وهي تحفرُ، عميقاً، ذلكَ الأخدودَ المعدنيَّ لخُنْفسائِها.
لكن البقاءَ الذي يمشي الحَيْدَى، وسط فلوله المضرَّجة بأكيد كالحُمَّاض، يلجمُ الصرخةَ الآتيةَ من هناك؛ من المُشْكلِ المتَّزنِ إذِ الهباءُ يقايضُ الرُّسُلَ بالجُباة، وتروِّضُ الكتابةُ الكَتَبَةَ بالفروقِ ذاتِها، المجلوَّةِ كمرايا يكلِّمُ الغدُ فيها وسيطَهُ المُفْتَضَحَ.

والذهبيُّ ذهبيٌّ:
رَضْفَةٌ ذهبيةٌ. غضاريفُ ذهبيةٌ.
فجاءَةٌ ذهبيةٌ. تَرْقُوةٌ ذهبيةٌ.
وَجْنَةٌ ذهبيةٌ. صُدْغٌ ذهبيةٌ.

حَرْقَدَةٌ ذهبيةٌ. عَضُدٌ ذهبيٌّ.
قُذَالٌ ذهبيٍ. حَقْوٌ ذهبيٍ.
صَفَن ذهبي.
عَقبٌ وفَكٌّ ذهبيّان.
مشارفُ ذهبيةٌ،
ونَسْلٌ يكمنُ للمعجزةِ بسهامِ الذَّهب.

هكذا الذهبيُّ المُفْتَضَحُ كقيامة تتطاولُ على التَّدْبير.
هكذا المَلَلُ الحَرِدُ وهو يجرٌّ الكَمالَ إلى سُعاتِه.

فليبقَ معي الباقي.
ليبقَ المُثْخَنُ بالبداهةِ النحيلةِ كصديقٍ نحيلٍ.
ولتبقَ الطَّرَقَاتُ الكثيرةُ على البابِ، فحسبُكَ، وأنتَ تَفتحُ، تفتحُ لبُراقِ المكيدةِ العذبةِ، بأعضائكَ التي تتهاوى شفقاً شفقاً، كأنَّما أنذرتْكَ الأرضُ للبسالةِ، وأغضى عنكَ الموتُ فأنت تستوفي حيطَتَكَ بحرسٍ مذهولين. ليبقَ الباقي. ليبقَ الذي تنتظرينه، أنت، يَتُها المتوسّلَةُ مثل الدُّلب إلى الأعالي الشّعثاء. ليبقَ الذي تنتظرهُ يداكِ. لتبقَ الأقدارُ بحروفٍ لَمْ يُعَمَّقْ حَفْرُها على الصفيحِ المُهيّأ لأزاميلِ العَبَثِ الشقراءَ.
أأمتحنُ البقيةَ بك؟
أأمتحنُ بكِ الصَّخَبَ الخَشِنَ كذهولِ أبٍ يُقَادُ إلى مَقْتَلِه؟
هي فداحةٌ تحزمُ الغياهِبَ، والعنبُ يتحرَّى اللّمْسَةَ التي نسيتِها فوقَ يدي.

غير أنّي إنْ ذكرتُكِ ذَكَرْتُ الجدالَ بين المياهِ والألقِ،
وتحيَّنْتُ الذي أنا فيه، بعد أن يكادُ يمضي بخطاطيفِ الذي مضى؛ تحيَّنْتُ الأليفَ في قدومهِ الثقيلِ بأثدائه الثقيلةِ، مومئاً كرمادٍ ساحرٍ إليكم؛ إلى الفراغِ المُعَلَّقِ من رئتيه إلى شجرةِ التّينِ، هناك، حيثُ الرماةُ المتألّقونَ، والثعالبُ النائمةُ في اليواقيت، والعدّاؤونَ من نَزْعٍ إلى نَزْعٍ؛ حيث الأسرى الموثقونَ بسيُورِ المَرَحِ؛ حيث الحكايةُ كلُّها، المُتَفَيِّئَةُ، في فَزَعٍ، إلى ساقِ الدَّلْبُوْث.
ليبقَ معي الباقي، إذاً،

حتى أريكم تُيُوسَ الرسالةِ التي يبلِّغُها الأكيدُ إلى الأكيدِ؛
لأريكمُ النبوءَةَ المتسلِّقةَ، كاللَّبلابِ، أبْهاءَ الإسمنتِ، ضاحكاً من الموعدِ المُعْلَنِ للقادمين بأسرارِهم إلى الملهاة.
وبي، أو بكِ (لا فرقَ) سأمتحنُ السكينةَ المُنْكَبَّةَ، هنا، بأمشاطِها على تسريحِ الفاجعِ ذي الذؤاباتِ، متمتماً ما يتمتمُهُ المأمولُ المُطَوَّقُ بالفضيحةِ أمام بوّابَةِ الله، سكرانَ مما يُشْغلني به القديمُ القديمُ، كأنني بكِ، أو بي، سأمهِّد الفجاءَةَ لاسترسالها حتى يَلْهَجَ الزعفرانُ بأسماءِ الريحِ، ويهديَ النُّحَامَ جناحيه إلى الخزامى. مُتَفَكِّراً بالمُتَفَكِّرِ فيَّ، يصلني الخشخاشُ بيَقينِه، ويزاحمُ الخَرْدلُ بأعضائي ما يزاحمُهُ. والبقيةُ؟ بكِ، أو بي، لا فرقَ: يُنبِئُنا العَدَمُ عنه إذا يميلُ إلى عُزلةٍ، وتتلكَّأُ الذُّرَةُ في سَرْدِنا على الظلال. بَلْهَ يَقُومُ البنفسجُ بتوضيحِ ما خَفِيَ منّا، ويَؤُمُّ بنا العُلَّيْقُ البطرانُ أَلَقَهُ الدَّفِينَ. والبقيةُ؟ للقرنفلِ شَكُّهُ. للتوتِ شَكُّهُ. للقُنَّبِ، للحَلْبُوبِ، للدِّفْرانِ، للتَّنُّوبِ والجُرَيْسِ، لنا، لليَحْمُوْرِ النازفِ على حجارةِ النبعِ، للقيامةِ التي تتهيَّأُ بأقنعتِها القطانيَّةِ، للدّعاميصِ الطافيةِ على الماءِ، للبتولا، للطاووسِ الساهرِ على الكلمةِ، القويِّ الخجولِ، للبَوَّاقِ ذي النَّفْخِ المالحِ، للبَقْسِ، للتَّنُّوبِ، للجاوَرْسِ، للحندقوقِ الهاذي، للفجرِ الذي يتلوَّى كالصِّلِّ قربَ النعمةِ، للبَلاذرِ، للكتّانِ، لليقينِ الراكضِ بجلاجلِ الفراغِ، للغدِ شُكُوكُهُ.
هكذا: شُكُوكٌ على مرمى القَهْقهةِ؛
شكوكٌ على مرمى الذَّهب.

ونحن ما نحن عليه: آسرانِ بالشتاءِ الذي يتوسَّدُنا عاصفةً عاصفةً، وإذْ نُدْعى نَكُنِ الإطالةَ في إنقلابِ المُشْكِلِ إلى اتِّضاحِه المُشْكِلِ.
والبقيةُ؟ هكذا: تشمُّ الأرضُ ظلَّها، متعرِّفةً إلى آثارنا فيه. فأيُّ احتدامٍ للمياهِ يشغلُ البقيةَ؟ أيُّ بُرْديٍّ يُغوي الخلودَ الأحمقَ؟ في حُبٍّ صاعدٍ أدراجَهُ سنهمسُ إليكم بالكلام الباقي لِشَفَيْعنا؛ سنهمسُ المدينةَ، راكنَيْن إلى التكويرِ الذي يجعلُ الأَبْعَدَ نُزْلاً، والنهايةَ حيلةً من حِيَلِ العيَّارَيْن. وكما يتقنُ المعلومُ نَسْجَ فِتْنَته نُتْقِنُ الترويحَ عن الأزلِ الفرَّانِ بالأقاصيصِ التي تَتَبرَّجُ بطحينها. وبي، أو بكِ (لا فرق) سنؤخِّر ـ بما في صلصالنا من حُوَاةٍ ـ دخولَ الرمادِ، المتبرِّمِ من مُنْشدِه، إلى مَهَبِّنا. سنتغامزُ، متمتمَيْن: «كثيفٌ يستدرجُ الكثيفَ. حِبْرٌ يُهرِقُ الفضاءَ». وإذْ نستفيضُ في تدويرِ

الأمرِ، كما يُدَوِّرُ المُمْكِنُ فظاظاته، نجعلُ البَقْسَ كنايةَ النهارِ المُتأتِيء، والعَصِيْفَ رَطَانَةَ الشَّكْلِ. لا. ثَمَّ دفرانٌ يدورِّ المُشْكِلَ النباتيَّ أيضاً. ثَمَّتَ بُغامٌ حولَ البيانِ، وحُيُّوتٌ يتقدَّمُ الأحناشَ الرقيقةَ، كَعُذْرٍ رقيقٍ، إلى كمين المُبْتَدأ. ثَمَّتَ إطنابٌ مِنَ السِّحَرِ في التذكيرِ بشعاعاتِه التي تُقايضُ الريحَ بالريح. ونحن على ما نحن فيه: فتوى من النَّخلِ تُقَسِّمُ الرغيفَ المُحترقَ بين الأسرى.

برتقالٌ، إذاً،
برتقالٌ هناك.
تَرَنْجٌ وعَرْعَرٌ.
حُمحُمٌ رقيقٌ،
بُنٌّ وتفاحٌ،
عريْنٌ من المرجَانِ،
هَمْسٌ يُبَهْرِمُ الأناملَ المظلَّلةَ،
فجاءةٌ كالقُنَّبِ،
فجاءةٌ كالقَيْنَة،
فجاءةٌ ممْرَاحٌ،
فجاءةٌ كبصلِ الفأرِ،
كالموقد،
كالبَهْرمانِ،
كالدَّهْلية،
كَخَفيْرٍ؛
فجاءةٌ هناك،
وبَقْلٌ،
وخُبّازى،
وجُلُبَانٌ،
وأكاسِرةٌ يضربونَ الخيامَ قربَ الحقيقة،
وقَسَمٌ مرفوعٌ من الأمومةِ كلِّها لَتُبَعْثِرَنَّ الخَفِيَّ.

إذن، هناك الذي هناك:
هَبَّارٌ يقفزُ من أثرِ الله إلى أثرِ الله.
ونحن ما نحن عليه: آسرانِ بالشِّبّاكِ المقطَّعَةِ من نَزَقِ جَمَالِها،
فلا ينتظرنَّنا أحدٌ؛
لا ينتظرنَّنا أحدٌ.
ولا ينشَغِلَنَّ الهواءُ بوسيطهِ التائهِ في الجمادِ،
فالمكانُ واحدٌ،
والأنينُ واحدٌ،
والرئةُ التي تنفخُ زفيرَها المتعدِّدَ رئةٌ واحدةٌ.
لكننا نرنو إليكم بالشهيقِ الأعلى في الرئاتِ؛
إليكم،
أنتم المتَّصلينَ بالمُعْضِلِ الموحِّدِ،
كأنَّما نوسِّطُ الجمادَ في قريْظٍ سَيُتْلَى،
أو نردِّدُ البيانَ ذاكَ، المشغولَ بقلمٍ ذي صرير.

أهناك، إذاً، غيرُ الذي هناك؟
يُعادُ البرقُ إليكَ؛
تُعادُ الهِبَةُ المتملْمِلَةُ، كالنَّمرِ، إليكَ؛
تعادُ، أنتَ، إليكَ، مُمَهَّداً كتآليفَ ينجزُها حَلاَّقٌ أعمى.
وأنتَ ما أنتَ عليه،
تحلجُ البراهينَ، مداهماً ما يليكَ، وما يسبقُكَ، بمطرٍ مغسولٍ وشهوةٍ مغسولةٍ،
فارتجِلْ قليلاً، بكَ أو بها، قصدَ المكانِ، وخُذْ متاعَكَ المُبَعْثَرَ بين الأقفال.
وامسحْ، بأناملَ من غَلَبَةٍ، ذلكَ الغبارَ الرقيقَ عن عانةِ النهايةِ، ثم اهدأ:
بكَ، أو بها (لا فرقَ) ستعمِّمُ العَجَلَةُ حُمَّى مَرَحِها، وستختلفان، ببطشِ الحقيقة التي جعلَتكما اثنين، فيميلُ أحدُكما إلى عَرَضٍ والآخرُ إلى عَرَضٍ، متوازيَيْنِ في مدى الألمِ ذاته، الذي يَعِدُ الجوهرَ بخزائنَ مَنْهوبةٍ.

وكذا أنتِ،

يُعادُ البرقُ إليكِ؛
تُعادُ الهبةُ المتململَةُ، كالسُّنجاب، إليكِ؛
تُعادين، أنتِ، إليكِ، مرتعدةً من رَحَى النعْمةِ التي تطحنُ الأعراسَ.
وأنتِ على ما أنتِ عليه:
تضـربين الخـاتمةَ بمراوحِ الأنثـويِّ، مُنْسَلَّةً كَوَسْوَسَةِ الحِليِّ إلى المُشْتَهى، فـارتجلي قليلاً، بكِ أو بهِ، ما يُسَطِّرُ المـوتُ على العظامِ الكبيـرة؛ ارتجليْه، هو، نُخاعاً نخاعاً؛ وارتجليهم جَمْهَرَةً جَمْهَرةً، إذ يبايعون غدَهم بالأساريرِ المُتْقَنَةِ لِقَتْلٍ مُتْقَنٍ.

أهناكَ، إذاً، غيرُ ما هناك؟
أفَرْقٌ أكثرُ مِمَّا تنسجُ الفروقُ الكسولةُ؟

يا أنتمـا، أيها العابثان كَعِلْمٍ، اتركـانا وشأنَ الفراغِ هذا، الأسير كـالفُكَاهَةِ؛ اتركا الوحدةَ تتأمّل الخرزةَ الثقيلةَ في العقدِ الثقيلِ، وانْحَدرا بمخالبِ الفجاءَةِ وزينَتِها إلى السَّطْر الأشَدِّ مَلَلاً في اللّوحِ الذي تغمضانِ عيونكمـا عليهِ، هناكَ، في الفروقِ الذّهبيةِ للظّلام.
واشهدا أنّنا نقضمُ الثمرةَ الأخيرة، قبل انحدارنا - مثلكم - إلى أزَلِ النُّوْرِ الأعمى.

أثَمَّتَ وَجْدٌ آخَرُ يدلُّ المكانَ على أباريْقِنا؟

ذهبيٌّ،
ذَ
هَـ
بـ
يٌّ هذا الرِّهانُ،
والخَزَنَةُ يَتَدَبَّرُوْنَ خُصُوْمَةَ الرُّوح.

١٩٨٦

انتقام

أ

المعاطفُ كلُّها هناك.
الرياحُ كلُّها هناك.
الخطى الغائصةُ في الثلج، والثلجُ كلُّه هناك.
القناديلُ، والبيوتُ، والأشباحُ الأخيرةُ، كلُّها هناك.
فاجمعْ بيديك الأليفتين ما تتَّسعان من كمالٍ،
واجتهدْ أن يكون المشهدُ صداكَ الأليفَ.

ب

بَرَمٌ كطبائع الصّباحات يُشْغِلُ القادمينَ الى نهايتي، وأنا، في نَزْعي تحت الشِّباك الكبيرةِ، أُعلِّق المكان - كسراويلِ سجينٍ - على الحبلِ ذاكَ، الرقيقِ، الممتدِّ من أوّل الملهاةِ إلى أنينكم.

جـ

وفْرَةُ الهباءِ أنا، والمشيئةُ ظنيِّ.

د

الغضبُ إشارةُ الليلِ، والماءُ فكرةٌ تتقدَّم كمالَها .

هـ

كحذاءٍ يلتمعُ صباغُهُ،
كمقبضِ بابٍ من نيْكلٍ؛
هكذا صرختُك.

مفردات

النهار : غضبٌ يتخفى في قناع الهواء .
الريح : خطوة الكلمة في اتجاه سرها .
الصوت : خراب الشكل.
الحنين : ذهب منثور على مخمل النهاية.
الفضاء : مشكل الضوء .
العدم : فكاهة الظلال في مجلسها المضجر.
الكتابة : بطش يمتحن المنسي.
الرقم : حصيلة العبث.
الثمر : برهان الشجرة على ماضٍ يضلل كل برهان.
القناع : أنين الظاهر.
المسافة : لهاث معاد .
الأكيد : تمتمةٌ في الجهة الأخرى.
القيامة : طفولة تؤكد العقل.
الذهب : عراكٌ في خان.
الحياة : طلقة من ذهب،
أما أنت، أيها المقيم في الخاتمة، فلا تسرحَنَّ طويلاً لئلا يبرد العشاء.

نيقوسيا ـ ١٩٨٦

البازيار

أسرى يتقاسمون الكنوز

شامتةً تقتحم الحياةُ بخزّافيها المشهدَ،
فلأنْهضْ، لا ليُؤْنِسني الذي أراه، بل لأخفيَ عن الحياةِ حنينيَ المكسور.
وَلأكتمنَّ أنيني، فالكلُّ على حالِه:
الجبلُ الغارقُ خلف البيت ذي القرميد، والأطفالُ الصاخبون، كبراعمَ ميتةٍ، أمام سياج الجيران، والمنزلُ الذي هجره نزلاؤه، عابسين، شمال حديقتي، والزيزانُ المتباهيةُ بجدالها الملكيِّ، والفِناءُ العشبيُّ الذي ينقضُّ السنونو على نوافيرِه، وفسائلُ الجيرانيوم المروَّضةُ، وأعمدةُ الإسمنت التي تعلو، يوماً بعد يوم، في فراغٍ مُقْتَطَفٍ من ثراءِ الفراغات.
هكذا، المشهدُ على حالِه،
والحقيقةُ على حالها:
عِراكُ مراهقيْن في طبقةٍ مَّا من المبنى، وصراخُ أبويْهما.
عِراكُ ملائكة منذ أزلٍ، وصراخُ جذورٍ في الظلام.
فَلأنهضْ، إذاً، من الرُّقاد النَّسَّاج، لا ليؤنسني الذي أراه، بل لأؤنسَ الذي أراهُ من المشهد، وأُكملَ الحنينَ بغوايات تُرْوى. وبالقُبَلِ ذاتها، التي اقتنصَتِ الشفاهَ طويلاً، فلأمتدحِ الخسارةَ المُكْتَنِزَةَ كجَاريةٍ مُكْتَنِزَةٍ، مردِّداً بفَم الغبار ما يتمتمه الغيبُ:
إنها القطيعةُ بين الأرضِ والريحْ.

لأنْكُتَنَّ بوعدي إذاً،

فالشفاهُ التي تردّد الكمالَ الصّاخبَ تردِّد الموتَ، والموفدون إلى هذا الليلِ ليبنوا أدراجَهُ اللولبيَّةَ يبعثرونَ الرخامَ الذي حمَلوه.
أما المشهدُ المُقَامُ على أنقاضِ حالِه فهو على حالِه،
والحيلةُ على حالِها،
والموتُ، وَحْدَهُ، الأكثرُ وِحْدَةً بين الأسرى.

لكنْ، ما الذي يفعلُهُ الموتُ هنا؟
ما الذي يفعلهُ الموتُ السكرانُ، ذو الدُّوارِ الأشدِّ، وهو يرمي بثيابِهِ إلى الأرواح؟
ما الذي يفعله الموتُ المُسَطِّرُ بأقلامِه على الفكاهةِ النائمةِ كورقةٍ مديدةٍ بين شِعْرٍ نائمٍ وأنينٍ يقظان؟
ما الذي يفعله الموتُ، شريكي، في هذه البرهةِ التي تتأصَّل بجذورٍ كجذورِ التينِ، وبراعمَ من شعاعٍ ينثُر المغيبَ على أثداء شقيقاته؟
ما الذي يفعلهُ الموتُ، القادمُ بي إلى هَذْرِهْ؟
ما الذي يفعله الموتُ الذي أضجَرَ الشهودَ بِهَرْجِه، وخرجَ مع الخارجين من الباب ذاته الذي يُفْضي إلى الحياة؟
ما الذي أفعله بالموتِ، أسيري، وأنا الحائرُ في تدبيرِ زنازينَ مضيئةٍ تليق بأسرايَ وبي؟

فلتتمهَّلِ الحقيقةُ في اقترابها من القيدِ الذي أشدُّ به رُسْغي إلى رُسْغِ الريحْ.

أما المشهدُ فليبقَ على فراغه،
لأنني سأستعجلُ في إبرامِ العَقْدِ ذاكَ، الذي يقدِّمُ الهواءَ غريقاً إلى زَبَدي، وسأعلِّم نفسي مشافهاتها الكبيرةَ بلسانٍ مقطوعٍ، فالأمرُ كلُّه برهةٌ في يقينٍ مُنْكبٍّ على الرُّتوقِ كإسكافيٍّ.
وسأبوحُ بي للأرَقِ الذي يبوحُ بقَدَرِه للمياه،
وستبوحُ المياهُ بي للسكون الجالس، حافياً، أمام مريديه.
وسأقسم الهبات، التي رفعها الحريقُ إليَّ، بين اليقينِ والفكاهةِ؛ سأتقاسمُ والبرْدَ الضاحكَ شتاءَنا اللَّهبيَّ.

(« شقيقي أيها اللَّهبُ؛
شقيقي أيها الخداعُ؛
أيها الموتُ الذي من مياه؛
يا شقيقاتي اللآئي يوقدْنَ في الجذور صَخَباً رشيقاً كالسَّناجبِ، ما حيلتي في هذا؟:
العبثُ يُرَاهِنُ بالله حين نحجُب عنه هِبَاتِنا »).

والمشهدُ؟ أيُّ حالٍ للمشهدِ، أيُّ كوى يطلُّ منها الخالدُ على خلودِهِ؟
يقول جاري: « تمَهَّلْ ».
تقول الحديقةُ: « تمهَّلْ ».
يقولُ المكانُ إسرافَهُ، ويضلِّلُ الزَّنبقُ الوردَ، كأنَّما العبثُ يغْزلُ بِنَوْلٍ من الماسِ مَغَيْباً حيّاً كعضَلَةٍ في فخذِ الكلب.
وآخرون يقولون، أيضاً، قولَهم المُمْتَهَنَ، فاصْغِ:
إنها مُهْلَةُ القويِّ ينذرُ الأرحامَ؛
إنها مُهْلَةُ الجاهلِ كي تسوِّيَ الحروفُ إشكالَها.
فلْيعذُرني المشهدُ، إذاً، لأنني سأنجو منّي قبلَ اكتمالِ الطبائعِ التي تنسجُ الألَمَ بخيوطٍ من ثرثرةِ العنبِ، عائداً بنموري إلى القيامةِ، من الرّواق ذاتهِ الذي ترتطمُ فيه موازينُ باعةِ البُندقِ بالملائكة المتثاقلةِ في عبورها.
ولربما عذرتُ المشهدَ، بدَوري، على ثباتهِ الأخْرَقِ ببيوته؛ بشجراته؛ برياحهِ الهيِّنَة؛ بخزاناتِ المياهِ المنصوبةِ على الأسطحةِ كفروجٍ تقنصُ الشمسَ؛ بصياحِ الدِّيكةِ المختبئةِ خلفَ سياجاتٍ من اللُّوبياء؛ بمصابيحهِ المضيئةِ؛ بالقَدَرِ المُراهِنِ على فكاهاتهِ البارِدَة.
ربما،
ربما،
- « تصبحونَ على خيرٍ ».
- « تصبحونَ على ألقٍ ».
- « تصبحونَ على عَدَمٍ مُدْرَجٍ في قائمةِ الطعام ».

« يا لَرُوحي المغلوبة على أمومتها » :
هذا ما أقولهُ، وأنا أغادركم من الباب الخلفيِّ المُفْضي إلى الحياة.
لكن أسراي يبقونَ هناك، في انتظارِ أن أحرِّرَ الأزلَ من الحُمَّى.
وأسراي مِلْكُ مشاغلهم، يُدبِّرون لي عذوبةَ المضيِّ بالخسارةِ إلى ألَقها. مباهِينَ بسُفنٍ ليست لهم يبسطونَ على الأرض أشرعةً من خيالِ الماء، متموِّجةً، كأنما تَلِدُ الظلالُ نَسْلاً من الحبالِ المشدودةِ إلى كَوْثَلِ الفجيعة.

هكذا إلى ألَقِها ؛
هكذا الخسارةُ إلى ألَقِها ،
بأسرى يتقاذفونَ الفجرَ كالوسائد ،
ويتأمَّلون الفردوسَ المذعورَ متشبِّثاً بستارةِ المسرح.

- « فَلْنَكُنْ فَكهِيْنَ. فلنكُنْ جراءَةَ القطيعةِ تؤلِّبُ النِّعمةَ على بناتِها » .
- « فلأكُنْ وسيطاً » .
- « فليكُنِ المنتصرونَ حيلةً تُشْغِلُ الرَّحِمَ بسباقٍ آخر » :
هذا ما أقوله، وأنا أغادركم من البابِ الخلفيِّ المفضي إلى الحياة،
لكن أسراي ينتظرون أن أحرِّرَ الياقوتَ، وأختبىءَ في أمومةِ المراثي.
وأنا خَجِلٌ من أسرايَ كيفْ لا أقودهم بي إلى كَيْدِ الشَّكْلِ وكنوزِه.
وأنا خَجِلٌ من الموتِ كيف لا أُعيدُ إليه أقْدامَ الهربِ القويَّةَ، ولا أحسبُ في ثرواته الموتى،
لأنهم يقودون بي كَيْدَ الشَّكْلِ، ويأتمرون على غدِهم!
وأنا خَجِلٌ من العَدَمِ يقلِّدُني المكانَ فأنسى.

يا لَنسياني، إذاً:
أسرايَ يدفعونَ عَجَلَةَ الحُظوظِ الكبيرةَ صوبَ السورِ الكبير.
لا لهاثَ. لا أختامَ على التَّرْقُواتِ. لا نُسورَ تحُومُ مشتَّتَةً طَقْطقاتِ العظام. مؤتلقيْنَ بالذي فيهم من صيحةِ الرمادِ الحيِّ يدفعون العَجَلَةَ فتندفعُ حَدْراً إلى الصميمِ

المفتوحِ للنهايةِ التي لا تكون.

يا لنسياني، إذاً:
عَجَلَةٌ وأسرى.
عَجَلَةٌ وأسرى كُثرٌ - أسرايَ، تلك النظائرُ التي تمتحنُ الفروقَ بشهوةِ النهايةِ التي لا تكون.

يا لَنسياني، إذاً:
حَرْبَةٌ من ريحٍ، وقُلُوعٌ من العافيةِ؛
ذكرى شهورٍ تحت الخمائرِ،
وأزيْزُ طلقاتٍ تفتحُ الحكمةَ على مصراعيها.

.. ونسيانٌ. تَهَتُّكٌ في النسيانِ. نسيانٌ كبناتِ عُرْس. نسيانٌ يستُر بيديَّ الله رُعَافَهُ القويَّ. نسيانٌ محرِّضٌ يدلق الزيتَ على الأدراجِ، ويكلِّم الشهودَ بلسانِ الفلكيِّ الذي يحصرُ المتاهَ بفُرجَارِهِ.

ذلكم أسرايَ، وذاك نسيانُهم،
فلأتَّفقْ، إذاً، عليَّ، لأخطوَ خطواتي على هيئةِ تحيِّرُ الريحَ، ولتتَّفقِ القيودُ على عَرْضِ طبائعها، حتى لا أُدْرجَ النهارَ في صُنوفي، ولا أَتَّخذَ البهيَّ قريناً، مُمتَحناً أسرايَ في أشكالهم ذاتِها، التي تجتاح بكثيفها المُشْكِلِ ذلكَ النشيدَ الذي ينسبُهُ الأقوياءُ إلى الآلهة.
فليتَّفقْ أسرايَ على زنازينَ مضيئةٍ تليقُ بي.

وفي اتجاهي - اتجاهِ المشيئةِ المتعثِّرَةِ بثيابها الطويلةِ - فلْينفُخِ القادرونَ أبواقَهم من السورِ الأعلى بين الأسوارِ، حتى يختلطَ القَدَرُ بقُرَّاصهِ وحراذيْنه. وفي غربالٍ واحدٍ فلْتتجاورِ الحماقةُ والغدُ، مُنْتَثرِيْنِ من الثقوبِ الكبيرةِ على الفراغِ كالطَّحين.

في اتجاهي،

في اتجااااااا هي أيها الخفيُّ،
في اتجاهي أيتها الجهاتُ،
عميقاً،
قربَ الفضيحة الناعسةِ في فرائها،
هنا،
حيثُ يخمِّنُ الطبَّالونَ مراتبَ الصوت،
وتتناحرُ الأمومةُ بسكاكينَ من دُعابةِ الذَّكَر.

في اتجاهي؛
في اتجاهِ ذلك كلّه يدحرجُ أسرايَ مكاييْلَهم.

والمشهدُ على حاله:
فتورٌ يمدُّ الحبالَ لبهلواناته. قنَّاصةٌ من الوردِ على الشرفات. أنبياءُ قربَ سور «سباق الخيل» يحذِّرون الشجرَ العالي. سنونو يروِّضُ أسلاكَ الكهرباء العالية. صوتُ المغسلةِ ذاتها من وراء نافذةِ البيتِ الغربيِّ، ونَحْنحاتُ المقامرينَ وهم يسدلون الستارةَ، ليلاً، بين ربحٍ وآخرَ. والمساءُ الذي يدلُّ عليَّ جيادَه، كأنَّني السَّهَرُ يفتحُ الخانَ الأوسعَ للمؤرَّقيْنَ بحمَّى يقينِهم.
هكذا، الكلُّ على حاله:
المجدُ المُبْتَهِلُ إلى قيَّافهِ الكسولِ؛ والقهقهةُ؛ والصيفُ؛ والجصُّ المتجمِّدُ على مدخنةِ بيت الجارةِ العانس؛ وزهراتُ الميموزا؛ والغبارُ المحرِّضُ إذ يلقِّن الظهيرةَ أنينها؛ والتعبُ؛ والظلالُ؛ والمجادلَةُ المحبوكةُ كَعَظْمٍ؛ والهمسُ؛ والدغدغاتُ؛ والبدعةُ التي تُطقطقُ كمقصِّ الحلاّق؛ والسِّحْرُ؛ وانْشداهُ الحادثةِ بوقُوْعها؛ والقيامةُ؛ والنفيرُ الأبعدُ الذي يلي كلَّ شيء؛ والفتنَةُ الدائرةُ بخواتمها على أناملِ الموتى.

فليتَّفقْ أسرايَ، إذاً، على سلامٍ مّا.
فلأتَّفق مع المكانِ على زنازينَ تليق بأشباحنا.

وفي اتجاهي - اتجاهِ الثُّغورِ التي ينفذُ منها الحاضرُ إلى شهواتهِ - فَلْتتسلَّق الأبُوَّةُ

سورَ النعمةِ بلُبلابها، مُومِئَةَ للأشدَّ دهاءً؛ للدَّهاءِ ذاتهِ؛ للأسلحةِ التي ستوقظُ الأرضَ من رُقادنا بعد حينْ.

في اتجاهي:
أبوَّةٌ في اتجاهي.
عطَّارون يدلقونَ قُفَفَ الحشائشِ،
ودُعْرٌ ينخُر الأبدَ فيهوي؛
هكذا: الكلُّ يهوي في اتجاهي، مظلَّةً من هُلامٍ كقناديلِ البحرِ، وأنا أتلقَّفُ من أتلقَّفُهُ بأيدي السُّعاةِ أو بشباكِ الحمقى.
وأتقدَّمُ بي أسيراً أسيراً أتمهَّلُهم، فيتمهَّلونني - كمثلي - بنداءٍ شفيف، وهم يَعُدُّونَ القضبانَ التي يحملونها إلى بواباتِ سجونهم الرحيمة، هناك، واثقيْنَ من الألمِ الذي سيدخلُ الرّدهةَ بقطيعهِ، خفيفاً، يتمتمُ بكلامٍ ككلامِ المَمْلُوكْ.

والألمُ، بعد هذا، على حاله:
مُداهِنٌ يرسمُ الحديدَ على صورتهِ، ويكمِّم الأرضَ فلا تطلقُ الصيحة التي ينتظرها العارفون.
والألمُ رئةٌ، بعد هذا، أيضاً،
واتِّفاقُ شهودٍ،
وقرائنُ بها يحسمُ المرافعونَ عن اليقينِ جدالَهم.

والألمُ... آهِ أسرايَ:
سينكثُ الغدُ بوعدهِ،
ستنكثُ البيوتُ بوعدِها.
ستنكثُ الطرقُ، والحدائقُ، بوعودها.
ستنكث المداخلُ، والمتاهاتُ، بوعودها.
ستنكثُ الروحُ بوعدها.
ستنكثُ الريحُ بوعدها.
ستنكثُ القيامةُ بوعدِها.

ستنكثُ الثمرةُ، التي لم تلتئم، بوعدِها .
ستنكثُ الجَسارةُ بوعدها .
ستنكثُ الحيْلةُ بوعدها .
ستنكثُ الحيااااةُ بوعدها ،
وسأنكثُ بوعدي، متقدِّماً أسرايَ إلى الفضيحة .

بَيْدَ ستبقى الحظوظُ على حالها ، معتكفةً بالمناقيرِ الذَّهبيةِ على الغبارِ ،
وسيبقى الغيبُ مُسترسلاً ، كصيْدَليٍّ ، في دَحْضِ عقاقيره .
فمن سيرتأي، مثلي، مشيئةً تأخذُ الحيَّ على محْمَلِ الحيِّ، والفكاهةَ على محْمَلِ الأَبَد؟
من سينقذُ اليقينَ من جمالهِ؟

إنها القطيعةُ ؛
إنها القطيعةُ ،
وأسرايَ يستكملونَ الفروقَ التي تعمِّمُ مُجونها .

فليأسرُني من يريدُ ، إذاً ؛
فليأسرني بشَبَاكٍ أو بغَدٍ يموِّه الشِّبَاكَ ؛
بأنينٍ عالٍ، وسَكينةٍ كالحبرِ ؛
برجفةٍ في اليديْن تدلقُ الحبرَ على الهواء .

فليمتحِنْني أسرايَ بأنينيَ العالي ؛
فلْيمتحِنِني قلبي كأسيرٍ لأمتحنَ قلبيَ بفكاهاتهِ الشاردةِ. وليتواطأ أسرايَ معي على قَوْلِ فَكِه، فلربَّما قَهْقَهَ الجَمالُ مثلنا من الأرض تمزِّقُ قمصانَها ، خارجَ الزنازين هذهِ، وهي تبعَثُ برُسُلِها إلى الحريقِ فيرجعون ضاحكين.

ما همَّ :
بأقلامٍ كبيرةٍ، أو بمياهٍ ،

بذهبٍ أو بقضاة،
بشهودٍ مذعورينَ، أو بنرجسٍ مذعورٍ، ستمتحنُ الريحُ أيضاً شُكوكَها:
والحياةُ ستمتحنُ شكوكَها وهي تدخلُ، مُحْتشِمَةً، من الباب الخلفيِّ الذي يُفْضي إلى شُكوكي.

هكذا: الكلُّ على حالِه:
القطيعةُ وامتحانُها،
المشهدُ واللهُ.

هكذاااا،
عميقاً،
حيث المُعْضِلَةُ المفتونةُ بأبدٍ يتسلَّقُ بوَّابتنا المُغْلقة.

والبيتُ؟
بيتُنا. يا لَلْبيت؛ يا لَلأفقِ الغربيِّ؛ يا لَلْغدِ الضجران؛ يا لَلْسَّهرِ المُمْتَحَنِ بالسَّهارى؛ يا لَلْمشيئة؛ يا للرُّمَّانِ المعلَّقِ أربعةَ شهورٍ على الشجرات ذاتها؛ يا لديكَة الظهيرةِ، يا للزائريْنَ بأبواقهم يقبضونَ على النحاسِ المنثورِ في الهواءِ؛ يا لَنَهْبٍ يُبْيحُهُ العادلون.

عاااا دلونَ؛
كلُّهم عادلون:
اسألوا أسراي وهمْ يتصيَّدون الليلَ بشُصُوْصِ الألمِ الكبيرة.

... وكبيرةً فلْتكنِ المحنةُ بريشها وزبيبها، متدلِّيَةً من الخاتمةِ كأجاصٍ تتناهبُهُ العصافيرُ.
كبيرةً لتكُن المعاتباتُ بعد العناق،
فالكلُّ على حالِه:
البطولةُ التي تنتظر من يحدِّثُها حديثَ اليقظانِ، والدقائقُ الأربعون بين المدينة

ومطارها الهارب، والخبرُ الكبيرُ إذْ يوسِّعُ القَلَقَ لخبرٍ كبيرٍ، والصيفُ الذي يتسوَّل الشتاءَ المتسوِّلَ، والزيارةُ المُحْتَمَلَةُ لَملاكٍ مَّا، والمائدةُ بقوائمها الأربع، خلفَ ستارةِ القشِّ الفاصلةِ بين هواء الرصيفِ وهواءِ الرصيفِ، حيثُ ندحرجُ شهواتِنا كَكَهنةٍ ينعمون بحرَجِ اللهِ من أعماقٍ لا تتَّسعُ لامتحانه، وقد أسْلَمنا أهدابَنا للمشهدِ، وأسْلَمنا مواعيدَنا كفُستُقٍ تَتَذَرْذَرُ قشورُهُ على المائدة.

هكذا:
لا يقينَ،
لا جسارةَ،
لا خزَّافينَ،
لا قلبَ يُلقي بظلالهِ على الفكاهةِ،
لا هبوبٌ، بل نفخٌ من فمِ الظلام.

هكذا:
هذرٌ خافتٌ،
وقبضةٌ تتكوَّر لتهوي.

هكذا!!!!!:
خيانةٌ تتلمَّس ـ كورقةِ الدَّلْبِ ـ غُصنها المائل.

ووسطَ هذا كلِّه حَزَنْبَلٌ، وعرانيسُ ذرةٍ، وقفزٌ كقَفْزِ الكُنْغُرِ، وطُهاةٌ أيضاً، ونعيمٌ منهوبٌ، وحُليٌّ، وقياثرُ، وقناديلُ بحرٍ بهلامٍ أنقى، ومجذِّفون بمجاذيفَ من عظامٍ، ولواحمُ، وقرَّافاتٌ، وحجارةٌ للجَلْخِ، وسروجٌ، وموائدُ مموَّهةٌ بشرابٍ مموَّه، وأكبادٌ، وزيزانٌ ضليعةٌ كالظهيرةِ في اقتسامِ الجهاتِ، وبنادقُ، وورّاقونَ، وعَدمٌ قيَّافٌ؛
وسطَ هذا أنينٌ يحنو على القَهْقَهة.

والغدُ على حاله:
فناراتٌ غارقةٌ، وملوكٌ موعودونَ بشعوبٍ أقلَّ ضجراً.

فليعذرني أسرايَ: ما مِنْ راوٍ يُبْعِدُ الحكايةَ عن زنازينهم، لينعموا بالأكيدِ المفتوحِ على قرائنه العمياء.

ما مِنْ راااااوٍ.

ما مِنْ فضيحةٍ وسطَ هذا الموتِ تُلْهِمُ الموتَ فكاهاتهِ؛

ما من أحشاءَ لتتقطَّعَ؛

ما من كبد:

إنها الأنفاسُ الكبيرةُ في رئةٍ لم تشهق قطٌّ، ووساوسُ من ريشٍ يتّكِيءُ عليها المنفيّون.

فليعذرني أسرايَ عُذْرَ المُقتدرِ كي أهيّيءَ الزنازينَ العادلةَ والهواءَ العادلَ، بشفاعةِ المديحِ الذي يتوكأ عليه الموتُ. وليهدأ الهائمونَ حول مسائي، فمعي الفديةُ الكبيرةُ التي من شباكٍ ومزاليجَ. ولا يتتبَّعنَّني الغدُ، فالرهائنُ الخارجةُ بي - من البابِ الخلفيِّ الذي يفضي إلى الحياةِ - خجولةٌ، والحياةُ خجولةٌ وراء الباب الخلفيِّ الغارقِ في لغطِ المنفيِّين.

هكذا،

مموّهاً كَقَسَمٍ يكتملُ العاديُّ.

هكذا،

تسهرُ المعجزةُ قربَ الحريقِ الذي يُضرِمُهُ العاديّون.

هكذا،

إلهي،

أدلُّ عليَّ مغاليقكَ التي لا تنتهي،

وأنا أوهِمُ أسرايَ أنَّ لي شكيمةَ النرجسِ وسطوةَ العبيثرانِ،

وأتذرَّعُ بكَ كي أُقَوِّلَ النعمةَ ما لن يقولهُ الموت.

وأسرايَ؟

ما الذي يُشغلُ الكنوزَ بأسرايَ؟

سأقول لنفسي اختَرِ المشهدَ الذي على حاله،

فالذين يوقظونني في الأحدِ الميِّتِ، في الخميسِ الميتِ، في السبتِ الميت، في الثلثاء، في البدايةِ الميتةِ والنهايةِ الميتةِ، يبتسمون محيِّينَ من شرفةِ البناءِ الذي لم يكتملْ سقفهُ القرميدُ؛ البناء الفاجرِ، المحتجزِ الهواءَ بخصيتَيْه الغبراوَيْن.

هكذا، يوقظونني بأنَفَة كأنني سأشهدُ القطيعةَ التي يؤجِّجونها.

هكذا، كأنَّ الذي يمزّقُ قلبي يمزِّق الحدائقَ أيضاً.

لكنني يقظانُ في المدى الذي توقظُ الآلهةُ فيه ما يُغيظُها؛

يقظانُ، مُمْتنٌّ للفتنةِ الأقوى؛

يقظانُ كدهاءِ المشهدِ المحمولِ على جناسٍ كبير.

وثمتَ، هناك، كمائنُ في الألَقِ، كمائنُ كمثلي، حيث أرتجلُ الغدَ ذا العربةِ الصلصاليةِ، مغامراً بالنَّثْرِ المسكونِ الذي لا يُؤاتي، وبالبلاغةِ اليقظى من ارتجاج العجلاتِ على الحبرِ، صارخاً بي: لا تفتحِ المساءَ على مصراعيه، ولا تقدِّمِ الليلَ بتعريفٍ إلى أشقّائكَ الضاحكينَ، فالنهارُ لن يؤكِّدَكَ بثرثراتهِ؛ لن يؤكِّدَكَ ضوءٌ، والمصابيحُ الكبيرةُ نعاسٌ يقظان.

فلا تمتحنوا اليأس:

خدعةٌ هذا الهواءُ الذي يُصرِّفُ بأسنانه،

والنحيبُ المتصاعدُ، فراغاً بعد آخر، نحيبٌ يضلِّلُ المشيِّعيْن.

ولا تمتحنوني؛

لا تمتحنوا أسرايَ بمشافهاتٍ كبيرةٍ؛

لا تمتحنوا الموتَ الذي يسرقُ الريحَ من فِخَاخِنا.

إنها القطيعةُ.

إنها القطيعهْ.

مهاباد

(إلى أولمبياد الله)

للعظام رنينُها،
وللقبور رنينُها،
والفجرُ، الأكثر اندلاعاً من حريقٍ، يدلُّ الموتَ على قاطنيه.

فلا تكتُبْني، الآن، أيها الملاكُ، بالحروفِ ذاتها التي توبِّخُ الحياةَ على جرائرها العذبةِ، وتستحي من الحبرِ فترتدي يقينَها. ولا تكتبِ المنفى المفتوحَ كبابٍ رَكَلَهُ العابثون بمفاتيح الأشكال.

أمّا الأرقُ، الذي يبعثره الأطفالُ الهائمون في الحديقة، فهو الأرقُ المُسطَّرُ طولاً وعَرْضاً، والممحُوُّ بالأعقاب الغادية في أعماقنا، حيث الطَّرقاتُ القويّةُ لأقدامٍ قويَّةٍ، وحيثُ تنحدرُ اللّفافاتُ، التي يرميها البنّاؤون ـ في إهمالٍ ـ إلى غَدِهم.

والأحافيرُ بيني وبينك أيُّها الملاكُ: جرَّافاتٌ، ورملٌ، وسَحَرَةٌ يسرقون أخشابَ النوافذ ومقابضَ الأبواب التي من نحاسٍ، وعرائسُ من شفقٍ ذائب بين الأيدي. أمّا اللاعبون ـ هؤلاء ـ الذين من شُبهات تبعثرُ التاريخَ على أنقاضهِ، فهُمْ أمانةُ الفجر بيننا، حتى نعثرَ لهم على مساكنَ تليقُ بالعظام.

واللاعبون يمتحنونَ الفجرَ الآن، بعصيِّهمِ الطويلةِ وكُراتهم؛ بقفزاتهم، وحديدهم الخفيفِ مثل شفقٍ محمولٍ على حمارٍ. أمّا الأرضُ فهي لهاثُ المُشاهدِ المختنقِ، حين يركضُ إلى السياجِ صارخاً: «أوْقفوا هذه الحقيقةْ».

وما السَّرْدُ إنْ سَرَدْتُ؟ إنّهم هناك: المهجورون، والعدّاؤون؛ رافعو الأثقال، ورُماةُ المطارق؛ عابرو الحواجز ركْضاً، والماشون باتّكاءٍ على حَقَواتهم؛ والقافزون عالياً بقصباتهم الطويلة، والجاثمون على مدارجِ الحلبةِ يمتحنون الثِّقلَ الذي يشدُّهم إلى

الحريق.

وعليَّ، كلاعبٍ مُمْتَحَنٍ، أنْ أتقدَّم - بدوري - لأرفعَ الحديدَ الذي يرفعُهُ الآخرون، بيقينٍ مستترٍ لا يتوخى الغلبةَ، بل الوقوفُ أمامَ الحشدِ الهائمِ في ذكرى انتصارِهِ الناقصِ على مجد ناقص، صارخاً: يا لَثِقَلي:

كيف أترهَلُ هكذا، عضلةً عضلةً، وعظْماً عظماً؟ كيف أتجنَّبُ الموعدَ الميِّتَ الذي عقدتُهُ للقاءِ الموتى؟

لكنني خائفٌ من الحشدِ هناكَ، الذائبِ على المدارج كَدهَانٍ في الظهيرة، لذلك أجمع أضلاعي في صفٍّ واحد، وأرفع رئتيَّ على فجرٍ مهزوم، وأنا أقذفُ بالرّمح في الحلبةِ، أمامَ الحكمِ السَّاهرِ على سَهَرِهِ، ليقولَ إنني رميتُ أبعدَ ممّا يُرمى رُمْحٌ في حلبةٍ ساهرةٍ على حَكَمِها.

أأقفزُ قفزتي، الآن، أمْ أقطعُ الشوطَ القصيرَ الذي ينتظرُهُ أترابي، وأنا أنحني حتى تلامسَ رُكْبتايَ أرضَ السباق، وعينايَ على الشَّفقِ المرتدي قناعَهُ الأبويَّ؟.

أأقسِّم الحلبة بيني وبين الشاردينَ؟

سأقذفُ الكُراتِ كلَّها، التي لن تُصيب مرمى، وسأتزلَّج بحِكْمةِ الثلجِ المفطومِ عن رضاعته؛

سأقدِّم هِباتي؛

فالريحُ، وحدها، تسرق التينَ من راكضٍ لم يقتطفِ التين.

وكأبٍ لم يَبْلُغْ أبوَّتَهُ بَعْدُ، سأتفحَّصُ المساءَ المتوثِّبَ للركضِ، وازناً، في أعماقي، بين قفزاتِهِ وقفزاتي، وأنا لا أريدُ غَلَبَةً، بل أن تكتمل المباراةُ بحاضريها، كي لا يتقوَّلَ الخاسرون على حَكَمٍ لا يُهدي إلى أحدٍ شقاءَ انتصارِهِ، ولا يحسبُ الضرباتِ التي تُميْت.

وأنا هنا، على أيةِ حالٍ. أنا، والحضور هناك، والجهاتُ المأخوذةُ بخَفْقةِ الدمِ الذي يخرج عن طوْره كلاعبٍ مطرود، حين تتقشَّر النهايةُ ألَقاً ألَقاً، ويُغمى على الألم؛

وأنا هناك، محفوفٌ بجيرانٍ من التعب، وأفوِّضُ النهارَ أن يؤكِّدني بسطوتِهِ العمياء؛

وأنا هناك، موزَّع بين العدَّائين، في الفجر الذي لن يربحه أحداً؛ في الفجر السيَّافِ الذي يجرُّ صباحاً مُثقلاً بنميمة الريح؛

وأنا هناك، تتقدَّمني شاحناتٌ عجولةٌ تنزلق عن مقاودِها أيدي السائقين، ريثما

يتأمَّنُ للموتى مصادفةُ موتٍ آخرَ يختلقُ الحياةَ بأكاذيبه.

أأبوح لكم كمْ خدعني الجيرانُ لأدخلَ هذا السِّباق؟:
أوهموني أنَّ لي رشاقةَ السّلكِ، وفُجورَ السياج. وأوهموا حديقتي أنها الطيرانُ الباحثُ عن ريش، ثم استلقوا على حُصُرِهم، تحت النّدى الفاجرِ لصباحٍ مسكوب من ابريقٍ حجريٍّ، وتأمَّلوا خروجي من الباب بعدما وضعوا أمام العتبةِ خُفَّيْنِ رياضيَّينِ، وقميصاً غريقاً. وأنا اتّخذتُ ذلك سبباً لأستسلمَ بقيودٍ من الأرقام إلى انتصاري.
لقد فَتَنتُهم: فتنتُ الجيران، والحَكَمَ الذّابلَ، والضوءَ المُمسكَ بزانته الطويلة، والحلبة، معاً، راكضاً من مشيئةٍ إلى مشيئةٍ، ومن حبرٍ إلى حبرٍ، ملتقطاً خَرَزَةَ الآدميِّ المكسورةَ تحت أقدامٍ سبقتني ولم تنتصرْ.

حديثي فظٌّ. أعرفُ ذلك.
مشافهاتي الصغيرةُ فظّةٌ. أعرفُ ذلك.
خطواتي فظَّةٌ لأنني هيَّأتُها للسباق.
وأنا فظٌّ، لأنكم تدركون المعنى في اشتغاله على يقينٍ مهشَّمٍ في مرآةٍ مهشَّمةٍ يتطلع إليها المهجورون.
والأرضُ فظَّةٌ، أيضاً. هذه الزَّاناتُ الطويلةُ للقفز، والمطارقُ التي تئنُّ في قذْفِها، والأفخاذُ المقروءَةُ على عجلٍ - حين تتنهَّدُ عضلاتُها بالشهوةِ التي فيها إلى خسارةٍ لا تُحْتَسبُ - كلُّها فظَّةٌ.
والحلبةُ فظَّةٌ، لأنها تروي الثِّقَلَ الأكبرَ للموتِ بصوتٍ خفيض.

(أيها الموتُ،
يا أسمالاً على كتفين قويتين؛
يا ممحاةً ترتجفُ، وياقوتةً غيرَ مثْبَتَةً في الخاتم على نحوٍ مُحْكمٍ؛
يا مُبدِّداً نَفْسَهُ بين الألقاب،
كأنّما سَلوقيٌّ يجرُّك لاهثاً،
وكأنّما ذاكرتُكَ تتراءى قِططاً مقذوفةً من الشُّرفات.

أيها الموتُ،
يا غريقاً تمتدُّ إليه الأيدي كُلُّها،
خفِّفْ مُسَاءَلاتِكَ قليلاً).

لكنني راكضٌ بزانتي الطويلة، وسط الهتافِ الذي يجعلني شريكاً لأوَّلِ راكضٍ آدميٍّ وسط الهتاف. وحين أتكىءُ عليها باندفاعيَ الأقصى، متخذاً لجسدي رمْيَتَهُ القوسيَّةَ، يشهد الهواءُ لحذاقتي، ويتفنَّنُ الضوءُ في سرديَ شُعاعاً شُعاعاً على طفولته التائهةِ، لأنني استباقُ المراهنينَ وصفَ يقينهم الذي لا يُوْصف.

وفي عبوري، قافزاً، يدحرج الجالسون على المدارجِ أشكالهم، قابضينَ ملءَ الأيدي على قفزاتٍ مُخْتَزلةٍ بين الجنون والجنون، وهم يصرخون بي: «خُذِ النهايةَ»، فآخذُ النهايةَ برملِها، ودهانها، وورقها، وإسفلتِها، وحرسها، وحلاَّقيها، وسواترها، ونعاسها، وشهقاتها، وكراسيِّها، وتماثيلها، واعتذارها الذي يدلقُ الدَّمَ في مصفاتِه.

والعدمُ يندفع، أيضاً، إلى المنصة التي يرفع حاملو الأثقال عليها الفَنَاءَ المسبوكَ كحديدٍ من عسلٍ، فآخذُ مكاني بين المنذورينَ، لأصعدَ - بدوري - إلى المنصَّةِ، وقد مَسَسْتُ براحتيَّ الرملَ الذي يجفِّفهما لئلاَّ ينزلق فيهما الحديد. وأرفعُ المساءَ، خَطْفاً، ثلاثين حجراً، وأَقَتَيْنِ مما تركتِ الحياةُ على المساءِ من سَهَرِها، وقراريطَ أخرى من شحوب المقامرِ الذي يوزِّعُ الريحَ على أخواتِه.

أأسمِّي لكم الأعلامَ التي هناك، فوق الشُّرفات العاليةِ المستندةِ على البنادق؟ أأسمِّي لكُم البنادقَ الكثيرة هناك، حيث البطولةُ التي تتقنَّعُ في الدخول على الكرديِّ من حيائها؟ أأسمِّي الكرديَّ ليتدفَّأَ الليلُ بقميصهِ المُنْتَهَب؟

قفزتان، في الشوطِ الأول، بزَانةٍ مكسورةٍ؛
قفزتانِ باحتكامٍ إلى إلهٍ مكسور.

أآخذ المساءَ أسيراً ليكتملَ ليَ الوصفُ، أمْ أترك المساءَ لاجتهادهِ الرياضيِّ؟ أأجمعُ المطارقَ المقذوفةَ، في نهاية المديحِ، أمْ أكتفي بالذي معي من عويلٍ محسوبٍ بأمتار محسوبةٍ، في الدَّورات المُتْقَنَةِ لضجرِ الإنسان؟

سـأرفعُ هذا الحـديدَ، إذاً، على الخـشـبـة القـوية التي تهـتـزُّ تحت قـدميَّ القـويتين.
سأشهدُ امتحانَ العَضَلِ وامتحانَ الهواء، حين تتَّخذُ الشرايينُ النافرةُ أهْبَتَها وهي تمهِّدُ للدَّم عُذْرَته وفجورَه.
سأرفعُ هذا الحديدَ بحكمةِ الحديد.
سأُقْسِمُ أن الحديدَ المرفوعَ على يديَّ هو الغدُ مغسولاً في رئةٍ كرديّةٍ.

هكذا أُلقيَ بي في اللعبة.
هكذا ألقيتُ باللعبةِ إلى ما يُشغِلُني، لأعـتكفَ كـالنَّجّارِ على تـقدير الزوايا في الملهاةِ، عادياً بالصَّريرِ الذي يُمهِّدُ للأقفالِ كي تَرَى، وبالفتنةِ التي توحِّدُ الأنقاض.

فليْحضرِ الرُّسُل كلهم، بالألمِ المُتْقَنِ كـريشـة، كي يحدِّثوا الحياةَ حديثَ المُراهِنِ، ولينقسـموا حين يرْوُونَ، لأن النعمـةَ تُصغي بآذانٍ طائشـةٍ، ويدوِّن الحاضـرُ الأنينَ بثرثرة مُطَلّقَاته، لا بكلام الشهود.
ولتكنِ القفزةُ عاليةً،
والركضُ في مُنْخَفَضٍ عالٍ؛
ولتكنِ الملائكةُ تحت القوس،
في المدخلِ الشماليِّ للحقيقةِ،
مرتديةً معـاطفها التي لها، وهي تقضمُ البُندق، ريثمـا تُبلِّغُ المرئيَّ - شفـاهاً - أنَّ الفكاهةَ ستتخيَّرُ غلمانها، وسيخرج الحاضرون من الحلبة بالأباريق التي لم يترك عليها الموتُ شيئاً من نقوشهِ الحيَّة.

يا لـ« سنْجارَ » الراكضِ إلى طوروسَ؛ يا لـ« جزيرة بُوطَانْ »:
معاقلُ شفيفةٌ، وأسوارٌ كالأيدي تتلقَّفُ اللؤلؤ،
وهياكلُ تكمِّمُ الريح.
أما الصاعدون، مثلي، إلى الظلام، على سلالمه البازلتيَّةِ، فهم امتحانُ اليقظةِ الحالمة بعراك النَّجَّارين.
وأنا..
أعليَّ، أنا، أن أحتكمَ إلى أحدٍ؟:

دولٌ مذعورةٌ، وقدرٌ يتدحرج وراء كُراته الطينية.

والوحدةُ تسرِّح شعرها صباحاً، لتتقدَّم البنّائينَ إلى الأبديَّة، كأنما سأعيرُها - بعد قليلٍ من الموتِ - حكاياتي، لتسردَ على العَدَم حنينَهُ الآليَّ، وكأنما سيمتحنُ الكُرْدُ بها قهقهاتهم، وهم يجذِّفون بمجاذيف الجليد إلى المصَّباتِ الكبيرةِ للأنينِ الكبير.

إلهي،
هؤلاء أكرادُك إلهي.

.. والبُندُق يتناثرُ. الأجاصاتُ تتناثرُ. الكمثرى يوزّع الأدوارَ، والقمحُ يهذي:

لتكنِ السنبلةُ مشيئةَ الموتِ،

ليكنِ الموتُ أكثر صَخَباً في الممّراتِ التي يتقشَّرُ كِلْسُها، ويتحدَّث العابرون فيها حديثهم المؤجَّلَ بهمسٍ خفيضٍ.

فلا تأخذني أيها الملاكُ بجريرةِ الحيِّ، لأني أُقسِّمُ المصائرَ - مثلك - كالدُّرَّاقِ على العابثينَ، وأرمي بيديَّ الهاذيتين شبحي من الباب ليُسَرِّيَ عن الحياةِ بأقاصيصه.

ولا تنتظرني، أيضاً، لأني - كراكضٍ في الأقاصيص - يختطفُني الذي لا يُروى، وأكونُ النهايةَ حين لا يختتمُ الحادثُ سرْدَ نهايته. فإن رأيتَ أن تتبعني فارفع زانَتَكَ الطويلةَ، وانتعِلْ خُفَّيْكَ الرياضيَّين، لأنك - كراكضٍ في الأقاصيص مثلي - سيتقاسمُكَ المُراهنون في اقتحامهم المديحَ باباً باباً، بالحظوظِ التي يباركها الخوفُ.

ومن «مهابادَ» إلى «مهابادَ» تأفَّفْ قليلاً، مثلي، أيها الملاك، وأنت تفكُّ سُيُورَ خُفَّيْكَ، وتخلعُ قميصكَ الترابيَّ، متنفِّساً حتى عظامك، كأنّما حرَّرتْكَ المدائحُ من عويلها، وبكَّتْكَ القهقهةُ؛

كأنّما
فتنةٌ
أخرى
تسحلُكَ
من
سماءٍ
إلى

أخرى،
ويُوْجِزُكَ الألمُ، الذي يعلّق الهواءَ كمعطفٍ إلى مشْجَبه.
ومن حريقٍ إلى حريقٍ فَلْيَغْتَنم القَدَرُ ما يتيحهُ الكُرْدُ للقَدَرِ من ثرثرةٍ يسردُ بها على الأرضِ كَسَلَهُ الذَّهبيَّ، قبل أن يقتحم الراكضون بأشباحهم سياجَ غدهم المذعورِ، وهم يرمون قمصَانَهم ليتدفَّأ الهواءُ بها، ويتركون أحذيتهم للحصارِ كي ينقلَ الحصارُ الجرحى من الوردِ إلى الوردِ ماشياً.
والريحُ؟! ما لَها؟ من «مهابادَ» إلى «مهابادَ» أيضاً.
كلُّها من «مهابادَ» إلى «مهابادَ».
كلُّ ضربةٍ من «مهابادَ» إلى «مهاباد».
كلُّ عويلٍ من «مهاباد» إلى «مهاباد»،
والأمومةُ حيرى بأثدائها الحجريَّة بين أبنائها:
فإنْ أيقظتني الله، في المديح الرَّطب للدَّمِ، أحضرْتُ خُفَّيَ، وإنْ أيقظني الدَّمُ أحضرْتُ الله.

لكن، كألمٍ تتقدَّمُ الأجنحةُ؛
كألمٍ يتقدَّمُ الكُرْدُ إلى الحقيقةْ.

كألمٍ يسردُ الفجرُ على بناته المكانَ رحيلاً رحيلاً؛
كألمٍ يدخلُ النهارُ أعمى إلى «مهاباد».
وأنا،
رحيلاً رحيلاً - بزَانتي ذاتها؛ بالخفَّينِ الرياضيَّينِ، والتصفيق الأخرس المنسيِّ على المدَّرجاتِ، حيث لم يصعدْ أحدٌ - أجفِّفُ العرَقَ عن جبينك أيها الملاك، وأسندُ جناحيكَ بعظامي، لألتقطَ الأرضَ التي تتساقط، من خلفكَ، عاصفةً عاصفةً، وجَمَالاً جَمَالاً، ريثما أُطلقُ السهمَ الأخيرَ في اتّجاهاتِ الدَّمِ الأخيرةْ.
وسأُحْصي نَفْسي، بعدئذٍ،
أنيناً أنيناً،
من «مهاباد» إلى «مهاباد».

١٩٨٨

محمود درويش

ا/ المكان بحسب انشغالاته

أ ـ وصف الريح :

غدٌ يمضغُ اللُّبَّانَ كصبيٍّ نزقٍ، فاتحاً أزرار قميصه الكَشْمير تحت شجرةِ الأكاسيا. وهو ـ كأيِّ غدٍ ـ نحيلٌ وهادئ، وفي التفاتاته، بالناظور الذي يرفعه إلى عينيه مُسْتجلياً، رقّةُ حوذيٍّ يُسرِّح جيادهُ. لكنَّ القلمَ المعدنيَّ ـ الذي يسقط، فجاءةً، من بين أنامله، إذْ يدوِّن كالمَسَّاحِ فتورَ المشهدِ، والزوايا المشتبكة بالقُبل المُشتبكةِ ـ يرتطم بالأقدارِ، مُجَلْجِلاً بصدىً يصلُ الأعماقَ بأدراجها، فتصعدُ الريح.

ب ـ وصف الظلال :

بيقينٍ شاحبٍ ترفعُ الظلالُ سراجَها الشاحبَ في الأنْفاقِ ذاتها التي تنْتحلُ الحياةُ فيها أشكالَ المنتظرين، والحقيقةُ تختلسُ من خزائن الحقيقةِ عصا الأعمى وقفّازي المهرّج. فإذا تعثرتِ الأبديةُ بحقائبه المركومةِ على الأدراج فلْتعتذرْ، لأنه ينسجُ المشيئةَ على صورتها. وبتوقيتِ الأبدية الذاهل، الذي تتدلّى منه أثداؤه النورانية، يضرب الموعدَ الأول مع المصائر، هناك، تحت الشجرة التي يعضُّ النهارُ على حنينها بأنيابٍ من الكافور.

ج ـ وصف الشُّرفة:

قضبانٌ رقيقةٌ من المعدن ـ مطليةٌ دون مهارة ـ تقطعُ الطريق عَرْضاً، لتسوِّرَ الأرضَ بامتلاكٍ لا نزاعَ فيه. وهي باردةٌ قليلاً ذلكَ النهارَ الممسكَ بلجام الساعات التي تمسحُ بالشَّحمِ عتلاتها الإلهية، وساهمةٌ في الهبوب الخفيِّ لأنفاس الأضاليا على نعاسِ الهواء. وثمَّتَ ـ في اقتراب مَرِحٍ ـ عصافيرُ تطحنُ الهواءَ ذَرُوْراً على ريشها، متفتّحةً كتَرَفٍ يبلِّل المعدنَ الصامتَ. أمّا القفْلُ المتدلّي من سلسلةٍ تطوِّقُ القضبانَ، فالأرضُ وحدها تُصغي إلى نبضهِ الدّافىءِ، وإلى فتورهِ الذي تستعيرُ الجذورُ منه مهاراتها.

د ـ وصف المصعد:

للمكعّب الحيِّ، في ردهةِ الإسمنت العمودية، دوائرُهُ المُجَلْجِلَةُ، ومثلَّثاتُهُ التي تخمِّنُ الشهوةَ القادمةَ مع الزائرين؛ ولجدرانه نشيدُها المُرَتَّلُ، صعوداً وهبوطاً، بأفواهٍ من أنابيبَ وأسلاك. وهو يتكتَّم ـ بحسب فراغه المُتَكَتِّم ـ على قاطنيه العابرين، تاركاً لأنفاسهم وَحْدَهَا أن تسردَ الحمَّى، وللعطور الشريدة أن تموِّهَ الجهات. لكنه يرشدُ القلقَ إلى عتبات الأبواب، بجمالِ العبثِ الذي في خَلَجاته الآليَّة. فيقرعُ الثِّقَلُ سكونَ الثِّقَلِ، ويصغي الظلامُ ـ من الكوى ـ إلى الضوءِ الذي يترنَّحُ في سُعالهِ الطويل.

هـ ـ وصف الردهة الخارجية:

مدعستانِ، ونهايةُ دَرَجٍ. أعقابُ لفافاتِ تبغٍ قديمةٌ نَجَتْ من مكنسة الخادم، التي تركلُ الورقَ الساقطَ من الأصص بُخُفَّيها المثقوبين. وتمتماتٌ كثيرةٌ نسيها الداخلون والخارجون، تتشاحنُ بلهجاتٍ تقضم أظافرها، في انتظار الخطى التي ستفتح الباب.

و ـ وصف رواق البيت:

طليقةٌ رسومُ السجّاد. والتَّصاوير، على الجانبين، تتصيَّد بشصوصها رفاهةَ اللون، كأنَّما ناظرٌ مّا، وحيدٌ في همومٍ ترتجلُ أناقتها، سيرفع قلبهُ مُحَيِّياً، وعيناه تتسلَّقان

ستارةَ الأبدية.

ز ـ وصف البيت:

الغُرفُ تتناظرُ. الأرواحُ تتناظرُ. الشُّبهاتُ القويَّةُ تحومُ حولَ أصصِ النباتِ في الزوايا. والرُّفوف الثقيلةُ تُسَهِّلُ، خلسةً، عبورَ الكلماتِ من كتابٍ إلى آخر. أمَّا الأصدافُ المُنَضَّدةُ، كزينةٍ، قربَ الأرائك، فهي فكرةُ الماء المتكتِّمةُ على لوعتها. وما من رمادِ لِفافةٍ يسقطُ في منْفَضَةِ نحاسٍ إلاَّ يتبتَّلُ، كأنه ينكفىءُ على مذاهبه ليهيّيءَ النِّحَلَ. وثمتَ حقائبُ أيضاً، وأشباحُ حقائبَ تتأمَّلُ خرائطَها اللَّهبية، مُفْتعلةً جدالها لتُلْفِتَ الداخلَ إلى أنَّ المُمْكِنَ، وحدهُ، هو الساهرُ على فتوحهِ المُمْكنة.

II/ مشيئةٌ تؤلِّف المشهد

أ ـ محبرتُه:

أيتها الحمَّى الأكثر شروداً؛
أيتها الحمَّى ذات المكاييلِ التي يندلقُ منها الصَّعتر،
ضعي ساقاً على ساقٍ في مقعدك العالي،
فالواقفُ في الحلبة، بظِلِّه الذهبيِّ، سيطيلُ الوقوفَ حتى تخرجَ الأعمدةُ عن طورها، وتنهض المُدَرَّجاتُ إليه مهرولةً بالجالسين عليها.
والغبارُ سينفض عن قبّعة الغبار، بفرشاةٍ من الألق، سَهَرَ الأقفال، وستتماوجُ المراوح الأنيسةُ حيث تلتقط الفتنةُ من أيدي الأميراتِ زبيبها، لينشغلَ الموتُ الخفيفُ بالتقاط قطنهِ المتناثر، فالواقف في الحلبة يسندُ الأعالي المهدومةَ براحته الأكثر رقَّةً بين الراحات، ويعْذُرُ الغدَ الذي يعتذر إليه كبستانيٍّ أهملَ الحديقة.

أمَّا التواريخُ التي تتعارك قرب محبرتهِ، كرعاةٍ تداخلتْ قطعانهم، فلا تلبثُ أن تعود إلى قيلولتها.

ب ـ علبة تبغه:

مَنْ سيعبث بالنشيد أكثرَ حتى تتعثَّرَ الريحُ، ويُحضِرَ الغمامُ أزاميلَهُ؟ مَنْ، لفافةً لفافةً، في الثِّقلِ المُمْسِك ببوقه، يحرقُ الستارةَ ليرجعَ الممثلون إلى المقاعد التي سُرِقَتْ؟

ذهبٌ أثيريٌّ يتماوجُ صاعداً أعلى فأعلى،
والدخانُ الذي يخرج ناعساً، بدَفْعٍ خفيفٍ من شفتين ناعستين، يصرفُ الملوكَ، كأنَّما ـ في خَلْوَةِ الأقحوانِ ـ يوزّعُ الواقفُ النحيلُ إماراتِه.

جـ ـ قهوتُهُ:

فليدخلِ النهارُ المزمجرُ برهبانه الجاحدين؛ بدلافينه، وبالحركة الحنونة لأذيال النّمور. فليدخلْ مُشَتَّتاً يجرُّ كرسيَّه النورانيَّ، أو مذعوراً كغزالاتٍ يقفزن عن السيّاج العالي للحقيقة العالية.
فليدخلِ النهارُ مغلولاً في سلاسل البُنِّ،
يتقدَّمه المغيبُ إلى حصار النبوءة.

د ـ كسله الصباحيّ:

كتاباً كتاباً يفتح الجدارُ ذو الرفوفِ عينيه، والستارةُ التي تنزاح، في خفقاتٍ تؤجِّجُها يدٌ كسولةٌ، تحرِّرُ الشجرَ العالي، وتطلق سراحَ الأبنيةِ. وثمَّتَ من يلمُّ، بعد ما نسيه الليلُ على الأرائكِ من مجاهلَ،
وحروبٍ،
وحلِى،
وفوانيسَ،
وحبرٍ،
عائداً بها إلى سريره الذي تناهبتهُ المجاهلُ،

والحروبُ،
والحِلى،
والفوانيسُ،
وتمدَّدَ عليه الحبرُ في غلالته الشفيفة.

هـ ـ سيرةُ قلبه:

تَمَالكْ، أيها الحريقُ، نفْسَكَ وأنت تنشجُ نشيجَكَ العالي، إذْ يجعلك الألمُ ممتنّاً للأليف الذي فيك، وللشِّفافةِ المحبوكةِ بقُبَلٍ تسهرُ عليكَ سهرها الفاتنَ. واتّسعْ في هدوء، فالمكانُ لك بطنافسه، وآجُرّه، ومواثيقه، وسُعاته، وكمائنه التي تلتمع كأسنانٍ ذهبيّةً. ولكَ الهواءُ المدحورُ في المعركةِ، وتراجُعُ العاشِق، والجرحى الذين يتوسّلونَ الضربَةَ الأخيرةَ من الجرحى؛
لك
أيها الحريقُ؛
لك،
أيها الحريق..
حين الأبعدُ يرتجلُ فِراساتِه، مُرسلاً صقورَهُ ذات الأطواقِ إلى المشهد، ليُشيرَ العائدون من القيامة بأناملهم هامسينَ: «يا للقيامة».

و ـ نظّارته:

في كلِّ ركنٍ من خزانةِ الثياب نهارٌ متنكّرٌ. وعلى المائدة ـ قرب قارورة الخلِّ ـ شروحٌ وبسالاتٌ خلّفَها الزائرون. وثمت مجاهلُ رشيقةٌ تتأمّل زينتها في المرآة، وسِيَرٌ ممتزجةٌ برائحة دهان الباب، وعناقيدُ ثومٍ تلتقطُ فراشاتِ الطهو الشاردة.
وهو
إذ يتلمّسُ نظارته يتلمّسُها لا ليرى هذا كله، بل ليلقي نظرةً على شبحه الباحثِ، فوق السرير، عن قمصانه التي تُبَعثرُها الأناشيد.

III/ هو، في الأكيدِ ذاته..

صَخَبُهُ صخبُ الزيزفون. جهاتهُ جهاتُ الزيزفونِ. وحْدَتُهُ ما يعتذرُ الوردُ به إلى الوردِ، والمكانُ حجلٌ في يديه. وحيث يتكيء بمرفقه على الوسادة تتَّكيءُ الفكرةُ أيضاً، مُنشدهَةً بالرحيلِ الذي فيها. فإنْ أسرَّتْ إليه مصبَّاتُهُ بالغمام المجلوِّ تحت سيوف الرَّذاذِ استشرى، دافعاً باقواسِ قزحٍ إلى المنابعِ، وهو يطعمُ المدائح - المتزاحمةَ كالسّماني على حقلي مَنْكِبَيْهِ - من أقداره.

وبانقضاضٍ كالنعمةِ يأخذُ الممرَّاتِ إليه،
كأنَّه - هو - مَنْ ستسردُهُ الحديقةُ على مواجعها،
ومَنْ سيرفعُ الخَفْقَةَ الأقوى إلى الجناحِ الأقوى.

وبانقضاضٍ كسكينةِ المعركة سيحرِّرُ الليل من ظنون الحقيقةِ، وهو يلفُّ مِئْزَرَهُ على الخنادقِ، كأنَّ الخنادقَ أطفاله المستحمُّون.

أمَّا الفراشاتُ،
التي تسوِّرُ الحبرَ بأسلاكٍ من يقينها،
فهي صفقتُه الأخيرة.

وصخبُهُ - بعد هذا - صخبُ الشِّعابِ ينهبُها المنهوبون، مسحورين في سطوعهم على الألم الساحر. وبالذي فيه من ناياتِ الرخامِ، التي تتقدَّم السَّكينةَ إلى ميراثها، يطوِّقُ الخرائبَ المتألِّقةَ في غضبها، والألَقَ ذاته المُمْسك بفرشاةِ الدَّهَّان ليرسم مآذنَ العشب وقبابَ النَّدى. ويدلُّ الشهودَ، الذين يجرُّون الشهودَ من الأكتاف، على المشهد، ماسحاً زجاج نظَّارته من ضباب المكيدةِ، ليبتسم أكثر:

فالمذابحُ
تتأمَّلُ -
مشدوهةً -
حنينَهُ
الضاحكَ.

وما مِنْ خندقٍ في خلجاته إلاَّ يحمي المعجزةَ من فِتْنَتِها، كأنَّه سيذهبُ بالمكانِ

أبعدَ ممَّا يسعُ المكانَ، وبالدَّويِّ القادمِ إلى كلِّ أكيد.
وهو يشرف كَنَذْرٍ ـ من الحقيقة التي تتسلَّلُ إليها الحرائقُ ممسكةً بمقصَّاتها القويّة ـ على كمائن البعيد، مُلْهِماً رُقَبَاءَهُ الفرَّانينَ أن يخلطوا الحروف بالأرغفة، تاركاً قلبه ـ الذي يلتهم البروقَ فاجعةً فاجعةً ـ للكمين الأكبر، حيث تكتمُ الأناشيدُ أنفاسها لِئلاَّ يجفل الحبرُ، ويتمزَّقَ المساءُ في دروعه.
وحيناً بعد آخرٍ، إذ تتأمَّلهُ الحدائق، يُغْضي،
مُصغياً
إلى
الحياةِ
تحفرُ
بأناملها
المسلوخةِ
خندقاً لدُهاتها المكشوفين.

يا للشؤونهِ، إذاً ـ
يا لشؤونٍ تعبثُ بالعاصفة،
وتداعبُ الينابيعَ التي تتقافز كجراءِ سلوقيٍّ بين متاريسه ـ
كم يجلسانِ متقابلينِ يرمي بنَرْدِهِ على المنضدةِ وترمي بنردِها؛
كم تجلس التواريخُ بينهما وهي تجفِّفُ بأنفاسه ذؤباتِها المبلولة!
وهو إذْ يميلُ في مجلسه ليداعبَ الفهودَ النائمةَ قرب يقينه، ويمسحَ بقميصه السلاسلَ المشدودةَ إلى المياه، يلتفتُ إلى المشيئة في قفطانها النَّيروزيِّ هامساً: «عِمِي صباحاً».
فلا تتأَفَّفنَّ أيها الصباحُ إنْ زَجَّكَ في الملهاة،
لأنَّ البطولةَ التي تتأبّط بَرْسيمها وخُوصها ستُحيِّيكَ من المجازاتِ الاسيرةِ في رئتيه، ومن الشَّفق النازف لوعةً لوعةً في الأكيد العالي، الذي يدحرجُ الشهداءُ فوق حريره خُوَذَ الموتِ المكسورة.
وهُمْ شهداؤه، على أية حال.
هُم شهداؤه الأكثر اقتحاماً للموت بمداخلِ الآجُرِّ،

والبيوتُ التي يعبرون ساحاتها، شاردينَ في حنينهم، هي سَلالِمُهُ الكبيرة إلى المديح.
فلا تتأَفَّفَنَّ إنْ زجَّكَ في الوردِ، وقيَّدَ المساءَ على كرسيِّه،
لأنه سيطلقُ الأمكنةَ من تعبه الشَّفيفِ حُرَّةً إلى هذيانها؛
حُرَّةً إلى آخرِ الألم،
أنيسةً،
تتماوجُ كأعرافِ الدِّيكةِ وهي تستعرضُ المَغيْبَ المتخبِّطَ كحنكليسٍ في شباك الفجر.

يا لَهُ؛
يا لشؤونه؛
يا لصرخةِ الكَرَزِ المكتومةِ في الفيءِ الذي يتقاسمُ قلبهُ سهْلاً سهْلاً، ومدارجَ مدارجَ؛
يا لنا، كمْ سنناديه في الحكاية التي تناديه وقد أثْقلها العابرون برمادهم العابر. كمْ سنُقاسمه النَّهبَ الذي يمسُّنا بأقراطه حينةَ ننحني مُقبِّلينَ فَمَ الحياةِ الأبعد، هامسين: «جُرَّ رداءَ الخواتيم إليك، وتلمَّسْ بأناملك الحُرَّةَ هذا الألمَ المشدودَ كجلد فَقْمة، فرُبَّتما سهرتْ كسهركَ الخساراتُ، وحاكَتْكَ المصائرُ فبعثرتْ أوزَّاتِ الخزف المنضَّدَةَ على رفوف الغَيب. واستدرْ رخيّاً من مكانك الطليق فللبحر قربَكَ أنينُهُ الطليقُ». يا لنا.

إنه يجمعُ المغاليقَ في يديه كما يجمعُ القلقُ القرائنَ، ويخطو خطواته العَنبيَّة إلى بيانه، مُقتفياً أثرَ الموتِ الذي يجازفُ بنفسه حين يلقي بها في الحقيقة. وهو لا يعبأ، في عبوره، بالمشهد المستعادِ كبُرهان، فالحروفُ تُنكِّلُ - على أية حالٍ - بالمواثيق. وفي وسْعه أن يلتفتَ من المُحْكَمِ إلى المُحْكَم، حيث النهارُ كرَّاءُ نوارجَ، والتماثيلُ تهيم على وجهها في شحوب الحدائق؛ حيث المعجزةُ تتسوَّلُ أبدَها من الغرقى، والطيورُ ترقد تحت الأقنعة.
إيْهِ،
في وسعه أن يتَقَرَّى المفاتيح الكبيرةَ التي تذوب في الأيدي، وأن يجرَّ الغبارَ

المُحْتشمَ إلى لهْوٍ مُحْتَشِمٍ، فالمعادنُ خائبةٌ، والضياءُ المسعورُ ضياءٌ مسعورٌ، والجُعبةُ الخَلقَةُ تتساقطُ منها السهامُ والأحابيلُ. أمَّا البقيَّةُ التي من رجاءٍ فهي، أيضاً، هناك بِبَركَةِ الصَّرخةِ، مبتلَّةً بالحليب المندلق على اللّحى، والنبيذ المُهْرَق فوق الأحذية.

وفي وسعه أن يطوِّق الساعاتِ الرطبةَ من أثرِ الأنفاس، تلك المغزوَّةَ بفحولةٍ تستقصي الثمرةَ المُهْمَلَةَ، ويُمَسِّدُ الحمَّى الذهبية حيث الأساطيرُ تدخلُ مرتعشةً إلى نصرها الباردِ. إيْـ

يْـ

يه،

قَسَمُ المياهِ عليه، قَسَمُ الحظوظِ عليه ان يهيِّئَ البعيدَ لبطش البعيدِ، متَّكئاً بمشاغله على الألقِ الذي يغورُ، عميقاً، في جَمالٍ منكوب.

قَسَمُ الملهاة عليه أنْ يَرِثَ الريحَ التي تتقاذَفُ الكمالَ الموحِشَ قِلْعاً قلْعاً، كأنما ـ في الحنينِ الذي يتجرّأ على كلِّ شيءٍ ـ لنحيلٍ واحدٍ، بأزْرٍ من السنابل، أنْ يضلِّلَ الريح.

.. ومن كَمِثْله سيدلِّلُ الفكاهةَ حتى لكأنَّ الجهاتِ درهمٌ يتقاذفهُ الشّحاذون؟ أنيسٌ في الصخبِ الأنيسِ، ولاقترابه العيَّارِ دعابةُ السارقِ الذي لا يأخذ من الكنوز إلاَّ تواريخها.

وهو يُحْصى
قَدَراً
قَدَراً،
بالحسابِ الفاتنِ للعنب،
ويُعَدُّ على الأصابع ذاتها التي توقظ الفروق.

فلا تتبرَّجنَّ له المواثيقُ، لأنه عاكفٌ على هذيانِ الماء، مندفعاً ـ بانسكابٍ لا يُمَسُّ ـ بين الأغاني، ومن حوله حمائمُ الآجُرِّ التي يلتهمها اليقين؛ من حوله العظامُ المَنْسيَّةُ تحتَ وسائد الملوك، والحقيقةُ المُنْصِتَةُ إلى صقورها العمياء. أما الملهاةُ، ذاتُ الأوداجِ المتورِّمةِ من النَّفْخِ في الأبواق، فهي تقفزُ من محْبرته كسُرْعُوفَةٍ حين يُحْصى جَمْعاً جمعاً،

بالحسابِ الفاتنِ للوحدة،

كأنَّه استثنى نفْسَهُ حين عَدَّتْه الأرضُ على أصابعها التي توقظُ الفروقَ.
كأنَّه،
أينَ؟
ما الهبوبُ القَيُّومُ؟

إنَّها المسافةُ تأتيهِ مُخْتَبِلَةً لِتَتَقَوَّضَ في جَمَالها.

٥/٤ - ٧/٦/٨٩



ما المكانُ الأسيرُ
حين تأخذُ في يدكَ الريحَ صوبَ مفاتيحها؟
ما الصَّدى؟ ما الحكايةُ، ما نزفُها؟
ما الأنينُ الذي يتهادى بُسلْطانه في هوى الحِبْرِ؟ نَهْبٌ صغيرُ
يخبِّىءُ للوردِ رائحةَ البُنِّ في سَهَرٍ قاد هذي الحديقهْ
إلى حيث يشكو الصباحُ
أنَّهُ لم ينمْ في يديكَ اللتين اغْتَلَى فيهما ذَهَبٌ لم يَنَمْ،
فأعَدْتَ الحديقهْ
إلى وَرْدِها، وسرقت من العتباتِ الرقيقةَ
شُعاعاً له قَسَماتُ المكانِ، وأرَّخْتَ للتَّرَفِ
بالذي أسَرَتْكَ البراعمُ في ظنِّها، أيُّ ظنٍّ
سيُلقيْكَ في شُبُهاتٍ من السَّعَفِ
كي يرى من أعاليه أنَّكَ أشْفقْتَ أن تنثرَ الريحُ أكبادها في يديكْ
فآويتها، والتجأتَ إليك؟
أيُّ ظَنٍّ سيأخذُ وسعكَ؟ برقٌ على زنبقٍ أو عسَلْ
يتلمَّسُ إنشادَهُ ويغيْرُ عليكْ
بشقيقاتهِ يتهتَّكن مثل القُبَلْ
فانتهبْ ما تشاءُ. المكائدُ من ألَقٍ، والحريقُ الأمينْ
يُعيْرُكَ كُتَّانَهُ،
والهبوبُ الذي أنت فيه هبوبُ السّنونو.

٧ - ١١/٦/١٩٨٩

تدابير عائلية

عُضَّ المكانَ أيها الحنينُ، عُضَّ المكان.
وأنتَ، أيها الضوءُ، عُضَّ الهواءَ الحالمَ، الذي يرفع «طوروسَ» سفحاً سفحاً إلى أنينه الجبليِّ.
عُضَّ أيها الدَّمُ حديدَك، ولْتعُضَّ الحقيقةُ من نَدَمٍ على كمالها
فالمكانُ، هنا، مكانٌ، وأنا ذاهبٌ إلى حريقي؛
ذاهبٌ لأقول للسهول أكثر مِمّا يقوله الطَّيَرانُ للأجنحة،
ولأقول للأرض إنها مثلي تَسْتَرِقُ السَّمْعَ على الفراغِ، هامسةً: «مساءَ الخير أيها الفجر».
ذاهبٌ لأصمت أكثرَ من شُبْهَة تُكَرِّرُ الشَّكل آدمياً آدمياً، فَلَوْعتي مكانٌ، وحنيني حنينُ الوقتِ إلى أمومة الجماد. كأني ـ هكذا ـ سأعيدُ على الحقيقةِ سَرْدَ ظنونها، وأحْفُنُ الشمالَ حَفْنَاً كأنّه حنطةٌ لم ينثُرْها الحرَّاثون في الأثلامِ العميقةِ لمحاريثِ الله.
فيا الجمادُ المُعافى؛
يا الجمادُ الساهرُ على رحيلي كُنْ مؤاتياً، لأكونَ مُتَّسِعاً أكثر لريحك الأبويَّة، وكُنْ يقظانَ كنومٍ يقظانَ، يا شفيعَ الغواية، حين تصرخ: «مساءَ الخير أيها الفجر»، كأنّما تُقَلِّدُ الأملَ الموجعَ، الذي يُقَلِّدُ الحياةَ بصوته الأنثويّ.

كثيرٌ هذا الذي يُهْديني الموتُ لأكون مُمْتَنَّاً لأنيني.
كثيرٌ هذا، أيها الجمادُ، لأقول الذي يُفْتِنُني في الضجيج المُمَزَّق هنا، حيث تخرج

الأبديةُ حافيةً إلى الشرفة بعينيها الباكيتين.

ذاهبٌ إلى كلِّ شيء.
ذاهبٌ إلى كلِّ شيء.
ذاهبٌ إلى غَرَقٍ آخرَ للسماء.

ذاهبٌ إلى الأسواق ذاتها، المنذورةِ لشمالٍ لم ينثره الحرّاثون في الأثلام العميقة لمحاريثِ الله، خفيفاً أعمقَ من شتاء، وأضلَّ من الأقحوانِ، حيث عواصفُ القماش في الأروقة؛ عواصفُ الشّاي في الأروقةِ؛ عواصفُ بسيطةٌ في الأروقةِ تُجَلْجِلُ بطاساتها النحاسيةِ كباعة «عرْقِ السوسِ» البارد.
وأنا أتبع العتّالينَ من شاحنةٍ إلى شاحنةٍ،
ومن ظمأٍ إلى ظمأٍ،
ومن مقاديرَ إلى مقاديرَ،
خفيفاً كقضاءٍ يجتهدُ في اختيار النهاية، لأنني سأترجمُ الظهيراتِ الأكثر نَكْبَةً كما تُتَرْجِمُ الدِّيكَةُ النهارَ؛
خفيفاً أتبعُ العتالينَ إلى آخري - إليَّ، في الرواق المُمَهَّدِ بالضّلالِ النبيل للخُطى النبيلة؛
خفيفاً كأنّما أوْحيْتُ إليَّ بالعَثَرَةِ التي قدّمَ الوقتُ بها جساراته إلى الخلود السكرانِ؛
إليَّ،
إليَّ،
باللّهاتِ المُمَسَّدِ كفروٍ تحت خُطى العتّالِيْنَ، وهم يصعدون بأكياسِ القمحِ إلى المشيئة؛
إليَّ،
فاحشاً كانقطاعِ الحقيقةِ عن ثرثراتها.

وأنا في اتجاهي إلى الشاحناتِ الكبيرة، التي لم تَنْسَني، لا ألمُّ الحقولَ بل أُذَرْذِرُ الحقولَ في الهواء، وتحت ابطيَ كيسي الذي سأجمع فيه المذابحَ متأمِّلاً فراشاتِ

أعمارها.

فلا تنتظرني أيها الوقتُ،

لأنني مزمعٌ أن أتنكَّرَ في قناعِ الدمِ ـ شبيهكَ، الذي يدينُ للأساطير بفكاهاته، وأنْ أقايضَ النهارَ عظاماً بعظامٍ، حاملاً مَيادعَ العتالين إليهم حين يفيقون من القيلولة، في الظهيرات التي تمحو الظلالَ بمِمْحاتها الصلبة، وأنا أرشقُ الأعمار بحفنةٍ من الشعير المُندلقِ هنا وهناك، حيث رُفِعَتْ ـ من قبلُ ـ أكياسٌ إلى الشاحنات، وتُركَ التعبُ جليلاً يسردُ على سنابله القويَّةِ رخاءَ المَنْسيين.

أأهمس: «أيها العتّالون ـ يا يقيني في الشتاء الذي لا عملَ فيه ـ أيها العتالون؟»، أأهمس: «صباحَ التّعب، يا صباح التّعب؟»، أأهمس: «أيتها الشاحنات، يا أخواتي؟»، مَهْلاً. كم يتّكيءُ الحنينُ على سياج بيتي متأفِّفاً من نسياني. كم يُذكِّرني الحنينُ بي فأنسى، لأنني هناك، في الشَّفقِ الأكثر طحْناً بمغاليقه؛ الأكثر سَهْواً وهو يُحصي الشعوبَ على أصابعه المقطوعة.

وأنا مُمْتَثِلٌ للنسيان، الذي يوزّعُ الحريقَ قَلَماً قَلَماً، مُصْغٍ إلى الحبرِ الساهرِ بثيرانٍ من الماءِ على سهوله المنسيةِ، حيث ترفع السنابل، مثلي، مِيْدَعَةَ الأرضِ إلى العتّالين؛ حيثُ أرتفعُ إليَّ بنبضٍ من صخبِ الحصّاداتِ الآلية، وهي تَذْرُفُ القشَّ على الجمالِ المدحور؛

إليَّ،

بجبلٍ يدفع الجهاتِ من حوله، بيديه المائستين،

موسِّعاً للوحشيِّ كي يتَّخذ الوحشيُّ زينَتَهُ الأليفة.

أأهمس: «أيها العتّالون»؟. هو التَّعبُ يهمسُ كلماتِهِ المهجورة كي يوقظني في الألَقِ المُمْسكِ بالحياة، إذ تتسوَّقُ الحياةُ في ممرَّاتِ الريح الكبيرة، كامرأة فطمتْ وليدَها، ضاحكةً للعطّارين؛ ضاحكةً للنهاية التي تتعثَّرُ بسلالِ الزّبيب؛ ضاااااحكةً للضياءِ الجزَّار يكسرُ الأرضَ، بساطوره، ضِلْعاً ضِلْعاً.

يا لَذُعرِ االتراب:

كلُّ مشهدٍ يقطرُ العَرَقُ من صدغيه.

كلُّ فجاءَةٍ تتهدَّلُ في القيلولةِ التي يرفعها العتّالون إلى ظهيرةِ الحلم.
وأنا أهمسُ: «أيتها الشاحنات.. يا أخواتي»، راكضاً بالحقيقة؛ بالمكان المُنْتَصِرِ في خساراته؛ بي إلى أعضائيَ المُشْرِفَةِ من الموتِ على عويلها.
وللقطار الوحيدِ أهمس، أيضاً: «يا أخي، أيها القطار الوحيد في الشمال»، حيث يتسرَّبُ الشَّعيرُ من شقوق المقطوراتِ فيتلقَّفُهُ الجوعُ بيديهِ السوريتين، مُسْتنداً إلى الفضيحةِ التي تتدلّى منها الحروب كَعُنْقُوْلِ الموز.

ما هَمَّ: هُمُ العتّالون يرفعون الجوعَ إلى الشاحناتِ، بخطىً تتسلَّقُها السلالمُ، ويقطفُونَ الحروبَ من شجرات التوت.
هي الحروبُ تتسلَّقُ الشاحناتِ هاربةً بالأنينِ السوريِّ إلى العتّالين، ليصعدوا أقوياءَ إلى الحروب القويّة.
وأنا والشَّمالُ عاكفانِ على آجُرِّنا الدّامي بصباحاتٍ كأزاميلَ رقيقةٍ، ننقشُ بها ما ينقشُهُ العاديُّونَ على آجُرِّهم الدّامي.

شاحناتٌ في كلِّ مكانٍ: هذا ما أرويهِ للحكايةِ التي تُروى بتعبٍ يُروى.
شاحناتٌ في كلِّ مكانٍ،
ككثافات تتألَّقُ في ضجيجها؛
كمديحِ الشَّكْلِ لنفسه؛
كاغتصابٍ يمهِّدُ للظِّلِّ أن يطيحَ بالجهاتِ.
شاحناتٌ كقلبي، في شمالٍ كقلبي،
وأنا أتوطأُ مع الريح إذْ تعلنُ السهولُ شقاقها،
وأتقرَّى بيديَّ المعرفةَ، تلك النشوى بالذي يحلجُ السنينَ بين يديها، وهي تنظرُ المقاديرَ تدخلُ بملاعقها التي ستغْرفُ بها المقاديرَ كالحساء.

ثَمَّ. وماذا في الحطام الأنيقِ. ثَمَّ. إلاّ منازلُ هاربةٌ تتعثَّر بالقتلى؟ والسكون الضّاري هو السكونُ الضّاري: قطارٌ من المسافةِ إلى الوقتِ، بمقطوراتٍ تسرقُ الأقاليمَ والظلالَ، وهي تخترقُ الغدَ السوريَّ من الدم إلى الدم.
فلا تشهقَنَّ أمام الوردِ أيها التوأمُ، كأنّك ابتكارُهُ المسروقُ، ولا تقُلْ للنهار

فكرتَكَ التي تُعيدُكَ، شعاعاً بعد آخر، إلى بلاغة المساء،
وابقَ - كما أنتَ - وحيداً، في الفتنة التي تجعلُ الليلَ خلودَكَ الزائلَ؛
في الفتنةِ التي ترفعُ معطفَكَ المُمزَّقَ إلى منكبيك كلّما ابتردْتَ في الحريق.
واتبَعِ الشاحناتِ ذاتها إلى كلِّ مكانٍ،
إليكَ؛
إلى الشَّقاء الأخضرِ،
الذي يرسمُهُ قَلَمٌ أخضرُ مَسْروقٌ من فكاهة العنب،
حاملا تينَكَ البهلوانَ؛ عنَبَكَ البهلوانَ؛ قَمْحَكَ المُمْعِنَ في تفسيرِه الذّهبيَّ، كأنّما تمهّدُ الحقولُ لكَ بإنشاءٍ يُكْتَبُ فتلبسُ لها الريحَ، ويؤوِّلُكَ الليلُ تأويْلَهُ النورانيَّ فيُغمى على النهارِ بين يديك.

أتطأُ، بعد هذا، قدَمَ النهارِ في رجوعك من ألَق الليل، الذي يبهرُ عينيك؟ أتَطأُ النهارَ - شريكَكَ النائمَ على الرصيف الذي يعبره العتّالون من الشمال إلى الشمال؟ حَيِّه، أنتَ؛ حَيِّ الشَّررَ القابضَ على ذكراكَ بيدين من ظلامٍ وضّاءَ، وافتحْ للشهوات أن تتشمَّمَ، كالهِرَرَة، إبطيَّ المساءِ وأضلاعَه الرطبة. فأنت تستعيد الشمالَ حفنةً حفنةً حين تقيسُ الأرضَ بشهواتِكَ، وتقيسُ الهواء بالقُبَلِ، عريقاً كفجرٍ،
عريقاً كماءٍ،
كفكرةٍ،
كنهبٍ،
كفراغٍ،
كطَلْقةٍ تُرْدي؛
لأنك تصغي إلى الشاحناتِ الأنيسةِ متهاديةً إلى الصيف الذي ينام على وسادتك مُذْ تَعَرَّفَتِ اليقظةُ عليك في حُلْمها.
واتبعني فراشةً فراشةً، كضجرٍ حالمٍ؛ زاهداً، فأجْرُكَ المياهُ أجرُكَ المياهُ.
واستَعِنْ بالمصادفة المحبوكةِ من القُنَّب، فالغبارُ - شقيقُنا - لا يتكتَّمُ على الكنوزِ التي تحاصرُ الموتَ، ولا يتكتَّمُ الألمُ على الشمالِ الذي يجرُّهُ القطار من حنينٍ إلى حنينٍ، كأنَّ مجداً ما ينقرُ بأنامله على المنضدةِ في سوقِ العتّالينَ، وهو مستسلمٌ للقرنفلِ يلقي عليه نُعاساً كالتحيَّةِ.

وليتبَعْني الشمالُ إلى الذي لا يُخيفُ؛
إليَّ؛
إلى القديم الذي يتفكَّرُ في نسيانه ليَبْتَكِرَنَا هاذيَيْن.
ولينتشرْ في حقول تليقُ بشمالٍ مثله، لأتبعَ الهواءَ الشَّغوفَ بتفصيل قلبي على مقاسه؛ لأتبعهُ، بدوري، إلى الذي لا يُخيفُ؛
إليَّ؛
إلى المديح الذي يُمْلَى بأنينٍ كثير.
ولتكُنْ معي هذه التي أحفرُ عميقاً تحتَ قلبها؛
عميقاً، إلى حيثُ اليقين - صاعداً - يرتِّقُ الفراغَ؛ نازلاً يرتِّقُ الفراغَ؛
هذه التي تتقدَّم خائضةً في الحبر كضوءٍ سكران،
وأنا أدلُّها على اللَّهبِ العَطَّارِ لنتسوَّقَ الرعدَ الذي يُحْيي، والمساءَ الذي يُحْيي، نازفين كألقٍ نازفٍ؛
هكذا،
كأننا نجتهدُ أن تكون الشّقائقُ حوارَنا المُشْتعلَ في احتكامنا إلى السهول، وهي ترفع سراجَها إلى الكمالِ الأعمى الذي يتسلَّى بنَرْدٍ من الضوءِ في وحدته.
كأننا، باعترافٍ واحدٍ، نعيدُ على الرَّمادِ المُشَرَّعِ آخرَ هرطقةٍ للجمْر.

يا للجَمْرِ المتبرِّم من قَلَق شراراته؛
يا للقَلَقِ الذي يستبدُّ بستائر البيتِ، ويهيِّئُ الصباحَ كإفطارٍ، حين المكانُ يُنَقِّبُ عن حضورهِ بمعاولَ نورانيَّة؛
يا لانْشغالي وأنا أوسِّطُ الشمالَ في شِجَارِ الجهاتِ:
أما من لوعةٍ أخرى؟
أما من كمالٍ آخر في العناقِ الذي يضربُ ضَرْبَةَ العَضَلِ الخالدةَ، متهكِّماً - كنبوءةٍ - من الروح؟

كلُّها روحٌ:
ضرباتيَ هذه،
وأنا أنظرُ الشاحنات تعبرُ - كما أعبرُ - قوسَ الجمالِ المرفوعَ على حديدٍ،

والعتّالون يُلْقُونَ ـ من فوق عوارضها الحديدِ ـ تحيَّةَ الأقدارِ على الفراغ.

كلُّها روحٌ:
هذه الممرَّات التي يعبرها القلقُ العدَّاءُ حاملاً ظلالَ الأكاسيا على كتفيه، كأنما يذكِّرني بي، وأنا جالسٌ في كمينِ الفروقِ التي تُعَذِّبُ الحقيقةَ.
فاشهقْ طويلاً أمام الوردِ أيها التوأمُ، كأنَّ الوردَ نُعاسُكَ،
وقُلْ للنهار فكرتَكَ ليُحْصِي المساءُ بكَ شعاعاتٍ تائهةً في فكرتِهِ،
لأنني مؤات الآن،
وخطاطيفي المُلْتَمِعَةُ في الغبار هي خطاطيفُ الغبار يرفعُ بها الأفقَ إلى يقيني،
لأنني أهمسُ، مبتسماً للنهاية المُحْضَرَةِ كعجْلٍ من خطمها:
الحمدُ للمُشْكِلِ؛
الحمدُ للموتِ الذي يودِّعني كل يَكْتَمِلَ في وحدتِهِ؛
الحمدُ لِمَا لا يدومُ.

أأحيِّيْ ما يمضي على جَسَارَةِ أن يمضي،
وأحيِّيْ ما يبقى على جَسَارةِ بقائه؟.
أأمْهِلُ الحياةَ كي تُعيد إلي حروبها غموضَها المسروقَ ؟:
إنّه البهاءُ يُسَرِّحُ الأرضَ فتتوضَّحُ في غبار شاحناتها.
وأنا أُخْلي المكانَ منِّي،
وأُخْلي العَبَثَ المفتوحَ كَشُرْفةٍ، من القهقهات التي نسيها البَنَّاؤون،
مُنسلاً ـ كمكائدَ عذبةٍ ـ إلى حيث الأرواحُ تقلِّدُ الأحْيَاءَ بفكاهاتها، وهي تنتظرُ، مثلي ـ على الجسر هناك ـ شاحناتٍ أكثر صَخَباً بأبواقها الكبيرة.
وبأبواقٍ كبيرةٍ أوقظُ السماءَ النائمة في سكينةِ تَعَبي، ليَكوْنَ لَهْوٌ؛ لتَكُوْنَ العجلةُ، فالهادئون لا يعثرون على ألَقٍ، والحاذقونَ لا يعثرون.

كلُّها صيحةٌ، وأنا أُخْلي اليقين منّي فرسخاً فرسخاً، عائداً بِمِيْدَعَةِ الريح إلى العتّالين يفتُّونَ الشمالَ كالخبز في حساء العدس، لأنجوَ من الموتِ الذي لا يُميْتُ، بجَسَدٍ كالمذاري ينثُرُ الحقيقةَ في المَهَبِّ الأشدِّ لكمالِنا؛

كأني أسيرُ في فتنة تتوسَّلُني من حولها الأرضُ أن أستعيدَ الأرضَ؛
كأني في المَهَبِّ الأشدِّ الذي لا أستعيدُ فيه شيئاً، ولا يستعيدُني فيه شيءٌ:
لأنَّ الضوءَ الذي يمزِّقُ العضلَ، في هديرِه، يمزّقُ المجازاتِ الشفيفةَ، فانحني عليَّ
عميـ
يـ
يقاً
حيث الفراغُ يعضُّ على ذَهَبِه،
ويتقلَّبُ الغامضُ في سريري حتى آخر الموت.

يا للموتِ، عميـ
يـ
يقاً ينحني عليَّ،
ليستعيدَ القناعَ الذي أعارني؛
ليستعدَ مراياهُ،
وسبائكَهُ الصَّلبةَ،
وفوانيسَهُ التي يهتدي بها إلى ممرَّاته؛
ليستعيـ
يـ
يدني معافىً كالشَّكْلِ.
وأنا أستعيدُ نفسي، أيضاً، في المُشْكِلِ الذي يُقْلِقُ الموتَ،
وأستعيدُ الموتَ معافىً، لأنحني عليه باسطاً لليقينِ المذعورِ سَكينةَ المديح الذي
يصعدُ عميـ
يـ
يـ
يقاً من الأنقاضِ،
حيث يرفع العتّالون بخطاطيفهم ممالكَ الأبديةِ إلى الشاحناتِ،
صاعدينَ السَّلالمَ العريقةَ ذاتها،
نازلينَ السلالمَ العريقةَ ذاتها،

باللُّهاثِ الذي يتمزَّقُ فيه ابتكارُ اللهِ، ويَلْتَحِمُ ابتكارُ الله.

ولربّما همستُ: إنها خطواتي الواسعةُ التي يُعينني بها الموتُ لأخطوَ إلى الحياةِ بارداً كروحٍ،

دافئاً كجسدٍ في ملهاته.

لربّما وَعْدٌ.

لربّما شاحناتٌ شفيفةٌ تقود الشمالَ إليَّ على عجلاتٍ شفيفة،

لربّما العتّالون، أولئك، الذين من عَرَق وأُنسٍ، يعبرون قلبي إلى سَهَرِ الحنينِ عليهم، حين يجتهدُ قلبي اجْتهادَ الظّلِّ، ويعظُ كما يعظُ الماءُ،

وأنا أستعيدُ الموتَ فيُستعادُ خجولاً، كأنما استنفدَ المرافعاتِ القويَّةَ في تَهَتُّكهِ، واستعارني كحبرٍ ليعترفَ بخساراته.

يا لَنعمةِ الخساراتِ أن تدوِّنَ ما سيدوم.

لا لَنعمةِ الخساراتِ أن تدوِّنَ ما لن يدوم.

والغدُ، الذي يُسْتَعادُ، غدٌ على أحابيله:

رقيقٌ يَسْتنفدُ الموتَ بحبرٍ مُسْتَنْفَدٍ، في المُتَّسعِ الذي لِلُّهاثِ، حيث الجدالُ الخفيضُ كصوتِ العاثرِ ينفخُ بفمٍ رقيقٍ على السطور المتقاربةِ للحياةِ، في الورقةِ ذاتها، المُسَطَّرَةِ على عواهنها؛

وأنا، على عواهني، أُسَطِّرُ الغيبَ في الورقةِ التي تمتحنُني حبْراً حبْراً، حتى أسبق نفسي إلى الحنينِ، معافى كدويٍّ يقطفُ الجُسُور.

لكن بيني وبين الحبر شاحناتٌ توزّع الطفولةَ على أبواقها القوية، فأسمعُ الشمالَ ينثُرُ الجهاتِ على حقوله، وينتعلُ الفجرَ راكضاً إلى هرْجِ الليل.

يا للفجرِ الذي يُهدِّىءُ الليلُ من روعِهِ،

وتُعَرِّي الحقولُ أثداءه التي تُرضعُ الضياءَ المُتَهَتِّكَ كالحمّى!

يا للحبرِ ينزفُ المصائرَ من زُرْقَةِ الحبرِ وسطوره،

يا لابْتكارِ الشمالِ الذي يعيدُ الأرضَ إلى فِتْنَتِها الذّهبيّة:

شاحناتٍ،

ومواسمَ،
وخطاطيفَ حديداً،
وقيّافينَ يتخفَّى منهمُ الموتُ في قناعِ المياه.

حمّى مياه قلبي،
وأنا أغسلُ النِّعمةَ التي تغتسلُ في النِّعمةِ،
مُتْرَفاً كعذاب،
كشقائقَ تتطاحَنُ،
كَعَدَمٍ ملأّحٍ،
كهاوية من شباك ذَهَبٍ تلتقطُ الأبدَ إذْ يتهاوى.
فلا يَجْفَلَنَّ الشمالُ أنْ أستعيدَهُ، هكذا، قَلِقاً كالتَّرَفِ، متصلاً كعويلٍ يتلقَّفُ الطحينَ النورانيَّ من رحى الله،
لأنني أتلقَّفُ نفْسِي هكذا، قَلِقَةً كالتَّرَفِ، جذلى بحماقاتها النُّورانيَّة.
وهي هكذا - مُذْ عرفتُها - نَفْسِيَ؛ هكذا - مُذْ عرفتُهُ - الشمالُ: أرِقانِ نسهرُ على الليلِ إذْ ينام معافىً كَشَكْلٍ، ونُحصي لليقين جَهَالاتِ اليقين.

أكثيرٌ هذا لنكونَ مُمْتَنَّيْنِ للموت؟
شمالٌ، وقلبٌ كشمالٍ، حين المكانُ - كبراثنَ من تَرَفٍ شاحبٍ - ينهشُ الفراغَ الحيَّ كبداً كبداً؛
شماااالٌ
وأنا عابرٌ إلى المُمَزَّقِ بجهات مُمَزَّقة،
ليتأمَّلَ العَدَمُ مفاتيحهُ، مفتوناً، بعينيه المُؤَرَّقتيْنِ.
شمااااالٌ
وأنا أحْفُنُ القلقَ من كمالِ أعضائي المُسْتَقرَّةِ في شهواتها، كأنّي - ببزوغِ العاديِّ على ذهوليَ - أنيرُ اللُّهاثَ الذي تبصر الأرضُ فيه محاريثَ الله، مُلْتَفتاً إليك، أنت التي تتقدَّمِيْنَ خائضةً في الفجرِ كشرودِ العاشقِ، هامسةً - بأريجكِ الهامسِ - أن يُخَفِّفَ الوردُ من ثرثراته في الحديقة، هناك، حيث يُصغي قلبيَ اللَّيليُّ إلى اعتذارِ الفَجْرِ عن اللَّيليِّ من هفواتِ الفجْرِ.

أتَكيدُ النّعمةُ لي، بعد هذا،
أأكيدُ للنّعمةِ؟

قيّافُ غَيْبٍ أنا،
أدلُّ الهباءَ على خطواتي وأواسي الصلصالَ،
ماجناً كَكَدْحِ الوردِ، يسرقُ بشرودهِ المساءاتِ؛
ماجناً،
يرمي الشمالَ كما يُرْمى نَرْدٌ،
ليستردَّ الجهاتِ في خساراتهِ.

الفهرست

سليم بركات

الديوان

* كلُّ داخلٍ سيهتف لأجلي، وكل خارجٍ أيضاً
* هكذا أُبعثر موسيسانا
* للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك
* الجمهـرات (في شؤون الـدَّم المهـرِّج، والأعمـدة، وهبوب الصَّلصال)
* الكراكي
* بالشِّباك ذاتها، بالثعالب التي تقودُ الريح
* البازّيَار

دار التنوير للطباعة والنشر. ص.ب. ٦٤٩٩ - ١١٣ بيروت - لبنان.